
النور الخالد
محمد ﷺ
مفخرة الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

Nil Basim Yayin A.S. Kisikli Cad. Kusbakisi SK.No:4
Altunizade 81190 Uskudar/Istanbul TURKEY Tel.:+90 216 391 7031



وطى المصيطبة – شارع حبيب أبي شهلا – بناية المسكن
تلفاكس: ٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣ ص.ب. ١١٧٤٦٠ ـ برقياً : بيوشران

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT / LEBANON - TELEFAX: 815112 - 319039 - 603243.- P. O. BOX: 117460
E. mail: Resalah@Cyberia. net. lb

النُّورُ الخالِدُ

مُحَمَّدٌ ﷺ

مَفْخرة الإنسانيّة

تأليف

محمّد فتح الله كولن

الجزء الثاني

دار النيل

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

﴾ فهرس ﴿

القسم الرابع:

الجانب العسكري للرسول ﷺ

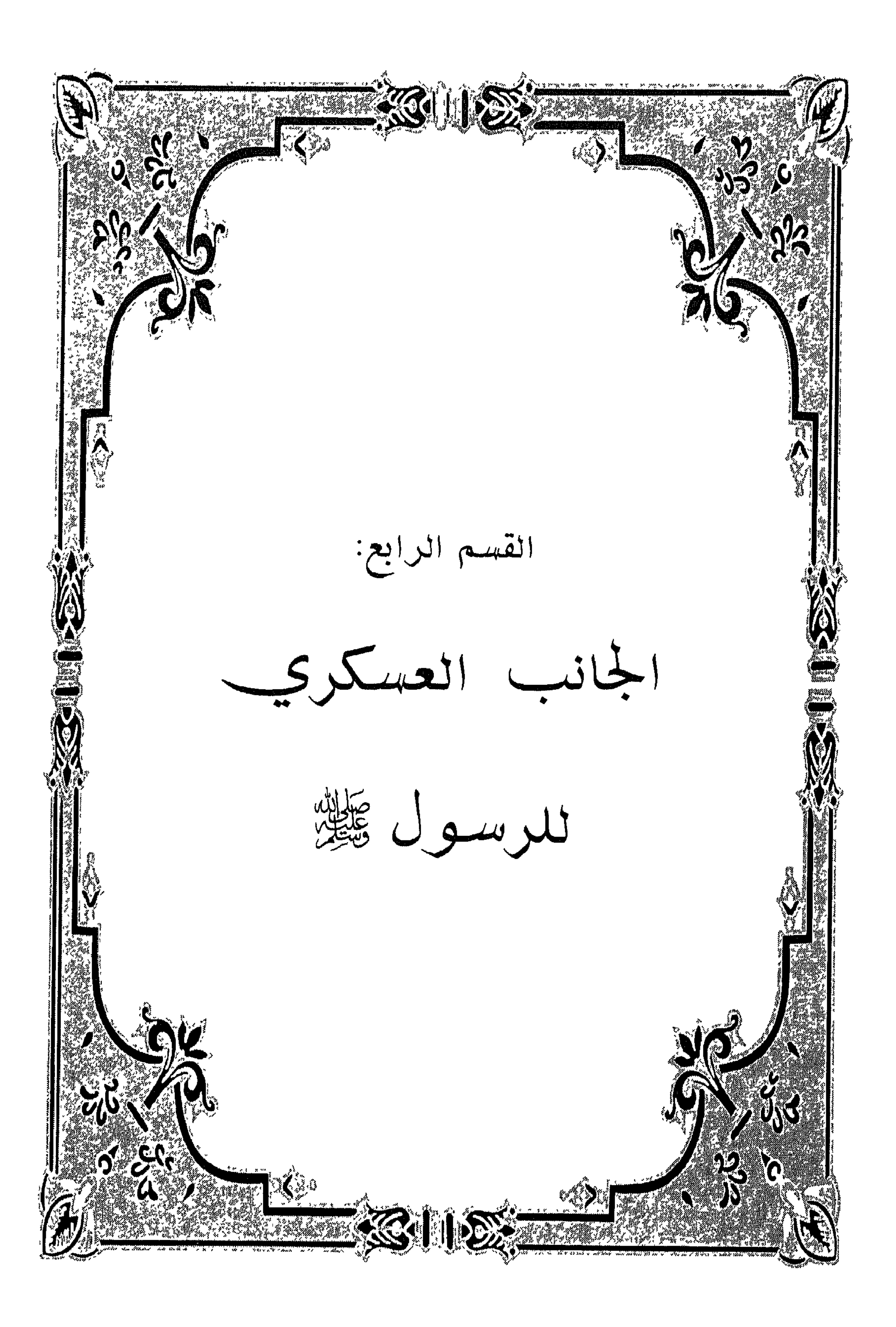
القسم الخامس:

عصمة الأنبياء (عليهم السلام) وعصمة نبينا ﷺ

ملحق:

السنة ومكانتها في الشريعة الإسلامية

فهرس الفهارس



القسم الرابع:

الجانب العسكري للرسول ﷺ

الفصل الأول: ﷺ النبي العسكري ﷺ

أ- أهداف الجهاد

لقد سد الله أمامه أبواب الجهاد المادي لبعض الوقت، وذلك تمشياً مع طبيعة الأشياء، ولأن لكل شيء وقته المرهون به، ودام هذا لسنوات طويلة. وبعد لأي أذن الله تعالى بالنضال المشروع، وسمح لهم باستعمال القوة والدخول في الحروب قائلاً لهم: لقد آن لكم أن تدافعوا عن أنفسكم وعن حقوقكم. وقبل الدخول إلى هذا الموضوع العريض والعميق أود أن أقوم بشرح بعض الأمور التي تكون أساساً لإثارة بعض الأسئلة أو الشبهات في بعض الأذهان.

وقبل الدخول إلى موضوع فطنة الرسول ﷺ في إدارة الجيوش وتعبئتها وسوقها وإدارتها، فمن المفيد التوقف قليلاً حول العهد الذي شُرع فيه الجهاد. فمن المهم جداً معرفة المعنى العام للجهاد من جهة، ثم معرفة تاريخ بدء الجهاد المادي أي الأمر بالقتال من جهة أخرى. ذلك لأن أعداء الدين يقومون بتشويه معنى الجهاد، كما أن بعض الأصدقاء الجاحدين يقومون بخلط التواريخ، وبالتالي ببلبلة الأذهان، لذا فلا أرى بداً من القيام بتوضيح بعض الأمور لكلا الجانبين.

لم ينحرف الرسول ﷺ طوال حياته قيد شعرة عن مبادئ الإسلام، فحياته كلها كانت عبارة عن قيامه بتطبيق الإسلام في الحياة وصبه في الواقع العملي. وهذا ينطبق على موضوع الحرب والجهاد مثلما ينطبق على سائر المواضيع والمجالات الأخرى.

١- الدفاع

لقد أباح الإسلام للأفراد وللأمم حق الدفاع عن النفس ضد من يهدد كيانها ووجودها ضد القوى المعادية لها، بل حث على ذلك في بعض الأحيان. فإن أراد أحدهم

التعرض لك ولمالك ولحياتك ولدينك ولعرضك تصديت له وجهاً لوجه، ودخلت معه في صراع مرير. لنفرض مثلاً أن أي دولة من الدول تجاوزت الحدود الفاصلة بينك وبينها ودخلت أراضيك، فماذا تعمل؟ وإذا قامت بتحريض بعضهم في بلدك وأطلقتهم عليك فماذا سيخطر على بالك؟ وإذا تعرض أبناء دينك في مكان ما إلى ظلم وإلى غدر فكيف ستتصرف؟ لاشك أنك لن تكتفي بالقول "لا شيء، لن أعمل شيئاً."

وانطلاقاً من هذه النقطة فقد وضع رسول الله ﷺ كيفية استعمال القوة داخل إطار من الانضباط قبل أربعة عشر قرناً. فأشار إلى ضرورة استعمال القوة إن اقتضى الأمر بجانب الحكمة، واستعمال التهديد بجانب الإرشاد إن أراد المسلم أن يحيا حياة كريمة وحياة عزيزة أجل، على المسلم أن يكون قوياً، وأن يستعمل القوة في سبيل الحق، وأن يُسمع صوته للعالم، وأن يقطع الأصوات المنكرة، فيكون بذلك ممثلاً للتوازن الدولي.

٢- ردع الظلم

هناك الكثيرون ممن لحقهم الظلم والحيف والغدر في هذا العالم. ونحن نظن بأننا عندما نأخذ هؤلاء في حمايتنا، أو عندما نسجل بعض النجاح على المستوى السياسي لصالحهم نكون قد حللنا الموضوع. صحيح أنه قد يُعد هذا أمراً معقولاً بنسبة معينة.. أجل، إننا نفتح صدورنا لإخوتنا في القومية وفي الدين ونحاول أن نحل بتضحياتنا بعض مشاكلهم، ولكن لا أدري أي جزء من هذه المشكلة ننجح في حله. فبالقرب منا هناك ما يقارب ١,٥-٢ مليوناً من الذين تعرضوا للظلم والقهر والذين مُنِعُوا من أداء شعائرهم الإسلامية ومن استعمال أسمائهم الإسلامية.. فإن استطعنا أن نفتح صدورنا لنصف مليون منهم فإن مليوناً أو أكثر سيبقون هناك تحت وطأة الظلم.[1] فإذا كنا عاجزين عن حل مشكلة صغيرة أمام دولة صغيرة فكيف نستطيع التصرف إذن، أمام المشاكل العديدة للدنيا والمتعلقة بنا عن قريب؟

---

(١) إشارة إلى الأحداث المؤسفة التي وقعت في بلغاريا عام ١٩٨٩ ضد المسلمين.

إذن، يجب أن تكون هناك دولة إسلامية بحيث يحسب الكل حسابها، وعندما تقطب حاجبيها أو عندما تغضب قليلاً يرجع الآخرون إلى صوابهم ويعرفون حدودهم. وهذه القوة التي ترهب الآخرين يجب أن تكون متوفرة وموجودة على الدوام لكي يتسنى الإسراع لنجدة المظلومين والملهوفين ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا يكون بإظهار هذه القوة الكبيرة أحياناً كلما استوجب الأمر. وقد تم هذا في الماضي بهذه الصورة، فعندما كنا نقوم بمهمة تمثيل هذه الوظيفة في التوازن الدولي، كان يكفي أن نعلن "أن الأسطول العثماني السلطانية تتوجه الآن نحو المحيط الهندي." كان هذا الإعلان كافياً لكي تذعر إنكلترة التي كانت تبيت النية لاحتلال الهند وأن تنكص على عقبيها. أجل، لقد كان ثقلنا كبيراً في التوازن الدولي في تلك العهود. وبفضل هذا الثقل الكبير، وبفضل دور الحكم الذي كنا نلعبه كان المظلومون والذين أصابهم الحيف أو الغدر يهرعون إلينا لإحقاق الحق وإبطال الباطل في عالم واسع يمتد من فرنسا إلى الهند.

أجل، لقد شرعت الحرب في الإسلام من أجل نجدة المظلومين والمستضعفين والمساكين، فإن لم يسرع المؤمنون للنجدة فمن غيرهم يسرع إذن؟ لقد أناط بنا الله ﷻ مهمة إحقاق الحق في العالم. لذا، علينا أن نفهم أن احتلال مثل هذا الموقع هو هدف وجودنا، وأن نفهم هذا ونحاول الوصول إليه وتحقيقه، وإلا فإن الظلم سوف يستمر.

٣- ﴿ حرية الدعوة ﴾

إن حيل بيننا وبين حريتنا في نشر الحق والحقيقة والفضيلة والاستقامة، فإن الإسلام يبيح لنا الحرب من أجل الحفاظ على تلك الحرية وتأمينها. يرجى الانتباه هنا رجاء.. نحن لا نقول بأن الحرب تكون من أجل نشر الحق والحقيقة، بل نقول إن تمت الحيلولة دون حرية نشر الحق والحقيقة عند ذلك يتم إعلان الحرب. فإن كانت لك جيوش لنشر رسالة الإسلام في أرجاء الدنيا كلها، فإن رجال الإرشاد عندك سيقومون بإيصال رسالة الإسلام إلى كل فرد. فإن قام الآخرون بالحيلولة دون هذا، عند ذلك يجب عليك رفع هذه

الحوائل والعوائق، ذلك لأنهم يحولون دون سلوك الآخرين طريق الجنة بإرادتهم الحرة. لذا، تقع عليك وظيفة المحافظة على حرية التفكر وإزالة الموانع وكل أشكال المقاومة ضد هذه الحرية. وبنسبة نجاحك في تأمين هذه الحرية تكون نسبة نجاحك في نشر دينك.

٤- أسس إنسانية

فإذا ما قمت بهذه الحرب للحفاظ على الحرية عليك ألاّ تجرح الكرامة الإنسانية والشرف الإنساني وألاّ تتعرض للأطفال وللنساء ولا للمعابد ولا للرهبان أو للذين نذروا أنفسهم للعبادة والطاعة، وألاّ تتعرض لغير المحاربين. ومعلوم لدى الجميع كيف أن الوضع الحالي في هذا المجال لم يصل بعد إلى هذا المستوى، بل هو تحته بكثير. ولا أدري هل يكفي قولنا "تحته بكثير" في وصف من أسقطوا القنابل النووية على رؤوس المدن الآهلة بالسكان؟ لا أظن هذا.. أجل، فبالأمس القريب فجروا القنابل النووية فوق مدينة "هيروشيما (Hiroshima)" و"ناغازاكي (Nagasaki)" فقتلوا في كل منها أكثر من ثمانين ألفاً من السكان المدنيين وخلّفوا عشرات الآلاف من المصابين والمعوقين والمشوهين. هذا هو ما عمله مدعو المدنية الحالية.

ثم انظروا إلينا.. كان رسول الله ﷺ وكل خليفة يوصي القائد الذي يرسله للقتال بأن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة وألاّ يتعرضوا للرهبان الذين نذروا أنفسهم للعبادة، وألاّ يهدموا معبداً ولا يقطعوا شجرة وألا يبذروا الثروات.[١]

ولا أدري أمن الممكن للذين فجروا القنابل بكل وحشية على رؤوس المدنيين الآمنين أن يراعوا هذه الوصايا وأن يطبقوها؟ إن الحسرة تملأ قلب الإنسان وهو يشاهد الفراغ الكبير الحاصل في التوازن الدولي نتيجة لعدم وجود الناس المؤمنين ضمن هذا التوازن، ولو كنا نحن إحدى القوى الكبرى لما كان هناك كل هذه المظالم وكل هذه الآلام. التي

(١) أبو داود، الجهاد، ٨٢؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٣٠٠

تبرر الخروج للجهاد في سبيل الله، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ.

ولأنني قمت بتحليل هذا الموضوع العميق والواسع في كتاب سابق، فإنني أكتفي هنا بهذا القدر وأحيل القراء إلى ذلك الكتاب.(١)

لم يقم الرسول ﷺ طوال العهد المكي بأي مقاومة مادية وبأي نضال مادي، إذ كان ينصح من حواليه على الدوام بالتزام الهدوء والسكينة وبالصبر والثبات. وأكتفي فقط باستعمال الدساتير الماسية للقرآن الكريم، وصرف جهوده طوال ثلاثة عشر عاماً في مخاطبة القلوب وأسر النفوس. أجل، فطوال ثلاث عشرة سنة حصر جهوده كلها في التبليغ بمنطقه وبكلامه وبخطابه الساحر المبارك الذي يقلب الفحم ماساً والتراب ذهباً. فلم يقابل الأذى بالأذى ولا السباب بالسباب، بل خاض أودية الآلام والأذى بصبر لا ينفد. كان المؤمنون يعذبون أمام عينيه ويقتلون، فكان يعتصم بالصبر ويتحمل هذه الآلام إضافة إلى تحمل آلامه الخاصة. فمثلاً عندما كان يمر بآل ياسر والمشركون يصبون عليهم ألوان العذاب كان يقول لهم مواسياً: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.»(٢)

كان هذا مبلغ صبره وتحمله، ومع ذلك فلم يكن لغيظ الكفار وحقدهم نهاية وحداً. فما كان أمام رسول الله ﷺ سوى التخطيط لإبعاد المسلمين عن مكة وإصدار الأمر إليهم بالهجرة ومفارقة بيوتهم التي ترعرعوا وعاشوا فيها ردحاً من الزمن بكل أمن، ومفارقة أحبائهم من الأولاد والأهل والأقرباء.

وهكذا بدأ المسلمون الأوائل بالهجرة.. وكان عمر رضي الله عنه ضمن هؤلاء، ولكن هجرته كانت هجرة أليمة، إذ لم يكن معه لا أولاده ولا زوجته.. كان يهاجر وحيداً،(٣) إذ كان هذا هو الخيار الوحيد لديه. وعندما هاجر أبو بكر رضي الله عنه لم يصحب معه ابنته عائشة رضي الله عنها

---

(١) هو «الجهاد أو إعلاء كلمة الله» ولم يُترجم بعد.

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٤٢/١؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٩٣/٩

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ١١٨/٢؛ «السنن الكبرى» للبيهقي ١٣/٩؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٦١/٦

هذا هو الخيار الوحيد لديه. وعندما هاجر أبو بكر رضي الله عنه لم يصحب معه ابنته عائشة رضي الله عنها -الذي كان يخاطبها بعد زواجها من رسول الله ﷺ بـ"يا أمنا" مع أنها كانت صبية يافعة آنذاك- إذن، أين كانت؟ لا ندري، ذلك لأن الهجرة كانت تتحقق بهذه الصورة، ولم يكن هناك خيار آخر.

أجل، كان الجميع يتركون أوطانهم وبيوتهم ويضطرون للهجرة. وفي أحد الأيام مر عُتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام على دار بني جحش وهم مصعدون إلي أعلى مكة، فنظر إليها عُتبة بن ربيعة تخفِق أبوابها يَبابا، ليس فيها ساكن. فلما رآها كذالك تنفّس الصُعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستُدركها النَكْباء والحوب[1]

ثم قال عُتبة بن ربيعة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها! فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قُلّ بن قُلّ[2]. [3]

كلا، لم يكن الرسول ﷺ مسؤولاً عن هذا، بل كان وزر هذا يقع على كاهل الظالمين والغدارين الذين أخرجوا هؤلاء من مساكنهم ومن بيوتهم التي ولدوا وترعرعوا فيها وسرى ظلمهم حتى إلى حيواناتهم. إذن، فحتى الكافر كان يذرف الدموع على ظلمهم أنفسهم.

اضطر المسلمون إلى قطع طريق يبلغ طوله خمسمائة كم تقريباً دون زاد ولا معين وفي وسط الجو اللاهب للصحراء.. كان قطع هذه المسافة آنذاك يستغرق شهراً كاملاً. وكان عليهم أن يقطعوا هذه المسافة، وليس عليهم في سفرهم وقيامهم ومنامهم سوى ملابسهم التي على أجسادهم. ليس هذا فحسب، إذ ما كان أحد منهم يعرف ماذا يأكل أو يشرب طوال هذا السفر المضني. اضطر هؤلاء المهاجرون -الذين عاشوا في المدينة المنورة فيما

(١) **الحوب**: الترجع

(٢) **القُلّ**: الواحد

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/١١٤-١١٥

المجتمع الطاهر من الأنصار فتح صدره مرحباً بهم دون أن تبدر منه كلمة شكوى واحدة.. لماذا؟ لأن النبي ﷺ كان يقول لهم اصبروا وصابروا فالجنة موعدكم. كان الرسول ﷺ يتصرف حسب أوامر الله ﷻ ولم يكن لهواه أو لمشاعره أي دخل في هذا.

ومع كل هذه الآلام التي تجرعها المسلمون حيث هجروا أوطانهم ومساكنهم وأولادهم وعُذّب قسم منهم حتى فارق الحياة لم تكن كل هذه الآلام كافية في نظر المشركين الظالمين، أو كافية لتهدئة حقدهم، إذ اتخذوا قراراً في أحد الأيام أن يضعوا أيديهم على أموال المسلمين وأملاكهم وأراضيهم ويقسموها فيما بينهم إلى درجة أن أسامة بن زيد سأل رسول الله ﷺ عندما دخل مكة منتصراً بعد ثماني سنوات: يا رسول الله، أين تنزل غداً؟ فأجابه الرسول ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟.»[(١)]

أي أنهم لم يتركوا لرسول الله ﷺ بيتاً يستطيع أن يسكن فيه ويجد فيه راحته. كان عقيل أكبر أولاد أبي طالب، وعادى الرسول ﷺ حتى يوم إسلامه الذي تأخر، ووضع يده على أملاك الرسول ﷺ وكأنه وارثه، فقد كان شعور الوفاء عنده ضعيفاً. كما تم تقسيم أملاك الجميع بعد الهجرة.

وقد انتهز المنافق ابن أبيّ ما جرى في مكة من هذا الأمر فجاء إلى المدينة وأخذ يصيح في سوقها: يا معشر المسلمين! أنتم جالسون هنا وأموالكم في مكة نهب، يتقاسمون أموالكم في الأسواق، سيأتي يوم لا تملكون لا هنا ولا هناك شيئاً.

كان هذا ظلماً من نوع آخر.[(٢)] وكأن كل هذا لم يكن كافياً، لذا نرى أن قافلة للمشركين تحمل أموال المسلمين تتوجه إلى الشام وتمر بالقرب من المدينة عن قصد وكأنها تقول للمسلمين "انظروا وموتوا من الغيظ." ولم يكتفوا بهذا بل ساقوا أمامهم إبل

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ١٨٠؛ **مسلم**، الحج، ٤٣٩؛ **أبو داود**، الفرائض، ١٠؛ **«فتح الباري»** لابن حجر ٥٢٨/٣

(٢) سنتناول هذا الجانب فيما بعد عند تناول الحكم في سيرة الرسول ﷺ.

وأغنام المسلمين. هكذا كانت طبيعة النهب عند الكفار. والحقيقة أن ما جرى ويجري في عالمنا اليوم لا يقل عن هذا، لذا نرى الشاعر محمد عاكف[1] يقول:

يقولون إن التاريخ يكرر نفسه   أكان التاريخ يكرر نفسه لو اعتبرنا به؟

فها هم المؤمنون يتعرضون الآن لمختلف أنواع الظلم والقهر، والذين يساندونهم يتعرضون أيضا لمختلف أنواع المضايقات والمحن بل يحرمون من أوطانهم ومساكنهم بل حتى من حقهم في الحياة.

والآن اسمحوا لي بأن أسأل مرة أخرى: لو كنتم في مكانهم فماذا كنتم صانعون؟ ولا تنسوا أن آلافاً من الصحابة كانوا مشبعين بالإحساس نفسه ونفوسهم مجروحة، ففي كل يوم كانوا يتلقون طعنة مسددة إليهم. ولو أن السماء أطالت المهلة ولم تسمح لهم برد العدوان لأحسوا بالانكسار في قلوبهم، ولكن الرحمة الإلهية هلّت وتكلمت وأسرعت إلى نجدتهم: ﴿أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير ۞ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

أجل، لقد تعرضوا لمختلف أصناف الظلم، بل حرموا حتى من حق الحياة، والآن أعطي لهؤلاء الذين لوحقوا وعُذّبوا وقُتلوا.. أعطي لهم حق الدفاع عن أنفسهم وحق محاسبة الأعداء. وكان مناط الحكم أنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، أي أنهم تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاتهم وأطفالهم حيث وقعوا في الأسر وفي الظلم، فقد كان هناك من قضى ٧-٨ سنوات وهم مقيدون بالسلاسل. إذن، فقد صدر أخيراً الإذن بالقتال لحفظ حقوق هؤلاء المظلومين والمغدورين الذين أصابهم ظلم كبير وحيف شديد، وفي الوقت نفسه فقد كان الرسول ﷺ يؤمر بالجهاد.

لم يكن الإسلام دين سيف ودماء كما ادعى بعض المنافقين والجاهلين. صحيح أن الرسول ﷺ استعمل السيف، فقد أخبر الأنبياء بصفته هذه من قبل، فالسيد المسيح عليه السلام

(١) **محمد عاكف أرسوي** (١٨٧٣-١٩٣٦) شاعر تركي، صاحب النشيد الوطني التركي.

عندما يتكلم عنه يقول: "صاحب التاج والمعراج واللواء والقضيب"،[١] فعندما يستلزم الأمر سيقاتل من يستحق القتال. ويقول أيضا: "معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمته كذلك."[٢]

ذلك لأن راياتهم ستخفق في أرجاء المعمورة كلها وسينضوي تحتها الكثيرون وسيناضلون من أجل الحق وفي سبيله. أجل، إن هذا الروح المبارك الذي تسرب حتى إلى رايتكم وعَلَمكم، وهذا المعنى المقدس تبلور في أيديهم في ذلك العهد، فكان مشعلة أضاءت أرجاء الأرض.

تحت هذه الظروف أمر رسول الله ﷺ بالجهاد والنضال ضد أعدائه. كأنه كان يقول لمعاصريه المعاندين: "ليس بوسعكم منع حرية الفكر، ولن تستطيعوا سد الطرق المؤدية إلى الإنسانية." ونحن لا نزال نصفق للثورة الفرنسية، ونعدها باباً مفتوحاً للحرية مع أنها حفلت بآلاف من مشاهد القتل والوحشية وذبحت آلاف الأشخاص بسكين المقصلة، وبدا وكأن الثورة تأكل نفسها إلى درجة أن "روبسبيار" (Robespierre) عندما أرسل "دانتون" (Danton) إلى المقصلة سأله: "ما آخر أمنيتك؟" فأجابه "دانتون": "ليست لدي أمنية، لأن رأسك ورأسي سيكونان معاً في سلة المقصلة."

هذا هو الوجه الحقيقي للثورة التي قيلت إنها فتحت أبواب الحرية، وهذه هي وحشيتها وبربريتها.. لم يتخلص أحد من وحشيتها.. قتلت الملك أولاً ثم أنصاره ثم الآخرين.

بينما قام الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرناً بتمزيق حجب الظلام وبإزالة الاستبداد والظلم وبتقديم الحرية وإهدائها إلى الإنسانية. عليكم أن تعاونوا المظلوم والمغدور، لايمكن أن تستريحوا أو يهدأ بالكم وأنتم تسمعون أنين المظلومين. فإن كان لا بد من استعمال القوة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والباطل فعليك باستعمالها. ولكننا لا نستطيع

---

(١) «الشفاء» للقاضي عياض ١/٢٣٤

(٢) «الشفاء» للقاضي عياض ١/٢٣٥

ذلك في هذه الأيام. ولكن الرسول ﷺ عندما جاء أوان استعمال القوة والظروف المناسبة له استعمل القوة بعد حساب دقيق ومنطقي. ولكي تتصوروا هذا نقول إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيفا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان. كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم. كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه "الشيوعية".

لِيلعن الله مثل هذه النظم، ولتنخسف إلى أسفل السافلين! وهي قد خسفت فعلاً إلى أسفل سافلين لأنها مغايرة لفطرة الإنسان. وكل نظام غير طبيعي لا يراعي الفطرة ولا يستند إلى الحق ولا يعطي الحرية للأفكار وللمبادئ التي تمثل الحق فإن مصيره إلى الزوال.

أجل، لقد قام الرسول ﷺ بمناوشة أعدائه طوال عشرة أعوام لكي يضع أسس حقائق عديدة.. حقائق ملء الأرض. وفي جميع حروبه هذه لا يعطي سوى مائة ونيفا من الشهداء فقط من الجانب الإسلامي. هذا من الجانب الإسلامي، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فلا أعلمه. بينما كان عدد الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً حسبما ذكرنا سابقاً. ولا يشمل هذا الرقم الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين ماتوا فيما بعد. لذا، فإن العهد النبوي يُعد عهد احترام إنسانية الإنسان واحترام أفكاره ومشاعره. ولم تصل دعوة "الإنسانية (Humanizm)" إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبداً. ذلك لأن الرسول محمداً ﷺ هو صاحب ذلك العهد. والمؤمن -حسب تعليماته- يقاتل ويحارب، ولكنه لا يسد أبداً أبواب الصلح، ولا يزيف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أي إنسان دون سبب ودون حق، ولا يحتل البلدان الأخرى ولا يمتص خيرات الأمم الأخرى.

٥- ﴿ السلم هو الأساس في الإسلام ﴾

لم يعرف الغرب -لا في الماضي ولا في الحاضر- القيم الإلهية، لذا قام باحتلال البلدان ووضع يده على ثروات تلك البلدان ما ظهر منها وما بطن، واستعبد أهاليها وسكانها وشكل المستعمرات. حارب في هذا السبيل، وأراق الدماء في سبيل هذه الغاية. لقد كان هذا هو الهدف الحقيقي لحروب البلقان وللحرب العالمية الأولى والثانية ولحرب واحتلال بلدان الخليج والصومال. أما الحرب في الإسلام فتكون من أجل غاية سامية ومن أجل حرية الفكر والاعتقاد ومن أجل فتح الطرق المؤدية إلى القيم الإنسانية. ومع ذلك فيجب ألاّ يهمل الإتجاه نحو السلم كلما استوجب الأمر، ذلك لأن السلم هو الأساس وهو الأصل، أما الحرب فأمر استثنائي. ﴿وإن جَنَحُوا للسَّلْم فاجنحْ لها وتوكَّلْ على الله إنه هو السميع العليم﴾ (الأنفال: ٦١) و﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة: ٢٠٨).

هذه الآيات وأمثالها تدعو المسلمين إلى السلم وإلى الصلح، فإن كانوا في الحرب فهي تدعوهم إلى الاعتدال وإلى الاستقامة. أما النظم الأخرى فالحرب عندها ميدان وحشية، بل إن فترات الصلح عندها لا تختلف كثيراً عن فترة الحرب. ومهما اختلفت أسماء هذه النظم فهي ليست سوى نظم لتضليل البشرية، ونظم شيطانية همها إشعال الفتن والاضطرابات. فالشيطان يزين هذه النظم ويجعلها في صور براقة لخداع أنصارها، ذلك لأنه عدو مبين للإنسان، لذا فسيحاول إبعادك عن ذاتك وعن نظرتك لتاريخك ولفلسفة هذا التاريخ ومعناه.

أجل، يجب أن يكون السلم والصلح نصب عين المؤمن حتى وهو يقاتل. وقد يقاتل المؤمن المؤمن، وهنا أيضا لابد من الصلح: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ (الحجرات: ٩).

فإن اشتبكت طائفتان من المؤمنين وتعرض الوطن وتعرضت الأمة إلى خطر الانشقاق والتمزق، وبدأ الاضطراب الداخلي ينتشر في البلد.. في هذه الحالة يجب محاسبة المقاتلين حتى وإن كانوا مؤمنين، وبذل كل الجهود لتأمين وحدة الإسلام والمسلمين ووحدة الوطن والأمة. هذا هو ما يريده القرآن، ولكن أين نحن من هذا؟ إن ماضينا القريب ليس مما يشرح الصدور.. يُقال "إن اليأس يمنع كل كمال" والذي يقع في اليأس لا يستطيع أن ينتصب واقفاً على قدميه، وهو مستنقع يغرق من يقع فيه. ولكن من الصعب أن يكون الإنسان متفائلاً مع وجود كل أسباب الفرقة هذه. أجل، إن المؤمنين هم شهداء الله في الأرض، وعنصر توازن بين الأمم، وضمان للتناسق العام، لذا فلهم حق التدخل في كل شيء ولدى الجميع في سبيل تأمين الحق والعدالة. فإن اضطربت الأمور في بلدنا أو في بلد آخر إلى درجة استدعت التدخل وكنا نملك القدرة على التدخل، فإن من واجبنا التدخل لتأمين الهدوء والاستقرار. فإن تقرر التدخل وتقررت الحرب تم التوكل على الله والسير في الطريق الذي نعرف أنه الطريق الحق، إذ ألا يقول الله تبارك وتعالى حول النهاية الحزينة لمعركة أُحد ﴿فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾ (آل عمران: ١٥٩).

أجل، إن كانت الملابسات والظروف تشدك نحو الجهاد المادي، أي إن حيل بينك وبين حريتك في نشر دينك، أو إن لم يكن هناك من يوقف الظلم الواقع على المظلومين وعلى المغدورين، ولم يكن هناك من يُنهي أنينهم وشكاواهم، أو لو كان هناك من يستعمل القوة لمنعك من نشر الحق، أو لو اعتدوا على حرمة وطنك وهددوا حياتك.. عند ذلك آن لك أن تبرز لميدان القتال وأن تشمر عن ساعديك للقتال وللجهاد.

ب- التهيؤ الجيد

عندما تستوجب الظروف الخروج إلى ساحة القتال، يكون من الواجب التهيؤ لذلك الأمر على أفضل وجه. وأول ما يجب الاهتمام به هو القوة المعنوية. والمتخصصون في العلم العسكري يعلمون جيداً الدور المهم للقوة المعنوية في الحروب، لذا يبدون اهتماماً

فائقاً بها. ولا شك أن الإيمان هو منبع ومستند القوة المعنوية، ولا يمكن أن تتوقع الشيء الكثير في ميدان القتال من امرئ لا يملك نصيباً من الإيمان في قلبه.

١- القوة المعنوية

إليكم بعض الآيات التي تقوي الروح المعنوية للمؤمن وتهيئه للقتال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ في سبيل الله الذين يَشْرُونَ الحياةَ الدنيا بالآخرة ومَنْ يُقاتِلْ في سبيل الله فيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نُؤْتِيهِ أجراً عظيماً﴾ (النساء: ٧٤)، ﴿يا أيها النبي حَرِّضِ المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وإن يكن منكم مائةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (الأنفال: ٦٥)، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بإذن الله﴾ (البقرة: ٢٤٩)، ﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنتم الأَعْلَوْنَ إنْ كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران: ١٣٩)، ﴿والعاقبة للمتقين﴾ (الأعراف: ١٢٨).

والمبدأ الذي يترشح من هذه الآيات هو أن "الحق يعلو ولا يعلى عليه." هذا هو الشعور الذي يملأ قلب المؤمن وهو مقبل على القتال، إذ يكون قد تحصن بقلعة من الإيمان لا يمكن تخطي أسوارها. هكذا كان الرسول ﷺ ينفث مثل هذا الإيمان ومثل هذا الشعور بالاطمئنان في قلوب جنوده وأبطاله وهو يعدهم ويهيئهم للقتال.

كان هؤلاء هم الأبطال الذين يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة، ويفتشون عنه لأنهم يعلمون أنه المفتاح السحري الذي يفتح لهم أبواب الجنة، ويتساءلون "تُرى أين سأتوضأ بدماء الشهادة وألقى ربي؟" يتساءلون هكذا ويفتشون عن الشهادة في ميادين القتال.. كان قلب كل بطل من هؤلاء الأبطال يفور بهذا الشعور.. إذن، فهل من الممكن أن يقف أحد أمام أمثال هؤلاء الذين يستحقرون الموت؟ لقد كان الأعداء يرون هذا فلا يملكون سوى الفرار من أمامهم.

٢- ﴿ تكوين قوة رادعة ﴾

والناحية المهمة الثانية هي عزم الرسول ﷺ على جعل أمته قوة يُرهَب جانبها في التوازن بين الدول، وقوة يحسب حسابها، ذلك لأنك إن لم تصل إلى مثل هذه القوة لم يبال بك الآخرون، بل ربما تدخلوا في شؤونك وسخروا منك، واتخذوا القرارات دون أن يحسبوا حساباً لك، بل ربما اتخذوا قرارات رغماً عنك وخارج إرادتك وأجبروك على تطبيق هذه القرارات. ويرجع سبب هذا إلى عدم تملكك قوة وثقلاً كافياً في التوازن الدولي أمام القوى الكبرى، بينما يقول الله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ (النساء: ١٤١)

أي لا يوجد هناك سبيل لكي يكون الكافر أعلى من المؤمن. أي يجب ألا يحكم أي مجتمع نصراني أو يهودي أو وثني أو رأسمالي أو ملحد أو الشيوعي مجتمع المسلمين. وفي الحقيقة لم يستطيعوا حكم المسلمين الحقيقيين، لأن الله تعالى لن يسمح بذلك. فكأنه يقول لقد سددت أمامهم هذا السبيل. والمؤمن لا يستطيع العيش تحت تحكم وتعنت الآخرين، وهو لا يستطيع العيش مستنداً إلى غير الله تعالى، إذ لا يليق به ذلك، ولا يرضى أن يكون في يد الظلم كالفأرة في يدي القط.

أجل، إن المؤمنين سواء في مستوى الفرد أو في مستوى المجتمع أو في مستوى الأمة هم أصحاب مزايا عالية، ويجب أن يبقوا في الأعالي. وقد رسم الرسول ﷺ لأمته هذا الهدف وكأنه يقول لهم ليس لعلوكم حد معين. فإن لم تكونوا أصحاب قوة في الأرض تم سحقكم، أو كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو داود وأحمد بن حنبل: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها.»[1] أي يتداعون عليكم وعلى النعم التي أنعمها الله تعالى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

---

(١) **أبو داود**، الملاحم، ٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٧٨

أو تستطيعون أن تقولوا بالتعبير الحالي إنهم يتداعون عليكم في كركوك وفي داغستان وفي سورية وفي ليبيا وفي مصر على البترول وعلى الثروات الأخرى من كل جانب.

لقد أصبحت نعمًا محط أنظار وطمع الأجانب، حتى لو أن دولة فتحت مدرسة في مكان ما، أثار هذا شهية الآخرين ودفعتهم إلى فتح مدارس لهم أيضاً. وهم يقولون "علينا أن نفتح مدارسنا هناك باسم مصلحتنا، فمن يدري ماذا سيحصل" إلى درجة أنه كانت هناك ثلاثة مدارس أجنبية مختلفة حتى في أصغر مدينة تقوم بالتدريس باللغات الأجنبية، وكانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدرسة أجنبية في تركيا هي بمثابة عيون ورصد للجهات الأجنبية وبمثابة رواد للاستعمار الثقافي. وإلا فماذا كانوا يعملون في تركيا وماذا كانت غايتهم؟ ألم نكن قادرين على إدارة أنفسنا بأنفسنا؟ وماذا كان السبب الحقيقي لوجود هذه الفيروسات في دمنا وانتشارهم في عروقنا وإعلانهم النفير العام الثقافي ضدنا وتوغلهم في مفاصل إدارتنا؟ لم يكن ذلك حبا في سواد عيوننا.. كلا، بل لكي يقرضوا بأنيابهم عالمنا الروحي ويبردوها بماردهم الحادة، وفي كثير من الأحيان نجحوا في هذا. فقد اتفقوا ضدنا في أثناء حرب البلقان ورمونا عن قوس واحد. وفتحوا أبواب البلاء علينا في الحرب العالمية الأولى، وحاولوا أن يقحمونا في أتون الحرب العالمية الثانية، ولكن الله سلم هذه الأمة وأوصلها إلى هذا العهد. لماذا كانت كل هذه المصائب؟ ذلك لأننا كأمة فرطنا في وصايا الرسول ﷺ ولم نصل إلى المستوى الذي أرادنا أن نصل إليه، والله تعالى يقول: ﴿وأَعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ (الأنفال: ٦٠).

لقد فهم المسلمون الأوائل هذا الأمر جيداً. يقول مولانا الشِبْلِي وهو يحلل حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه بينما كانت الحروب قائمة مع الأعداء في جميع الجبهات كان هناك عدد كبير من الخيول غير المشتركة في الحرب إضافة إلى الأعداد الكبيرة المشتركة في الحرب من الخيول والجمال. فمثلاً كان هناك أربعون ألفاً من الخيول الجيدة في مزرعة خارج المدينة المنورة لم تشترك بعد في أي حرب.

كما كان هناك أربعون ألفاً من الخيول قرب سورية كاحتياط. هذه الخيول لم تكن

تشترك في الحرب، بل كانت تربى من أجل الطوارئ وكاحتياطي فقط.[١] إذن، فقد تهيأوا مثل هذا التهيؤ ضمن الإمكانيات التي أنعمها الله عليهم آنذاك، والحقيقة أن من الممكن فهم وجوب اتخاذ أمثال تلك الحيطة والتهيؤ من كلمة "الرباط" الواردة في الآية الكريمة. ذلك لأن الرباط في معناه الخاص هو وضع ونذر وتخصيص كل العناصر الضرورية من حيوان أو إنسان أو أدوات. والقرآن يشير إلينا بالوصول إلى هذا الهدف وكأنه يقول: احفظوا دينكم ولغتكم وشرفكم وعرضكم وكرامتكم ووطنكم وكل مقدساتكم من الأعداء الذين ينظرون إليها نظرة خيانة وطمع. وأعدوا لهم كل ما يلزمكم من القوة لتحقيق هذا، ولا تقصروا في هذا الأمر أبداً، ولا تعطوا أعداءكم أي فرصة أو مجال، لا تعطوا أعداءكم مثل هذا المجال لكي لا تكونوا لعبة بأيدي الآخرين.

٣- استعمال السيف حين الضرورة

كما يوصي القرآن الكريم باستعمال القوة لإسناد الحق والحكمة في التوازن العالمي، فإن محمداً ﷺ رسول جاء بشريعة الحرب، فقد جاءت صفته في الإنجيل بأنه "صاحب القضيب"،[٢] فهو يقوم بنشر الحق، إلا أنه يستعمل القوة ويستعمل السيف إن تم الوقوف في وجه نشر الحق والحقيقة، فهو رسول السيف أيضاً. ولأنه رسول السيف أيضا فقد علمه الله تعالى في القرآن تكتيك الحرب أيضاً، فالقرآن يخاطبه في إحدى الآيات: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ (الصف: ٤).

أي لتكن صفوفكم متراصة وملتحمة بعضها ببعض ومرتبطة بقوة. بحيث لا يستطيع العدو النفاذ من خلالها. وقد كان هذا التراص أفضل ترتيب للصفوف في القتال آنذاك، ذلك لأنها كانت تُرهب العدو وتلقي في قلوبهم الرعب، وقد استعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في حروبه وانتصر.

---

(١) «**عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة**» لشِبْلي النعماني ١٤٤/٢

(٢) «**الشفاء**» للقاضي عياض، ٢٣٤/١-٢٣٥

وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الأمر -أي القتال في سبيل الحق- اهتماماً كبيراً، بحيث أنه ما إن أبدى بعضهم بعض التثاقل وبعض الكسل في هذا الموضوع حتى جاء الزجر الشديد: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرَضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ۞ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ۞ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ (التوبة: ٣٨-٤٠).

أجل، فكما أنه نصر رسوله في وقت لم تقوموا أنتم بنصرته، وعاونه في وجه جميع القوى الشريرة، فكذلك سينصركم على قدر إخلاصكم وبقدر صدقكم.

وفي ضوء نور القرآن الكريم كان الرسول ﷺ يرشد على الدوام أمته إلى هذا الطريق. لذا، فما كان من المتوقع أن تُغلب مثل هذه الجماعة ولا أن تدوسها الأقدام. ولم تُغلب في الحقيقة ولم تُدس، إذن، يجب على المسلمين لكي يكونوا منظمي التوازن في العالم أن يكونوا متهيئين على الدوام وعلى أُهبة الاستعداد في كل آن، وأن يكونوا في جبهة القتال متى ما دعى الأمر إلى ذلك. وأي تصرف مضاد لهذا يعد ذنباً وإثماً يجب الاستغفار منه والتوبة عنه. وهاكم المثال من العهد النبوي: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ (التوبة: ١١٨).

ج- شعور الطاعة

الطاعة مهمة جداً، والأهم منها هو تنمية شعور الطاعة في مثل ذلك المجتمع البدوي. أجل، ففي ذلك المجتمع الجاهلي لم يكن أحد يصيخ سمعه لأحد ولا يعيره اهتماماً ولا

التفاتاً. ولكن الرسول ﷺ تدرج معهم وعلمهم الطاعة شيئاً فشيئاً إلى درجة أنه عندما جعل شاباً يافعاً بعمر ثماني عشرة سنة قائداً في حملة يوجد فيها أبو بكر وعمر وعلي ﷺ وغيرهم من كبار الصحابة لم يصدر أي اعتراض عدا اعتراض شخص أو شخصين.[١] إذ يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ۞ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال: ٤٥-٤٦)، ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩).

لقد استقر مفهوم الطاعة بين الصحابة إلى درجة أن أبا بكر ﷺ مع كونه خليفة للمسلمين طلب من القائد الشاب أسامة السماح لعمر بن الخطاب ﷺ ليكون بجانبه ليستشيره ويكون وزيراً له.[٢]

لماذا كان الخليفة يستأذن؟ ذلك لأن رسول الله ﷺ عين أسامة قائداً، لذا يجب إطاعته. وقد ركز الرسول ﷺ على موضوع الطاعة حتى وفاته، لأنه يعلم أن عدم الطاعة سيفتح الباب على الاضطرابات وعلى الفتن. ونجح في ذلك نجاحاً لم يكن من نصيب أحد قط إلى درجة أن عبد الله بن حُذافة السهمي -وكان على رأس حملة من المسلمين- عندما أمر أتباعه أن يرموا أنفسهم في نار أوقدها حاول بعضهم إلقاء نفسه فعلاً في النار. بينما كان هذا انتحاراً، لذا قال بعضهم: "إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟" وقال الرسول ﷺ: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً. إنما الطاعة في المعروف.»[٣]

أجل، كانت الطاعة عميقة إلى هذا المستوى. كانت ضربات السيوف تنهال على الرؤوس فلا يفكر أحد بالتراجع لأن الأمر بالتراجع لم يصدر بعد من القائد، ولو كان

---

(١) **البخاري**، الأحكام، ٣٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٦٣؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٣٣٦/٦

(٢) **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٣٣٦/٦؛ **«كنز العمال»** للهندي ٥٧٩/١٠

(٣) **البخاري**، الأحكام، ٤؛ **مسلم**، الإمارة، ٣٩؛ **ابن ماجة**، الجهاد، ٤٠

العكس وارداً وتصرف كل مقاتل حسب رأيه لما بقي أثر للوحدة وللتضامن، فيكون الرأس قدماً وتكون القدم رأساً. والقرآن الكريم يقول: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال: ٤٦).

د- النبي العسكري والخطط المختلفة

كان الرسول ﷺ كأي عسكري جيد يغير خططه على الدوام. والخطة التي يستعملها مرة لا يطبقها مرة أخرى في العادة. لذا، كان خصومه يتخبطون أمامه. وكان أسلوب "الكر والفر" الذي يستعمل في أيامنا بكثرة، ولكنه لم يكن معروفاً آنذاك، أي الهجوم ثم الانسحاب، ثم الهجوم من موضع لا يتوقعه العدو قد أوقع الاضطراب بين القرشيين.

هكذا استقبل الرسول ﷺ أعداءه في بدر، ولم يدر المشركون ماذا أصابهم، لذا فقد تضعضعوا من الوهلة الأولى رغم كل ما هيأوا للحرب من مقاتلين وخيول وجمال، بينما لم يكن المسلمون يملكون -حسب علمنا- غير فرسين أو ثلاثة، ولم يكن نصيب كل مسلم من أدوات القتال يزيد عن رمح وبضعة سهام.[١] ذلك لأنهم أتوا إلى بدر بنية أخرى وقصد آخر.[٢] ولكن الأعداء عندما جوبهوا بشيء لم يعتادوه حتى ذلك اليوم اضطربوا وذعروا.. وبدأت الأسباب الموجودة في القدر الإلهي تطاردهم وتكيل لهم الصفعات جزاء شركهم بالله.

وتكتيك آخر.. فهناك الصلاة الجماعية في جبهة القتال، وهي تنشر روح الاستخفاف بالأعداء، وروح الثقة والاطمئنان للمؤمنين، ولكن كان من الممكن أن يعدها الكفار فرصة. ولكن الوضع لم يكن على الإطلاق كما طمع الأعداء، ذلك لأن القرآن الكريم كان يعطي التعليمات التالية حول هذه الصلاة: ﴿وإذا كنتَ فيهم

---

(١) حول معركة بدر انظر إلى **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٢٦٤/٢؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٣١٨/٣-٣٣١

(٢) **البخاري**، المغازي، ٣؛ **مسلم**، التوبة، ٥٣

فأقمت لهم الصلاة فَلْتقم طائفة منهم معك ولْيأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم وَلْتأتِ طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة. ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مرضى أنْ تضعوا أسلحتكم وخذوا حِذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مُهيناً ﴾ (النساء: ١٠٢).

أي عندما تقف للصلاة فلتقم جماعة خلفك للصلاة معك. ولتقف جماعة أخرى على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وعندما تنتهي الجماعة الأولى من صلاة ركعة تتبادل الفئتان موضعيهما، فتقف الفئة الأولى للحراسة وتأتي الثانية وتصلي خلف الرسول ﷺ.

أما الأعداء الذين يراقبون المسلمين عن بُعد فهم يرون عجباً.. يرون المسلمين يصلون ومعهم سيوفهم ودروعهم ونبالهم، وعندما ينوون الهجوم إذا بهم يرون الفئة الأخرى ويرون المسلمين ينتقلون من صف الصلاة إلى صف الحراسة ومن صف الحراسة إلى صف الصلاة. إذن، فالرسول ﷺ كان –بأمر من ربه تعالى– يخطط للقتال وللدفاع حتى وهو في الصلاة.(1) .

١- ﴿ التصرف بتكتم ﴾

قال "هتلر (Hitler)" وهو يصف سلوكه العسكري: "لقد كنت أول من اكتشف التكتم في الأمور." غير أن الرسول ﷺ هو أول من وضع مبدأ "التكتم"، ومنه تعلمت الإنسانية هذا، إذ لم يكن في وسع أحد أن يعرف خططه سواء في الهجوم أو في الدفاع ولا أن يعرف استراتيجيته وأهدافه، إذ لم يكن يصرح بوجهته إلا بعد أن يقطع شوطاً في حملته.

وعندما توجه إلى مكة لم يعرف أحد لا من المسلمين ولا من المشركين هدفه بشكل واضح

(١) **البخاري**، صلاة الخوف، ١–٣؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ٣٠٥–٣١٢؛ **أبو داود**، السفر، ١٢

وجلي إلا بعد أن لم تبق بينه وبين مكة إلا مسافة قصيرة. وعندما أشعل في عشرة آلاف موضع عشرة آلاف شعلة دخل الرعب إلى قلوب قريش، ولكن الأمر كان متأخراً جداً بالنسبة إليهم، إذ كان المسلمون قريبين منهم إلى درجة لم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء.(1)

٢- شبكة الاستخبارات

ووضع شبكة الاستخبارات لم يسمع بها أحد من قبل، بحيث أن الأخبار كانت تصل إلى المركز في وقتها، حيث كانت تقيّم وتحلّل حالاً. ولم يسجل التاريخ أن أخبار رسول الله ﷺ كانت تصل إلى أعدائه. وقد ارتكب حاطب بن أبي بلتعة خطأً، فأرسل إلى أهل مكة رسولاً يخبرهم بمقدم رسول الله ﷺ إليهم، ولكن رسوله –وكانت امرأة– قبض عليها في الطريق. ولم يؤاخذ حاطب من قبل أحد، لاسيما وأن الموضوع تم حله. وقد اعترف حاطب رضي الله عنه بخطأه هذا. صحيح أن هذا الصحابي اشترك في معركة بدر، ولكن بدر منه مع هذا هذه الهفوة التي عفا عنها صاحب من لا هفوة له.(2)

أجل، شكل الرسول ﷺ لحسابه شبكة الاستخبارات، ولكن لم يعط فرصة لأحد أن يحصل على أي خبر من أخباره. هكذا كانت درجة التكتم عند الرسول ﷺ.(3) ومهما قيل عن التكتم فالرسول ﷺ هو الذي علمه ربه هذا الأمر، ثم تعلمت منه الإنسانية هذا المبدأ قبل أربعة عشر قرناً. وكان يستطيع أن يوصل الأخبار إلى موضع على مسافة تحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة من جمل يعدو بأقصى سرعته، ولكنه كان يوصل الأخبار إليه بوقت أقصر، ذلك لأنه بينما كان الرسول ﷺ في المدينة فإن جيوشه كانت على مشارف الشام. وكان قطع هذه المسافة الطويلة تحتاج إلى عشرة أيام من السفر المتواصل، ولكن رسل النبي ﷺ كانوا يقطعون هذه المسافة في ثمانية أيام فقط، وهذا يدل على مدى قوة

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٤٨؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٩/٤، ٤٢

(٢) **البخاري**، الجهاد والسير، ١٤١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٦١؛ **أبو داود**، الجهاد، ٩٨

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٩/٤-٤٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٢/٤-٣٣٥

شبكة المخابرة التي أرسى أسسها الرسول ﷺ. ولا عجب في هذا فقد كان يطبق ما يرشده إليه الله ﷻ. فالحامل الأول للخبر أو الرسول الأول كان يسرع بجواده يوماً كاملاً وبعد أن يقطع مسافة يوم كامل ينزل عن جواده ويرتاح بعد أن يعطي الخبر إلى الرسول الثاني الذي ينطلق بجواده يوماً كاملاً ثم يعطي الرسالة أو الخبر إلى الرسول الثالث... وهكذا حتى تصل الرسالة أو يصل الخبر إلى موضعه، وهكذا يتم نقل الأخبار والرسائل بوساطة رسل مرتاحين وبخيول مرتاحة في أقصر وقت، ولم يكن هناك حل آخر، إذ أكان من الممكن أن تنتقل الأخبار ما بين مكة إلى فيزان بغير هذه الطريقة؟

كان صاحب هذه الفطنة العظيمة يرسم لوحات ملونة تسر له الأفئدة في كل ناحية من نواحي الحياة تحت تلك الظروف وتلك الشروط في ذلك العهد، فيضطرنا إلى الاعتراف بنبوته وبرسالته. وإلى جانب كل هذا فقد كان كأي عسكري ممتاز يهرع إلى الصلح وإلى السلم متى ما اقتضى الأمر ذلك. وقد تطرقنا إلى هذا فيما سبق باختصار، ونضيف هنا فنقول إن القرآن الكريم كان يقول له: ﴿وإن جَنَحُوا للسَّلْم فاجنحْ لها وتوكل على الله﴾ (الأنفال: ٦١)

أي خذ بالأسباب ولكن لا تقصر في التوكل على الله، ذلك لأن التوكل دون القيام برعاية الأسباب إنما هو عنوان للكسل ولعدم الإدراك وعدم الإحساس، بينما التوكل بعد رعاية الأسباب يُعد عنواناً للانقياد وللتسليم والارتباط مع الله تعالى، ومع شريعته الفطرية وآيات ومبادئ النظام الكوني، وإدراكاً ورعاية لها.

٣- مراحل التبليغ

في إحدى مراحل التبليغ أمره الله تعالى بـ: ﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ (النحل: ١٢٥). إن الله تعالى يعلم الضالين ويعلم المهتدين، أما أنت فقم

بواجبك في الدعوة ولا تتدخل فيما وراء ذلك. كانت هذه الآية تقوم بشحن إيمانه وإيمان جماعته. ثم جاءت مرحلة أخرى أمر فيها الرسول ﷺ بإعلان دعوته وبلهجة حادة إن اقتضى الأمر وبإنذار عشيرته الأقربين: ﴿وأَنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين﴾ (الشعراء-٢١٤)، ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (الحجر ٩٤).

هـ- مقاطع صغيرة من حياته

عندما تم إعلان الإسلام زادت الضغوط وسقط بعض الشهداء أمثال سُميّة وياسر وغيرهما. استشهد البعض نتيجة التعذيب أو التجويع أو من ضربة في صدره بحربة أو بنبل، ثم بدأت الهجرات.. الهجرة إلى الحبشة ثم العودة منها ثم الهجرة إلى المدينة وقبلها عام الحزن بوفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ووفاة أبي طالب، مما كان يعني بقاء الرسول ﷺ -من الناحية المادية أو الظاهرية- أعزلاً دون حامٍ، والحقيقة أن الله تعالى كان يقطع كل الأسباب الظاهرية وكل الركائز التي كان يستند إليها لكي يتوجه نحو مسبب الأسباب وحده. ذلك لأن من قوانين الفطرة أن التوجه التام نحو مُسبب الأسباب لا يتم في عالم المقربين إلا بعد سقوط كافة الأسباب. إذن، يجب أن تسقط كافة الأسباب وتنهدم ليتم التوجه نحو الله وحده، وحدس أسرار نور التوحيد بالميل الفطري وبالاضطرار الجبري كذلك ليحدس هذه الأسرار لكي يتبلور في وجدانه سر الأحدية.. تماماً كما حدث للنبي يونس عليه السلام.. لكي يوصله فيما بعد إلى شاطئ السلامة وينبت له شجرة من يقطين وليريه ما يجب أن يراه من نوره العظيم.

أجل، فعندما أخذ منه أباطالب أخذ منه مستنداً وعوناً، وعندما أخذ منه خديجة رضي الله عنها أخذ منه مستنداً وعوناً آخر. ولكي يعطي درساً قيماً إلى الأجيال المقبلة كان يهدم كل الأسباب المادية الظاهرية ويوجهه إلى مسبب الأسباب وحده وكأنه يقول له: أنت شخص مرشح لكي تنطق باسم الله فقط، ألا ترى أنني أخذت أباك قبل ولادتك، ثم أمك بعد الولادة ثم جدك؟ أجل، لقد أخذت كل من كان يحميك واحداً إثر آخر لكي

لا يقتحم خيالك أحد غيري، ابحث عني كل وقت وكل حين، وأقبل عليّ وتوجه إلي فقط وحاول أن تسمعني وراء كل باب تطرقه في هذا الكون.

صحيح أن هذا الطريق الذي أجبره الله تعالى على سلوكه كان طريقاً صعباً حافلاً بالمشقات إلا أنه لم يكن بالعبء الذي لا يستطيع حمله الرسول المصطفى محمد ﷺ، ذلك لأنه كان بعون من الله تعالى شخصاً قوياً لا يُغلب، قد جعل العجز والفقر جناحين له.

من الحوادث الأليمة التي تعرض لها النبي ﷺ، وشاهد فيها مثالاً للجحود والرفض ما جرى له في الطائف الذي توجه إليه وهو يأمل أن يلقى فيه بعض القلوب الرضية، ولكنه رجع منه والدماء تنزف منه من رأسه حتى قدميه، ثم مقابلته لستة أشخاص من يثرب، وفي السنة المقبلة لاثني عشر شخصاً في العَقَبة، هؤلاء هم أبو الهيثم بن التيهان وأصدقاؤه.[1] بايعوا النبي ﷺ ورجعوا إلى المدينة لكي يرجعوا في السنة القادمة وهم خمسة وسبعون شخصاً -منهم امرأتان- لكي يبايعوا الرسول ﷺ. كانت نسيبة المازنية إحدى المرأتين، وهي المرأة التي سيذكرها التاريخ الإسلامي بكل فخر وتوقير تحت اسم أم عمارة. وكانت الأخرى أسماء بنت عمر.[2] ولم تفارق هاتان المرأتان العظيمتان رسول الله ﷺ لا في سفر ولا في حضر، بل إن أم عمارة شاركت في حروب الردة فقاتلت في معركة اليمامة وبيدها السيف وبطولة كبطولتها في معركة أُحد. وقد استشهد ابنها حبيب في هذا المكان من قِبَلِ مسيلمة الكذاب عندما أرسله إليه رسول الله ﷺ.[3] ثم دعي رسول الله ﷺ إلى المدينة، لقد أصبح القائد على رأس جيشه.

لم يقم حتى ذلك الحين بإيذاء أحد قط لا قولاً ولا فعلاً. بل إنه عندما كان يعطي سكيناً إلى أحد كان يجعل فصله الحاد متوجهاً إلى نفسه والمقبض متوجهاً لذلك الشخص لكي لا

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٧٠-٧٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/١٨٢-١٨٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٨١-٨٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/١٩٢-١٩٧

(٣) «الإصابة» لابن حجر ٤١٨/٢؛ «أسد الغابة» لابن الأثير، ٤٤٣/١

يرتعب أو يخاف.[1] أجل، لقد كان يراعي كل هذه الدقة في سلوكه ومعاملاته، لم يكن قد أذى طوال حياته أي شخص. ولكن كانت هناك خفافيش أزعجها انتشار نور القرآن ودعوة القرآن فقامت تحاول منع انتشار هذا النور، لذا كان لابد لـ"صاحب القضيب" أن يستل سيفه في وجه هؤلاء قائلاً: "يا خفافيش الظلام! لن تستطيعوا بعد الآن حجب النور.. ستعيشون أنتم في الظلام.. إذن، فابتعدوا عن ضوء النهار وابتعدوا عن فرسان النور."

كان زعيماً يختلط بأتباعه وينسجم معهم، وكان قائداً على رأس جيشه. قام بحل المسائل الاجتماعية أول الأمر فآخى بين أصحابه الكرام، وجذب أهل الكتاب إلى صفه ووضع دستور أمان ووطد الصلح معهم، ونشر الثقة والأمن لدى الجميع.

ثم توجه إلى الجيش فكوّن في البداية سرايا صغيرة، ثم بدأ بإرسال السرايا وعيون الإرصاد فيما حواليه. والسرايا التي كان عدد أفرادها يقل عن العشرة كانت وظيفتها استقصاء الأخبار وجمع المعلومات وإيصالها إلى رسول الله ﷺ.

ثم كانت هناك سرايا أكبر عدداً وكانت مسلحة ومتدربة وعلى أهبة الاستعداد على الدوام، حيث نستطيع أن نطلق عليها اليوم اسم "السرايا الضاربة". كانت هذه السرايا تستقصي المعلومات والأخبار أيضاً، ولكن لا بد لها من خوض المعارك عند اقتضاء الأمر، وقد قاد بنفسه هذه السرايا أربع مرات. وكان عدد أفراد السرية يتجاوز أحياناً مئتي مسلح، وكانت وظيفة مثل هذه السرايا إرهاب العدو وإلقاء الرعب في قلوبهم.

و- أهداف السرايا

كان المسلمون متهيئين لكافة أنواع النضال والكفاح. وكان المشركون يضطرونهم بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا الكفاح والنضال. كان الوحي قد بدأ بالنزول قبل ثلاث عشرة سنة، وكان داخلاً إلى السنة الرابعة عشرة. وكان الذين يزعجهم النور يسعون

---

(١) وانظر: **أبو داود**، الأدب، ٨٥؛ **الترمذي**، الفتن، ٣-٥؛ **«مجمع الزوائد»** للهيثمي ٢٥٣/٦-٢٥٤

جاهدين لإطفائه فيتعرضون في كل مكان للدعوة القرآنية، وعندما يتمكنون من القبض على أي مسلم سرعان ما كانوا يقتلونه. ونحن نذكر اليوم مظالم البلغار ومظالم الروس ومظالم الهنود. نذكر هذه المظالم ونجد في الأقل من يشجب هذه المظالم ويستنكرها، أما المظالم التي كانت ترتكب آنذاك في حق المسلمين فلم يكن هناك من يستنكرها أو يشجبها أو يرفع صوته ضدها، فكل تصرف لقريش كان مقبولاً من قبل الآخرين حتى وإن كان في الدركات السفلى من الظلم والوحشية. ذلك لأن قريشاً كانت سيدة مكة، لذا ففي إمكانهم عمل أي شيء يشتهونه. وقد أخذ النبي ﷺ على عاتقه مهمة هدم هذه الدكتاتورية، لذا هيأ هذه السرايا وبعضها في جميع الجهات، وكانت الغاية من هذه السرايا الضاربة الوصول إلى بعض الأهداف المعينة ومنها:

١- الإشعار بالكيان الإسلامي

أي إشعار الجميع بوجوده وبالكيان الإسلامي، وأن المشركين وإن طردوا المسلمين عن مكة إلا أنهم لم يستطيعوا إطفاء نور الإسلام. ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ (الصف: ٨).

إذن، فرسول الله ﷺ كان يريد أن يظهر لهم أن ظلام الجاهلية الأولى في تلك الصحراء الموحشة المظلمة لن يستطيع إطفاء نور الله.

٢- إظهار أن الهيمنة للحق

ثم إنه كان يريد أن يبرهن على أن الحكم ليس لمشركي مكة ولقريش فقط، بل إن لممثلي الحق حصة منه ونصيباً، وسيأتي يوم تخضع فيه القوة بكل ما لديها من أسلحة إلى الحق وتستسلم له، وحينئذٍ ستكون الكلمة في الأرض بيد الحق وحده، ويسود القانون في الأرض.

كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن قريشاً ليست على حق ولكنها كانت تستطيع إحراز الغلبة أحياناً على الحق وبصورة مؤقتة لكونها تملك أسباب القوة في يديها. لذا، كان على رسول الله ﷺ إعلان قوة الحق، فكان تشكيل هذه السرايا إعلاناً وإظهاراً لهذا لكل الأطراف حواليه، أي إعلان أن أمثال أبي سفيان وأبي جهل وعُتبة وشيبة وابن أبي مُعيط والوليد الخ... لا يملكون أي حق لهم على الإنسانية، بل إنهم على العكس من ذلك اغتصبوا من الإنسانية حقها واستغلوها.

٣- ﴿ تهيئة أساس للإرشاد ﴾

كان من وظائف هذه السرايا إزالة العقبات من أمام طريق الدعوة. أجل، فبفضل هذه السرايا التي كانت تتجول هنا وهناك استطاع أن يمسك بالنظام والانتظام في يده، وأن يرسل الدعاة والمبلغين والمرشدين إلى كل مكان، وأن يؤمن تجولهم بين المدن والقرى دون خوف أو وجل، ويهيء لهم جواً هادئاً لكي يقوموا بمهماتهم. لذا، كان الرسول ﷺ يرسل السرايا بشكل مستمر للمناطق المحيطة بالمدينة من أجل هذه الغايات، وبعد الهجرة وحتى اصطدامه بأعدائه في معركة بدر كان قد أرسل سرايا عديدة ضاربة، ففي بضعة أشهر كانت هذه السرايا تظهر في أماكن بعيدة لم يكونوا يقطعونها آنذاك إلا خلال شهر، أو تظهر بمقربة من مكة وكأنهم أشباح أو ملائكة ظهرت ثم احتفت بسرعة، مخلفة وراءها الرعب عند العدو الذي بدا وكأنه يُسحب إلى معركة بدر وهو مشلول من الخوف.

٤- ﴿ إقرار الأمن ﴾

كان النهب والسلب سائداً في تلك الأيام في الصحراء. فالحق عند جانب القوي، ولم يكن للضعيف وللمظلوم حق الحياة، فالذي يملك القوة كان يستطيع سحق الآخرين. وأمام هذا الأمر كان الرسول ﷺ يخطط الآتي: يجب أن تتجول السرايا والمفارز في كل مكان دون أن تمد يدها بأي سوء لأي شخص لا لماله ولا لعرضه ولالشرفه. أجل، سيمر

أناس مسلحون من أمام البيوت والمساكن، ولكن كرمز للأمن وللاطمئنان دون أن يمس أحدهم بسوء. إذن، رأى الجميع أن الصحراء يمكن أن تكون شاهدة لشيء أخر غير السلب والنهب، ومن كان يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير النبي ﷺ؟ وهكذا عرف الجميع بشكل جيد بأن الصحراء لم تعد ملكاً لمشركي قريش وحدهم، بل إن لمحمد ﷺ نصيباً وحصة وحقاً، وسيزداد هذا الحق على مر الأيام ويكبر كلما أنتشر النور حتى يكون له في كل بيت وفي كل قلب أثر.

ز- السرايا

١- السرية الأولى وحمزة رضي الله عنه

من أجل تحقيق هذه الأهداف قام الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة المنورة بقليل بتشكيل السرية الأولى التي ألفها من مائة شخص، وأعطى قيادتها إلى عمه حمزة رضي الله عنه. وأسس الرسول ﷺ في تلك الأيام شبكة الاستخبارات واسعة بحيث لو طار طائر في الصحراء لأتاه خبره.

في تلك الأيام مرت قافلة فيها أموال كثير من المهاجرين. مرت هذه القافلة قرب المدينة وأمام أنظار المسلمين وكأنها تتحداهم. وهنا تعرض لها سيدنا حمزة رضي الله عنه، ومع أنه لم يلحق أذى لأي منهم إلا أن الأعداء ارتعبوا رعباً كبيراً، وأسرعوا بالفرار دون أن يلقوا نظرة وراءهم.[1] لندعهم يفرون ولنرجع إلى الدين شاهدوا هذا الأمر من سكان المدينة أو سكان القرى القريبة. لقد تأكد لديهم وجود قوة أخرى غير قوة أهل مكة. ونرى من نافلة القول الحديث عن الأثر النفسي الذي تركته هذه الحادثة في نفوس مشاهديها.

كان أهل مكة يفرون على الدوام في أثناء هذه الحركات، وعندما يفرون والمسلمون في أثرهم، كان المشاهدون يقون في حيرة وعجب ودهشة.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٥/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٨٦/٣

أجل، كان الرسول محمد ﷺ كأي قائد استراتيجي يطارد أعداءه ويسحر -بهذا المعنى- الجميع ويأخذهم تحت تأثيره، فكانت القلوب تلين للإسلام على مرّ الأيام، وتقبل أفواج ثم أفواج من القبائل لتدخل إلى الإسلام. أصبحت الطرق أمينة، فقد أظهر الإسلام قوته وبأسه، فعندما أصبح الإسلام يمثل الحق أظهر القوة التي تحفظ هذا الحق، وبدأ الجميع يفكرون بشكل مختلف عن السابق.

٢- السرية الثانية

ثم ما لبث أن شكل سرية ثانية على رأسها سعد بن أبي وقّاص ﷺ. ولم يتأذ أحد من هذه السرية أيضاً، لأن الغاية كانت إرسال القوة وإنزالها في الموضع المعين، لكي تعلم قريش التي كانت القوة دينها الوحيد أن القوة إن أظهرت فائدتها في شيء فلن تفيد في كل شيء. وكان الهدف أيضا هو مقابلة هذه القوة بالقوة التي تمثل الحق. أي القوة التي لا تنزلق إلى الجبر وإلى الظلم وإلى الجبروت وإلى الغدر وإلى الباطل، بل القوة التي تبقى بجانب العدل وبجانب الرحمة، إلى درجة أن المسلمين لو احتاجوا لشرب حليب من غنم أعرابي لاستأذنوه أولاً ودفعوا له مقابل ذلك. كان هذا التصرف من المسلمين شيئاً جديداً وغريباً على البدو لم يشاهدوه ولم يعرفوه من قبل، فكانوا يشاهدون هذه التصرفات وهم في ذهول: أهؤلاء هم الملائكة التي تحدث عنها النبي إبراهيم وقد نزلوا من السماء أم ماذا؟

٣- سرية عبيدة بن الحارث

ثم شكل سرية وضع على رأسها عبيدة بن الحارث، وهو ابن عمه الحارث بن عبد المطلب. هذا الشخص الذي سيكون من أوائل شهداء بدر، وعندما جيء به إلى رسول الله ﷺ في معركة بدر والدماء تنزف من يده المقطوعة لم يكن قد مات بعد، ولكنه كان

قلقاً، فقال للرسول ﷺ: "ألست شهيداً يا رسول الله؟" فقال ﷺ: «بلى»[١] هذه السرية التي قادها عبيدة بن الحارث ﷺ وصلت إلى بطن رابغ حيث أوقع الرعب في قلوب الأعداء ثم رجع.[٢] وكان هذا مفاجأة قاسية لقريش ولأدلاء قوافل قريش، لم يتخلصوا من تأثيرها مدة طويلة.

٤- ﴿ كان هو القائد ﴾

كانت السرايا السريعة الضاربة تترى. وبعد هذه السرايا شكل الرسول ﷺ سرية تتألف من قوة قوامها مئتا مسلح قادها بنفسه، وخرج يهدد بها قافلة لقريش كانت متوجهة للشام. وخطط كل شيء بدقة وجعل الطرق كلها تحت رقابته، بحيث أنه لو لم يسمح لقافلة قريش بالمرور لما استطاعت ذلك. وكان هذا تهديداً أرعب قريشاً وأفزعها، ثم رجع الرسول ﷺ دون أن يمس أحداً بأذى.[٣]

ثم رتب سرية أخرى بقوة أصغر وللهدف نفسه، فوصلت إلى بُوَاط[٤] وأرهبت أعداء الله ثم رجعت.[٥] وقابل أعداءه بالطريقة نفسها في العُشَيرة، ليذكّر الجميع قبل عودته إلى المدينة أنه أصبح ينظم الأمن والأمان في الصحراء.[٦]

(١) «المستدرك» للحاكم ١٨٨/٣؛ «المغازي» للواقدي، ٦٩/١-٦٨؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٣٤/٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٤١/٢؛ «المغازي» للواقدي، ١٠/١

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٤١/٢؛ «المغازي» للواقدي، ١٢/١

(٤) بُوَاط: جبال من جبال جهينة، بقرب ينبع. بينها وبين المدينة نحو أربعة برد، وهي قريب من ذي خشب مما يلي طريق الشام.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٤٨/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٠١/٣

(٦) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٤٨/٢-٢٤٩؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٠٢/٣

٥- ﴿ سرية عبد الله بن جحش ﴾

والسرية الأخيرة عقدها تحت قيادة عبد الله بن جحش الذي كان ابن عمته.[١] كان يختار القريبين منه لمثل هذه المهمات، وكان يرسخ قرابة العقيدة بقرابة الدم. ذلك لأن المسلمين لم يقاتلوا حتى ذلك الحين أعداءهم، وكان قتال الأقرباء وقتلهم مخالفا لقانون الصحراء ونقضاً كبيراً له، لذا فقد كانت معركة بدر الكبرى مهمة جداً، وكان الطريق إلى بدر يمر من هذه السرايا. وقد عين على رأس هذه السرايا التي كانت الممر إلى بدر الكبرى أقرباءه مثل سيدنا حمزة رضي الله عنه وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن جحش، لأنه أراد أن يحمل أقرباءه هذه المسؤولية الثقيلة والمهمة الصعبة التي كانت تتناقض مع قانون البداوة وقانون الصحراء، كما قاد بنفسه ثلاث أو أربع سرايا.

كان عبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ﷺ. وأصبح فيما بعد البطل المغوار في معركة أُحد، ولكنه كان ضعيف البصر يشكو من قصر نظر حاد، فلا يستطيع أن يرى سوى بعض السواد، ومع ذلك فلم يتخلف عن أي معركة، وقاتل في معركة بدر بكل شجاعة، وعندما رأى الهزيمة في صفوف المسلمين يوم أُحد لم يتحمل وبادر يقاتل بكل ضراوة. يقول سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه إن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخليا في ناحية فدعا سعد فقال: "اللهم إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حَرَده[٢] فأقتله فيك وآخذ سلبه." فأمّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذني"، فإذا لقيتك قلتَ: يا عبد الله! فيم جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقتَ." قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط.[٣]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٥٢/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٠٤/٣-٣٠٥

(٢) الْحَرَد: الغضب

(٣) «أسد الغابة» لابن الأثير ١٩٥/٣؛ «الإصابة» لابن حجر ٢٨٦/٢-٢٨٧؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٠١/٩

إذن، فهذا هو عبد الله بن جحش الذي كان على رأس سرية نَخْل. حيث أرسله الرسول ﷺ مع إثني عشر من أصدقائه إلى موضع يدعى نَخْل يقع على بعد ٥٠٠ كم من المدينة، وكان هذا الموضع قريباً من مكة. كان على السرية أن تذهب إلى هناك ثم ترجع بعد ترصد أحوال أهل مكة. ولم يكن في الإمكان القيام بمثل هذه المهمة دون أن يأخذ الإنسان الموت في حسبانه عدة مرات. لذا، أبدى الرسول ﷺ فطنته في الاختيار المناسب، إذ وضع على رأس هذه السرية الشخص المناسب، فقد كان من الضروري أن يكون هذا الشخص فرداً يستحقر الحياة ولا يهاب الموت، وكان عبد الله بن جحش هذا الشخص.

أعطاه الرسول ﷺ كتاباً فيه أوامره حول وظيفة هذه السرية ومهمتها، على أن لا يُفض هذا الكتاب ويُقرأ إلا بعد الوصول إلى الهدف. كما أوصاه ألا يكره أحداً على الاشتراك معه في هذه السرية، بل يجب أن يكون الجميع من المتطوعين. وقد اعتذر أحدهم من الذين قبلوا الاشتراك سابقاً وتخلى عن الاشتراك معهم، أما الباقون فقد نفذوا الأوامر وواصلوا سيرهم حتي بلغوا موضع نَخْل، وفتحوا رسالة الرسول ﷺ وقرأوها، وطبقوا ما جاء فيها. ولكن حدث حادث عارض لم يكن في الحسبان قتل نتيجته أحد المشركين، واستولوا على أموال الفارين، وجاءوا بها إلى الرسول ﷺ. وقد حدث هذا الحادث بشكل فجائي، ولم يكن الرسول ﷺ قد أمرهم بالقتال، واستغل أهل مكة هذه الحادثة وبالغوا فيها وقالوا: "لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال وأسروا الرجال." فلما أكثروا نزلت الآية: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾ (البقرة: ٢١٧).[١]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٢٥٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣٠٦

ح- نتائج السرايا

١- تحقيق السيادة

ما إن استقر الرسول ﷺ في المدينة حتى بدأ بترتيب الحركات التعرضية السريعة، حتى خنس أعداؤه، وشاع بينهم الرعب والفزع، وهدد حياتهم الاقتصادية وجرهم إلى الأزمات المالية، وساق الحوادث نحو معركة بدر الكبرى، وأسس خلال ذلك شبكة الاستخبارات واسعة، بحيث أن قريشاً كانت تخشى أن يكون الرسول ﷺ على علم بما يجري حتى في بيوتهم. وكان الموضوع الذي يتحدث به الجميع في كل مكان هو أن من يقوم بعمل مثل هذه الاستخبارات، لا بد أن يعلم بكل ما يعمله أعداؤه. وكان هذا أمراً مقلقاً جداً بالنسبة لهم.

كان يقال لنا عندما كنا في الخدمة العسكرية بأن التحارب يعني التخابر. فإذا كنت تملك مؤسسة استخبارية جيدة، ونظاماً جيداً للمواصلات، تكون قد أمنت نصف النصر. هذا إن كانت أخبارك لا تصل إلى عدوك، وكنت تحصل على أخبارهم على الدوام، وتحيط مركز القيادة علماً بأخبارهم أولاً بأول. ومع أن التكنولوجيا تقدمت كثيراً في هذا العصر إلا أن من الصعب أن توصل الأخبار دون أن يعلم بها الطرف المقابل. بينما استطاع الرسول ﷺ أن ينشئ في تلك الظروف البدائية شبكة الاستخبارات جيدة، استطاعت أن توصل الأخبار إليه أولاً بأول، وبسرعة فائقة، وضمن جو من الأمن والثقة، فكما كان الوحي يأتيه بكل أمان وثقة بوساطة ملك رفيع المنزلة مُطاعٍ ثَمَّ أَمِين، كانت شبكة استخباراته تمده بالأخبار بنفس الثقة والدقة، وكان على ارتباط دائم بهذه الأخبار، لم تكن أخباره تصل إلى أعدائه بينما كانت أخبار أعدائه تصله أولاً بأول.

هناك قادة يعتبرهم الغرب من الدهاة ومن العباقرة أمثال قيصر (César) وهَنيبَعل (Hannibal) ونابوليون وهتلر (Hitler). ولكن التاريخ يشهد أن أي أحد من هؤلاء لم

يؤسسوا شبكة الاستخبارات جيدة كما فعل الرسول ﷺ، ولم يضعوا أعداءهم تحت مراقبتهم كما فعل ﷺ. وليس هناك شاهد واحد في التاريخ على تسرب خبر واحد من أخباره إلى الأعداء، وإلا لم يكن بمقدور حفنة من المؤمنين الانتصار على كل أولئك الكفار والفجار. فعناية الله وتوفيقه تكون بنسبة الأخذ بالأسباب وبالتدابير، ولكونه قدوة لنا وأسوة حسنة، فإنه كان يتصرف ضمن دائرة الأسباب.

لنرجع إلى الصدد: لقد رأينا في الحروب العالمية أن وضع موانئ بلد ما، ووضع تجارته تحت التهديد وضرب مقاطعة اقتصادية عليه، سيضيق الخناق على إنسان ذلك البلد، ويجعله غير واثق من غده، وهذا شيء مهم. أجل، فعندما تبدأ بالنضال مع أعدائك الذين يرومون شرب دمائك، لا بد أن تسعى لشل حركتهم أولاً. لهذا كان الرسول ﷺ يروم شل حركة أعدائه بإرسال هذه السرايا السريعة الحركة. لم يعد هناك أمان لأهل مكة، وبدأ الأعراب والبدو في الصحراء يقولون في أنفسهم لم يعد باستطاعة أهل مكة أن يحافظوا علينا، ولم يعودوا مبعث أمن لنا، والظاهر أن مصير الناس انتقل إلى أيد أخرى، لذا فمن الأفضل لنا أن نتقرب إلى هؤلاء. أجل، بدأوا بالتفكير على هذا النحو، لذا بدأوا يأتون إلى النبي ﷺ أفواجاً أفواجاً ويعلنون إسلامهم.

كانت القوافل تحت التهديد على الدوام على الرغم من عدم إيذاء أحد منهم، هذا عدا استثناءاً واحداً حدث في موضع نَخْل حيث مات أحد البائسين بسهام المسلمين.

٢- ﴿ ذيوع الأمن ﴾

بدأ الرسول ﷺ يحقق جميع أهدافه من إرساله هذه السرايا، فقد ظهرت قوة جديدة في الصحراء أثبتت وجودها. فأمام قريش الظالمة كان هناك محمد ﷺ وجماعته. ومع أنه بدأ يمتل القوة، ويطارد اللصوص والناهبين، إلا أنه لم ينحرف إلى الظلم أبداً، بينما كانت القوة في الجبهة المقابلة عنوان الظلم والاعتداء، إذ يغيرون ليلاً، فينهبون ويقتلون الضعيف، دون الالتفات إلى أنين الضعيف وآهاته.

كانت هذه القوة من طراز آخر، فكأنها قوة نزلت من السماء، فعلى الرغم من توفر القوة عندها فهي تقف عند خط الحق والعدل وتحترم الحقوق، وكان التاريخ يشاهد للمرة الأولى مثل هذه الرعاية والاحترام للحق وللحقوق. وكان هذا يتم بيد محمد ﷺ، بينما كان غيره يضع كل يوم ما يناسبه من القوانين، ويقدمها على أنها هي التي تمثل "الحقوق". علماً بأن محمداً ﷺ كان يؤمن بسمو وعلو القوانين والحقوق التي وضعها الله تعالى.. احترم هذه القوانين وهذه الحقوق، ولم يمد إصبعه إلي أي حرام أو إلي أي محذور، وقد شاهد هذا إنسان الصحراء وكل إنسان، وشهده البدو. كانت هذه السرايا المسلحة تمر أمام الخيام، ولكنها لا تتعرض لا إلى أي امرأة أو إلى أي شابة ولا لأي مال، ولا ترتكب أي ظلم مهما كان ضئيلاً. لقد كان الرسول ﷺ يهدف أن يرى الناس هذا، وبدأت الثقة تنتقل شيئاً فشيئاً من مكة إلى المدينة، ذلك لأن "الأمين" كان هناك. لم تعرف مكة قدر "الأمين".. الأمين الذي ندعوه نحن "محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين." لقد كان الآن في المدينة، وكان الأمن والأمان عنده. هذا ما كان يفكر به البدو والأعراب ورجال القبائل، لذا بدأوا يتوجهون نحو المدينة، بينما فقدت قريش كل مظاهر الثقة المعقودة لها سابقاً. لم تكن عاجزة عن إعطاء الأمن والثقة للآخرين فقط، بل كانت عاجزة عن تأمين قوافلها هي، إذ كانت تحت تهديد دائم. وكان هذا الأمر يؤدي إلى تحلل دائم في صفوف المشركين. وكلما شاهد هذا أهل مكة ركبهم الغضب والهم.

٣- سرعة السيطرة على الأمور

إن إثارة العدو ومضايقته ودفعه إلى الحركة قبل الأوان مسألة مهمة، لأسرد عليكم حادثة جديدة، لقد سألوني مرات عديدة: "هناك حركات في تُرْكِسْتان وأوزبكستان وجورجيا (Georgia) وداغستان، كما أن هناك حركة ما في القِرم. أهذه هي الأيام السعيدة التي وعدها الأنبياء والأولياء، والتي قالوا أنها ستكون قبيل يوم القيامة؟ أيتم التوجه إلى

مثل هذه الأيام؟ أي هل تستطيع الأمم الأسيرة الحصول على حريتها وعلى حقوقها المشروعة؟ صحيح أن التوجه حالياً هو هذا التوجه، ولكن الأعداء هم الذين يضعون بعض سيناريوهات هذه الحوادث، ويهيئونها لوضعها على المسرح الدولي. أجل، إن الأعداء هم الذين يقومون بتخطيط الحركات في بلدان إخوتنا في الدين والدم، ذلك لأننا لا نزال هناك ضعافاً، كالفراخ داخل البيض، أو كالبيض تحت الدجاج. فهم يقومون بإثارة حفنة من المشردين والأوباش ويدفعونهم إلى التظاهر في الشوارع، ثم يدفعون بالوحدات المسلحة علينا ليحطموا رؤوسنا ونحن بعد ضعاف، ذلك لأن بعضاً من رؤوس هؤلاء ذهبوا من جورجيا (Georgia) إلى بلغاريا وظهروا في شُومن[1] وفي صوفيا (Sofia) حيث صرحوا هناك: لقد ثرنا نحن في روسيا واستطعنا انتزاع بعض حقوقنا، ثوروا أنتم وانتزعوا حقوقكم. هذه مسألة مهمة، وهي جهود لسحبنا إلى جهة معينة للقضاء علينا، ولكنهم لا يعرفون أن العاقبة للمتقين و"الحق يعلو ولا يعلى عليه." ونتمنى من الله تعالى أن يجعل كيدهم في نحرهم.[2] ﴿ولا يَحِيقُ المكرُ السيئ إلا بأهله﴾ (فاطر: ٤٣).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يهدف من تحركاته هذه إثارة أعدائه الذين بدأوا يقولون إن قوافلنا في خطر وحياتنا الاقتصادية تحت التهديد، وبدأت الصحراء تدخل في حكمه شيئا فشيئاً، لذا يجب أن نتحاسب معه. أجل، كان أبو جهل يقول لهم هذا، وعندما أراد بعضهم الرجوع عن القتال في بدر قال لهم: "والله لا نرجع حتى نرد بدراً –وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام– فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. فامضوا."[3]

---

(١) **شومن:** مدينة في بلغاريا. وصوفيا هي عاصمة بلغاريا.

(٢) قال المؤلف هذا الكلام في ١٩٨٩ عندما بدأت الحوادث في الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

(٣) **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٢٧٠/٢؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٣٢٤/٣

كان هذا هو هدف رسول الله ﷺ، وكان القرآن يعلمه هذا: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله تُرجَع الأمور﴾ (الأنفال: ٤٤).

أي أن الله تعالى يقول لهم بأنه قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين في أعين المشركين لكي يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ويسوقهم إلى مقابلة غير محسوبة من قبلهم. فالله تعالى كان قد أصدر حكمه ولا بد من تنفيذه، أي إن العاقبة كانت مؤكدة لا يمكن الهروب منها، وكان الله يستدرج أعداء الإسلام إلى هذه النتيجة، لذا سيجد هؤلاء الأعداء أنفسهم فجأة وجهاً لوجه مع المسلمين في بدر الكبرى في وقت لم يحسبوا حسابه ولم يتوقعوه من قبل، إذ لم يكونوا يعرفون استيراتيجية الحرب لدى الرسول ﷺ. لقد طردوه وأخرجوه من بلده وها هم الآن يقفون أمامه وهم يرتجفون. كان يرتب السرايا منذ سنة واحدة ليحق الحق، وليسترد منهم ما أخذوه وليحطم معنوياتهم. لم يكونوا يعرفون عنه ناحيته الحربية والعسكرية، بعد ساعات سيعلمون هذا، ولكن لن يفيدهم هذا. أجل، كان أمامهم قائد حربي لم يعرفوه بعد، كما قابلتهم خطة حربية لم يعرفوها من قبل، فسقطوا كأوراق الخريف.

٤- تهيئة الحوادث لبدر

ها هم الآن في بدر الكبرى.. لم يكن الرسول ﷺ قد انتهى إلى بدر مثل أي إنسان عادي آخر أو مثل أي قائد حربي آخر. ذلك لأنه كان يعلم جيداً فيما هو مقبل عليه، كان قد أتى إلى هناك وهو يعلم أنه سيتحاسب مع أعدائه وسيتصارع معهم، وأنه حتى مجيئه بدراً كان قد رتب سرايا عدة قامت بحركاتها ومناوراتها السريعة بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وشل روحهم المعنوية في كل مكان وفي كل ناحية وفي كل بيت، وجعلهم يشكون في قوتهم وقدرتهم إلى درجة أنه جعلهم يقولون "لم يعد هناك أمان في مكة وما جاورها." وهكذا أصبح الرأي العام للعرب في البادية بجانبه. لقد انتقل صمام الأمن إلى يد

"الأمين". هذا ما بدا الجميع بقبوله. ألم يكونوا يلقبونه في الجاهية بـ "محمد الأمين"، ويعدونه المثل الوحيد للأمانة؟ لقد كان أميناً في الأرض وأميناً في السماء كذلك. وقد قال في أحد الأيام متحدثاً بنعمة الله عليه: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء.»[1]

لقد بدأت البادية تعرف جيداً من الأمين وأين الأمن.. أجل، لقد كان "الأمين" في المدينة.. كانت السيادة تنتقل إليه.. إلى السيد القرشي في المدينة.. كان سيد قريش أيضا وسيد بني هاشم، بل سيد الإنسانية كلها وسيد الوجود كله... كان هو سبب الوجود وعلته وغايته فهو الذي قيل فيه: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك.»[2] صحيح أن هذا ليس حديثا صحيحا إن نظرنا إليه من ناحية علم الحديث، إلا أن معناه من ناحية مطابقته للواقع يمكن أن يرد على الدوام. أجل، لولاه لما ظهر معنى للكون ولما فهم هذا المعنى، ولما تم النفوذ إلى حقائق الأشياء، لما عرف معنى الدنيا ولا معنى الآخرة، ولا معنى الضمير ومعنى الإنسان. لولاه لكانت الدنيا شبيهة بمأتم، كان كل ميت سيغرقنا في الحزن، وكل حادث مؤلم يكتم انفاسنا، لقد تعلمنا منه كيف ننقذ أنفسنا من الظلام، ونسرع إلى ميدان النور. هذه الدنيا التي إن نظرنا إلى جوانبها المطلة على ذاتها رأيناها قطعة من جهنم ولكنها أصبحت بفضله جنة لنا، فقد تعلمنا من بيانه المضيىء أن الإيمان يحيل حتى الدنيا إلى جنة، وتعلمنا منه أن كل مؤمن يحمل نواة من نوى الجنة، بحيث تجعل هذه الحياة الدنيا شبيهة بحياة الجنة. تعلمنا هذا منه فوصلنا إلى شاطئ الطمأنينة والسكينة، تعلمنا منه أن اطمئنان القلوب يكون بذكر الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد: ٢٨).

أجل، إن السعادة لا تتحقق فقط بالرفاه المادي وبوفرة المال وبامتلاك الدور والعمارات وبيوت العطل الصيفية، بل بالإيمان وبالسعادة القلبية والتمسك بالقيم الإنسانية، حيث ترسو القلوب إلى شواطئ الاطمئنان وتهدأ الرغبات وتنتهي الطلبات. وإلا فلو أعطيت الدنيا بكاملها لإنسان واحد لما انتهت رغباته وما سكنت شهواته. وكان

(١) **البخاري**، المغازي، ٦١؛ **مسلم**، الزكاة، ١٤٤

(٢) **«كشف الخفاء»** للعجلوني ١٦٤/٢

هو معلمنا في كل هذه المسائل، وكما يقول الشاعر الشهير محمد عاكف:

المجتمع مدين له.. والفرد مدين له.
والبشرية جمعاء مدينة لذلك المعصوم.
يارب! احشرنا يوم القيامة بهذه الشهادة.

كانت قلوب أصحابه الذين توجهوا معه إلى بدر مملوءة بالشوق إلى الجنة، إلى درجة كانوا وكأنهم يرون تلالها وجبالها. كانوا قد تهيأوا جيداً، ووصلوا إلى بدر وهم في أفضل درجات الرضى والاطمئنان.. لقد أصبحت الضمائر متوجهة إليه ومقبلة عليه.. لقد وجدت الإنسانية ضالتها في محمد المصطفى ﷺ سواء أكان في المدينة أم في مكة.. لقد بدأ عهد الأمين.

ثم سيأتي يوم يقول فيه لعدي بن حاتم: «يا عدي! هل رأيت الحِيرة؟» فيقول: لم أرها وقد أنبئت عنها. فيقول: «فإن طالت بك حياة لتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.»(١)

لقد كان هذا العهد الذي تكلم عنه وأشار إليه قد بدأ فعلاً منذ ذلك الوقت، فالحركات العسكرية الكثيرة التي أجراها وطدت الأمن أولاً ثم أرست أسس معركة بدر.

لم يتأذ أحد من هذه الحركات العديدة ولم يفقد أحد أمنه واطمئنانه، فمع أن هذه السرايا كانت تظهر هنا وهناك بسرعة البرق وتؤكد على وجودها، إلا أنها كانت تزرع الأمن والاطمئنان، إذ لم تكن أفراد هذه السرايا جماعة نهب وسلب، بل الجنود الأمناء لمحمد ﷺ، أي فريق الأمن والأمان، وضد جماعات النهب والسلب، وضد الأشقياء والشقاوة، فهم لا يخلفون وراءهم سوى آثار الاطمئنان والأمن، حتى يتساءل الجميع: من أين أتت هذه الرحمة؟ كانت هذه الرحمة آتية من سحب رحمة محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، وكانت هذه السرايا هي رعوده وبروقه، وكانت الأنوار المنتشرة منها تكتب اسمه.

---

(١) البخاري، المناقب، ٢٥، «المسند» للإمام أحمد ٢٥٧/٤، ٣٧٨

الفصل الثاني: نبينا والمعارك التي خاضها

أ- معركة بدر وأسبابها

تحت هذه الظروف التي رعتها السماء تم الإقبال على بدر، لقد جاء الوقت المناسب لإنزال الضربة النهائية على رؤوس الذين يعرقلون ويمنعون الدعوة المخلصة الصافية إلى الله تعالى وإلى إعلاء كلمة الله، ولكي يقال لأعداء الله: لن تستطيعوا بعد الآن منع ذكر اسم الله تعالى في أرجاء الأرض ولن تستطيعوا إدامة الضغوط على النفوس المنفتحة على دعوته. أجل، فدعوة الله يجب ألا تبقى منحصرة في مكان محدد، بل يجب أن تدخل إلى النفوس جميعها لتطمئن بها جميع القلوب، ويجب أن تزال جميع العقبات من أمام إعلاء كلمة الله لكي لا تبقى هذه الكلمة في نطاق الأسر، بل لتنتشر في آفاق الإنسانية كلها، وتكون لها مبدأً. ولكي يقوم الرسول ﷺ بإنزال الضربة الاخيرة على مشركي مكة الذين لم يعترفوا له بحق الحياة الكريمة في مكة، فكان عليه أن يفتح الطرق المؤدية إلى حرية الفكر ويحطم كل ما يعوق أو يمنع هذه الحرية.

ثم إن المسلمين كانوا قد فقدوا جميع أموالهم التي اكتسبوها حتى ذلك الحين. لأن الرسول ﷺ والمهاجرين عندما هاجروا من مكة لم يستطيعوا أن يأخذو معهم إلا الشيء القليل، وتركوا كل أموالهم وأملاكهم في مكة المكرمة، وكان أهل مكة يحملون هذه الأموال على الجمال ويذهبون بها أمام أنظار المسلمين لبيعها في الشام أو اليمن. كانت الأموال المحملة على القافلة المارة بالقرب من المدينة أموال المسلمين وكان يجب استردادها.

ثم كان من الواجب معاقبة بعض الأشخاص الذين كانوا يطاردون المسلمين، ويهددونهم ويضيقون الخناق عليهم ويعذبونهم، كان بعضهم يقتلون المسلمين بحرابهم التي يصوبونها ليخترقوا صدور المسلمين ويطردونهم من أوطانهم ومساكنهم. كان من الضروري معاقبة هؤلاء وإيقافهم عند حدهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم. كان عليه أن

يسدد إليهم ضربة أخيرة لكي يقول لهم: إن القوة ليست بأيديهم بل في يد الحق، وإن الله تعالى سيهب القوة لمن سلك طريق الحق، وستكون القوة كلها في يد الحق إن لم يكن اليوم فغداً، وسيأتي يوم تكون الكلمة فيه للحق، حيث سيسود الحق في القلوب والأفئدة، وسيتم إظهار الاحترام للإنسان وللحقيقة السامية التي أتت بواسطة الإنسان.. كان هذا ما يقاتل من أجله الرسول ﷺ.

وكان هناك أناس من بعض الأقوام والقبائل لفتهم الحيرة، فبقوا في الوسط لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكان قسم منهم يرغب في الدخول إلى الإسلام، إلا أنهم كانو يخشون ظلم قريش واضطهادها، فبقوا محتارين ومترددين، يرفعون أرجلهم ولكنهم لا يستطيعون الخطو إلى الأمام.

ولكن بعد أن رأى هؤلاء أن القوة أصبحت بيد رسول الله ﷺ، وأن توازن القوى تغير لصالح المدينة اطمأنوا واستطاعوا أن يخطوا تلك الخطوة وهم مطمئنون، فكأن الرسول ﷺ يقول لهم: "لا تخافوا ولا تحزنوا، سيجعل الله تعالى لكم فرجاً ومخرجاً إن كنتم مؤمنين، وسيفتح لكم الأبواب والشبابيك على مصاريعها، لكي تصلوا إلى السعادة وإلى الأمن والاطمئنان" هكذا كان الرسول يخاطبهم، ولكن المترددين لم يتأكدوا من هذا إلا في نهاية معركة بدر الكبرى، إذ رأوا كيف أن ميزان القوة قد تغير مكانه، وأن كفار مكة لم يعد في إمكانهم أن يمدوا لهم يد الأذى، فتوجهوا إلى المدينة، إلى مركز المدينة وإلى الرجل العظيم فيها محمد ﷺ، وإلى حقيقة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

١- القوى في بدر

جاء في كتب السيرة والمغازي أن الرسول ﷺ ذهب إلى بدر مع ٣٠٥ من أتباعه، وبعض الكتب يرتفع بهذا العدد إلى ٣١٣ من المقاتلين،[١] ويقول بعضهم إن هذا العدد

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٦٤/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٨/٣

هو عدد الجنود الذين قاتلوا مع النبي داود عليه السلام ضد جالوت. أجل، كانت عمليات تحويل قدر الإنسان وتاريخه يتم في هذين العهدين، فجيش النور كان يقاتل جيش الظلام، وكانت قمتا وذروتا آل إسحاق وآل إسماعيل تُمثلان حقيقة الحنيفية الموحدة، وكان العدد في كلا الجيشين هو ٣١٣.

أجل، فكما قال محيي الدين بن عربي في "فصوص الحِكَم"، فقد كان على رأس أحد الجيشين النبي داود عليه السلام الممثل للخلافة، وعلى رأس التاني ممثل الشفاعة العظمى وممثل مقام الفردية، الفرد الفريد محمد ﷺ.

كان في جيش بدر فارسان و٣٠-٤٠ بعيراً، وفي مقابل هذه الإمكانيات القليلة التي كان يملكها المسلمون، ومقابل الجوادين الذين كانوا يملكونهما، نرى أن المشركين يملكون ٢٠٠ من الخيول، أي أن مقابل كل فرس للمسلمين كان هناك ١٠٠ فرس، أي مقابل كل فارس كان هناك مائة من الفرسان، ومقابل ٣١٠ من المحاربين المسلمين كان لدى المشركين ما يقارب الألف من المحاربين أي أن كل مسلم كان يقاتل ٣-٤ من المشركين. وكانت قريش قد أتت بجيش مجهز بكل ما عرف من قبلهم حتى ذلك الحين من التجهيز للقتال، أي بجيش مجهز بكل أدوات وأسلحة الجيش المعروفة آنذاك، بينما جاء جيش الرسول ﷺ وهم يتعاقبون الركوب على عدد قليل من الجمال ليقطعوا مسافة ٢٠٠ كم. من المفيد معرفة هذه المعلومات، معرفة تلك الظروف من صحراء وحر وصيف، وكون الجيش صائماً، لأن الشهر كان شهر رمضان، وكان عليهم قطع مسافة ٢٠٠ كم في ذلك الحر الشديد، ثم أتدرون ما الصحراء؟ وأين بدر؟ بعض الذين ذهبوا إلى الحج يعرفون ذلك بعض المعرفة، توجد على الطرق هناك الآن محطات بنزين، فإذا تخيلت خلو هذه المنطقة، هذه الطرق من هذه المحطات ومن بعض الواحات الصغيرة -وهي حديثة- فلا يبقى أمامك سوى الرمال الممتدة على مد البصر في كل اتجاه، وستسمع أصوات العواصف الرملية وهي تهب من هنا وهناك وتهددك.

والشيء الآخر من الموضوع هو أن المسلمين خرجوا لتهديد قافلة قريش، ولكن إرادة الله كانت متوجهة لأمر آخر، إذ ساق المسلمين إلى ملاقاة جيش قريش. يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتَوَدُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ۝ لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبطل الباطلَ ولو كره المجرمون﴾ (الأنفال: ٧-٨).

٢- المواجهة

ولأن الله تعالى كان يريد هذا فإنه ساق المسلمين -رغم أن نيتهم كانت شيئا آخر- لكي يلاقوا جيش المشركين وليس قافلتهم. كان المسلمون يرغبون في تعقب القافلة ثم الايقاع بها، واسترداد أموالهم منها، بينما كان الله تعالى يفتح أبواب عهد جديد، ينغلق فيه عهد ظلمهم ونهب أموالهم. أجل، كان على المسلمين أن يوقعوا ضربة قاضية على المشركين، تجعلهم يترنحون تحتها ولا يثوبون إلى رشدهم. لقد انفتح عهد "الحق يعلو ولا يعلى عليه" فالحق يجب أن يغلب ويعلو ولا يعلو عليه شيء. كانت هذه هي مشيئة الله: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن." ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ (التكوير: ٢٩).

لذا، فلا يهم مشيئة أي إنسان آخر، كانت مشيئة الله هي التوجه إلى بدر، وكان رسوله يحدس هذا، وكانت السماء تتطلع بنظرها إلى ذلك اليوم المبارك من شهر رمضان المبارك الذي كان يقترب شيئاً فشيئاً من ليلة القدر. وعندما وصلوا إلى هناك أُمطِرَ المسلمون مطر السكينة، وكان هذا يحمل لهم معنى خاصاً، فقد أطفأ به الغبار وتلبدت به الأرض، وامتلأت الآبار بالمياه، وكأن الملائكة نزلت مع قطرات ماء المطر. والحقيقة أن الملائكة نزلت واتخذت هيئة المسلمين وشارتهم لكي يتشبهوا بهم، وكان شعار المسلمين في ذلك اليوم هو "أحد، أحد!"[1] سيهتف الجميع "الله أحد" وسيزأرون بهذه الكلمة.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٨٧/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٣٥/٣

كانت عباءاتهم بيضاء وكأنها الأكفان، لأنهم عندما خرجوا لم يكونوا يعرفون متى وأين سيقابلون أعداءهم، لذا كانوا مستعدين للموت ولاستقبال الحوريات لهم، لذا لبسوا عباءات بيضاء مثل ملابس الحجاج على عرفة، كان منظرهم شيئا يستحق النظر حقاً.

كان هناك من غمره الألم لعدم استطاعته المشاركة في هذا السفر المبارك، من بينهم أنس بن النضر الذي لم يكن يفكر بمفارقة الرسول الأكرم ﷺ حتى في منامه. فاته الاشتراك في هذه المعركة فتقلب على آلام هذا الفراق وعدم المشاركة عاماً كاملاً. وإذا أحببتم قمت بالدعاء لكم أن يرزقكم الله مثل هذا الألم.. الدعاء بقطع العلاقة مع ما سوى الله تعالى لأقول: "اللهم اشغل قلوبهم وعقولهم بهذا الألم، واطرد النوم من أعينهم." أجل، إن العيش في آلام هذه الأمة المنكوبة البائسة، والتفكر في أحوالها، والتألم لآلامها، دعاء عظيم وتضرع كبير قد يفوق أجره أجر ألف ركعة من الصلاة حتى في مكة المكرمة، وأفضل من الطواف حول الكعبة. أجل، قد لا تكون فتحت كفيك وتضرعت إلى الله تعالى قائلاً: "يا رب!" ولكنك أرقت وتقلبت في الفراش حتى الصباح، وحرمت عيناك النوم وأنت تفكر في أحوال الأمة الإسلامية: "آه يا إخواني في تُركِسْتان... آه يا إخوتي في أفغانستان... من يدري أي يد امتدت إلى حجاب أختٍ من أخواتي هناك؟ من يدري أي أخت أو أم من أخواتي أو أمهاتي يتعرضن الآن للاعتداء عليهن؟ إخواني في "جمعة بالا" وفي "كملوجه" وفي "صوفيا (Sofia)" وفي "اسكج"، وإخواني في "قواله"[١] المدينة التي زينها السلاطين العظماء بالجوامع التي لم يعد لها أي أثر، وإخواني في فلسطين وكشمير وفي أماكن أخرى عديدة."

أجل، إن تجرع مثل هذه الآلام يعد دعاءً عظيماً وكبيراً، وعند التوجه إلى الله يقول أهل السماء: "آمين"، وهي لحظة يصل فيها المؤمن بآلامه هذه إلى مرتبة سامية، وتتزين هذه المرتبة أكثر إن صحبتها الأدعية.. تلك اللحظة التي يحس فيها المؤمن بصداع في

(١) هذه المدن في بلغاريا واليونان.

رأسه، ويضع يده على خاصرته وهو يتلوى من الألم، لأنه يكون آنذاك مع إخوانه الذين يقلق من أجلهم، ومع إخوانه الذين يفكرون مثله، ثم إننا موجودون لهذا الغرض، فإذا كنا لا نستطيع عمل شيء، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. فإذا تم الاعتداء على إخواننا وعلى أمتنا دون أن يكون في يدنا عمل أي شيء لرفع هذا الذل، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها.

ذهب الصحابة بمثل هذا الفهم إلى بدر بكل شوق، ذلك لأن الجنة كانت أمامهم وتنتظرهم. وكانت هناك حياة أبدية، والأهم كان هناك رضا الله تعالى، وكانت الملائكة فرحة في ذلك اليوم بالمسلمين الذين كانوا يهتفون: "أحد، أحد!" وتتنزل من السماء طوابير طوابير، وكأنها تريد تهنئة نصر بدر قبل وقوعه وتحتفل بهذا النصر. كان هناك من يستطيع أن يراهم وعلى رؤوسهم عمامات بيضاء وعليهم عباءات بيضاء، لماذا؟ لأن الصحابة كان عليهم عندما قدموا إلى بدر عباءات بيضاء، وكان الشعار الذي يرددونه على ألسنتهم هو: "أحد، أحد!" أجل، كانت الملائكة تُستقبل بهذه الكلمات بينما كان مشركو مكة وشيوخ الكفر فيها آتين وعليهم ملابس سوداء مثل قلوبهم.

من بين الصحابة الذين أتوا إلى بدر بفرح وبهجة كان هناك صحابي جالس تحت شجرة يأكل التمر، فسمع النبي ﷺ وهو يبشرهم ويقول لهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.» فقال: "بخ بخ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟" ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.(١)

كانت هذه هي الرغبة العامة والمشتركة لديهم في ذلك اليوم، لذا قدموا إلى بدر في شوق وفي لهفة، وهذه حالة روحية ديناميكية لا يمكن لأي قوة أن تغلبها. بهذه الروح كان هؤلاء قد أُعدوا، إذ لا يمكن مقاتلة مثل هؤلاء الجنود الذين يقبلون على القتال

(١) البخاري، المغازي، ١٧؛ مسلم، الإمارة، ١٤٥

وكأنهم يقبلون على عرس. ذلك لأنهم يستحقرون الحياة الدنيا ولا يرجون في الآخرة إلا رضا الله تعالى، لذا لا يمكن مناجزة مثل هذا القوم ولا الوقوف أمامهم.

٣- ﴿ الجيش النظامي ﴾

كان من حسنات بدر أن عالم البداوة شهد جيشاً نظامياً للمرة الأولى فلم يعد هناك مكان لغارات النهب والسلب، ذلك لأن على رأس هذا الجيش كان هناك شخص أتى بالنظام للإنسانية وبالقسط. ﴿ووضع الميزان ۞ ألاّ تطغوا في الميزان ۞ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ (الرحمن: ٧-٩) تتكرر كلمة الميزان في هذه الآية ثلاث مرات، إذن، فهل هناك أمر طبيعي أكثر من أن يقوم الله تعالى الذي بيّن أهمية النظام والتوازن والتناغم بإرسال محمد ﷺ كرجل نظام ودقة وتوازن على رأس جيش منظم إلى بدر؟

كانت هناك مفارز استكشاف، ولم يكن عرب الجاهلية يعرفون هذا من قبل، وكان أفراد هذه المفارز من الأفراد الذين أنضجتهم الحياة واكتسبوا فيها خبرة ودراية بحيث كان من الصعب مشاهدة كادر آخر في مستواهم. قامت هذه المفارز بما يقارب من عشرين طلعة اكتشاف جابت فيها كل أنحاء البوادي والمناطق. ولم تكن هذه الطلعات مجرد تطبيقات، بل كانت مفارز أنضجتها الحوادث وصقلتها التجارب وقابلوا الأعداء وجهاً لوجه مرات ودوخلوا معهم في صدامات ساخنة أحياناً، ووصلوا أحياناً إلى أماكن تجمعهم فأثاروا فيها الرعب والخوف، ولم يكن باستطاعة من لم يمر بتجاربهم وتدريباتهم أن يقف نداً أمامهم. كانوا على علم جيد بمواقع العدو ومن أين تمر القوافل وأين يوجد من يوصل أخبار العدو إليهم. كانت هذه هي المرة الأولى التي تتشكل فيها هذه المفارز السريعة الحركة في تاريخ البداوة، وربما في تاريخ الإنسانية، وكل ذلك بفضل الرسول ﷺ، هل تقولون: كيف؟ أقول لكم إن الرسول ﷺ الذي لم تكن له تجارب في الأمور العسكرية والاستخبارية قام بتشكيل جيش وطد به أمن الطرق، فأصبح في الإمكان قطع

طريق طوله ٢٠٠ كم راجلاً أو راكباً على البعير دون مقابلة أي مانع أو عائق. ذلك لأن المفارز والسرايا التي شكلها قامت بما يقارب بعشرين دورية استكشاف في هذه المناطق حتى ذلك الحين. لذا، كان في الإمكان قولهم إن المسير من هنا، وإن الطريق هو هنا وهناك، لذا استطاعوا الوصول إلى بدر في أمن وسلام، وكانت هذه مسألة مهمة.

٤- التوجه إلى موضع الآبار

كانت آبار بدر هي الأماكن التي يحط الجيش فيها رحاله ويستريح، وكان العدو يحاول أيضا احتلال هذه المواضع، يسرع نحوها بفرسانه البالغ عددهم مائتي فارس، ولكن فراسة المؤمنين وسرعتهم الفائقة جعلتهم يسبقونهم لاحتلال تلك المواضع. كان موضع بدر هو الموضع الوحيد هناك الذي توجد فيه المياه، واحتل من قبل المسلمين. وكانت مفارز الاستكشاف تتعقب القافلة، فبعدما ينهون عملهم هنا كانوا ينوون التعامل مع القافلة أيضاً، لأن أموالهم التي تركوها في مكة كانت موجودة فيها وكان عليهم أن يستردوها من الغاصبين. كان المؤمنون يخططون لهذا، ولكن إرادة الله تعالى كانت تقضي شيئا آخر، يجب أن يتلقى الكفر ضربة قوية تفقدهم توازنهم فلا يستطيعون بعد ذلك رفع رؤوسهم.

قسم رسول الله ﷺ جيشه إلى وحدات في اليسار واليمين والوسط، ولم يكن هذا معروفاً آنذاك. كان الوسط مؤلفاً من المهاجرين ومن رؤساء الأنصار الذين بايعوا الرسول ﷺ على الموت، فلو بقوا هم وحدهم في الميدان لما رجعوا عن الوعد الذي قطعوه على أنفسهم، كان هؤلاء هم الذين شغلوا وسط الجيش وقلبه.

وضع على رأس قلب الجيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي أثبت رشده في مواضع كثيرة، وكذلك سعد بن معاذ رضي الله عنه. كان أحدهما على رأس المهاجرين والآخر على رأس الأنصار.[1]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٢٦٤؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣١٨

كان علي ﷺ أعظم الصحابة من زاوية فضله الخاص به. ومع أن هناك قناعة واتفاقاً عاماً على أن الخلفاء الثلاثة الراشدون الذين سبقوه كانوا أفضل منه من ناحية الفضائل العامة، ولكن وضعه الخاص وقرابته من النبي ﷺ وعلمه بأسرار آل ذلك البيت واستمرار نسل الرسول ﷺ من قبله[١] وكونه تاج جميع الأولياء وقرة أعينهم. من هذه الزاوية لم يكن له مثيل آخر، كان قد أسلم وعمره سبع سنوات فلم يصبه غبار الشرك والكفر. وعندما سأل رسول الله ﷺ أكابر بني عبد المطلب بعد أن شرح لهم أنه بعث إليهم خاصة وإلى الناس عامة قائلا: «فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟» فلم يقم إليه أحد، فقام علي ﷺ وكان أصغر القوم فقال له الرسول: «أجلسْ» وكرر الرسول دعوته ثلاثا وفي كل مرة يقوم إليه علي ﷺ، وفي الثالثة ضرب رسول الله يده في يد علي ﷺ.[٢]

وعندما أصبح عمره سبعة عشرة سنة كلفه الرسول ﷺ أن يبيت ليلة الهجرة في فراشه، أي اقترح عليه الموت، فقبله.[٣] أجل، لم يتردد علي ﷺ في مثل هذه الأمور أبداً، لذا فقد كان هذا الشاب المملوء رجولة وشجاعة على رأس المهاجرين في بدر. فداك نفسي يا رسول الله! كم كنت مصيباً في اختيار الرجال!

أما سعد بن معاذ ﷺ فكان أيضا مثال الفضيلة والاستقامة، وكان إخلاصه معلوما من قبل الجميع، وعندما جُرِحَ جرح الموت في المعركة كان ما قاله وهو على فراش الموت أبلغ شاهد ودليل على إيمانه، إذ قال وقد شخص ببصره إلى السماء: "اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل ما أصابني

---

(١) في الحديث: «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب.» («مجمع الزوائد» للهيثمي ١٧٢/٩؛ «فيض القدير» للمناوي ٢٢٣/٢؛ «تاريخ بغداد» للبغدادي ٣١٧/١)

(٢) «المسند» للإمام أحمد ١٥٩/١

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٢٧/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٢١٦/٣

اليوم طريقا للشهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة»[١] وقد توفي متأثراً بجراحه تلك وعندما شيعه الرسول ﷺ لمثواه الأخير قال عن جنازة سعد: «اهتز لها عرش الرحمن»[٢] فما أصوب هذا الانتخاب وما أعظم هذا الاختيار!

كان هؤلاء هم الذين يسيطرون على قلب الجيش ووسطه، فإذا كان القائد يفضل الموت على العيش بذل فهل يفر جنوده؟ وعندما يضحي القائد برأسه ألا يضحي الجنود برؤوسهم؟ ثم إن الجنود أتوا إلى هناك وهم يبحثون عن الشهادة ويفتشون عنها. وكان رسول الله ﷺ يوجد في هذا القلب أي في المركز وفي الوسط محاطاً بمثل هؤلاء الجنود الذين أصبحوا له درعاً لا يصل إليه أحد، كلا لن يصل إليه أحد حتى يدوسوا على جثث كلّ هؤلاء الجنود.

كان إذن، على رأس مثل هذا القلب، وكان قد أعطى الراية إلى مصعب بن عمير،[٣] فما أروع هذا الاختيار! -في معركة أُحد قطعت اليد اليمنى لمصعب فأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه فقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ مِن قَبله الرُسُل﴾ (آل عمران: ١٤٤) وحافظ على الراية حتى استشهد[٤]-

كان مصعب يقف في الوسط وراية بيضاء تخفق في يده.. كانت الميمنة والميسرة قد أخذتا مكانهما بانتظام، كانت القوة الأمامية جاهزة تنتظر الأوامر، والرديف في الخلف وعلى رأسهم قيس بن أبي سعد ﷺ، فلو قمت بقلع أظافرهم ظفراً ظفراً لما تأوه أحدهم، كانوا بهذا التصميم والقوة والمقاومة.

كان جيش المسلمين يمثل نظاماً لم يشاهده أرباب القتال حتى ذلك الحين ولم يعرفه أحد من قبل، وكان هذا هو الأمر الذي قصم ظهر قريش. كان الرسول ﷺ قد أتى بنظام جديد ليعلن لهم موت الأنظمة القديمة العفنة وأنها دون فائدة.. كان الرسول ﷺ

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٣٠؛ **مسلم**، الجهاد، ٦٥؛ **الترمذي**، السير، ٢٩

(٢) **البخاري**، مناقب الأنصار، ١٢؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٣؛ **الترمذي**، مناقب، ٥٠

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٦٤/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣١٨/٣

(٤) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٢٠/٣

قد أتى بنظام جديد، أما هم فكانوا مقيدين بالنظام القديم، حيث كانت الفوضى سائدة في صفوفهم. ثم إن الرسول ﷺ كان على رأس جنده مما أعطى المسلمين قوة معنوية إضافية وقوة ديناميكية إضافية.. لقد سبق وأن عاهدوه قائلين: "والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزْرَنا"[1]

إن المهم جداً قيام الإمام بنفث الأمن والثقة في نفوس رعيته، وكان الرسول ﷺ يقوم بهذا على أحسن وجه، لقد قال لهم: «اَلْمَحْيَا مَحْيَاكم والممات مماتكم.»[2]

كانت كلماته هذه ترن في أسماعهم، وكان يتجول بينهم ويتواجد في وسطهم، ثم إنهم جاءوا إلى هناك وهم يتعاقبون الركوب على الجمال (ويح نفسي ليته داس على وجهي ولم يدس على التراب)، وركب معه اثنان على جمله حتى وصولهم إلى بدر.. كانا حزينين ويقولان له: "اركب حتى نمشي عنك" ولكن الرسول ﷺ كان يقول لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[3] كان أمير الأمراء يقول هذا.. إنه إنسان بين الناس، يقوم ويجلس معهم ولا يفارقهم.. يجلس معهم ويأكل من الطعام نفسه الذي يأكلونه ويشاركهم في كل شيء ولا يتميز عنهم.

أصبحت كلمة "المساواة" تتردد كثيراً على ألسنة الناس بعد قيام الثورة الفرنسية، فهل رأى الناس منذ ذلك اليوم مساواة؟ لم يعرف هذه المساواة سوى الإنسان الذي عاش في عهد النبوة وفي عهد الخلفاء الراشدين وذلك بفضل الرسول محمد ﷺ.

لقد فتحت السماء أبوابها له في أحلك أيامه واحتضنته وحفت به الملائكة، وكما قال الشاعر "نظامي"[4]:

لقد أصبحت أنصاف الأهلة حدوات تحت حوافر جواده

---

(١) **أُزْرَنا**: أي نساءنا

(٢) **مسلم**، الجهاد، ٨٦؛ **«المسند»** للإمام أحمد ٢/٥٣٨

(٣) **«المسند»** للإمام أحمد ١/٤١١، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤

(٤) **نظامي كنجوي** (١١٤٠-١٢٠٣): من كبار شعراء الفرس، من آثاره المشهورة مخزن الأسرار وخسرو وشيرين وليلى ومجنون.

قـالت لـه الجنـة: "لا تذهـب، ابق هنـا" ولكنـه رجـع إلى وسـط النـاس. يذكـر الـولي الكبير"عبد القدوس" هذه الحادثة فيقول: "وصل النبي محمـد ﷺ إلى مقـام لم يصلـه أحـد، وأنا أقسم بالله لو أنني صعدت إلى تلك المقامات لما رجعت منها إلى الدنيـا أبـداً"، ويعلق على هذا الكلام ولي آخر فيقول: "هذه هـي المسـافة التي تفصـل بين النبي والـولي والـتي لايمكن قطعها أبداً".. كيف يمكن قطع هذه المسافة؟ إنه الرسول محمد ﷺ.

أجـل، فمـع انـه في مثـل هـذه المنزلـة لـدى الله ﷻ فهـو يـرى نفسـه إنسـاناً بين النـاس ويحب أن يكون بينهم. لقد شاهدت الإنسـانية المسـاواة بواسـطته، ولـو وصلـت الإنسـانية إليها مرة أخرى فسيكون أيضا بفضله، وهذا الانتظار حقيقة نابعة من طبيعة علـم الحقـوق نفسه. هكذا كانت بادية العرب تنظر إلى هذا الجيش مـن جانبـه هـذا، وكـان هـذا شـرفاً كبيراً بالنسبة للبادية.

قام الرسول ﷺ بتنظيم الجيش بنفسه وعين له مواضعـه ثـم حفـر بئراً كبيرة في وسـط الموضع حيـث ملئـت بمـاء يكفـي الجيـش حتى انتهـاء المعركـة، ثـم قـام بسـد جميـع الآبـار الأخرى،[1] إذن، فسيأتي العدو دون تهيؤ معتمداً على وجـود الآبار هناك، وعندما يـرون ما حل بالآبار سيحسون بأن ظهرهم قد انقصم، وهذا ما حصل فعلاً.

وكمـا كان نظام الجيش جيداً، كان أسلوب حركته وقتاله جيداً أيضـاً، فـالجنود كـانوا يعرفون جيداً أين يستعملون النبال وأين يستعلمون الرماح وأين يستعملون السيـوف ومتـى تدخل ميمنة الجيش وميسرته المعركة. ومتى تتدخل القوة الموجودة في الخلف.. كل هـده الأمور كانت مؤقتة توقيتاً ممتازاً.

أما المكان الذي أقام فيه الرسول ﷺ خيمته أو عريشه فقد اختير بدقة كبيرة تليق بقائد عظيم مثل الرسول ﷺ. إذ كـان هـذا الموضـع يشـرف علـى سـاحة المعركـة إشـرافاً جيـداً، وكـان يشـرف منـه علـى الجنـاحين الأيمـن والأيسـر وعلـى القـوة خلفهمـا. وكـان بمكانـه

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٧٢/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٦/٣-٣٢٧

الاتصال بالجند وإيصال الأوامر وتكتيك القتال إليهم بسرعة.

كان كل شيء قد تم وستبدأ الحرب بعد قليل وسينتصر المسلمون على أعدائهم الذين يفوقونهم بثلاثة أضعاف ويلحقوا بهم هزيمة نكراء بخسائر قليلة تبلغ أربعة عشر شهيداً فقط، وكما ذكرنا سابقاً فقد أعطى الرسول ﷺ للمسلمين شعار المعركة وهو الهتاف بـ "أحد، أحد"، وأحد اسم من أسماء الله الحسنى لا يجوز تسمية أي شخص بهذا الإسم، والأحد هو الواحد في ذاته ﴿قل هو الله أحد﴾ (الإخلاص: ١)، فالأحد هنا إشارة إلى توحيد الألوهية وإلى توحيد الربوبية كذلك. فمثنى الواحد هو اثنان، ولكن لا يوجد مثنى للأحد فالأحد رقم فريد بين الأرقام لا يوجد له ثان أو ثالث، أي إن الله واحد أحد لا ثاني له.

كان الشعار في ذلك اليوم هو "أحد أحد"، وكلما هتفوا بهذا الشعار كأن صوتاً يأتيهم من وراء الغيب يقول لهم: لبيكم عبادي. فإذا كان هذا هو حكمة اختيار هذا الشعار فالحكمة الثانية هي أن أهل مكة كانوا يجهلون حتى ذلك الحين إطلاق الشعارات. وكان المؤمنون بفضل هتافهم بهذا الشعار يشعرون برابطة أقوى من جانب ومن جانب آخر كانوا يلقون الرعب في قلوب المشركين وهم يسمعون هذا الهتاف المدوي من أناس عليهم ملابس بيضاء كأنها الأكفان. كان المؤمنون يبحثون عن الموت وعن الاستشهاد في سبيل الله.. كان هذا هو غايتهم الوحيدة.

٥- المبارزة الأولى

ومع بقاء التنظيم العام، والاستيراتيجية العامة محفوظة فإن القرارات كانت تصدر تباعاً حول كل تكتيك جديد، وكانت كلها موفقة.

في البداية أخرج رسول الله ﷺ ثلاثة مبارزين، كان كلهم من الأنصار ومن الأفراد المهمين والمشتاقين إلى الشهادة، فلو تصدى لهم عنترة أو هرقل لما تردد أحدهم في مبارزته والقتال معه. ولكن قريشا أبت بغرور وبكبرياء وقالت: أخرج لنا يا محمد أكفاءنا من

قومنا. كان هذا هو الغرور المهلك بعينه، وهو ما ينتظره الرسول ﷺ، ومع أننا لا نـدري، فقد يكون هذا هو تكتيكه؛ فكتب السير لا تذكر هذا، ولكن مما لا شك فيه فالأشخاص البارزين كانوا معيين في ذهنه فقال: «قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا علي!» كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة يعادل كل منهم جيشاً.. كان اثنان منهما ابني عم له، والثالث عمه، أي إن أول من أرسله ليدق أبواب الموت كان أقرب الناس إليه رحماً ونسباً. وخرج ثلاثة مبارزين من بين الطرف الآخر، عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة. كان العدو على أعتاب هزة كبيرة، كان هؤلاء من أقوى رؤساء القبائل.. وعندما سقط الأخوان وابنهما صرعى بالسيف في وسط بدر هبطت الروح المعنوية لدى صفوف العدو. وكان هذا أولى علامات انجراره إلى الهزيمة. أما عبيدة الذي أخذ جراحاً شديدة فقد أخلي من ساحة المبارزة وذهبوا به إلى ابن عمه رسول الله ﷺ المرشد إلى أبواب الجنة حيث توفي بقربه.[1]

هبطت الروح المعنوية لدى الأعداء بعد قتل عُتبة وشيبة والوليد، فقد كان هناك أناس قدموا إلى المعركة بإلحاح من هؤلاء الثلاثة. فكان موت هؤلاء الثلاثة سبب رعب وغيظ وفوضى لدى العدو.

٦- ﴿ غايات متباينة ﴾

بدأ كل واحد ينعق بشيء مختلف، إذ اختل النظام وسادت الفوضى، وهذا جعلهم هدفاً لنبال ورماح المسلمين ثم لسيوفهم. كان رسول الله ﷺ قد وجه إليهم ضربة أطارت صوابهم فلم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون، ثم إنهم عندما أتوا إلى بدر لم يأتوا إليه في سبيل مبدأ أو فكر أو مُثل معينة، بل جاءوا يحدوهم الحقد والغضب، بينما جاء الرسول ﷺ إلى بدر في سبيل فكرة سامية وهدف نبيل، كان هدفه هو إعلاء كلمة الله. أجل، إن المبدأ مهم جداً، لم يكن أبو جهل وشيبة وعُتبة وابن أبي مُعيط وأُمية بن خَلَف

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٧٧/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٣٣/٣

يعرفون لماذا يقاتلون، لقد جاءوا بدافع الحقد والغيظ ليقتلوا الناس هناك، وكانوا يعتقدون أنهم بعملهم هذا يعلون من شرف الكعبة ويزيدون من منزلتهم ومكانتهم في أعين الناس، لم يكن لهم أي مكسب بالنسبة للماضي، وما كان بالإمكان أن يكون، ذلك لأنهم أتوا إلى هناك بدافع الحقد والغيظ والغضب.

أما المؤمنون فقد كانوا هناك من أجل تحقيق هدف سامٍ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى ونشرها في أرجاء الأرض. كانت القلوب تخفق بهذه المشاعر وترى أن الموت يهون من أجل تحقيق هذه الغاية، وذلك لأنهم كانوا يُستشهدون في سبيل الله، لذا كانوا ذاهبين للقائه، ومن يلق الله تعالى ويصل إليه لا يخسر شيئاً، بل يكسب الشيء الكثير. كان كل مؤمن يقاتل بهذه العقيدة ويستهين بالحياة بهذه العقيدة، بينما كان الطرف المعادي يرى أن الحياة أهم شيء ومعقد جميع آمالهم.

كل همهم أن تطول حياتهم هذه. ولو تحقق انتصارهم في بدر لقام أبو جهل بتحقيق يمينه وهو أن يشرب الخمر ويرقص الراقصات ويلهو ويطرب،[1] بينما صلى المسلمون هناك ودعوا الله وتضرعوا إليه وبحثوا عن الوسائل والطرق التي تقربهم إلى الله تعالى.

كان هذا هو الفرق بين الجمعين. فأحدهما كان وكأنه يحلق في السماء والاطمئنان يلفه، والآخر قد هوى إلى أخفض قعر في الدنيا وهو يتلوى من الضيق والاضطراب.

٧- فرعون الأمة يصرع

يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ قلت: نعم وما حاجتك إليه؟ قال: "أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٢٧٠؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣٢٤

سواده حتى يموت الأعجل منا" فتعجبت، لذلك فعمزني الآخر فقال لي أيضا مثلها، فلـم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال: «أيكما قتله؟» قال كل منهما: أنا قتلته قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، قال فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاهما قتله»[1] وهكذا سقط فرعون هذه الأمة قتيلاً. أما الغلامان فهما معاذ بن عمرو بن الجموح والآخر معاذ بن عفراء. وفي رواية هما إبنا عفراء رضي الله عنهما.

لقد اجتازوا مرحلة الجاهلية إلى الطرف الآخر، وفي أُحد لقوا ما صبوا إليه إذ لقوا الله تعالى. والحقيقة أنهم عندما أتوا إلى بدر أتوا لتحقيق مثل هذه الغاية السامية. والخلاصة أن رسول الله ﷺ كان يعلن الحرب على الذين ناصبوه العداء طوال دعوته، ومدوا يد الإساءة وخاصموا الحق والحقيقة والعلم والعرفان، والأهم من ذلك أنهم خاصموا الإيمان والإسلام. ولكنه في أثناء نضاله معهم كان يحسب خطواته جيداً فلا يخطو الا بحساب وبتوازن وبحكمة فلا يقع في أي هفوة أو خطأ، فكأنه جاء إلى بدر خمسين مرة وحارب العدو هناك خمسين مرة، وكأنه طبق خطته واستراتيجيته هناك خمسين مرة، لأنه لم يظهر هناك أي خطأ ولا أي هفوة، وكأنه ذهب إلى هناك في نزهة، وهناك انتصر بعون الله ورعايته وتوفيقه.

كل نصر سيؤدي إلى نصر آخر، أي كان قد دخل إلى دائرة مثمرة (هذا ضد تعبير دائرة مفرغة) هنا يؤدي الخير إلى خير آخر، بينما في الدائرة المفرغة يؤدي الشر إلى شر آخر، والتعقيد يؤدي إلى تعقيد آخر، والأخطاء تسلمك إلى أخطاء أخرى، وهكذا يستمر الأمر... أجل، لقد هُيئت الأسلحة وتمت التعبئة بشكل جيد، لذا فلا بد أن تحصل على نتائج جيدة، وكما قال الرسول ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير»[2] وكانت معركة بدر

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٢٨٧-٢٨٨؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣٥٠-٣٥٣

(٢) البخاري، الجهاد، ٣٧؛ الرقاق، ٧؛ مسلم، الزكاة، ١٢١-١٢٣؛ ابن ماجة، فتن، ١٨

خيراً خالصاً.. خيراً للقلب وخيراً للفكر إذ فتح الله أبواب ألف خير للذين حملوا أرواحهم على أكفهم في تلك المعركة فكأنه قال لهم: اسلكوا أي طريق تشاؤن فسيكون النصر حليفكم.

٨- ثم الهزيمة

انقصم ظهر المشركين من هذه الضربة التي تلقوها من الرسول ﷺ، واستمر هذا الرعب عندهم مدة طويلة، ولولا أن بعض المشركين من أنصار أبي جهل وأمثاله قاموا بإثارتهم وتوجيه دعاية مكثفة بينهم لما تجرأ أحد منهم للخروج لقتال المسلمين يوم أُحد، وما كان خروج قريش للقتال يوم أُحد إلا بباعث من الانتقام والحقد، لقد بدأوا يقولون: لابد أن نقاتلهم مرة أخرى مهما يكن الأمر، وحقد وإصرار هند بنت عُتبة مثال جيد على هذا، إذ كانت تقول لابي سفيان: لقد قتل أبي وعمي وأخي وليد وأنت قاعد في البيت كالنساء، وبدلاً من البقاء مع امرأة فإني أفضل الذهاب إلى بيت أمي. كانت النساء يبكين كل يوم ويشققن ثيابهن ويلطمن وجوههن ويثرن الرجال. وهذه الإثارة التي استمرت عاماً كاملاً دفعت المشركين إلى الخروج لمقاتلة المسلمين في أُحد. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

أجل، لقد أنزل الرسول ﷺ في بدر ضربة قوية على رؤوسهم بحيث أنهم ما عادوا يفكرون في مواجهة المسلمين، ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع أن يهدئ الحقد والغيظ في قلوبهم، وكان الرسول ﷺ قد أسدى إليهم بعد معركة بدر جميلاً ومعروفاً ليداوي نفوسهم المجروحة وكرامتهم المهدورة، فمثلا كان بمقدوره أن يأمر بقطع رؤوس جميع الأسرى الذين اقتيدوا إليه والذين أساءوا إلى المسلمين إساءات كبيرة وآذوهم إيذاءاً شديداً، ولكن رسول الله ﷺ فضل أن يمن عليهم وأن يعفو عنهم. وقال: لنعف عن هؤلاء، وأخذ الفدية من بعضهم، وطلب من بعضهم القيام بتعليم عشرة من صبيان أهل المدينة القراءة والكتابة.

٩- أهداف العفو عن الأسرى

أولاً: كان هذا معروفاً أسداه النبي ﷺ لهم. فطلب الفدية عن هؤلاء الأسرى ساقهم إلى قبول الفدية بكل سرور، ثم إن ما أعطوه لم يكن إلا جزءاً من أموال المسلمين التي بقيت في مكة والتي اغتصبوها منهم.

ثانيا: كانت نسبة من يقرأون ويكتبون في المدينة حتى ذلك الحين نسبة واطئة، بينما كان أهل المدينة مرشحين لأن يلعبوا دوراً مهماً في تبليغ العلم والدين، لذا كانت حاجتهم إلى تعلم القراءة والكتابة أكثر من غيرهم. ثم إن الفرق الثقافي بين أهل مكة وأهل المدينة كان سينقلب لصالح أهل المدينة بهذه الوسيلة.

ثالثاً: إن الذين سيبقون في المدينة لتعليم القراءة والكتابة سيجدون فرصة للتعرف بالإسلام عن قرب، وعندما سيعودون إلى مكة سيكون كل واحد منهم داعياً إلى الله ورسوله في بيته، لأن الرسول ﷺ استطاع بمكرمته هذه وتسامحه معهم أن يفتح قلوبهم.

تأملوا مثلاً ابن هشام وهو أخو أبي جهل فإنه لم يشترك في أي معركة ضد الرسول ﷺ حتى إسلامه، ذلك لأنه رأى من كرم الرسول ﷺ معه وتسامحه ومروءته ما جعله يخجل من أشهار السلاح في وجهه، وكان هذا الأمر عاماً تقريباً بالنسبة للجميع.

رابعاً: إن أهل هؤلاء الأسرى وأقرباءهم الذين قطعوا الأمل عن حياة هؤلاء الأسرى عندما رأوهم والتقوا بهم وهم سالمون لم يتعرض أحد إليهم بأي أذى سرى إليهم شعور العرفان بالجميل، لأنهم كانوا يعرفون جيداً مدى الأذى الذي ألحقوه سابقاً بالمسلمين، ومع كل هذا فها هو الرسول ﷺ يتصرف مع كبار قريش بهذا اللين وبهذه المروءة.. هذا اللين والمروءة التي لم يكن يظهرها المكي حتى لأولاده. وقد أدت هذه المروءة التي أبداها الرسول ﷺ نحو الأسرى إلى فتح قلوب الكثيرين من أهل مكة وجيرانهم من المتفقين معهم إلى درجة لو أن أبا جهل لم يقتل في المعركة لما بقي حتى في بيته أحد من الكفار غيره، لأن كل شخص حتى في ذلك البيت لان قلبه حتى أبو سفيان -وكان من أشد بني

أُمَيّة على الإسلام- بدأ يتصرف بمرونة ولين على الرغم من كونه زوجاً للمرأة التي فقدت أباها وعمها وأخاها. لهذا نراه لم يخرج إلى بدر الآخرة على الرغم من إعطائه قرار الخروج هذا من معركة أُحد. فلولا حصول هذه المرونة واللين لكان من المحتمل حدوث شرور كثيرة.

أجل، لقد دخل الرسول ﷺ بمعركة بدر إلى طريق خير، لأن من ملك القوة آنذاك كان يظلم ويفترس الآخرين كالوحش. وعندما تهيأت الفرصة لهند لاكت كبد حمزة وكأنها من القبائل الآكلة للحوم البشر، ولكنها لم تستطع أن تأكلها[1] ولو تيسر لها ذلك في بدر لما ترددت في فعل الشيء نفسه. ولكن المسلمين عندما تيسر لهم النصر في بدر أعطوا أمثلة سامية حول كيفية التصرف الإنساني. وبينما كان الباقون يصبحون هدفاً للنقمة في مثل هذه المواضع كان المسلمون يتألفون القلوب. وكان هذا نتيجة فطنة الرسول ﷺ، ونحن نتناول الجانب العسكري الممتاز للرسول ﷺ كبعد من أبعاد فطنته هذه.

١٠- أسباب النصر

إذا نظرنا إلى انتصار الرسول ﷺ في بدر من ناحية الأسباب فإننا نستطيع أن نقول بأنها كانت مرتبطة بما يأتي:

قام الرسول ﷺ بتعبئة عسكرية جيدة، فقد جاء إلى بدر بجيش مرتبط بقائد واحد يتحرك بموجب أوامره وإرشاداته، وكان هذا الجيش يملك روحاً معنوية عالية جداً وإيماناً قوياً وراسخاً. بهذا الإيمان كانوا يشاهدون بساتين الجنة وهم في الارض، حتى أنهم لم يكونوا متأكدين وهم يمشون في قمم تلال بدر أهم يدوسون على تل في بدر أم على تل في الجنة.. بمثل هذا الإيمان ذهبوا إلى بدر. ثم إن الجنود كانوا مشبعين بروح الطاعة للأوامر الصادرة إليهم، فلو أطيحت برؤوسهم لما أقدموا على عمل دون أن يتلقوا

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٤٦٣/١

حوله الأوامر. فالكل كانوا ينتظرون الأوامر من الرسول ﷺ. وكان صدور الأوامر من مركز واحد شيئاً مهماً في أثناء سياق المعركة، وقد اهتم الرسول ﷺ بهذا الأمر فجعل صلاحية إصدار الأوامر مركزية وعلى أسس ثابتة ومتينة. ثم إنه أنشأ شبكة الاستخبارات جيدة، فمن موضع خيمته كان يستطيع أن يشرف على المنطقة كلها، وكان ينزل أحياناً إلى وسط الجند يتفقدهم، وعندما يشاهد أي ضعف أو خلل في أي موضع ذهب إليه ليعالجه. يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو"[1] صحيح أن الرسول ﷺ كان قريباً من العدو ولكن كان مَنْ يتجرأ للاقتراب منه من الأعداء يتهاوى وكأنه اصطدم بسور قوي من اللحم والعظم.

كان الرسول ﷺ يتجول بين جنده ويشجعهم ويرفع روحهم المعنوية ويقول لهم بأن الله تعالى معهم وأنه سيؤيدهم بنصره. بهذه الروح المعنوية العالية وبهذه الطاعة التامة والانقياد الكامل كان الجميع يتصرفون وكأنهم ذاهبون إلى الجنة.

ثم إن جيش المسلمين كان منظماً بالقياس إلى ظروف وأحوال ذلك اليوم، فقد تمت تعبئته جيداً. فهناك الجناح الأيمن والجناح الأيسر ومركز الجيش والقوة الاحتياطية. وكل هذه الأمور التي اهتم بها الرسول ﷺ كانت هي خلاصة العلم العسكري آنذاك. وقد وجه الرسول ﷺ جميع هذه الأمور ووضعها واستعملها في أماكنها الصحيحة. فمثلاً موضوع الطاعة، فالجندية هي الطاعة وهو أول ما يتعلمه الجندي المبتدئ في الجيش لأنها مهمة جداً، فإذا قيل للجندي: ازحف! زحف، وإذا قيل له: قم! قام. وكان الرسول ﷺ قد علم جنوده الطاعة قبل قدومهم إلى بدر، ثم نصب خيمة القيادة فوق تل من تلال بدر حيث يشرف منها على كل شيء، ويصدر منها الأوامر التي سرعان ما يطيعها الجميع. ثم إنه نفث في قلوب جنده إيماناً لا يتزعزع بحيث أن هذه المعركة كانت معركة بين الذين يستهينون بالحياة وبين الذين يتشبثون بها ويحبونها. أحدهما يرغب في قطف

(١) «المسند» للإمام أحمد ٨٦/١

الورود من بستان الزهور، والثاني يرغب في سقي بستان الورود بدمه، يقول أحدهما:

"يكفي حملي لعبء هذه الحياة، فمتى تفتح أبواب الجنة لأدخلها وأجول في ربوعها"، أما الآخر فيقول: "ليتني أرجع سالماً لكي أعب الخمر عباً وأشاهد رقص الراقصات وأتلذذ بلذائذ هذه الحياة." أجل، كانت المعركة بين فئتين.. فئة تستهين بالحياة، وفئة تعبد الحياة، كما كانت المعركة بين جماعة منظمة وبين مجموعة من الأشخاص غير المنظمين، وكانت نتيجة المعركة معروفة منذ بدايتها، لإنها كانت بين النظام وبين الفوضى. ففي صف المسلمين ما إن تحدث ثغرة في موضع ما حتى يسرع الرسول ﷺ إليه ويقوي ذلك الموضع، وكان المسلمون عندما يرون الرسول ﷺ بينهم تزيد شجاعتهم وتضحيتهم فلا تلبث أن تنغلق تلك الثغرة.

ولا شك أن من صفات وميزات أصحاب الدعوات قيامهم بتطبيق خطط مختلفة تكون ملائمة للظروف المستجدة دوماً. كان الرسول ﷺ يهيئ خططه في فكره بأدق تفاصيلها دون أن ينسى أي تفصيل، ولم يكن يعرف أسلوب وخطط الرسول ﷺ وكيفية تصرفه سوى أقرب قواده إليه. بينما كان العدو يحارب بأسلوب فوضوي بعكس جيش الرسول ﷺ الذي كان يعرف ماذا يفعل بالضبط وأين يوجه نباله وإلى أين يرمي رماحه. أجل، إن الاستيراتيجية مهمة جداً.

١١- ﴿ ترك الجبهة ليس من شيمة المؤمن ﴾

وشيء آخر مهم وهو عدم قيام أي جندي بأي تصرف شخصي، بل عليه البقاء في موضعه وإن كان ذلك يعني الموت إلى أن يأتيه أمر آخر منه ﷺ حتى وإن كانت الهزيمة مقدرة عليه، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم الذين كفروا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهم الأَدْبار﴾ (الأنفال: ١٥).

أي يجب عدم الفرار وإن بقي في الجيش شخص واحد فقط، وأنا كلما تذكرت

هزيمة "فيينا (Wien)" أحسست بألم حارق في أضلعي وأقول لنفسي ليت جنود "قره مصطفى باشا" ماتوا هناك حتى آخر رجل فيهم ولم ينسحبوا، فمن يدري فلعل الهزيمة انقلبت إلى نصر وسقطت التفاحة الحمراء(١) التي لم نستطع فتحها طوال التاريخ. ولكن عندما أصبحت الحياة حلوة في أعين الجنود، والموت شيئاً مرعباً، وتراجع الإيمان والشوق إلى الجنة إلى المرتبة الثانية أو الثالثة عندهم، والأهم من ذلك عندما تكبر الدنيا في عين المؤمن وتكون مهمة عنده، يسلب الله تعالى المهابة من المؤمنين، وعندما يخسر المؤمن مهابته يستطيع الكافر أن يغلبه وأن يسخر منه ويخدعه.(٢)

لا يليق بالمؤمن الهروب من ساحة القتال، قد يقطع هناك إرباً إرباً ولكن لا يمكن له ولا يليق به الهروب، والتاريخ مليئ بآلاف الأمثلة على هذا، وكأن جميع هؤلاء تعلموا الشجاعة والرجولة من أسود بدر، ومعركة بدر مهمة جداً من ناحية أنها أصبحت مثالاً وأنموذجاً للمستقبل.

في معركة اليرموك حارب ٢٠ ألف بطل أمام ٢٠١ ألف من الجيش البيزنطي، كانت هذه معركة مشابهة لبدر، وقد تم النصر بالروح وبالمشاعر نفسها التي كانت سائدة في بدر. تأملوا مثلاً حال بطل واحد من بين آلاف الأبطال، إنه قَبَّاث بن أَشْيَم، قطعت رجل هذا البطل في المعركة في وقت الظهر بضربة سيف ولكنه لم يحس بذلك، وعندما تم النصر للمؤمنين في وقت العصر أراد هذا البطل الترجل عن جواده، وعندما مد رجله كالمعتاد لينزل وقع على الأرض، وعندما حاول أن ينهض أدرك ما جرى له.. كانت رجله قد سبقته إلى الجنة... وبعد سنوات عندما أراد حفيده أن يعرف نفسه للخليفة عمر بن عبد العزيز قال له: "أيها الخليفة! إنني حفيد الذي فقد رجله في الظهيرة ولم يحس بذلك إلا في العصر."

---

(١) المقصودة هي مدينة "فينا".

(٢) لعل المؤلف يشير إلى حديث: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قِلّة نحن يومئذ؟ قال. «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعَنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذِفَنّ الله في قلوبكم الوهَن.» فقال قائل. يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال:«حب الدنيا وكراهية الموت.» (أبو داود، الملاحم، ٥، «المسند» للإمام أحمد ٢٧٨/٥). (المترجم)

كانوا يقاتلون وهم لا يهتمون لا بالدنيا ولا بنعيم الآخرة، بل كانوا –مثلهم مثل الشاعر المتصوف يونس أمره– يقولون وقلوبهم متجهة لله وحده: "أنت ضالتنا... أنت!"

الهرب في أثناء الحرب جريمة كبرى، وقد أعطى الله تعالى هنا مقياساً محدداً يحدد بموجبه ويقيم به الانسحاب نحو الخلف ويمكن به فقط أن يكون جائزاً، ولا يستطيع أحد أن يفسر الانسحاب والتراجع تفسيراً ذاتياً وشخصياً وحسب هواه، والآية التالية هي التي رسمت إطار هذا الأمر: ﴿ومن يُوَلِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لِقِتال أو مُتَحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (الأنفال: ١٦)

وعندما رجع أبطال معركة مؤتة إلى المدينة لم يستطيعوا مواجهة الرسول ﷺ، لأنهم كانوا خجلين منه، إذ كانوا يعدون أنفسهم وكأنهم هربوا من المعركة لذا، كانوا يرغبون في الاختباء عنه، ولكن الرسول ﷺ طيب خاطرهم واحتضنهم وسلى نفوسهم بتلاوة الآية الكريمة السابقة. وعندما قال له بعض الصحابة: نحن الفرارون، أقبل إليهم وقال: «لا بل أنتم العكّارون(١).»(٢)

أجل، إن كان ولا بد من التراجع والانسحاب فيجب أن يتم ذلك بأمر من القائد، وهذا ما تم في معركة مؤتة.

وشيء آخر مهم في هذا الخصوص وهو أن يكون القائد بين جنوده، والتاريخ يشهد بأنه متى ما كان رأس الدولة المسلمة على رأس جيش انتصر مثل هذا الجيش في أغلب الأحوال، ومتى ما قعد السلاطين في القصور –كما حدث في بعض عهود الدولة العثمانية– بدأ التحلل والتسيب والتراجع، وقد قضى السلطان سليمان القانوني مدة حكمه البالغة ٤٦ سنة على ظهر جواده يتنقل من جبهة قتال إلى أخرى، وكان هذا من أهم أسباب احتفاظه بالدولة في القمة بعد معونة الله تعالي له.

---

(١) **العكّارون:** أي الكرّارون.

(٢) **أبو داود**، الجهاد، ٩٦؛ **الترمذي**، الجهاد، ٣٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٧٠، ٨٦

لقد حاولنا حتى الآن شرح أن الانتصارات التي تمت في بـدر وفي غيرهـا مـن المعـارك والحروب إنما تمت بالاتكال على الله والثقة به، واتخاذ جميع الأسباب والعوامل الإيجابية ورعايتها. أجل، فبعد قيام الرسول ﷺ بجميع أنواع الأدعية الفعلية[1] فتح كفيه وتضرع إلى ربه تضرعاً حاراً، وعندما اتحدت هذه الأدعية وهب الله تعالى للمؤمنين نصراً مؤزراً.

حاولنا أن ننقل لكم -وإن لم يكن بشكل مفصل وعميق- معركة بدر من كتب المغازي والسير.

وقد ظهر أن الرسول ﷺ كان رجلاً عسكرياً رائعاً، إذ استطاع بحفنة مـن أبطاله المغاوير الوصول إلى الأهداف التي عينها له مولاه وربه دون أن يقع في أي هفوة أو تقصير أو خطأ، وعلى جبين نجاحه وانتصاره نقرأ على الدوام حقيقة أن "محمد رسول الله". لماذا كان منتصراً؟ لأنه كان رسولاً من عند الله تعالى، كان عسكرياً جيداً لأن الله تعالى رباه وعلمه. أجل، كان يتلقى تعليمه ودروسه من الله تعالى، لأنه كان مكلفاً بأداء مهمة خاصة، وكانت فطنته الكبيرة من أكبر النعم التي أنعمها الله تعالى عليه، والتي كان يقيّم بها ويفهم بها بكل دقة جميع الأوامر الإلهية. وهذه الفطنة والعقل الكبير والمذهل -وليس عقل الخب- هو العقل الذي يفهم أوامر الله تعالى ومشيئته فهماً كاملاً لا قصور فيه. أجل، إن فخر الإنسانية هو الشخص الوحيد الذي فهم الحقائق الموجودة في كتاب الكون بشكل متسق مع القرآن الذي هو كتاب الله وأوامره.

فكل ما قاله القرآن هو نفس ما يقوله كتاب الكون الذي ظهر بقدرة الله وإرادته وتخطيطه ومشيئته، ولم يكن هناك مثيل للرسول ﷺ في التوفيق بين هذين الكتابين، أو بتعبير أصح فهمُ هذا التوفيق والتناسق بينهما وتطبيقه في الحياة.

(١) **الدعاء الفعلي**: هو الأخذ بالأسباب واستخدام القوانين التي وضعها الله تعالى في الكون.

ب- معركة أُحد: المرتقى الصعب

والآن لنرجع بعناية الله تعالى إلى أُحد لنتابع ذلك القائد الرائع والإنسان الكبير والنبي الذي لا مثيل له من زاوية معركة أُحد، والفطنة والفراسة التي أبداها هناك.

في أُحد تميز المؤمن عن المنافق والوفي عن الجاحد والشجاع عن اللئيم وعن الجبان، والمرتبطون بالنبي ﷺ ارتباطاً حقيقياً عن الذين في قلوبهم مرض.. معركة أُحد هذه سيتم ذكرها على الدوام بنوع من الأسى.

في أحد الأيام وبينما النبي ﷺ يمر من سفح جبل أُحد ألقى إليه نظرة طويلة ثم قال: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»[1] وكأن هذا القول دفاع عن جبل أُحد يهب علينا من وراء أربعة عشر قرناً لمن يحمل في قلبه أي شعور بالأسى نحو جبل أُحد. فرسول الله ﷺ لايريد منا إسناد الشؤم أو عدم الوفاء لجبل أُحد، لذا قال هذا القول ليكون برداً وسلاماً للقلوب التي يحيط الحزن للجرح الذي أصاب كرامة المسلمين في هذه المعركة، وهو يرّيد منا البحث عن أسباب أخرى لتلك النتيجة. أجل، لم تجرح كرامة المسلمين في العهد النبوي في أي معركة مثلما جرحت في تلك المعركة، هذا صحيح ولكن السبب في هذا لم يكن جبل أُحد، بل إن جبل أُحد حفظ المسلمين وحماهم عندما أحاط بهم الذهول والاضطراب، احتمى المسلمون بجبل أُحد وتخلصوا بذلك من هزيمة تامة، هذا من زاوية الأسباب.

لقد كان السبب الحقيقي للهزة المؤقتة التي أصابت المسلمين يكمن في انسحاب بعض المنافقين من الجيش منذ البداية، وما أدى إليه هذا الانسحاب من أثر سيء في الروح المعنوية للمسلمين، ثم عدم قيام بعض الصحابة بإطاعة الأوامر بالمستوى اللائق بهم، وظهور ميل عندهم إلى جمع الغنائم حتى وإن كان هذا الميل مشروعاً. ومهما يكن فلا شك أن هزة أصابت المسلمين يوم أُحد، ولكن ربط هذه الهزة بجبل أُحد لم يكن

(١) **البخاري**، الزكاة، ٥٤؛ **مسلم**، فضائل، ١١

صحيحاً، لذا عبر الرسول ﷺ عن حبه لجبل أُحد لكي يزيل هذا الوهم من الأذهان.

والآن لنتناول موضوع ماذا حدث وكيف تم المجيء إلى أُحد وما هي الأسباب التي أدت إلى هذه المعركة، وهل كان من الممكن اجتنابها؟ لنبدأ أولاً بتحليل معركة أُحد لكي يتبين كيف أن الرسول ﷺ كان قائداً عسكرياً لا نظّير له حتى في هذه المعركة التي بدت في نتيجتها وكأنها كانت معركة خاسرة.

لقد أدت هزيمة معركة بدر إلى إثارة حقد وغيظ مشركي مكة ولاسيما عند أولئك الذين قُتل أقرباؤهم أو أبناؤهم، فهؤلاء كانوا يثيرون أهل مكة على الدوام ويحرضونهم على الانتقام وعلى أخذ الثأر.

ولم تكن جهود الإثارة منحصرة في مكة فقط، فقد كانت هناك جهود مبذولة في المدينة أيضا في هذا الاتجاه بوساطة كعب بن أشرف، وكان هذا يهودياً يحاول إلقاء الفتنة بين المؤمنين بأشعاره التي يشبب بها بنساء المسلمين ويفتري عليهن، بل إنه لم يتورع من مد لسانه القذر إلى الرسول ﷺ نفسه، ومع أن المسلمين كانوا يحسون بضيق شديد من هذا الوضع إلا أنهم كانوا دائماً يجابَهون بصبر الرسول ﷺ وحلمه ونظرته البعيدة.

بدأ المشركون أيضا بترتيب السرايا، فقد تعلموا هذا وبدأوا يحاولون بترتيب هذه السرايا التي كانت تقوم بأعمال النهب والسلب وإضعاف الروح المعنوية لأهالي المدينة. وكانوا أحياناً ينجحون في هذا واستمر هذا طوال سنة بعد معركة بدر، وبدأ المكيون يضايقون أهل المدينة مضايقه الجراثيم للجسم، لذا كان من الضروري حفظ المدينة –المؤهلة لأن تكون مهداً للمدنية– من جميع الجراثيم الضارة، وهذا ما فعله الرسول ﷺ. في هذه الفترة قُتل كعب بن الأشرف أعدى أعداء الإسلام، لأنه كان على رأس شبكة خائنة، فكان قتله ضرورياً وقام محمد بن مسلمة بهذه المهمة.(١)

وبدأ يهود بني قينقاع بإثارة المتاعب، فقد تحرشوا بامرأة مسلمة، وفي حادثة الشغب

(١) انظر: البخاري، المغازي، ١٥-١٦؛ مسلم، الجهاد، ١١٩؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٥٨/٣

التي أعقبت هذا التحرش قتل رجال من الطرفين، ولم يكتفوا بهذا بل قالوا للرسول ﷺ وهم مطمئنون إلى قلاعهم الحصينة: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لَتعلمَنّ أنّا نحن الناس. فتوجه إليهم الرسول ﷺ لأنهم برهنوا أنهم أناس لا يمكن الاطمئنان إليهم وأنهم على استعداد دائم لإثارة الشغب والمشاكل. وقد ندم اليهود على فعلتهم واضطروا إلى الاستسلام ولكن الرسول ﷺ أخرجهم من المدينة لأنه لم يكن مطمئناً إليهم.[١] وبخروجهم أصبحت المدينة المنورة أكثر أماناً.

في هذه الأثناء كانت مكة تغلي، فقد أقسم أبو سفيان أن لا يمس الطيب حتى ينتقم من المسلمين، حتى أنه أتى مرة إلى المنطقة التي يسكنها يهود بني النضير وأشعل النار في بيت أو بيتين من بيوت المسلمين ثم هرب إلى مكة.[٢]

كانت شبكة الاستخبارات التي أسسها الرسول ﷺ تمده على الدوام بجميع الأخبار أولاً بأول، ومنها علم أن قريشاً قادمة إليه بقضها وقضيضها، برجالها ونسائها، وكذلك برجال من بعض القبائل الحليفة معها. فجمع الرسول ﷺ كبار مستشاريه واستشارهم في هذا الأمر.

كان من رأى الرسول ﷺ أن يبقى المسلمون في المدينة ليمارسوا حرباً دفاعية، فكما واجهت قريش في بدر استراتيجية لم تألفها، كذلك كانت ستواجه هنا استراتيجية أخرى لم تألفها أيضاً، إذ هيأت قريش نفسها لحرب ميدانية مستفيدة من تجربتها في بدر، لذا فلو بقي المسلمون في المدينة ليمارسوا حرباً دفاعية لما استطاعت قريش فرض حصار طويل على المدينة ولاضطرت إلى الرجوع إلى مكة بعد انتظار يائس حول المدينة. كان رأي الرسول ﷺ باحتصار هو أن يبقوا في المدينة وأن يجعلوا الذراري في الآطام[٣] فإن دخل

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٥٠-٥٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ٤/٤

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٤٧-٤٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ٣/٤١٥-٤١٦

(٣) **الآطام**: الحصون المبنية من الحجارة.

عليهم القوم قاتلوهم في الأزقة ورموا من فوق البيوت.[١]

كان الرسول ﷺ يروم ما يأتي من هذه الاستراتيجية:

أ- إن الحرب لم تكن هدفاً من أهداف المسلمين، فهم ممثلون للأمن وللسلام.

ب- ولكن إن رام أحد الوقوف أمام نشر الحق فيجب إزالة هذا المانع ولا يترددون في هذا الخصوص عن تقديم أي تضحية.

ج- عندما يتعرض المسلمون للهجوم فإنهم سيحاربون دفاعاً عن الدين والعرض والشرف، وإذا لزم الأمر فإنهم يقتلون ويُقتلون من أجل هذه الغاية. وهذا من حقوقهم المشروعة.

كان من الضروري إعطاء مثل هذا الانطباع ومثل هذه الصورة عن المسلمين للناس الحيارى حولهم الذين كانوا يراقبون الأحداث الجارية.

١- الشورى قبيل أحد

كان الرسول ﷺ يريد أن يحارب حرب دفاع، ثم رأى رؤيا في منامه، فقال لأصحابه: «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً[٢] ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة» وكان تأويله لهذه الرؤيا: «فأما البقر فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل.» كما أوّل الدرع بالمدينة، لذا رغب البقاء في المدينة. إذن، فقد نبه الله تعالى نبيه وأعطاه إشارة وإيماءة لكي تكون الحرب حرباً دفاعية، وأما الثلم فكان إشارة إلى استشهاد أسد الله حمزة رضي الله عنه.[٣]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٧/٣؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٣/٤

(٢) الثَّلْم: الخلل أو الكسر.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٦/٣، ٦٧

ثم كان هناك أناس لم يشتركوا في معركة بدر، فكان هؤلاء يدعون من الله أن يرزقهم الشهادة، وقد قبل الله تعالى دعاءهم. فمثلاً: كان أنس بن النضر يقول: "أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ لَيَراني الله ما أصنع" ويدعو من الله تحقيق حلمه هنا ويستعجل لقاء الله وهو مضرج بدماء الشهادة، كان أمثال أنس يحملون هذه الرغبة التي لا تقاوم طوال سنة كاملة ويدعون من الله تحقيق أمنياتهم في الشهادة، وما كانت مثل هذه الأدعية أن ترد من قبل الله تعالى، ولم ترد في الحقيقة.(١)

كان عبد الله بن جحش وعمرو بن جموح وسعد بن الربيع ﷺ من هؤلاء الصحابة الذين ينتظرون الشهادة ويسعون إليها ويحلمون بها كل ليلة. ولا ننسى هنا الصحابية سُميراء ﷺ وأبناءها. هؤلاء هم الذين رجحوا كفة الشورى إلى جانبهم في ذلك اليوم.

كان الرسول ﷺ يرغب أن يتبنى المجتمع مبدأ الشورى وأن يترسخ هذا المبدأ فيه وأن يحل كل المسائل به. كان عليه أن يتصرف هكذا لكي يحس كل فرد بأن القضية قضيته فيساندها بكل جهده لأنه اشترك في مناقشتها وأبدى رأيه فيها. صحيح أن رسول الله ﷺ كان مؤيداً بوحي السماء، ولكنه مع هذا شاور أصحابه لكيلا يقول أحد من المسلمين فيما بعد لو أننا فعلنا كذا لكانت النتيجة كذا.. كان يتشاور مع أصحابه ويأخذ آرائهم ثم يطرح رأيه الشخصي.

ولكن المتحمسين من الشباب من الذين لم يشهدوا بدراً قالوا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير. وقال رجل من الأنصار: متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا؟ وقال حمزة ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لَنجادلنهم. وقال نعيم بن مالك: يا نبي الله لا تحرمنا الجنة فو الذي نفسي بيده لأدخلنها.(٢)

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ١٢؛ **مسلم**، الإمارة، ١٤٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٤/٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٧/٣-٦٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٤/٤-١٥

لم يكن يريد تكرار استراتيجية استعملها سابقاً في المعركة الثانية، فعلى العدو أن يجابه في كل مرة مفاجأة جديدة، غير أن الشباب كانوا مصرين على الرأى الآخر، ودخل الرسول ﷺ ولبس للحرب وتقلد سيفه، وعندما رأى رجال من ذوي الرأى ذلك قالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ.. فلما خرج عليهم قالوا: "يا رسول الله! إن شئت فاقعد." ولكن لقد تم إعطاء القرار ويجب ألا يُنكص عنه لأنه:

أولاً: كان يعني إجراء ضغط على أفكار الآخرين، وهذا يعني الدخول إلى دائرة مفرغة. ثم إن الرجوع عن قرار متخذ حسب أفكار ومشاعر الأفراد ليس من شيمة أي قائد اعتيادي ويُعد خطأً كبيراً فكيف برسول الله ﷺ؟ فمن الطّبيعي أن يتنزه الرسول ﷺ عن مثل هذا الخطأ.

ثانياً: لو تم الدخول في حرب دفاعية وحدث شيء غير متوقع، أو ضرر غير منتظر لارتفعت أصوات بعض الذين عارضوا هذه الحرب، كان هذا احتمالاً وارداً على الدوام.

ثالثاً: النجاح والسمعة والغنائم التي تكتسب في أي حرب دفاعية لا يمكن قياسها بما يتم الحصول عليه من الحرب الميدانية، وكان من الممكن استغلال هذا الأمر من قبل غير الراضين. لكل هذه الأسباب وما يشابهها فقد قال الرسول ﷺ: «لا ينبغي لنبي يلبس لأْمَتَهُ فيضعها حتى يحكم الله»[1] ذلك لأن الله تعالى عندما يقول له: ﴿فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾ (آل عمران: ١٥٩) إنما يأمره بأن يكون شخصا غير متردد، ثابت القرار. أجل، فأي تردد سيقذف في قلوب تابعيه الخوف والقلق والتردد، وكل تحرك جديد سيؤدي إلى تشتت الآراء ويسوق الجمهور إلى أفكار مختلفة، وهذا يؤدي إلى التحلل والتبعثر.

صحيح أن رسول الله ﷺ كان يود البقاء في المدينة، والدخول في حرب دفاعية. ولكن عندما رجحت كفة الحرب الميدانية في أثناء إجرائه الشورى قرر تنفيذ ما استقرت عليه نتيجة المشورة، ولم يكن من المناسب الرجوع عن هذا القرار مهما كانت النتائج. فلو كلفه

---

(١) البخاري، الاعتصام، ٢٨؛ الدارمي، الرؤيا، ١٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٥١/٣

تثبيت أسلوب الشورى سبعين ألفاً وليس سبعين شخصاً لما تردد في سلوك هذا الطريق.

كانت معركة بدر نصراً خالصاً، وكانت معركة أُحد نصراً كنصر بدر في الأقل.

٢- نحو أحد

أصدر الرسول ﷺ أمراً فورياً بالتوجه نحو أحد، سيأخذ الجنود مواضعهم في أُحد وبذلك يمنعون الأعداء من الهجوم على المدينة. وسيضعون النساء والأطفال في أماكن آمنة، فإن دخل الأعداء إلى المدينة فسيطوقون من الخلف وستشل حركتهم. صحيح أن القرار صدر آنيا ولكن كانت هناك استراتيجيات بديلة.

عندما وصلوا إلى سفوح جبل أُحد أخذوا مواضع القتال، كان عدد المسلمين يبلغ ٧٠٠ رجلٍ، وكان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول بالرغم من مشاركته في الخروج للحرب قرر الرجوع برجاله البالغ عددهم ٣٠٠ شخصاً بحجة أن المسلمين لم يأخذوا برأيه،[١] كان عدد المسلمين اللابسين الدروع يبلغ المائة، وكانت الراية مع مصعب بن عمير ﷺ[٢] والزبير بن العَوّام ﷺ على رأس الفرسان، وحمزة ﷺ على رأس الراجلين.

وضع الرماة في مكان حساس ومهم، ليمنعوا الأعداء من الالتفاف خلف المسلمين ووضع على رأسهم عبد الله بن جبير ﷺ. وقال له رسول الله ﷺ: «اِنْضَحِ[٣] الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتَينَّ من قبلك.»[٤]

قام الرسول ﷺ بكل ما يجب القيام به. ففي هذه المرة لم يرتب جيشه على شكل

---

(١) **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٦٨/٣؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير، ١٦/٤

(٢) **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٧٠/٣؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير، ١٨/٤

(٣) **انضح**: أي أرم رمياً حسناً.

(٤) **البخاري**، الجهاد، ١٦٤؛ **أبو داود**، الجهاد، ١٠٦؛ **«المسند»** للإمام أحمد ٢٩٣/٤؛ **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٧٠/٣؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير، ١٧/٤

صفوف بل سحبهم إلى سفوح أُحد على شكل قوس لكي يحيط بالأعداء ثم يهاجمهم بالرماة ثم يرمي وسط جيش العدو بأسود المسلمين الظامئين إلى الشهادة أمثال ابن جحش ومصعب بن عمير وأبي دجانة وأسد الأسود حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

كان شعار المسلمين يوم بدر هو "أحد، أحد!" أما في يوم أُحد فكان "أَمِتْ، أمت!" إن فقد تغير تكتيك المعركة وشعارها، هنا كان المسلمون يرومون المحافظة على أنفسهم في سبيل الله ورسوله أيضا مع محاولة إيقاع أقصى الإضرار بالأعداء.

تهيأوا للمعركة حسب الخطة الموضوعة، وهز رسول الله ﷺ سيفاً بيده قائلاً: «من يأخذه بحقه؟.» سرت موجة من الحماسة لدى المسلمين، كان كل واحد منهم يتمنى أن يأخذ السيف، ولكن رسول الله ﷺ الذي كان يعرف كل واحد منهم أفضل من نفسه، كان يفتش بعينيه عن صاحب هذا السيف، فإذا بأبي دُجانة يسأل: وما حقه يا رسول الله ﷺ؟ فقال الرسول ﷺ: «أن تضرب به العدو حتى ينحني.» فقال أبو دُجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه.

كان أبو دُجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها، فيعلم أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فاعتصب بها، إذن، فمن يستطيع أن يقف أمامه، وفعلاً لم يستطع أحد أن يقف أمامه. ونحن نعلم أن الحوار المذكور أعلاه جرى بين الرسول ﷺ وبين أبي دجانة رضي الله عنه[1] ولكن عندما انتهت معركة أُحد نعلم أن الكثيرين من جند الحق كانوا مثل أبي دُجانة رضي الله عنه.

كان عبد الله بن جحش رضي الله عنه يدعو من الله تعالى أن ييسر له مقابلة عدو يقتله، رحماك يارب! ما هذه الرغبة الأخروية الملتهبة في قلوب هؤلاء الأبطال! أما زئير حمزة رضي الله عنه فكان يدخل الرعب حتى في قلوب الأسود.

كان إرسال فدائي الموت هؤلاء إلى صدر العدو خطة غير متوقعة من قبل قريش، فأبو

---

(١) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٢٣/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٧/٤-١٨

سفيان الذي كان يتوقع حصول شيء شبيه بما حصل يوم بدر فوجئ بشيء جديد لم يره يوم بدر. وكانت صيحة المسلمين "أمت، أمت" يجعل المشركين يرتجفون ارتجاف من أصابه الحمى، ولأن المشركين لم يكونوا يتوقعون هذا فسرعان ما اندحروا، هذه هي الصفحة الأولى من معركة أحد.

في هذه الصفحة الأولى كان رسول الله ﷺ قد وزع جيشه بين المدينة وجبل أُحد، أي وزع رجاله على سفوح جبل أُحد جاعلاً هذا الجبل في ظهره، ووزع الرماة في مكان مناسب قائلاً لقائدهم: «اِنْضَحِ الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتَينَّ من قبلك»

وفي رواية: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحو حتي أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم[١] فلا تبرحوا حتي أرسل إليكم.»[٢] ثم أرسل أسوده إلى جيش العدو الذي سرعان ما اندحر وتقهقر.

اندحر العدو اندحاراً شنيعاً إلى درجة أنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم في خيم نسائهم، واستطاع أبو دُجانة أن يصل إلى قلب جيش العدو حيث كانت هند زوجة أبي سفيان متواجدة على أساس أنه موضع مصان. شاهد أبو دُجانة شخصاً يحمس الناس تحميساً شديداً، فلما حمل عليه السيف ولول فإذا امرأة، يقول أبو دُجانة: "فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة"[٣]

أدى الصحابة الدور المعهد إليهم بنجاح كبير وقاموا بواجبهم على أتم وجه فرضي الله عنهم أجمعين. وشرحت سورة آل عمران ما قام به هؤلاء من نضال وكفاح ورسمت لوحات البطولة فأعطت أمثلة عن الأنبياء السابقين والأبطال الذين أحاطوا بهم، وفي أثناء

---

(١) **أوطأناهم**: علوناهم وأهلكناهم وقتلناهم.

(٢) **البخاري**، الجهاد، ١٦٤؛ **أبو داود**، الجهاد، ١٠٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٩٣/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٠/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٧/٤

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠٩/٦

رسم هذه الصورة تقوم بإيماءات إلى الأبطال الذين أحاطوا برسول الله ﷺ حيث تقول: ﴿وكأيِّنْ من نبي قاتل معه رِبِّيُّون كثير فما وَهَنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ۞ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ۞ فأتاهم الله ثواب الدنيا وحُسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨).

هذه الآية تتحدث عن الربانيين، ولكن إن نظرنا إلى الموضوع من ناحية تكرار التاريخ لنفسه فإنها تشير إلى الذين حاربوا في أُحد، فهذه الآيات نزلت بمناسبة معركة أُحد.

٣- مراحل أحد

هناك ثلاث لوحات في أُحد.

أ - اللوحة الأولى

وهي اللوحة التي تعكس نجاح القرارات السريعة التي اتخذها رسول الله ﷺ، صحيح أنه تم إعطاء بعض الشهداء في هذه المرحلة، غير أن أبطال المسلمين أمثال حمزة وأبي دجانة وعبد الله بن جحش ﷺ حصدوا المشركين حصداً، ونالوا نصراً واضحاً وهزموا المشركين هزيمة نكراء.

حتى أن نساء المشركين حاولن إيقاف هروب المشركين صارخات فيهم ومتوسلات ألا يهربوا، لأن الهروب لا يليق بهم، ولكن لم تجدِ هذه الصرخات في إيقاف هروب جنود مكة.

تذكر المصادر التاريخية الموثوقة بأن عدد المسلمين في هذه المعركة كان سبعمائة مقاتل بعد انسحاب المنافقين، بينما كانت قوة الأعداء تقرب من ثلاثة آلاف مقاتل، وهذا يعني أنهم كانوا أكثر من أربعة أضعاف المسلمين. أي أن كل مسلم كان عليه أن مقاتلة أكثر من أربعة من الأعداء في تلك المعركة. وكانت قريش قد جلبت معها النساء والأطفال،

وكان هؤلاء يضربون الدف ويثيرون الجند.

كانت عدة جيش المشركين كاملة، ولكنهم مع كل هذا التهيؤ والاستعداد هُزموا أمام المسلمين كما هزموا يوم بدر. في هذه الأثناء وقع سهو كبير، وهو عدم رعاية الأوامر الصادرة. ونحن نطلق كلمة "زلة" على هذا التصرف، ذلك لأن أصحابها كانوا من المقربين إلى الله تعالى إلى درجة كأنهم يرونه تعالى، كانوا مؤمنين ويعيشون الإسلام بالعمق الأخروي إلى درجة قد لا نستطيع نحن تصورها، كانوا يتعبدون الله تعالى وكأنهم يرونه، ويشاهدون كل شيء بشكل مختلف عما نشاهده نحن.. ولأنهم كانوا بهذا القرب كانوا محاسبين ومؤاخذين حتى على الأفكار التي تخطر على قلوبهم وعلى عقولهم. وكانت هذه الهزة امتحاناً للمقربين. أجل، لقد كان رسول الله ﷺ موفقاً حتى في أُحد وأنا لا أعد معركة أُحد هزيمة مثلما يعدها بعض المؤرخين. وأعد كلمة "هزيمة" كلمة ثقيلة وجارحة، وأفضل أن أقول في حقها: إنها هزة حدثت في مرحلة من مراحل معركة أُحد.

ب – اللوحة الثانية

كانت الهزيمة قد حاقت بالعدو الذي بدأ بالهرب بشكل فوضوي، وكشيء طبيعي تذكر المسلمون معركة بدر، فقد هرب العدو يومذاك أيضا مثل هذا الهرب، لذا فقد ظنوا أن الأمر قد حسم لصالحهم مثل ذلك اليوم، وأن الدور الآن هو دور جمع الغنائم. فالجمال والخيول كانت هناك تنتظرهم بعد أن هرب العدو وترك كل أمواله، ولم يكن هناك في الظاهر أي مانع من جمع هذه الغنائم، لذا فقد اشترك الرماة أيضا في جمع الغنائم، ومع أن عبد الله بن جبير رضي الله عنه ذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ إلا أنهم لم يفهموا المعنى الدقيق للأمر لأنهم لم يفسروا الأمر أو يفهموه على أنه يجب البقاء في أماكنهم حتى نهاية المعركة.. وها هي المعركة قد انتهت وانهزم الأعداء، كان من المحال في نظرهم أن يقوم جيش مهزوم بلم صفوفه والرجوع ثانية إلى القتال. هذه هي اللوحة الثانية لمعركة أُحد.

ج – اللوحة الثالثة

كان ترك الرماة أماكنهم يعني إحداث ثغرة في الجبهة، وما كان هناك احتمال أن يفوت هذا الأمر عن نظر قائد عبقري مثل خالد بن الوليد، لقد سنحت له الفرصة المواتية.

كان المسلمون آنذاك قد أغمدوا سيوفهم، وانشغلوا بجمع الغنائم، كما انسحب قسم منهم لأخذ قسط من الراحة في خيامهم. انقض خالد مثل الصاعقة وقتل بضعة أنفار من الرماة الذين بقوا في أماكنهم ولم يبرحوها والتف حول المسلمين من الخلف.. أخذ المسلمون على غرة تماماً.. علماً بأنهم كانوا قد فقدوا التوتر النفسي الضروري لجو المعركة، وهذا أفاد خالداً وسهل له عمله، فاستغل هذه الفرصة وحقق هذا الهجوم الماغت.

من المفيد هنا الإشارة إلى نقطة أخرى، وهي أن المسلمين عندما توجهوا إلى أُحد توجهوا وهم يحملون شرخاً، فالرسول ﷺ كان يريد البقاء في المدينة غير أنهم أصروا في الخروج، وكان هذا يشكل شيئاً سلبياً بالنسبة لهم، ثم إن الرسول ﷺ أمر الرماة بالتزام أماكنهم وعدم تركها ولكنهم تركوها، وهذه كانت زلة أخرى، والقرآن الكريم يتناول هذا الموضوع فيقول عن هذه الزلل: ﴿.. إنما استزلَّهم الشيطانُ ببعض ما كسبوا﴾ (آل عمران: ١٥٥)، أي قيل لهم في البداية أن يبقوا في المدينة فأصروا على الخروج منها، وقيل للرماة في أثناء الحرب، ابقوا في أماكنكم فلم يبقوا فيها، وتركوها لجمع الغنائم أو لمساعدة الآخرين في جمع الغنائم. فعدم استماعهم إلى النصيحة الأولى أدخل المسلمين إلى دائرة مفرغة من الأخطاء، وأدى إلى الخطأ الثاني أو الزلة الثانية، ولو لم يمنع الله تعالى دوام عمل هذه الدائرة المفرغة لتعاقبت الأخطاء، ولكنه أراهم أن رحمته سبقت غضبه، فنشر رحمته على تلك الجماعة المقربة إليه.

ثم إنهم انشغلوا بجمع الغنائم على وهم أن المعركة قد انتهت، والحقيقة أن هذا العمل قد يعد عملاً اعتيادياً ولا شائبة فيه، ولكنه يعد زلة بالنسبة للأشخاص القريبين من الله

تعالى -أي المقربين- حتى أن الله تعالى نبه نبيه وحبيبه لأخذه الفدية من أسرى بدر، [١] فبكى النبي ﷺ والصديق من هذ التنبيه ورآهما عمر ﷺ على هذه الحال فبكى لبكائهما.[٢] لم يكن هؤلاء يميلون إلى الدنيا وما كان لهم أن يميلوا. بل كان عليهم أن ينبذوها.. إن أخذ الغنائم بالنسبة لأمثالنا شيء لا غبار عليه، غير أن قيام المقربين بجمع الغنائم من ذلك الميدان المضرج بدماء الشهداء سيؤدي في المستقبل إلى إحساسهم بندم كبير، ولكن شاء الله تعالى بتأديبه العاجل لهم أن يصونهم من تلك العاقبة.

ولكن فتحت هناك ثغرة أخرى. أجل، فكل مصيبة تُنسي المصيبة السابقة، فكأن المصائب بدأت تأتي وهي تتضاعف وتتزايد، فالمصيبة الأخرى التي كانت أعظم من كل المصائب السابقة كانت حصار المشركين لرسول الله ﷺ وانتشار نبأ استشهاده. وقع هذا النبأ كصاعقة أنست جميع المصائب السابقة. ولكن الله سلم إذ التف حول الرسول ﷺ جدار حصين من اللحم والعظم من المسلمين الذين سمعوا صوته قبل وصول الأعداء إليه. فكم من امرأة تحمل في يدها قرب الماء أو ضماد الجرحى خرجت لسقي المسلمين ومداواة جرحاهم أسرعت لنجدة الرسول ﷺ. كانت أم عُمارة ﷺ على رأس هؤلاء النسوة تسقي المسلمين وتضمد الجرحى. كان المنظر الذي رأته يجمد الدم في العروق.. كان الحصن المكون من اللحم والعظم حول الرسول ﷺ يتساقط شيئا فشيئا والأيدي الخائنة تتقدم نحوه خطوة فخطوة. كان واضحاً أن من المستحيل الوصول إلى الرسول ﷺ قبل أن يقطع هذا الحصن من اللحم والعظم أشلاءً وقطعاً.. كان كل سيف حاقد يسل من أجله، وكل سهم حانق يُرمى وكل رمح يُصوب نحوه، ولكن جميعها كان يصطدم بجسد مؤمن من المؤمنين المحيطين به، وجاءت لحظة لم يبق هناك ذراع لم تُبتر أو رأس لم يُقطع وبدأت جماعة من المشركين الحانقين يتقدمون نحوه، فقال الرسول ﷺ: «من لي بهؤلاء؟»

---

(١) قال تعالى: ﴿ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ۞ لولا كتاب من الله سبق لمسكم في ما أخذتم عذاب عظيم﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨).

(٢) مسلم، الجهاد، ٥٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٣١/١-٣٢

فرمت نسيبة رضي الله عنها ما بيدها وهرعت إليه قائلة: "أنا يا رسول الله!" أخذت مكانها في موقف الدفاع عنه وبدأت تذب عنه بسيفها ذات اليمين وذات الشمال، كانت قد أتت لمداواة الجرحى ولكن عندما اشتد الخطب انقلبت إلى لبؤة كاسرة، وبينما هي تقاتل عن الرسول ﷺ رأت ابنها وقد بترت ذراعه بضربة سيف، أسرعت نحوه وربطت جرحه ثم قالت له: "اذهب فقاتل أمام رسول الله" ثم رجعت إلى مكانها، كانت تقاتل قريبة من الرسول ﷺ حتى أنها تسمع همسه، ثم أصيبت بجرح غائر وعميق في ظهرها، كانت قد أرسلت ابنها للقتال وها هي تقاتل بالقرب من الرسول ﷺ، فقال لها الرسول ﷺ: «من يطيق ما تطيقين؟» فقالت له: "ادع الله أن يجعلني معك يا رسول الله!" فدعا الرسول ﷺ ربه أن يجعلها معه في الجنة،[1] فلما سمعت بدعاء الرسول ﷺ لها قالت بأنها تستطيع أن تقاتل أمامه حتى يوم القيامة.

كانت حياة هذه الصحابية سلسلة متصلة من المفاخر، فقد بايعت النبي ﷺ في العَقَبة ودعته إلى المدينة، وكانت سبباً في إسلام أفراد بيتها جميعاً، وقاتلت أمام النبي ﷺ في أُحد، وواجهت الموت في سبيله مواجهة الأبطال.. وعندما نزلت آية الحجاب حزنت لأنها رأت أنها لن تستطيع الاشتراك في الجهاد الفعلي بعد ذلك، وعندما ظهر الأنبياء الكذبة اشتركت في معركة اليمامة وتركت هناك ذراعها وابنها وعادت. أجل، لقد عاشت مراحل صعبة تفوق طاقة أي امرأة.[2]

كان أنس بن النضر -عم أنس بن مالك- يقاتل في أُحد ويصيح بالمسلمين الذين ظنوا أن الرسول ﷺ قد قتل: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ"[3] تمت التحشيدات الأولى هنا، حيث رد هجوم الأعداء.. انتهت الهزة، وبدأ الرسول ﷺ يصدر أوامر جديدة إلى أصحابه الذين لم يفهموا سر أوامره الأولى، ويتبع

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٨٩-٨٧، «الإصابة» لابن حجر ٤/٤٧٩

(٢) «الإصابة» لابن حجر ٤/٤٧٩

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٨٨، «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٣٩

استراتيجية جديدة، وهنا أمر الرسول ﷺ البحث عن سعد بن الربيع، فذهب رجل من الأنصار فوجده جريحاً وبه رمق، فسأل عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأَبْلِغْ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: حزاك الله عنا حير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عدر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف" وبقى الأنصاري بجانبه حتى جاد بروحه، ثم جاء النبي ﷺ فبلغه حديث سعد.[١]

من الطبيعي أن الذين دعوا الله لنيل شرف الشهادة قد أجيبت دعواتهم، فقد دعا أنس بن النضر ودعا عبد الله بن جحش ودعا حمزة بن عبد المطلب، دعا هؤلاء فاستجيبت دعواتهم وطاروا إلى السماء شهداء، أما الذين بقوا ولم يسشتهدوا فقد غرقوا في لجة من الدماء.. كانت أُحد تكبي دماً.. وكان هناك بكاء من نوع آخر.. بكاء القلوب التي ظنت أن رسول الله ﷺ قد قُتل.. فارت القلوب أسى وحزناً من أثر هده الشائعة إلى درجة اهتزت منه روحهم المعنوية، وفكر بعضهم في الرجوع إلى المدينة لتهيئة وجلب مقاتلين آخرين، وكان لبعضهم آراء وخطط أخرى فأخذوا يتحزكون ذات اليمين وذات الشمال.. وبينما كانوا في أوج الذهول والاضطراب إذا بهم يسمعون صوت كعب بن مالك وهو يجلجل:

"يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله"[٢] كانت هذه الصيحة بمثابة البعث بعد الموت في يوم أُحد إذ اسرع المسلمون إليه، وهنا تم التحشد الثاني، أي حول المكان الذي كان الرسول ﷺ موجوداً فيه.. هنا تكون سور آخر من اللحم والعظم، فبعضهم كانوا يحمونه بأجسادهم، وبعضهم كان يحاول إخراج حلقتي المغفر من وجنتيه، ويحاول بعضهم تجميع المسلمين هناك، ولكن الجميع كانوا يحاولون صيانة الرسول ﷺ كما يصون المرء

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٥-٣٦؛ «السيرة البوية» لابن هشام ٣/١٠٠-١٠١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٨٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٩

عينيه،[١] لم يكن هناك أحد لايفدي سناً واحدةً للرسول ﷺ بحياته.. التفوا إذن، حوله مرة أخرى، أقسموا بأنهم لن يتركوه أبداً بعد الآن.. وأمسك الرسول ﷺ والقائد الكبير بزمام الأمور بيده مرة أخرى، وليبدأ بتطبيق استراتيجية أخرى لا تؤثر فيها الأخطاء السابقة التي وقعت، لذا انسحب بهدوء مع المسلمين المحيطين به إلى حلف جبل أُحد ليهيئ هناك خطة تشكيل قوة جديدة، أي بدأ بالتخطيط للمرحلة أو اللوحة الثالثة التي ستنتهي بالنجاح.[٢]

٤- ﴿ من الهزة إلى النصر ﴾

هذه اللوحة الثالثة كانت نصراً واضحاً.. كانت نصراً لأن العدو تراجع للوراء وطاردهم المسلمون.. والحقيقة أن أبا سفيان نوى ترتيب هجوم آخر على المسلمين إذ نوى الهجوم على المدينة، ولكن صفوان بن أمية قال له: لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا[٣] وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا.[٤]

إذن، فبعد ما ظهر أنه خسران للمعركة، فقد حصل الرسول ﷺ على نصر واضح. وبهذا فكأن القدر كان يريد أن يلقن الصحابة الدرس التالي: إن الله تعالى وهب نبيه وحبيبه نصراً مباشراً بفضله وكرمه وعنايته، أما سيوفكم فليست سوى أسباب ظاهرية، وإلا فإن الله تعالى هوالذي ينقل رسوله من نصر إلى نصر.

هذه هي الانتصارات التي تحققت في بداية معركة أُحد ثم في نهايتها، بينما كانت هناك هزة عنيفة ولكن مؤقتة في وسطها.. ولكن الله تعالى لم يتخل عن رسوله حتى في أصعب اللحظات ولم يتركه وحيداً بل أعطاه النصر الذي وعده، والآية الكريمة التالية تتناول هذا الموضوع: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم

---

(١) البخاري، المغازي، ٢٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠١

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٨٨-٨٩؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٣٩

(٣) حربوا: غضبوا.

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/١١٠؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٥٨

وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ۞ إذ تُصعِدون ولا تَلْوُون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾ (آل عمران: ١٥٢-١٥٣)، هناك مقاولة بينكم وبين الله، فالله تعالى يقول: ﴿وأَوْفُوا بعهدي أوفِ بعهدكم﴾ (البقرة: ٤١) ولن يخل الله بهذا العهد، ولكن إن أخللتم به أخل الله أيضاً. ويقول إن الله تعالى حقق وعده في أُحد إذ كنتم تقتلون الكافرين بإذنه وبمشيئته، ولكنكم فشلتم عندما تنازعتم في الأمر وعصيتم، فبدلاً من الصبر قليلاً، فقد استعجلتم بجمع الغنائم ولم تنتظروا الأوامر. أجل، فسيد الأنبياء كان في خيمته وينتظر الوقت المناسب لإعطاء هذه الأوامر، ولكنكم استعجلتم ودخل النزاع بينكم، فكل قرار جديد سيؤدي إلى تشتت الآراء وتظهر مختلف الآراء حيث يسلك كل صاحب رأي طريقاً خاصاً به، فتنهار الوحدة والتماسك وعندما أراكم الله ما تحبون ظهر منكم العصيان، بينما لا يليق هذا بكم لأنكم من المقربين وقد يجوز للآخرين، ولكن لا يجوز لكم وأنتم موجودون جول هالة الرسالة النبوية، وتأخذون دروسكم من الرسول ﷺ مباشرة وتحضرون مجالسه وتسمعون إرشاداته، وقد سبق وأن اكتسبتم رضوان الله تعالى وعندما رأيتم شيئاً مما تحبون –كان هذا عرضاً من أعراض الدنيا وغير ذي أهمية– ملتم إليه ولكن الله أخذه من أيديكم وحرمكم منه، ولو أنكم استهدفتم الآخرة لأقبلت إليكم الدنيا أيضاً، ولكنكم ملتم إلى الدنيا بوجه من الوجوه، كان عليكم أن تركزوا جهودكم لطلب الآخرة، أما الدنيا فكانت ستقبل عليكم كنتيجة طبيعية، أي لو أنكم طلبتم الآخرة لأقبلت إليكم راكضة وراءكم، ولكن لا تنسوا أن الله قد عفا وصفح عنكم.

كان الرسول ﷺ قد أحرز ما يمكن أن نعده نصراً بعد تلك الهزة العنيفة، فقد توجه أبو سفيان وجنده سريعاً إلى مكة بعد أن ألقى النبي ﷺ في قلوبهم الرعب، أما الرسول ﷺ فقد رجع إلى المدينة.

ج-٣ نحو حمراء الأسد

بعد رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة، وصلته أخبار من مكة بأن أهل مكة بدأوا يتلاومون فيما بينهم حتى قال أحدهم: لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم.(١)

كان رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة لتوه عندما جاءته الأنباء بأن أبا سفيان مقبل على المدينة، وذلك قبل أن يجد الجرحى وقتا كافياً لتضميد جراحهم، وكان من المنتظر وفاة العديد منهم متأثرين بجراحهم. وكان قسم من الجرحى في وضع لا يستطيعون معه الحركة أو السير، ومع ذلك قاموا بالسير نحو حمراء الأسد.. كانت هذه خطوة تهديدية من قبل الرسول ﷺ ضد مشركي مكة لإخافتهم وشل حركتهم، وأعلن في المدينة: «لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال»(٢)

على إثر هذه الدعوة قام الجرحى حتى أصحاب الإصابات البليغة المنتظرين للمداواة والعلاج.. قاموا من الفراش وكأنهم أموات بعثوا من القبور، وتجمعوا في المكان المعين لهم.. أجل، لقد بعثوا عندما سمعوا صوت النبي ﷺ وهو يناديهم وكأنهم يصدقون قول الشاعر البوصيري:

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما   أحيا اسمه حين يُدعى دارس الرِّمَم

ولا يذكر التاريخ لنا أن رجلاً واحداً بقي دون إجابة دعوة الرسول ﷺ، كان من بين هؤلاء من فقد يده أو رجله، فخرج وهو يعرج أو يجر نفسه جراً بكل عناء. يقول أحد الصحابة من الذين شهدوا معركة أُحد: "شهدت أُحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٥٧/٤؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٠٧/٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٠٧/٣؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٥٦/٤ وما بعدها.

لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ واللهِ ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحاً، فكان إذا غلب حملته عُقبة ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.»[1]

وعندما بلغت أخبار هذه المسيرة إلى قريش ارتعبت، ولم يضيع أبو سفيان وقتاً، إذ سرعان ما وجد السلامة في الهرب، لذا فإن الجيش المسلم الذي خرج مما بدا أنه هزيمة وصل إلى حمراء الأسد وهو يطلق صيحات النصر، وبقي هناك ثلاثة أيام هي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ارتاح هناك وضمد جراحه المادية والمعنوية ثم رجع إلى المدينة.

لم يتضرر أحد في هذه المسيرة، ولكن أبا سفيان مع ادعائه أنه أحرز نصراً على المسلمين ما إن سمع بأن رسول الله ﷺ متوجه إليه بجيشه حتى ذعر وأسرع بالهرب إلى مكة، وكان هذا سبباً في خيبة الأمل عند جميع أفراد الأعداء.[2] وأنا أتساءل الآن: أيّ جانب يعد هو الجانب المنتصر في يوم أُحد وأيهما المغلوب؟ هل المنتصر قريش الهاربة أم جيش المسلمين المهاجم؟ ليس هناك قائد عسكري آخر يستطيع قلب الهزيمة إلى مثل هذا الانتصار الواضح، إذ نجد هنا البصمة الواضحة لفطنة رسول الله ﷺ وختمه.

أيها القارئ الكريم! لقد حاولت تقييم استراتيجية الرسول ﷺ في معركة بدر وأُحد، لقد حاولت ذلك وعبرت عنه بلسان شخص غير مختص في هذا الموضوع، لأنني اضطررت إلى ذلك، فإن رأى القارئ في كلامي عيباً، فإنني أرجو المعذرة منه وأرجو العفو والصفح من الله تعالى.

١- الاستراتيجية المتغيرة على الدوام

والآن سأحاول عرض الموقف في بدر وفي أُحد الذي كانت بدايته ونهايته نصراً، وكان وسطه هزة، وذلك بشكل موجز.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٥٦/٤؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٠٧/٣

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٥٨/٤-٥٩؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٠٨/٣

استعمل الرسول ﷺ تكتيكاً في بدر، وتكتيكاً آخر في أُحد، وآخر في معركة الخندق، وفي كل معركة خاضها كان له فيها تكتيك خاص، وهذا الأمر كان يقلب توقعات الأعداء، ويجعلهم في حيرة من أمرهم، كما أدى هذا إلى تقليل خسائر المسلمين، فمجموع عدد الشهداء المسلمين في جميع المعارك التي خاضها الرسول ﷺ كان مائة ونيفاً فقط. لقد كان زعيماً لا مثيل له، عاش المسلمون في عهده في عهد سعادة حقيقية لا يمكن أن تتكرر. تصوروا أنه أعلن الحرب على الجميع بدءاً من عمه إلى العرب وإلى العجم، وأنه على الرغم من قيامه بكل تلك الحروب، وبإنجار كل تلك الأعمال المهمة فإنه لم يعط إلا خسارة ضئيلة جداً.

أجل، لقد استعمل تكتيكاً آخر غير الذي استعمله في بدر، فقد اختار في أُحد فدائيين معينين أعطى لهم مهمات خاصة. وعين موضعاً خاصاً للرماة ليمنع هجوم العدو من الوراء، ونظم بنفسه وبيده الكريمة الصفوف، وأثار فيهم الحماسة وشعور المنافسة، أي تصرف تصرفاً أثار به شعور الغبطة في نفوس الصحابة نحو بعضهم، فمثلاً أعطى أبا دجانة ﷺ سيفاً ليستعمله بحقه، وعندما بدأ أبو دجانة يتبختر بين الصفين بعد أن اعتصب بعصابته الحمراء قال الرسول ﷺ: «إنها لَمِشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.»(١)

وانطلاقاً من هذا قال بعض الفقهاء: إن من المستحب أن يربي الجنود المقاتلون شواربهم، لكي يكونوا أشد رهبة في قلوب الأعداء، وقالوا: إنه كلما أظهر الجنود عدم اكتراثهم بالموت في جبهة القتال، وكلما تفاخروا بذلك أو تبختروا كلما كان ذلك أفضل.

لم يستعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في بدر، ولكنه استعمله في أُحد، ودفع الصحابة للمنافسة والتسابق. كان الجميع يتمنون أن يعطي الرسول ﷺ لهم ذلك السيف الذي أمسكه بيده، ولكنه أعطى هذا السيف إلى أبي دجانة ﷺ، وهذا جعل الفدائيين الآخرين يستقتلون في الحرب، وأصبح كل منهم مثل أبي دجانة ﷺ.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٧١/٣؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٧/٤-١٨

والشيء الآخر الذي طبقه في أُحد ولم يطبقه في بدر هو وجود النساء في أُحد، وقد ذكرنا البطولة التي أبدتها الصحابية نسيبة رضي الله عنها. ولا نعرف على وجه اليقين عما إذا كانت فاطمة رضي الله عنها قد اشتركت في القتال، ولكننا نعلم من المصادر التاريخية الموثوقة أنها قامت بمسح الدماء عن وجه أبيها، وعندما رأت أن مسح وجهه بالماء يزيد من تدفق الدم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم.[1] إذن، فقد أحضر الرسول ﷺ بعض النساء إلى أحد لمساعدة الجرحى ولرفع الروح المعنوية عندهم.

٢– ﴿ أسباب الهزة المؤقتة في أُحد ﴾

يجب الاعتراف بأن شروخاً حصلت في الفترة بين لوحتي النصر في أُحد، ونستطيع ذكر أسبابها:

السبب الأول: فضّل الرسول ﷺ منذ بداية الأمر البقاء في المدينة وتطبيق خطة دفاعية، ولكن حماسة الصحابة منعتهم من إدراك السر الدقيق في إطاعة هذا الأمر، بينما كان المفروض عليهم الطاعة المطلقة لأوامر الرسول ﷺ. ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة للرماة في أثناء المعركة، وهذه المعارضة لأوامره –وإن كانت مؤقتة– كونت هذه الهزة.

السبب الثاني: دخل هؤلاء الناس في تناقض مع عالمهم الداخلي ومع فطرتهم، فالميل إلى الدنيا لم يكن من شيمتهم، وقد أثبتوا هذا عندما تركوا كل ما يملكون في مكة وهاجروا إلى المدينة. ولما كان الانشغال بالغنيمة وبأموال الدنيا في تلك الساعة التي كانوا في أقرب موقع للآخرة يُعد غفلة بالنسبة للمقربين، فإن الله تعالى أراد أن يعاقب هؤلاء المقربين –بل أقرب المقربين– عقاباً بدنياً. وكان هذا عقاباً خاصاً لأناس وصلوا إلى مستوى الصحابة. أجل، فما يمكن أن يعد حسنة وثواباً بالسبة لأمثالنا يعد ذنباً بالنسبة إليهم، وذلك على قاعدة: "حسنات الأبرار سيئات المقربين."

---

(١) البخاري، الوضوء، ٧٢، الجهاد، ٨٠

السبب الثالث: ويمكن أن نعد وجود عبقرية عسكرية كخالد بن الوليد في الصف المقابل من أهم أسباب تلك الهزة.. فالله تعالى حافظ على صفة الانتصار الدائم لخالد بن الوليد، الذي قدم فيما بعد خدمات جليلة للإسلام، وهذا كان يعني مكافأة عاجلة لحسناته الآجلة، ذلك لأن الشجاعة والإقدام الذي كان ينفته هذا العنوان أو هذه الصفة -عنوان سيف الله أو صفة الانتصار الدائم- سينقض فيما بعد على رؤوس الروم والفرس انقضاض المطرقة.. فلو هُزم خالد في هذه المعركة، لكان من الممكن ألا يستطيع خدمة الإسلام بتلك الروح العالية.[1]

السبب الرابع: كانت هناك دعوات حارة وملتهبة من قبل الذين لم يستطيعوا الاشتراك في معركة بدر، كانوا يدعون من الله على الدوام أن يمنحهم الشهادة، وقد قبل الله تعالى هذه الأدعية واستجاب لها، ومنحهم هذا الوسام الرفيع. ففي أثناء الهزة التي حدثت في أحد عندما شاهد أنس بن النضر ﷺ الذين هزتهم شائعة وفاة الرسول ﷺ واضطرابهم قال: "يا قوم، إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد ﷺ لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء" ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل، لأنه كان يستعجل لقاء الرسول ﷺ الذي ظن أنه استشهد.[2]

أجل، لقد استجيب أدعية جميع من طلب الشهادة تقريباً، ثم من طلب الشهادة بحق وحرم منها؟ إذ بعد عصور عديدة دعا السلطان مراد الأول ربه قبيل معركة "كوسفو": "اللهم اجعل أمة محمد عزيزة الجانب، واجعلني شهيداً"، واستجاب الله لدعائه، إذ حصل المسلمون على نصر ساحق حيث استشهد السلطان وهو يجول بين القتلى في ساحة المعركة بعد انتهائها بخنجر الصِّربي "ميلوش"[3] أي تحقق الشق الثاني من دعاء ذلك

---

(١) «**اللمعات**» لبديع الزمان سعيد النورسي (اللمعة السابعة) ص٤١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٨/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٥/٤، ٣٦؛ **البخاري**، الجهاد، ١٢

(٣) كان "ميلوش" أميراً صربياً وجرح في المعركة جرحا خفيفا، وقال إنه يريد مقابلة السلطان لكي يعلن إسلامه أمامه، وكان يخفي في ملابسه خنجراً أغمده في صدر السلطان عندما اقترب منه. (المترجم)

الإنسان العظيم، فاستشهد وذهب إلى رحمة ربه. فالله تعالى يتقبل هذه الأدعية الصادرة من أعماق القلوب. لذا، استجاب الله تعالى في موقعة أحد لكل هذه الأدعية المتكررة من قبل الصحابة بالاستشهاد، وظهر من استشهاد كل هذا الجمع منهم وكأنه انكسار لجيش المسلمين.

السبب الخامس: كانت معركة أُحد معركة بين صحابة الحاضر وصحابة المستقبل، أي كانت معركة بين رجال أسلموا وأصبحوا صحابة الرسول ﷺ وبين رجال سيصبحون في المستقبل من الصحابة، وسيلعبون أدواراً مهمة في الفتوحات الإسلامية في المستقبل، من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة وابن هشام. فلكي يتحول هؤلاء الذين ما كانت فطرتهم وطبيعتهم تتحمل الهزيمة إلى الإسلام دون أن تجرح كرامتهم كان لا بد من وقوع انكسار مؤقت في معركة أُحد.

السبب السادس: كان هناك درس في التوحيد في الهزة التي حدثت في أُحد، فالانتصار في معركة بدر كان من الممكن أن بزيد من حصة الأسباب الظاهرية لدى بعضهم. صحيح أن الإحساس بالفخر وبالعزة أمام الأعداء إحساس بريء، ولكن مثل هذا الإحساس وإن خطر ببالهم لحظة واحدة يعد بالنسبة للمقربين من أمثالهم سيئة كما قلنا هذا سابقاً. فالهزيمة أو النصر مرتبطان بمشيئة الله تعالى، وهو الذي أهدى لهم النصر في بدر، فإذا قام بعضهم بإسناد النصر إلى أنفسهم دون الالتفات إلى قضاء الله ومشيئته عد ذلك شركاً خفياً. بينما كان هؤلاء بعيدين عن أخف شرك فراسخ عديدة، ومع أن الجميع كانوا مؤمنين بهذا ويتقبلونه على المستوى الفكري، إلا أن الله تعالى أحب أن يصل بالصحابة في هذا الموضوع إلى مستوى حق اليقين، فأحدث هزة عنيفة في صفوف المسلمين وهم في أوج النصر في معركة أُحد، وجعلهم في موقف المغلوبين، ثم أهدى لهم النصر في وقت لم يكونوا يتوقعونه أبداً، مذكراً إياهم بأن المشيئة والحكم له وحده: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعِزّ من تشاء وتُـذِلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ (آل عمران: ٢٦).

لقد ظهرت لهم معاني هذه الآيات بأجلى شكلها أمامهم في أُحد، إذ عاش المسلمون هذه المعاني عملياً، ورأوا مشيئة الله وإرادته وهي تطبق أمام أعينهم. صحيح أنه قد جرى وحصل لهم بعض الأضرار البسيطة ظاهرياً، إلا أن ما تم اكتسابه في ذلك اليوم من زاوية الإيمان، ومن زاوية نور التوحيد الذي يضم في ثناياه سر الأحدية.. ما تم اكتسابه في هذا الموضوع خفف وأزال تلك الأضرار الظاهرية.

لا ينكر أحد أن للسيف حقه، وللتعبئة الصحيحة حقها، وأنها من الأسباب المؤدية إلى النصر، إلا أن الأساس هو إرادة الله ومشيئته، ذلك لأنه هو وحده القادر على كل شيء. أجل، فكأن الله تعالى كان يريد أن يقول للمؤمنين في أثناء تلك الهزة المؤقتة: لن تستطيعوا الوصول إلى شيء إن لم تأخذوا في حسبانكم قدرة الله تعالى وقوته، فها أنتم ترون أنه من الممكن أن ينقلب النصر إلى هزيمة، إذن، فكما أن قطف النصر محال إن لم يشأ الله تعالى ذلك، كذلك لا يمكن الخلاص من الهزيمة إلا بمشيئته.

كل مؤمن يحتاج إلى أخذ مثل هذا الدرس العملي في التوحيد، ومن المحتمل أن الصحابة أصبحوا لنا ممثلين لمثل هذا الدرس الكبير. ثم إن مثل هذا العقاب المؤقت الذي أعطى للمؤمنين جزاء مخالفتهم للرسول ﷺ، قد نبه المؤمنين وجعلهم أكثر حذراً وحساسية عند طرحهم لآرائهم في حضرة الرسول ﷺ، ومثل هذا الأدب الرفيع الذي اكتسبه المؤمنون لم يكن ربحاً وكسباً بسيطاً أو هيناً: ﴿إن يمسسكم قَرْحٌ فقد مس القوم قرحٌ مثلُه وتلك الأيام نداولها بين الناس ولِيَعلم الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ولكن الأيام التي داولها الله تعالى كانت في الأغلب في مصلحة المؤمنين، وستكون كذلك في المستقبل، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ (الأعراف. ١٢٨) أي أن القرآن الكريم يبشرنا ونحن نعيش هذه الفوضى الشاملة بمستقبل مشرق، وقد حدث هذا في أُحد أيضاً، ولكن النتيجة والعاقبة كانت نصراً للمؤمنين. أجل، لقد كانت هناك هزة في أُحد، هزة كانت لها حكمها العديدة، ولم تكن هزيمة على الإطلاق، كلا فقد كانت معركة أُحد معركة انتصار وذات جوانب عديدة.

٣- ﴿ إزالة روح الانكسار ﴾

بعد رجوع الرسول ﷺ من هذه المناورة إلى المدينة عقب معركة أُحد، استطاع أن يعيد للمسلمين روحهم المعنوية السابقة، أصبح المسلمون أكثر تجربة من السابق وأكثر حساسية وأكثر قابلية في فهم ما ينطوي عليه كلام الرسول ﷺ من دقة وحكمة.

غير أن الهزة المؤقتة التي تعرض لها المسلمون في المعركة سرعان ما ذاع خبرها حوالي المدينة مما أدى إلى زيادة طمع وشهية بعض القبائل العربية وبعض اليهود. لذا، فقد أصبح من الضروري استعادة الكرامة التي جُرحت في معركة أُحد، وإظهار مدى قوة المسلمين وبأسهم الحقيقي، ولم يكن هذا العمل يتحمل أي تأخير على الإطلاق.

في السنة الرابعة للهجرة توجه الرسول ﷺ نحو بني النضير الذين تعاونوا مع مشركي مكة، وكانت هذه القبيلة اليهودية قد خرجت عن طور الأدب تجاه الرسول ﷺ، وحاولت اغتياله مرتين، وكانت هذه القبيلة قد اعتمدت على مساعدة منافقي المدينة ومشركي مكة، فأعلنت الحرب ضد الرسول ﷺ، واعتقدت أنها ستكون بمأمن من أيدي المسلمين خلف أسوار قلعتها الحصينة.

ولكنها اضطرت للاستسلام بعد خمسة عشر يوماً فقط من الحصار، ووافقت على الجلاء عن المدينة على أن يأخذوا معهم ما يستطيعون حمله من متاعهم، ومع هذا فقد كانوا سعداء إذ أنهم تخلصوا من الموت، لذا فإن الاحتفال الذي احتفلوا به قبيل تركهم المدينة كان احتفالاً لم ير أهل المدينة مثيلاً له، وإن الإنسان ليستغرب من ذلة هؤلاء الناس، الذين يحتفلون وهم على أعتاب مفارقة موطنهم ومساكنهم، بدلاً من الإحساس بالحزن والأسى.[1]


(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/١٩٠ وما بعدها.

د- بدر الصغرى

كان أبو سفيان قد قال قبيل رجوعه من أحد: إن موعدكم بدر العام المقبل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل نعم، هو بيننا وبينك موعد.»[١] لذا، فقد حضر الرسول ﷺ إلى بدر مع كامل جيشه في الوقت المحدد وأقام هناك ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان ولكن لم يبد هناك أي أثر للمشركين فرجع إلى المدينة. وانتقلت هذه الحادثة إلى التاريخ الإسلامي تحت اسم بدر الصغرى أو بدر الآخرة، إذ تحدوا المشركين الذين خافوا وجبنوا عن اللقاء، لذا فقد اكتسب المسلمون نصراً كنصر بدر وإن كان بمقياس أصغر. وكانت جماعة من بني عبد القيس قد أشاعت بين المسلمين أن أبا سفيان هيأ جيشاً ضخماً، وأنه توجه إلى بدر يريد بذلك إضعاف الروح المعنوية للمسلمين، ولكن هذا الخبر لم يزد المؤمنين إلا إيماناً، والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران: ١٧٣) ورجع المسلمون من بدر الصغرى وهم في غاية الاطمئنان، لقد بدأ الأمن يستتب في الصحراء وبين القبائل مرة أخرى.

هـ- غزوة ذات الرِّقاع

استمرت هذه المناورات طوال السنة الرابعة للهجرة. في هذه الأثناء قررت قبيلتا بني ثعلبة وبني مُحارب من غَطَفَان الهجوم على المدينة. وعندما وصلت أخبار هذا القرار إلى الرسول ﷺ خرج مع أربعمائة من المسلمين حتى وصل موضعاً يقال له ذات الرِّقاع، غير أن هاتين القبيلتين عندما علمتا بقدوم المسلمين خنستا واختبأتا في جحورهما، لذا فلم يقع أي قتال.[٢] ولكن هذه الغزوة سجلت نصراً في قائمة المسلمين.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٠٠/٣ وما بعدها؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤٣/٤

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢١٣/٣ ؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٩٥/٤-٩٦؛ «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، ١٩٢/٢

و-٦» غزوة بني المصطلق من خُزاعة أو المُرَيْسِيع[١]

وفي سنة خمس من الهجرة وقعت غزوة الـمُرَيْسيع، أو غزوة بني المصطلق، والمريسيع اسم لموضع يبعد عن المدينة تسعة فراسخ، حيث انقاد المشركون الساكنون هنا إلى إغراءات مشركي قريش وقرروا الهجوم على المدينة.. لذا، رتب الرسول ﷺ جيشاً وخرج به نحو المُرَيْسيع، وعندما بلغ بني المصطلق نبأ قدوم المسلمين هربوا ولم يبق في الميدان سوى أهالي المريسيع الذين قاتلوا المسلمين، ولكن الرسول ﷺ غلبهم، ولم تحدث خسائر في صفوف المسلمين إلا قيام أحد الأنصار بقتل الصحابي هشام بن صبابة خطأ إذ حسبه من الأعداء، أما الطرف المعادي فقد قتل منهم عشرة رجال. ورجع المسلمون إلى المدينة مع ٦٠٠ أسير و٢٠٠٠ بعير و٥٠٠٠ شاة. وهكذا أضاف الرسول ﷺ نصراً جديداً إلى سلسلة انتصاراته.[٢]

عند العودة من هذه الغزوة تسلل بعض المنافقين إلى صفوف المسلمين لكي يزرعوا النفاق والشقاق بينهم، ولكي يستفيدوا من الغنائم، حتى حاولوا استغلال حادثة صغيرة وخلافٍ بين حليف لأحد الأنصار وأجير لأحد المهاجرين حول أيهما أحق بسقي بعيره من بئر هناك، ولكنهم لم ينجحوا، فأسفر عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عن مدى نفاقه عند العودة من هذه الغزوة عندما قال بمناسبة هذه الوقعة: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ، وكان يشير إلى نفسه بأنه الأعز وإلى الرسول ﷺ -حاشاه- بأنه الأذل، وعندما بلغ هذا النبأ ابن هذا المنافق، وهو الصحابي الكبير عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ جاء إلى الرسول ﷺ وقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ

---

(١) **المريسيع**: ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم.

(٢) «**كتاب المغازي**» للواقدي، ١/٤١٠

فاعلاً فمُرْ لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فواللهِ لقد علمَتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتلَه فلا تدَعُني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار" فقال له الرسول ﷺ: «بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا.» ثم إن ابنه عبد الله رضي الله عنه وقف لأبيه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عند مضيق المدينة فقال: فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك. فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة.[١]

وجرت حادثة الإفك حول أما عائشة رضي الله عنها التي كانت عفتها كعفة حوريات الجنة، والتي أكدت الآيات فيما بعد هذه العفة عند العودة من هذه الغزوة.[٢]

ز- عامل الليل في الأسفار

كان الرسول ﷺ يختار الليل لجميع أسفاره.. ففي الليل سر آخر، ثم ألا يوصيه القرآن -وإن كان من طرف خفي- بذلك؟ والرسول موسى عليه السلام قاد المؤمنين ليلاً للهروب معه، لأن الله تعالى قال له: ﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متَّبَعون﴾ (الدخان: ٢٣)، وأصدر الأمر نفسه إلى النبي لوط عليه السلام: ﴿فأسر بأهلك بقِطَعٍ من الليل ولا يلتفت منكم أحد﴾ (هود: ٨١)، وعندما أسري بسيد الأنبياء، ثم بدأ بسياحته السماوية التي تجاوز فيها جبريل عليه السلام، كان هذا الإسراء ليلاً: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء: ١).

وهناك سفر ليلي لكل نبي تقريباً، فالمنازل تقطع بالليل وتصبح تلك الليالي ليالي الوصول والقرب إلى الله. والله تعالى يقسم بالليل في كثير من آياته، فأعمال البر والخير الوضيئة التي تعمل في ظلام الليل البهيم تجعل الليل أضوأ من النهار وأكثر منه نوراً. يقول

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٠٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/١٧٨-١٨٢

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٠٩-٣٢١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/١٨٢-١٨٥

الشاعر المتصوف إبراهيم حقي الأرضرومي:

يا عين ما هذا النوم؟ تعالي واستيقظي في الليالي
وتأملي.. تأملي سير الكواكب في الليالي

فالذي يقطع المسافات يقطعها ليلا.. وفي الليل تبتل سجادته بالدموع عندما يخر للسجود.. هنا يستطيع روحه أن يرتفع ويقطع المسافات.. والذي تعودت جدران بيوته على سماع تأوهاته يستطيع التسلق إلى آفاق تقصر دونها المسافات.. أمثال هؤلاء يقطعون هذه المسافات في الليل.. والذين قطعوا هذه المسافات قطعوها ليلا، أما الذين ناموا في الليالي فقد بقوا في وسط الطريق. فإن كنتم تريدون الخلاص من عذاب البرزخ، فلا تدعوا لياليكم دون تهجد.. لا تدعوها لأن الرسول ﷺ لم يدعها. يقول محمد إقبال: "بقيت عشرين سنة في لُندن، في عالم الضباب، ولا أتذكر أنني تركت صلاة التهجد في أي ليلة من لياليها."

أجل، فمن يستغل الليل –حيث ينقطع كل صوت– سيجد كل كلام يتلفظ به صدى في وجدانه، وسيستطيع قطع المسافات. فكان الرسول ﷺ يقطع المسافات المادية والمعنوية في الليل، لذا كان يسافر ليلاً ويرتاح نهاراً وهكذا يفاجأ الأعداء به، إذ يرونه أمامهم فجأة فيذهلون ﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين﴾ (الصافّات: ١٧٧)

وهذه الآية تعرض مقطعاً صغيراً من هذا المنظر. أجل، كان إذا نزل في ساحة قوم أعداء بجيشه فهذا يعني أن أمر هؤلاء الأعداء يُعد منتهياً وساء صباحهم. كان الرسول ﷺ يهاجم في السحر..[(١)] ففي السحر كانت تظهر معتقدات أهالي تلك المنطقة، وذلك عند قيامهم –وعدم قيامهم– برفع الأذان وإقامة الصلاة. فالسحر هو الوقت الذي تهب فيه نسائم التجلي، يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حَقّي:

تهب نسائم التجلي في السحر فيا عينيّ! استيقظا عند السحر

---

(١) مسلم، الصلاة، ٩

وقت السحر مهم جداً لدى المؤمن، فهو الوقت الذي تهب فيه على المؤمن نسائم التجلي، وفيه يتهيأ لولوج عالم المعاني لأنه يتهيأ فيه للصلاة.

لذا، كان الرسول ﷺ يختار الفجر على الدوام، فبينما كان العدو ينهض من فراشه متثائباً، إذا به يرى المؤمن المتوثب نشاطاً أمامه. كانت هذه هي طريقته في أغلب الأحيان، فعندما هتف أمام أسوار خيبر: «الله أكبر! خربت خيبر!»[1] اهتزت هذه الأسوار، ولكن لم يدر أحد كيف وصل هذا الجيش إلى هناك، لأنه ﷺ كان يقوم بغزواته بسرعة البرق، ويجد في سير متصل بحيث أن أسرع الجمال ما كانت تستطيع اللحاق به، وكانت غزوة بني المصطلق من هذه الغزوات السريعة. وعندما ذر النفاق بقرنه عند العودة من هذه العزوة، رأى بفطنته الكبيرة أن أفضل وسيلة للحيلولة دون انتشار آثار فتنة النفاق هو إصدار الأمر بالسفر المتصل دون توقف. وبفضل هذا السير المتصل لم يجد المنافقون الفرصة لزيادة نار الفتنة،[2] ومع أن عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول كان يخطط في فكره أشياء وأموراً إلا أنه لم يجد الوقت الضروري لإنضاج أفكاره أو وضعها موضع التنفيذ. فالجميع كانوا في سير سريع وكأنهم يعدون عدواً، لقد تم الذهاب والإياب بهذه السرعة، فتعب الجميع تعباً شديداً، لذا فما أن أعطى لهم الإذن بالراحة حتى وقعوا نياماً حتى طلوع الشمس في اليوم التالي، ولعله المرة الأولى التي تم فيها أداء صلاة الصبح في الضحى.[3]

استمر هذا حتى السنة الخامسة للهجرة. لذا، علمت القبائل أن أيّا منها لن تستطيع الوقوف وحدها أمام الرسول ﷺ، لذا قررت توحيد قوتها والوقوف معاً أمام الرسول ﷺ، وهكذا جمعوا قواتهم وتوجهوا إلى المدينة.

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ١٢، الأذان، ٦ ؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٠؛ **الموطأ**، الجهاد، ٤٨

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ٤/١٨٠، «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٠٢-٣٠٥

(٣) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٨٠

ح-٢٤) وقعة الخندق أو الأحزاب

في شوال سنة خمس من الهجرة. عندما أجلي بنو النضير عن المدينة ذهبوا إلى خيبر واستقروا هناك، ولكنهم بدأوا هناك بتحريض أهل خيبر ضد الرسول ﷺ وأرسلوا بعض زعمائهم إلى قريش وإلى قبيلة غَطَفَان، وكانت هاتان القبيلتان تسعيان بكل جهدهما للقضاء على المسلمين وتخططان لهذا، لذا كانتا على استعداد للترحيب بأي اقتراح يأتي من أي جهة حول هذا الأمر. ثم التحقت بهما قبيلتا بني سليم وبني أسد وبني مرة وبني فزارة وبني أشجع وبني سعد. أي أصبح الوضع مشابهاً لما جرى في معركة شنق قلعة" التي جلب إليها الإنكليز أقواماً عديدة من هنود واستراليين وأفارقة.. إلخ

اتفق اليهود والقبائل العربية المشركة للقضاء على الرسول ﷺ وعلى المسلمين. وأخيراً اتفق هؤلاء الأعداء على السير نحو المدينة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل. كان الرسول ﷺ قد حصل من قبل عن طريق شبكته الاستخبارية القوية على أنباء تلك الحشود، لذا جمع أصحابه واستشارهم حول خطة الحرب المقبلة، واختار من بين الاقتراحات المتعددة اقتراح سلمان الفارسي إذ أعجبه هذا الاقتراح الذي كان يقضي بحفر خندق حول المدينة ثم خوض معركة دفاعية من خلف هذا الخندق. وهذا التكتيك كان جديداً لم يشاهده أحد حتى ذلك الحين هناك، وكانت قريش وحلفاؤها ينتظرون خوض معركة شبيهة بمعركة بدر أو أُحد، بينما كانت في انتظارهم مفاجأة واستراتيجية لم تخطر على بالهم قط. ووضع الرسول ﷺ حراساً حول موضع الحفر فمنع بذلك تسرب خبر أعمال الخندق، فهؤلاء الحراس ما كانوا ليسمحوا لأحد في المدينة أو لما حواليها-بالتجول هناك، فتم الانتهاء من حفر الخندق في ظل من السر والكتمان، لذا عندما اقترب جيش الكفار من المدينة فوجئوا عندما وجدوا هذا الخندق أمامهم وذهلوا وأسقط في أيديهم.

بدأ الرسول ﷺ مع ثلاثة آلاف من أصحابه بحفر الخندق، واشترك الرسول ﷺ في الحفر، وكانت حصة كل رجل القيام بحفر طول ذراع من الخندق، وتم توزيع العاملين

إلى مجاميع، كل مجموعة تضم عشرة منهم، وبدأت المنافسة بين هذه المجاميع. كان عمق الخندق معيراً بحيث أن الفارس إن سقط في ذلك الخندق لم يستطع الخروج منه مع فرسه، أما عرضه فكان بحيث لا يستطيع أمهر فارس قطعه قفزاً بفرسه.

هذا الخندق مطمور الآن تماماً، وكم كنا نتمنى لو بقي على حاله لنشاهد ذلك الخندق الذي شارك رسول الله ﷺ في حفره وفي نقل ترابه، ولا ندري مدى الصحة في الآثار الباقية لذلك الخندق، ولكن إن قام أحد المختصين بالعلوم العسكرية بتدقيق هذه الآثار وقال: "أجل، من المحتمل أن يكون الخندق هنا" عد ذلك يجب الاهتمام جدياً بهذا الموضوع.

أجل، اشترك الرسول ﷺ بأعمال حفر الخندق ترغيبا وحثا للمسلمين للأجر، فدأب فيه ودأبوا، وكان هذا التصرف من قبله عامل تشويق ومنبع إثارة لهم في العمل، وكان يسوقهم أحياناً إلى المنافسة وإلى التسابق فيما بينهم، ويقوم أحياناً بمدح المهاجرين ومدح الأنصار.

كان جنوده من الصحابة جائعين، قد ربط كل واحد حجراً على بطنه، أما الرسول ﷺ فحجرين، ولكن لم يكن للجوع ولا العطش أن ينال من عزيمتهم ومن همتهم، بل كانوا ينشدون:

نحن الدين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبداً

وأجابهم النبي ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان الرسول ﷺ يشترك أحياناً معهم في هذا النشيد، وأحياناً يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلَى قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته: أبينا أبينا.(١)

عندما قام الرسول الأكرم ﷺ بتنظيم الصفوف جعل قمة تل سَلْعٍ(٢) خلف ظهره، وأرسل النساء والأطفال إلى ملاجئ حصينة.(٣) إني لست رجلاً عسكرياً، ولكني أعتقد أن تكتيك الرسول ﷺ صحيح من جميع جوانبه ولاسيما قيامه بإسناد ظهره إلى جبل سَلْعٍ، علما بأنه اتخذ هذه القرارات تواً ودون أي تباطؤ أو تفكير طويل، ومع ذلك كانت كلها قرارات صائبة.

عندما اتخذت وسائل وتدابير الدفاع عن المدينة وضع في الحساب احتمال قيام بني قريظة بالهجوم، لذا أودع دفاع تلك الجبهة إلى جماعة من الصحابة على رأسهم سلمة بن أسلم.(٤) أجل، لقد أخذ جميع الاحتمالات بنظر الاعتبار ولم يترك أي أمر للصدف.

كان هناك موضع ضيق في الخندق، يستطيع الفارس الماهران كان فرسه أصيلاً أن يقطعه قفزاً.(٥) وقد يبدو هذا في الوهلة الأولى إهمالا، ولكن الأمر ليس كذلك، فقد تبدت هنا أيضا الفطنة المذهلة للرسول ﷺ، إذ أن أشجع فرسان المشركين وأفضلهم سيحاولون وسيجربون قطع الخندق قفزاً من هذا الموضع وسيجدون أنفسهم وسط المسلمين، ولم يحس أحد بهذا في أول الأمر، ولكن بعد مرور بعض الوقت وحدوث بعض التطورات وقع ما توقعه الرسول ﷺ، فقد بدأ أشجع المحاربين تجربة حظوظهم، وهلكوا واحداً إثر آخر.

ثم إن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ أحد بني عامر بن لُؤَيّ وضِرار بن

---

(١) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٩، المغازي، ٢٩؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٣-١٢٥، ١٣٠؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٠٦-١١٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٢٦-٢٣٠

(٢) **سَلْع**: الجبل المعروف بسوق المدينة.

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٣١

(٤) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٢/٤٦٠

(٥) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٣٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٢٠-١٢١؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ٢/١٨١

الخطاب بن مِرداس أحد بني مُحارب بن فهر وعكرمة بن أبي جهل وهُبيرة بن أبي وهب المخزومي تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيؤا يا بني كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم؟ ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقعوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكانا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبحة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقمحوا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.[1] كان عمرو بن عبد ود أول من عبر الخدق، ومع أنه كان متقدماً في العمر إلا أنه كان يعد معادل مائة محارب، طلب مبارزاً فخرج إليه علي، فلما رأى أمامه شاباً حدثا استهزأ به، ونزل عن فرسه لأنه لم ير من اللائق بسمعته أن يقاتله وهو على ظهر الفرس، وبعد أن ضرب بسيفه فرسه وعقرها وقف أمام علي، وبدأت المبارزة حيث قام عمرو بالضربة الأولى التي كانت ضربة شديدة، واستقبلها عليّ فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وقابله علي بضربة قوية على كتفه مع تكبيرة أعقبتها تكبيرة المسلمين، ولو لم يمت عمرو من ضربة سيف علي ﷺ لمات من شدة تكبيرة المسلمين. وهز موت عمرو المشركين، كما أحدث فرحاً غامراً بين المسلمين ورفع معنوياتهم.[2]

وبعد عمرو جاء ضِرار وعكرمة وهُبيرة ولكنهم لم يصمدوا أمام ضربات علي ﷺ فهربوا،[3] وأخيراً أقبل نوفل بن عبد الله المغيرة المخزومي وكان من أشهر المقاتلين والفرسان عند العرب واستطاع عبور الخندق إلى الجهة الأخرى، فاستقبله علي –أو يقال الزبير بن العَوّام– ولكن نوفل سقط في الخندق وهو يحاول الهرب من علي، فبدأ المسلمون

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٠/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٥/٣؛ «**كتاب المغازي**» للواقدي ٤٧٠/٢-٤٧١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٥/٣-٢٣٦؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢١/٤-١٢٢؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٨١/٢-١٨٢

(٣) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٤٧٠/٢-٤٧٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٠/٤

يقذفونه بالحجارة، وبدا لنوفل أن الموت بالحجارة لايليق به فصاح: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه علي فقتله.[١] وكان هذا اليوم أشد أيام الحصار، ولكن عندما مر شهر فقد الحصار قوته ووهنت العزائم، إذ لم يكن من الهين إطعام عشرة آلاف من المقاتلين وتلبية احتياجاتهم.

عندما رأى بنو قريظة أن المشركين لم يستطيعوا اقتحام الخندق، وأن من فعل هذا منهم قُتل قرروا الهجوم على الحصن الذي وضع المسلمون فيه نساءهم، وأرسلوا أحدهم قبل الهجوم ليتجسس لهم، وقد لمحت صفية عمة رسول الله ﷺ هذا اليهودي وهو يتجول حول الحصن، فكمنت له ثم هاجمته فجأة وقتلته وجلبت سلاحه إلى الحصن، وعندما رأى اليهود أن الرجل الذي أرسلوه قتل توهموا وجود قوة عسكرية هناك فتخلوا عن فكرة الهجوم.[٢]

كان أعداء الإسلام قد جاءوا وهم واثقون من أنفسهم كل الثقة، سينهون أمر المسلمين في بضعة أيام ثم يرجعون، ولكنهم أخطأوا في حساباتهم خطأ كبيراً، وعندما أدركوا ذلك لم يبق أمامهم سوى الرجوع وهم يجرون أذيال الفشل والخيبة.

وجرت الأقدار في أثناء الحصار ضد الكفار، فقد كان الشتاء على الأبواب وما كان سكان مكة يتحملون برد شتاء المدينة، ثم إنهم لم يكونوا قد تهيأوا للشتاء. وبدأت الريح تهب عليهم أياماً وليالي، ثم انقلبت هذه الريح إلى إعصار قوي بدأ يقوض الخيام ويقلب القدور، وما كان بإمكان المشركين أن يتحملوا أكثر، وهذا ما كان، لذا أصدر أبو سفيان أمره بالرجوع وهو كاره.[٣]

---

(١) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٤٩٦/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٣/٤، ١٣٣

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٩/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٤/٤؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٨٢/٢

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٣/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/ ١٢٩، ١٣٢؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٨٤/٢

١- ﴿ يوم الخندق في القرآن ﴾

يتحدث القرآن الكريم عن معركة الخندق تفصيلاً. فإذا أحببتم فإننا نستطيع متابعة تلك المعركة بين سطور الآيات، ثم نشير إلى الدهاء العسكري الذي أبداه الرسول ﷺ في هذه المعركة.

يقول القرآن الكريم حول هذه المعركة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ۞ إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ۞ هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ۞ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدَنا الله ورسوله إلا غروراً ۞ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثربَ لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ۞ ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ۞ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلُ لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ (الأحزاب: ٩-١٥).

وأشار القرآن إلى معنويات المؤمنين: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدَنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ (الأحزاب: ٢٢).

وكقاعدة عامة فإننا لن ندخل إلى التفاصيل التاريخية الموجودة في كتب السير، بل نتعرض لبعض هذه التفاصيل عرضاً، وهدفنا الأساسي إبراز ناحية الرسالة لسيدنا محمد ﷺ وإظهارها، إذ كان صاحب فطنة ذات أبعاد متعددة، وأحد هذه الأبعاد هو بعده في الناحية العسكرية. فكما أوضحنا فقد أعطى أنموذجاً رائعاً في القيادة العسكرية في معركتي بدر وأُحد -على الرغم من قصر باعنا في هذا الموضوع، لأنه خارج اختصاصنا- ولنا كلام موجز حول معركة الخندق أيضا لتوضيح كيف كان ﷺ عسكرياً لا مثيل له في هذه المعركة أيضاً، فمعركة الخندق شاهد ومصدق لحكمنا هذا.

لقد تم إحراز نصر مؤزر في معركة الخندق التي حدثت في ظروف صعبة جداً، وتطورت الظروف التي هيأت النصر فيما بعد حسب ما علمه الله تعالى لرسوله. وقد استوعب الرسول ﷺ بفطنته العظمى هذه الظروف وأحوال المعركة التي علمها الله تعالى له بالوحي أو بالإلهام، ثم تصرف على ضوئها أفضل تصرف، وطبق ما علمه أفضل تطبيق في معركة كانت الظروف فيها صعبة جداً في النطاق البشري، لذا كان الوصول إلى النصر أمراً بالغ الصعوبة بل كان قريبا من الاستحالة، لذا فسنلقي نظرة على التكتيك الذي استخدمه الرسول ﷺ في هذه المعركة التي تعد شاهدة على أن "محمد رسول الله".

٢- ﴿ ما وراء معركة الخندق ﴾

١- كان عدد جنود العدو عشرة آلاف مقاتل، بينما كان جيش المسلمين عبارة عن ثلاثة آلاف مقاتل، أي أن العدو كان ثلاثة أضعاف المسلمين، وهذا يعني أن على كل مسلم مقاتلة ثلاثة من المشركين، لذا كان تحويل هذه المعركة من معركة ميدانية وجهاً لوجه إلى معركة دفاعية فطنة وذكاءاً كبيراً. وكما قلنا سابقاً فإن رسول الله ﷺ لم يكن يكرر أي تكتيك مع العدو مرة ثانية، وهذا ما رأيناه في الخندق.

٢- لعب الخندق في تلك المعركة دوراً كبيراً في إيقاف العدو، لأن قريشا وحلفاءها لم يدر بخلدهم أبداً أنهم سوف يلقون مثل هذه المفاجأة التي أذهلتهم وقلبت حساباتهم.

٣- إن جعل جزء صغير من الخندق ضيقاً بعض الشيء بحيث يستطيع أن يعبره الفرسان الماهرون علامة دهاء وفطنة، لأنه أمكن بهذا اصطياد أمهر وأشجع وأقوى فرسان العدو مما أدى إلى ضعضعة الروح المعنوية لدى العدو، وارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين.

٤- عمل الرسول ﷺ في حفر الخندق بين المسلمين، وكان هذا دعماً وسنداً معنوياً لهم، وعندما صادفهم حجر قوي لم يستطيعوا كسره قال: «بسم الله» وضرب ضربة، فلمع بريق تحت الضربة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر

قصورها الحمر إن شاء الله»، ثم ضرب ضربة ثانية فلمع بريق من ضربته فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض»، ثم ضرب الثالثة فبرق أيضا بريق تحت الضربة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة.»[1]

وهذه الكلمات التي قالها حينذاك أكسبتهم معنوية عالية بحيث لو اجتمع عليهم العالم كله –وليس عشرة آلاف فقط– لما ترددوا في قتاله.

٥– إن اختيار علي بن أبي طالب ﷺ لمقاتلة الفرسان الذين عبروا الخندق اختيار موفق يدل على الفطنة –كان هذا الاختيار تطوعاً وليس جبراً– ويدل على أنه كان يعرف من يختار وأين يختاره.

٦– وضع المنافقين تحت مراقبة دقيقة بحيث لم يمكنهم من إلحاق أي أذى أو سوء مع أنهم كانوا يرغبون في ذلك، وهذا يدل على فطنته في اتخاذ التدابير الضرورية في درء الأضرار ومنعها.

٧– كان الرسول ﷺ يسعى إلى إطالة أمد المعركة ما أمكنه ذلك، ونجح في ذلك، واستفاد من إطالتها فوائد عديدة نستطيع أن نعدد بعضها:

الأولى: كان الوقت مقبلاً على موسم الشتاء، ولم تكن قريش وحلفاؤها قد استعدوا للشتاء، فلو بقوا أكثر لأنهى الشتاء أمرهم، وعندما يفكون الحصار ويذهبون، يذهبون وقد ضعفت قواهم وتداعت.

الثانية: كان العدو مضطراً إلى العناية بعشرة آلاف من المقاتلين وإطعامهم كل يوم، وكلما زادت المدة وتوالت الأيام دخلوا إلى أزمة مالية أكبر، وعندما اتحد الجوع والظمأ والبرد، أصبح الوضع غير محتمل بالنسبة لهم.

---

(١) **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٢٣٠/٣؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ١١٦/٤؛ **«تاريخ الأمم والملوك»** للطبري ١٦٧/٣-١٦٨؛ **«الكامل في التاريخ»** لابن الأثير ١٧٩/٢

الثالثة: لم يكن من المتوقع أن يستمر الحلف في جبهة العدو طويلاً، هذا الحلف الذي كان حلفاً مصطنعاً قام على أساس واحد، وهو اشتراكهم في عداوة رسول الله ﷺ. وكان مرور كل يوم يُضعف هذا الحلف، بينما كانت جبهة الإسلام تقوى على مر الأيام وتزداد تراصاً ووحدة.

الرابعة: كان هناك زعماء عديدون في جبهة العدو، ولم يكن أي واحد منهم قادراً على أن يُسمع كلامه للآخرين ولا أن يجعل الآخرين يطيعونه، كانوا يشبهون الجيوش الصليبية، كان أبو سفيان –من الناحية النظرية فقط– هو قائد جبهة العدو وجيشه، ولكن هذا كان في الظاهر فقط، وكلما مرت الأيام بدأ الشقاق يدب بين هؤلاء الزعماء والأنداد وتتزايد النزاعات بينهم.

٨– كان نُعيم بن مسعود ﷺ قد أسلم سراً، وأوصاه الرسول ﷺ أن يخفي إسلامه مدة، حيث كلفه بالقيام بمهمات كبيرة وخطيرة جداً.

كان نُعَيْم شخصاً تحترمه وتثق به قريش واليهود كذلك، وقد أخبره الرسول ﷺ بأن الحرب خدعة وطلب منه أن يخذل الناس عنه، لذا ذهب نعيم إلى بني قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية ،قال لهم:يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت. لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغَطَفَان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغَطَفَان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأى.

ثم ذهب وأتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم،

فاكتموا عني، قالوا: نفعل. قال:تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغَطَفَان رجالاً من أشرافهم فنعطيهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم ذهب إلى غَطَفَان وحذرهم التحذير نفسه، فلما طلب اليهود منهم الرهن قالت قريش وغَطَفَان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقّ. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فَقالت بنو قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ. وأصروا على طلب الرهائن وأبت قريش وغَطَفَان ذلك وخذل الله بينهم.[1]

لم يكن قد مضى على إسلام نعيم بن مسعود سوى بضعة أيام، فانظروا إلى فطنة الرسول ﷺ إذ عرف أن نعيماً سيستطيع القيام بهذه المهمة الكبيرة وأنه أهل لها، وفعلاً قام نعيم بأداء تلك المهمة أفضل أداء.

٩- كانت الرياح والعواصف قد بدأت تضرب العدو ضربات موجعة، فأرسل الرسول ﷺ حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه ليعلم أحوال العدو واختاره لأداء هذه المهمة، فقد كان مستودع أسرار الرسول ﷺ وكان مغروفاً بدقة تنفيذه للأوامر، وقال الرسول ﷺ عندما أرسله: «يا حُذيفة! اذهبْ فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدِثنّ شيئاً حتى تأتينا.»

وتسلل حُذيفة إلى القوم ودخل بينهم، وسنحت له فرصة كان يستطيع فيها قتل أبي سفيان، إذ كان أبو سفيان قد أدار ظهره له، وقد حدثته نفسه للحظة أن يصيبه بسهم

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٢٤٠-٢٤٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/١٢٨-١٣٠؛ «كتاب المغازي» للواقدي، ٢/٤٨٠-٤٨٧

ويقتله، ولكنه تذكر توصية الرسول ﷺ له بألا يحدث شيئا حتى يرجع فتخلى عن تلك النية، أما أبو سفيان فكان يهتف على الدوام: الرحيل! الرحيل! كان من الواضح أن قريشاً وحلفاءها كانوا يتهيأون للرجوع وهم يجرون أذيال الفشل.

ويشرح القرآن الكريم حالهم الأليمة هذه فيقول: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ (الأحزاب: ٢٥).

وعندما بدأ حُذيفة بالرجوع رأى هناك فرساناً عليهم عمامات بيضاء وملابس بيضاء، كانوا يتجولون بين الكفار فقال أحدهم لحُذيفة: "أخبر صاحبك أن الله قد كفاه" وعندما أخبر حُذيفة الرسول ﷺ بخبرهم قال بأنهم الملائكة.[١]

١٠- احتفظ الرسول ﷺ بالقيادة في يده على الدوام، ولم يترك جبهة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة.. تصرف كأي فرد منهم، وشارك جيشه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يشير كيف أن قيادته كانت في الذروة على الدوام.

١١- كان مجموع الشهداء من المسلمين في مثل هذه الحرب الصعبة ستة شهداء فقط.[٢]

١٢- قال الرسول ﷺ في ختام هذه الحرب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا.»[٣] وقد صدقت الأيام قوله هذا.

عندما تذكر معركة الخندق نجد أن هناك حادثتين مهمتين لا يمكن إهمالهما، إحداهما هي وفاة الصحابي الجليل وسيد الأنصار سعد بن معاذ ﷺ[٤] والحادثة الثانية

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣٢/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٣/٣-٢٤٢

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٦٤/٣؛ «**كتاب المغازي**» للواقدي، ٤٩٦/٢

(٣) **البخاري**، المغازي، ٢٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٦٢/٤

(٤) **لبخاري**، المغازي، ٣٠؛ **مسلم**، جهاد، ٦٥-٦٨

أداء الرسول ﷺ أربع صلوات قضاءً.[١]

في الحادثة الأولى جرح سعد بن معاذ ﷺ في ذراعه، وبدأ الجرح ينزف دون توقف، واهتم الرسول ﷺ به فنصب له خيمة داخل المسجد، وكان يزوره على الدوام، كما كان الآخرون يزورونه أيضا ويبقون بجانبه، ذلك لأنه لم يفارق الرسول ﷺ منذ أن اهتدى إلى الإسلام، وكان الرسول ﷺ يعده شخصاً مميزاً، لذا عندما تم تعيينه حَكما في موضوع بني قريظة فجيء به محمولا على مركب لأنه كان جريحا قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه.» ولم يقصر سعد ﷺ في الإخلاص والوفاء للرسول الكريم ﷺ، عاش مخلصاً وفياً، ومات مخلصاً وفياً.. هذا الذي قال للرسول ﷺ يوم بدر:

"...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطعْ حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذتَه منا كان أحب إلينا مما تركتَ علينا، وما أمرتَ به من أمر فأمرنا نتبع لأمرك، فواللهِ لئن سرتَ حتى تبلغ بَرْك الغِمَاد لَنسيرنّ معك."[٢]

وفي ساعاته الأخيرة كان يدعو قائلاً: "اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه.. اللهم فإني أظن أنك قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم.. فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك.. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة."[٣]

كانت المعركة قد انتهت ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته، ولكنه ما أن خطا خطوة إلى داخل البيت حتى ظهر له جبريل الذي سأله: "أوَ قد وضعتَ السلاح يا رسول الله؟" قال

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٢٧٥/١

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٢/٣؛ «**دلائل النبوة**» للبيهقي ١٠٧/٣

(٣) **البخاري**، المعازي، ٣٠؛ **الترمذي**، السير، ٢٩

الرسول ﷺ: «نعم.» فقال جبريل: "ما وضعتْ الملائكة السلاح بعدُ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة."[١] على إثر هذا أمر الرسول ﷺ بالمسير إلى بني قريظة، ولكي يعلمهم بمدى أهمية السفر ووجوب الإسراع فيه فقد عزم عليهم ألا يصلوا العصر إلا هناك.[٢]

كان بنو قريظة قد خانوا المسلمين -ولاسيما في أثناء معركة الخندق- وأرادوا طعنهم من الخلف، وأرسلوا من يتجسس لهم حول حصن النساء لكي يقوموا بالهجوم عليه، ولكنهم لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك، هذا مع العلم أنهم كانوا قد اتفقوا وتعاهدوا مع رسول الله، نكثوا العهد وأعلنوا الحرب على المسلمين.

ولم يقف ذنبهم عند هذا الحد، بل فتحوا قلاعهم وحصونهم لاستقبال أعداء المسلمين -مثل حُيَيّ بن أخطب- الذين كان من المُبعدين السياسيين من قبل المسلمين، مع أن مثل هذا التصرف كان يُعد انتهاكاً للعهد.

بالرغم من كل هذا فلو اعتذروا للرسول ﷺ عندما أقبل إليهم وطلبوا منه العفو لكان من الممكن أن يصفح الرسول ﷺ عنهم، ذلك لأنه كان يميل على الدوام إلى التعايش الحيد معهم، غير أنهم سلكوا سلوكاً معادياً للمسلمين وللرسول ﷺ، فقد عشعش السوء في سويداء قلوبهم. وعندما أسقط في أيديهم استسلموا، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون سعد بن معاذ ﷺ هو الحكم في قضيتهم. وقبل الرسول ﷺ شرطهم هذا، فقام سعد بن معاذ ﷺ من فراش المرض، وجاء إلى الموضع الذي ينتظرونه فيه وهو راكب على حمار، فقال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم!» (أو قال خيركم)، فقعد عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «هؤلاء نزلوا على حكمك»، فأصدر حكم التوراة عليهم وهو أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، ولم يكن أمام الطرفين إلا قبول هذا

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ١٨، المغازي، ٣٠، ؛ **مسلم**، الجهاد، ٦٥

(٢) **البخاري**، المغازي، ٣٠؛ **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٢٤٥/٣؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ١٣٤/٣

الحكم.[١] وهكذا تطهرت المدينة من فتنة أخرى وأصبحت هي وما حواليها بلداً آمناً.

وهكذا حقق الله تعالى رغبة سعد بن معاذ وقبل دعائه.. وبعد فترة قصيرة نزف جرحه وتوفي إلى رحمة الله تعالى.. كان قد استعجل الخروج إلى الحرب، فلبس درعاً تبين أنه ضيق عليه، لذا بقيت كتفاه عاريتين، وهناك أصيب بسهم سبب وفاته واستشهاده فيما بعد.

ط- الغزوات الأخرى

ألقينا نظرة سريعة حتى الآن على ثلاث غزوات من غزوات الرسول ﷺ البالغة ثماني عشرة غزوة،[٢] وحاولنا تدقيق الناحية العسكرية لدى الرسول ﷺ. والآن سنلقي نظرة سريعة وبشكل عناوين رئيسة على غزواته الأخرى لنشاهد ألوانا من فطنته الكبيرة.

عندما دققنا صلح الحُديبية رأينا كيف استطاع الرسول ﷺ بإدارته الممتازة حل جميع المشاكل والمصاعب، كان من المؤكد وقوع حرب في الحُديبية، غير أن الرسول ﷺ استطاع تجنب الدخول في حرب لا يوجد فيها أي توازن بين القوتين، ففي الجبهة المعادية كان هناك أضعاف عدد المسلمين مسلح، على رأسهم رجال أمثال خالد بن الوليد وعكرمة، بينما كان عدد الصحابة يقارب ١٤٠٠ شخص غير مسلح[٣] قد أحرموا يريدون أداء العمرة، فاستطاع الرسول ﷺ تجنيب أصحابه معركة قاسية وصعبة جدا، واستطاع بفضل من الله وعون منه أن ينهي هذه الأزمة بالنصر.

وقعت حادثة الحُديبية في السنة السادسة للهجرة، أي في وقت كانت مشاعر الشوق والحنين إلى مكة قد استولى على قلوب ونفوس المهاجرين.. وحتى أبو بكر ﷺ وهو صاحب الإرادة الحديدة تأثر من فراق مكة تأثراً كبيراً وأنشد:

كل امرئ مصبِّحٌ في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

---

(١) **البخاري**، الإستئذان، ٢٦، المغازي، ٣٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٩/٣-٢٥١

(٢) تذكر المصادر التاريخية أرقاما مختلفة لغزوات الرسول ﷺ وهنا أعطينا أرجحها.

(٣) هناك روايات أخرى تعطي أرقاما مختلفة لعدد الصحابة.

فمثلا بلال الحبشي –مع أنه لم يكن من مكة بل من الحبشة– عندما أقام بمكة أحبها إلى درجة أنه عندما هاجر إلى المدينة وأصابته الحمى هناك، بدأ يحن إلى مكة ويقول:

ألا ليت شِعري هل أبيتنّ ليلة   بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجَليلُ
وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنة   وهل يَبدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيل [١]

واشتكى عامر بن فُهير مولى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

إني وجدت الموتَ قبل ذوقه   إن الجَبان حَتْفُه من فوقه[٢]

كان الشوق إلى الوطن قد استولى على جميع القلوب.. الشوق إلى مكة أم القرى.. كان قد مر على فراقها ست سنوات لم يستطيعوا فيها الطواف حول الكعبة، بينما كان جدهم إبراهيم عليه السلام قد قام بإصلاح الكعبة وتعميرها: ﴿إن أول بيت وُضع للناس لَلّذي ببكةَ مباركاً وهدى للعالمين﴾ (آل عمران: ٩٦).

والكعبة التي تشير إليها هذه الآية كانت أول بناء على الأرض بناها آدم عليه السلام، بناها أول نبي وأصلحها خليل الرحمن.. والآن كان الكفار يبعدون عنها أفضل أولاد إبراهيم عليه السلام وهو محمد المصطفى ﷺ، وتمر ست سنوات كاملة لا يستطيع فيها هذا النبي الكريم المشتاق إلي زيارتها والطواف حولها.. لم يكن يريد شيئا كثيراً.. كل ما كان يطلبه هو أن يسمح له ولأتباعه القيام بالطواف حول الكعبة بالكيفية التي وضعها الإسلام.

كانت الكعبة آنذاك مملوءة بالأصنام، كما كانت هناك أصنام عديدة حول الكعبة، كان طواف المشركين حول الكعبة شيئاً يدعو إلى السخرية ويخلو من معنى الطواف، لذا وصف القرآن طوافهم هذا بأنه مُكاء وتصدية،[٣] كانوا يصفقون بأيديهم ويصفرون، وكانت النساء يطفن –ولاسيما في الليل– عاريات قد خلعن ملابسهن بحجة أنه لا يجوز

---

(١) **إذخر وجليل**: نبتتان. **مجنة**: موضع كان سوقا في الجاهلية. **شامة وطفيل**: جبلان.

(٢) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٤٦؛ **الموطأ**، المدينة، ١٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد، ٦/٦٥، ٨٣، ٢٢٢

(٣) قال تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ (الأنفال: ٣٥).

الطواف بالملابس التي اقترفن الذنوب فيها.[١] كان طوافاً للرجال والنساء مختلفاً تماماً مستنداً إلى أسس أخرى لعهد آخر يصعب علينا فهمه وشرحه.

كان الرسول ﷺ يود بيان كيف يكون الطواف وكيف تؤدى العمرة، كان هذا هو غايته الأولى، أما الثانية فهي إظهار أن الكعبة ليست ملكاً للمكيين أو القرشيين فقط، وأن للآخرين أيضا حقاً فيها. والحقيقة أن لرسول الله ﷺ الذي سيعيد إلى الكعبة شرفها وشهرتها ومجدها ولجماعته المقدسة حقاً أكبر من الآخرين، والكعبة كانت قد أصبحت منذ مدة طويلة مثل محراب فارق مبره، فكان رسول الله ﷺ يريد أن يقرب المنبر الذي وضعه في المدينة من المحراب، ذلك لأن الكعبة هي محرابنا الأبدي ومحراب النبي ﷺ قبل أي أحد، وقد توجه فترة من الزمن في صلاته إلى المسجد الأقصى لوجود الأصنام في الكعبة، ولكن نظره كان يتقلب في السماء إذ لم يكن يتحمل صرف وجهه عن الكعبة، فأنزل الله تعالى إليه يسري عنه ويبشره: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ (البقرة: ١٤٤).

كانت الفترة التي قضاها متوجهاً في صلاته إلى المسجد الأقصى فترة غربة وهجران بالنسبة إليه.. كانت الكعبة محرابه والمدينة منبره.. لذا، كان من الضروري أن تكون الكعبة في يد المؤمنين، وكان أداء العمرة يعد الخطوة الأولى في هذا السبيل، لذا كان يخطط لأداء عمرة على الأسس الإسلامية وحسب العقيدة الإسلامية وروحها وفكرها. لم يكن الحج قد فرض بعد، لقد فرض الحج في أواخر حياته! لذا، أدى فريضة الحج مرة واحدة، وأطلق القرآن الكريم على ذلك الحج اسم "الحج الأكبر"[٢] وعلى العمرة "الحج الأصغر".

وقد انتشر بين جمهور الناس أن الحج الأكبر هو الحج الذي يصادف يوم عرفة فيه يوم

---

(١) **مسلم**، تفسير، ٢٥؛ **النسائي**، المناسك، ١٦١

(٢) قال تعالى: ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ (التوبة: ٣).

الجمعة، ولكن اسم الحج الأكبر يطلق على الحج الذي يؤدى في أثناء موسم الحج، أما الحج الأصغر فيطلق على العمرة.

والغاية الثالثة له ﷺ كانت إظهار جماعته المباركة للقبائل، وأنها عندما تمر لا تقوم بإيذاء أحد في طريقها، ولا تمس أحدا بضرر.. فلا تدخل بستان أحد، ولا تنهب داراً أو ملكاً لأحد.. سيرى الجميع أن هذا الجيش بعيد عن هذه الأمور، بينما كان من المعتاد آنذاك أن أي جيش بمثل هذه القوة يقوم بأعمال السلب والنهب، بينما كان هذا الجيش جيش السكينة والاطمئنان.. فهم كانوا يمثلون الإسلام في هذا الحج أمام العرب جميعاً، وكان هذا شيئاً مهماً جداً وإيصالاً لرسالة الإسلام إليهم، لأن الذين شاهدوهم كانوا يقولون في أنفسهم في الأرجح: "ما هذا؟ نحن لم نر حتى الآن مثل هؤلاء الناس.. إنهم أشبه بالملائكة."

كانت هذه هي أهداف النبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة، لذا فلم يأخذ الصحابة معهم سوى السيوف في القرب، ولم يحدث أي شيء حتى وصولهم إلى الحُديبية، وهنا جاء من يقول لهم أن قريشاً ستمنعكم بكل ما أُوتيتُ من قوة ومن بأس، بينما لم يكن جيش السلام يريد حرباً ولا قتالاً، لأنهم لم يأتوا للحرب ولا للقتال، لذا اغتم الرسول ﷺ وحزن من هذا الموقف، فقد وعد أصحابه بأنهم سيؤدون العمرة.. وجاء الصحابة معه وهم في شوق لأداء شعائر العمرة مع رسول الله ﷺ وعلى الأسس والقواعد الإسلامية، فما فعلوه سابقاً في جاهليتهم لم يكن حجاً ولا طوافاً، والآن هاهم قد اقتربوا من أداء هذه الشعائر على أساس إسلامي وتحت إرشاد وحي السماء وخلف رسول الله ﷺ.

اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحُديبية وأمر أصحابه بالتوقف، أمر بذلك على الرغم من إيمانه بنفسه وبشجاعة أصحابه، كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضل الانتظار، وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه.. تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام.. هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين

إذ يبايعونك تحت الشجرة فعَلِم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ۞ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (الفتح: ١٨-١٩).

علم الله تعالى ما في قلوبهم، فلو قال لهم الرسول ﷺ موتوا، لماتوا، ولو قال لهم: ابقوا، لبقوا، ولو قال لهم قوموا، وطوفوا بالكعبة، لفعلوا ما أمرهم ولو لم يملكوا السلاح الكافي.

وأنزل الله سكينته عليهم.. فقد وعدهم –جزاء شهامتهم هذه– فتحاً قريباً، وهذا ما قاله لهم في القرآن. شيء واحد لم يتحقق كما كان الرسول ﷺ يتوقع، ولكنه تحقق بعد سنة واحدة، حيث جاءوا وطافوا بالكعبة حسب الشعائر الإسلامية واستلموا الحجر الأسود، أما ما سوي ذلك فقد تحقق جميعه، وشهدت البادية وتأكدت أن هذا الجيش يزرع الأمن والطمأنينة في كل مكان يمر فيه.. فهذا الجيش الذي خرج من المدينة متوجهاً إلى مكة مر بالكثير من القرى وخيام البدو والتقى بالكثير من الناس، وهذا الانطباع الجيد الذي زرعه في القلوب سيثمر، وسيلحق الكثير منهم بالمسلمين بعد سنتين أو ثلاث، وسيتوجهون معهم لفتح مكة. ثم إن قريشا وجميع المشركين الآخرين عرفوا أن الكعبة ليست ملكاً لقريش وحدها، بل إن للجميع حقاً فيها وفي مقدمتهم فخر الإنسانية ﷺ وصحابته.

والحقيقة أن قريشا اضطرت إلى قبول هذه الحقيقة في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ إذ قالت للرسول ﷺ: "وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القِرَب لا تدخلها بغيرها."[1]

كان هذا اعترافاً بالمسلمين كجماعة لها كيان خاص، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين ولاسيما لقريش، واقنعوا الجميع بهذا، وكان على الجميع الانقياد إلى الشعائر التي وضعها المشركون، وما كان لأحد أن يضع

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٩٢/٤-١٩٣؛ «كتاب المغازي» للواقدي ٥٧١/٢-٦٣٢؛ «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ٢٠٠/٢-٢٠٦

شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحُديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم. وهكذا حصل الرسول ﷺ على مثل هذا النصر مع أن عدد أصحابه كانوا لا يتجاوزون ١٤٠٠ صحابياً أمام جيش أكبر منهم بكثير.. النصر والنجاح في فتح قلوب الآخرين وفرض نفسه على الجميع.

فمثلاً قام عروة بن مسعود وسُهَيْل بن عمرو ممثلين عن قريش بالتفاوض مع رسول الله ﷺ ولكن عندما شاهدا مدى ارتباط الصحابة بالرسول ﷺ وحبهم له، وشاهدا تصرف الرسول ﷺ وشخصيته المهيبة وإيمانه القوي العميق بالله تعالى وخشيته ومخافته منه وأحوال النبوة عليه تأثرا من ذلك تأثراً عميقاً وذاب الجليد المتراكم في قلوبهما وتغيرت زاوية نظرهما وأصبحا مرشحين لقبول الإسلام في مستقبل قريب. وعندما رجعا إلى مكة أزالا الموقف المتعنت والصلب لقريش تجاه المسلمين وخففا جو الكراهية نحوهم، وهكذا فإن جو التسامح الموجود في الإسلام، وجو التعنت والعناد لدى المشركين كان يؤدي إلى تغيير في مواقف البعض، وكانت هناك أمثلة حية على هذا.(١)

أجل، فالحائرون كانو يلتحقون بصف النبي ﷺ واحداً إثر آخر. وقد تكون الحُديبية نوعاً من التراجع إلى الخلف في الظاهر، ولكنها كانت في الحقيقة نصراً له ثمرات عديدة، ثم كان هناك أمر أمنِ جانبِ قريش وأمنِ هجومها وشيء آخر: فقد تكوّن حِلف في هذا الصلح، إذ تحالف بنو بكر مع قريش وتحالف بنو خُزاعة مع المسلمين، وكان من مقتضى الصلح ألا يهاجم أي طرف الطرف الآخر، وهذا أفرح رسول الله ﷺ جداً.. إذن، فقد كانت هناك عشر سنوات من السلام في البادية يستطيع خلالها إسماع صوت الإسلام وإيصاله إلى قبائل عديدة.

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٢٥-٣٢٧؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/١٨٩-١٩١

١- ﴿خيبر رأس الفتنة﴾

ما إن رجع رسول الله ﷺ من الحُديبية حتى توجه نحو خيبر التي كانت بمثابة دملة ورأس فتنة، فاليهود كانوا يغلون الفتن هنا، فأحياناً يتفقون مع بني النضير أو مع غَطَفَان أو مع قريش، كانوا على الدوام يحيكون المؤآمرات والفتن ضد المسلمين ويضعون خطط القضاء عليهم، كانوا هم الذين حرضوا قريشاً، فأصابعهم كانت موجودة في معارك أُحد والخندق.

لقد آن وقت تأديب هؤلاء، لذا هيأ الرسول ﷺ غزوة فجائية وسريعة ضدهم، والذين أتوا إلى خيبر هم الصحابة الذين لم يتمكنوا من أداء شعائر العمرة، وكانوا يريدون أن يسدوا بالجهاد هذه الفجوة.

أرسل الرسول ﷺ بعضاً من صحابته إلى غَطَفَان لكونها حليفة لخيبر،[١] وقد حسبت غَطَفَان أنها هي المقصودة بالحرب، لذا فقد انشغلت بمشكلتها، وانقطعت صلتها ومساعدتها لخيبر، غير أن خيبر كانت هي الهدف الأصلي للرسول ﷺ، وبينما كان يهود خيبر في قلق ويتساءلون: متى سيأتون إلينا؟! إذا بالرسول ﷺ يفاجئهم ويسير إليهم ليلاً فأصبحوا والرسول ﷺ والمسلمون قد أحاطوا بخيبر.

كان أهل خيبر في ذلك الصباح ينوون الذهاب إلى حقولهم وبساتينهم مثلما يفعلون كل يوم، لذا حملوا معهم المساحي والمعاول وعدد الزراعة، ولكن ما إن نزلوا من حصونهم حتى تجمدوا في أماكنهم دهشة وذهولاً.. فقد رأوا أمامهم جيشاً مسلماً على رأسه الرسول ﷺ.. وبعد أن تخلصوا من وقع المفاجاة بدأوا بالهروب والرجوع إلى الحصون.. في أثناء ذلك كان الرسول ﷺ يهتف هتافات ترتج منها الأرض: «الله أكبر! خربت خيبر!»[٢] أجل، لقد انتهت خيبر.. لم يكن هناك حل سوى الاستسلام، مع هذا احتاج الأمر إلى حيدر كرار يفتح باب خيبر أمام المسلمين.[٣]

---

(١) **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٣/٣٤٤-٣٤٢؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٤/٢٠٧-٢٠٦

(٢) **البخاري**، الصلاة، ١٢، الأذان، ٦؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٠

(٣) **«الإصابة»** لابن حجر ٢/٥٠٨-٥٠٩

وهكذا تم فتح خيبر على يد علي بن أبي طالب ﷺ وكان الرسول ﷺ قد بشر بأنه سيعطي الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وكان هذا الرجل هو علي المرتضى كرمه الله وجهه.(١) وهكذا استسلمت خيبر للمسلمين في مدة قصيرة وبأقل الخسائر.

كانت أمنا صفية بنت حُيَيّ ﷺ من بين أسرى خيبر، وكانت محظوظة إلى درجة أنها أصبحت زوجة الرسول الكريم ﷺ. ولهذه المرأة العظيمة إسهام كبير في الدعوة الإسلامية بين قومها بعد إسلامها،(٢) واستعملت نفوذها ومكانتها السابقة في هذا المجال.

٢- ﴿ مفخرة مؤتة ﴾

وهذه الغزوة كانت غزوة مليئة بالبطولة وإن كان الرسول ﷺ غير متواجد فيها. أجل، فلن نستطيع إهمال ذكر غزوة مؤتة، وهي الغزوة التي كانت سبباً في وصول اسم الإسلام إلى أسماع العالم. هذه الغزوة التي استشهد فيها أحب الناس إلى الرسول ﷺ ودفنوا هناك، زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ﷺ جميعاً. استشهد هؤلاء كلهم في مؤتة وطاروا من هناك إلى الجنة. وتعد مؤته غزوة ظهر فيها الدهاء العسكري لخالد بن الوليد ﷺ، وكانت أول معركة له في صف الإسلام أثبت نفسه فيها.(٣)

أثناء فترة الصلح أرسل الرسول ﷺ الرسائل إلى الملوك ورؤساء الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، فكانت إجابة بعضهم إيجابية، وبعضهم سلبية، وردّ بعضهم رداً قبيحاً تجاوز فيه حدود الأدب واللياقة.(٤)

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٣٨؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٤؛ **الترمذي**، مناقب، ٢٠

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٣٤٦/٤-٣٤٧؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٤٤/٣-٣٤٥

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٥، المغازي، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/١، ٨

(٤) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٩٨/٤، ٣١١؛ «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري ٢٣٧/٣-٢٥٠

كان رد شُرَحْبِيل أمير بُصْرَى من هذا الصنف الأخير، ومع أن شرحيل بن عمرو كان عربياً إلا أنه تنصر، ولكي يبين مدى تعصبه لدينه أمر بقتل حارث بن عمير رضي الله عنه رسول النبي ﷺ إليه، ولم يكن قتل رسول الله ﷺ ذنباً يغتفر، كما كان أمره خطيراً بالنسبة لتداعيات هذا العمل لدى رؤساء الدول الآخرين، لذا جهز الرسول ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل جعل على رأسه زيد بن حارثة –طليقه ثم ابنه بالتبني ثم حرم الإسلام فيما بعد أمثال هذا التبني– وقال: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.»[1]

عندما بلغ جيش المسلمين مؤته استقبلهم هناك جيش قوامه مائتا ألف رجل، إذن، هناك فرق مذهل بين الجيشين.. ثلاثة آلاف شخص أمام مائتي ألف شخص، وعلى الرغم من كل هذا الفرق الهائل قرر المسلمون القتال وهم يقولون "إما أن ننتصر أو ننال الشهادة."

استشهد القادة الثلاثة الأول واحداً إثر آخر، وانتقلت الراية من يد إلى يد حتى وصلت إلى خالد بن الوليد الذي انكسر في يده في ذلك اليوم تسعة سيوف،[2] وبدأ خالد بن الوليد الذي انتقلت إليه القيادة بعد استشهاد عبد الله بن رواحة يقاتل من جهة ويناور بمهارة يبحث عن طريقة للانسحاب إلى المدينة دون إعطاء المزيد من الخسائر، وكان هذا الانسحاب نجاحاً كبيراً من ناحية التكتيك الحربي.. صحيح أن التراجع إلى الوراء لم يكن من شيمة الصحابة، وكان الصحابة متألمين من هذا ويحز ذلك في نفوسهم، إلا أن المقاييس القرآنية تذكر بأن هذا كان ضرورياً.

وينقل البخاري هذه الواقعة فيورد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر

---

(١) **«مجمع الزوائد»** للهيثمي ١٥٦/٦-١٥٧؛ **«السيرة النبوية»** لابن هشام ١٥/٤، ٢١؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٢٩١/٤

(٢) **البخاري**، المغازي، ٤٤

فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب –وعيناه تذرفان– حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله فتح الله عليهم.»[١]

وفي رواية قال النبي ﷺ: «مثلوا لي في الجنة في خيمة من درة...، كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيداً وابن رواحة أعناقهما صدوداً، إنهما حين غشيهما الموت كأنهما أعرضا أو كأنهما صدا بوجوههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل.»[٢] إذن، فحتى الصحابة قد يكون عند بعضهم كراهية الموت، ولكن هذه الكراهية لم يصل عند أي منهم إلى حد محظور، ولا شك أن ما رآه الرسول ﷺ يعود إلى عالم البرزخ وعالم المثال.

أخافت هذه المعركة بني الأصفر مع أن عدد المسلمين كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، واستطاع خالد أن ينسحب بجيش المسلمين دون إعطاء المزيد من الخسائر، وحسب رواية ابن هشام فإن عدد الشهداء في هذه المعركة بلغ اثني عشر شهيداً.[٣] وأكدت معركة مؤتة للناس في تلك النواحي أن المسلمين موجودون، وبدأ الروم يتحدثون عن هذا الدين الجديد.. عن الإسلام، وسواء آمنوا أم لم يؤمنوا فقد بدأ الناس يتحدثون عن الرسول محمد ﷺ.

بعد هذا التهيؤ العام جاء وقت تحقيق الرؤيا: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ۞ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ (الفتح: ٢٧-٢٨).

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١١٣/٣

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٦٠/٦؛ «**المصنف**» لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ٢٦٦/٥

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٠/٤؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٩٥/٤

٣- ﴿ نحو فتح مكة ﴾

كان الرسول ﷺ يرى الرؤيا الصادقة، ويروى عن أمنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح."[(١)]

هكذا كانت الرؤيا التي كان الرسول الله ﷺ يراها في منامه، وقد رأي في منامه أنه يدخل المسجد الحرام مثلما صورت الآية الكريمة تلك وأيدتها. ومع أن الرؤيا التي كان النبي ﷺ يراها في منامه كانت ممتزجة بالوحي وقريبة منه إلا أن كلمة "الرؤيا" قد تأتي بمعنى "الرؤية"، أي فكما كان الله تعالى يريه أحياناً الجنة وجهنم واللوح المحفوظ، ويريه بعض الحوادث المستقبلية حتى يوم القيامة.. على غرار هذه فقد أراه دخوله إلى المسجد الحرام آمناً مطمئناً وأداءه مراسيم الحج والعمرة، قد تكون هذه رؤيا في المنام وقد تكون رؤية عيانية، وسواء أكانت هذه أم تلك فالنتيجة لا تتغير، فالمهم هو أن الحوادث جرت مثلما رآها بالضبط، وكان المنظر الذي رآه يشير إلى فتح مكة، وكانت الحوادث تدفع المسلمين نحو الفتح.

كنا قد ذكرنا تأسس صلح في الحُديبية بين قريش وحلفائها من القبائل وبين المسلمين وحلفائهم من القبائل، ولكن عندما قامت قبيلة بني بكر الحليفة لقريش بالهجوم على قبيلة بني خُزاعة والفتك بهم فقد تم الإخلال بصلح الحُديبية، ولم تعد بنود هذا الصلح سارية، وقد أدرك أبو سفيان وخامة عاقبة هذا الهجوم، فسارع بالسفر إلى المدينة محاولاً التأكيد على أن الصلح لا يزال سارياً، ولكن لم يوفق في مسعاه هذا.[(٢)]

لقد سبق السيف العذل، وبدأ النبي ﷺ يتهيأ لمعركة، وكعادته دائماً كان يكتم نيته وهدفه، وقد كتم نيته هذه حتى عن أقرب وزرائه ومستشاريه إلى درجة أن أبا بكر رضي الله عنه

---

(١) **البخاري**، بدء الوحي، ٣

(٢) **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٣١/٤ وما بعدها.

عندما ذهب مرة ليزور ابنته عائشة رضي الله عنها رأى الرسول ﷺ وهو يتهيأ للسفر، فسأل ابنته عن وجهته فقالت: لا والله ما أدري.(١)

أجل، كان التهيؤ للفتح سرّياً إلى هذا الحد حتى عن أبي بكر رضي الله عنه، أي حتى عن أقرب الناس إليه والذي اختاره لكي يكون رفيقه في الهجرة. ومع ذلك كتم عنه هدفه من التهيؤ للسفر، وهذا بُعد آخر من أبعاد فطنته العسكرية، وقد أخذ السلطان محمد الفاتح هذا الدرس من الرسول ﷺ، لذا نراه يقول في أحد الأيام: "لو أن لحيتي عرفت سري لحلقتها."، هاكم فاتحاً كبيراً من أتباع الرسول ﷺ ومن مدرسته في التكتم.

كان الرسول ﷺ عندما يقوم بعمل عسكري يوري بغيره ويتكتم على هدفه الحقيقي ويحاول أن يقدم بعض القرائن التي تشير إلى هدف آخر غير هدفه الحقيقي، وأنا أعتقد أن القواد الحاليين يفعلون الشيء نفسه، فإن كانوا ينوون الهجوم على موضع ماء فإنهم يقومون بعمليات تمويه ويفتعلون ضجة كبيرة في موضع آخر، إذ يخفون نياتهم الحقيقة على الدوام فلا يدري أحد أين سيقومون بتوجيه ضرباتهم، أفي موضع أ؟ أم في موضع ب؟ أم في موضع ج؟ وهذه تكتيكات تطورت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ولكن المكتشف الحقيقي لهذا هو الرسول ﷺ، مع أنه لم ير مدرسة ولم يقرأ كتاباً، ولكنه تعلم ما تعلم من ربه فأصبح –وهو الأمي– أعلم العلماء إلى درجة أنك لا تملك إلا وأن تشهد بأن محمداً رسول الله.

أجل، كان يخفي هدفه عن الأعداء وفي الوقت نفسه يجمع الأخبار عن طريق شبكة الاستخبارات التي أسسها بحيث لم يكن يحدث شيء إلا ويصله خبره. وسواء أكان يتصرف هكذا بأمر من الوحي أم بسبب فطنته الكبيرة فالنتيجة لا تتغير وهي أنه كان يعرف ما يحدث في البادية كما يعرف راحة يده.

إليكم مثالاً: قام أحد الصحابة الذين شهدوا بدراً بإرسال رسالة إلى مكة –باجتهاد

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٩/٤

خاطئ منه– بعد أن علم أنهم متوجهون نحوها– مع امرأة يخبرهم فيها بمسير رسول الله ﷺ إليها، وعلم الرسول ﷺ هذا من قبل الوحي فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العَوّام رضي الله عنهما للقبض على المرأة وأخذ الرسالة منها، وهذا ما تم وبسرعة.(١)

واستمر التكتم في هذا الأمر ولم يشعر أحد بقدوم هذا الجيش حتى أصبح على مشارف مكة. وعندما استدعى الرسول ﷺ إليه أبا سفيان عن طريق عمه العباس رضي الله عنه، لم يكن قد بقي أمام أهل مكة أي خيار أو سبيل آخر، فلو حاولوا الهرب بأسرع فرس أو ناقة لما نجوا.. لقد أسقط في أيديهم.

ومع ذلك كان الرسول ﷺ يتصرف بحذر، وحذره هذا كان من أجل الفريقين إذ لم يكن يريد أن يتأذى أحد لا من جيشه ولا من أهل مكة، وبسبب حذره هذا استطاع فتح مكة، تلك المدينة العظيمة، ولم يسقط سوى ثلاثة شهداء من جيش المسلمين، بينما كان لا يزال هناك الكثير من أهل مكة من الذين ركبوا عقولهم وقرروا القتال وليكن مايكون.

أتى الرسول ﷺ مع جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، أجل، مع عشرة آلاف مقاتل مع أنه أتى قبل سنتين مع ١٦٠٠ نفر فقط من المسلمين، وأراد الرسول ﷺ إظهار القوة الحقيقية لجيشه هذا فأمر بأن يوقد كل مقاتل ناراً، وذلك في مكان مشرف على مكة ليراها أهل مكة. ولما كان أهل مكة يتصورون أن كل خيمة توقد ناراً. لذا، فعندما رأوا عشرة آلاف نار موقدة قدروا أن الجيش الذي حاصرهم لا بد وإنه يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل، وهذا أدى إلى شل حركتهم شللاً كلياً، وأدركوا أن لا سبيل أمامهم سوى الاستسلام، وهذا هو ما أوصى به أبو سفيان عندما رجع إلى مكة، لأنه عندما رأى هذه النيران التي ملأت البطحاء فقد كل أثر من آثار المقاومة.. كانت هذه الليلة هي الليلة الأخيرة للجاهلية إذ لم يبق بين المسلمين وبين ساعة الفتح سوى ليلة واحدة.(٢)

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٤١/٤

(٢) «السيرة النبوية» لاس هشام ٤١/٤–٤٥

كانت استراتيجية الرسول ﷺ -ذات البدائل المختلفة- مستمرة، وقسم الجيش الداخل إلى مكة إلى ستة أقسام حيث دخلوا إلى مكة من ست أذرع، ولم يجد أي جيش مقاومة سوى الجيش الذي كان على رأسه خالد بن الوليد ﷺ إذ اضطر إلى تشتيت القوة التي جمعها عكرمة بن أبي جهل، أما الجيوش الأخرى فقد دخلت مكة دون قتال.[١]

كان أبو سفيان هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يخلق مشاكل في مكة، ولكن الرسول ﷺ استطاع أن يلين قلبه بجملة واحدة فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.» أجل، كان إعطاء هذا القدر والمكانة إلى أبي سفيان كافياً لربط يديه ومنعه عن القيام بأي عمل طائش، بل أصبح أبو سفيان من أنشط من حث على الاستسلام، ولا شك أنه ما كان باستطاعة جميع أهل مكة اللجوء إلى بيت أبي سفيان، وكان بيت الله "الكعبة" أولى من بيت أبي سفيان بالرعاية، لذا قال رسول الله ﷺ: «ومن دخل الكعبة فهو آمن»، ثم كان هناك قرار مفاجئ، وهو منع الخروج من البيت لأول مرة في التاريخ، وكان هذا ضرورياً من ناحية تحقيق الأمن ومن ناحية تسهيل حركة الجيش، لذا قال الرسول ﷺ: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.»[٢] وهكذا تم القضاء على أي احتمال للمقاومة من قبل أهل مكة.

ولو أننا صرفنا أنظارنا عن الغزوات الأخرى للرسول ﷺ وركزناها على فتح مكة فقط والاستراتيجية السياسية والعسكرية التي طبقها، لكان هذا كافياً لمعرفة درجة عبقريته العسكرية. أجل، إن فتح مكة وحده يكفي لأن يدفع كل منصف إلى أن يقول: "محمد رسول الله."

لقد كان واثقاً من كل خطوة خطاها في كل مرحلة من مراحل تحقيق خطته حتى لكأنه فَتح مكة مرات عديدة، فقد استطاع تطبيق خطته حتى أدق تفاصيلها تطبيقاً دقيقاً،

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٤٩-٥٠

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٣٣١-٣٣٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٤٧

كما عمل كل ما كان يجب عليه عمله.. فالعفو العام الذي أعلنه بُعيد الفتح، والشهامة وسعة الصدر التي أبداها فتحت قلوب أهل مكة فأقبلوا على إعلان إسلامهم، فما أعذب وما أرق هذه المكرمة التي ساقت أهل مكة سوقاً إلى الإسلام! والآن أتى دور قلب هذه القوة الكامنة إلى حركة وإلى عمل.

يا سبحان الله!.. ما أعظم هذا الانقلاب! هؤلاء الناس الذين كانوا بالأمس أعدى أعدائه، أصبحوا اليوم مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل محاربة أعدائه.. فمن ألقى عليه رسول الله ﷺ نظرة انقلب من فحم إلى ماس.. ولكن ما الداعي إلى أي تشبيهات أخرى، لقد شبه هو ﷺ أصحابه بالنجوم.[1] لقد استطاع رسول الله ﷺ في يوم واحد أن يرفع الأرواح المتلطخة لهؤلاء القوم الذين كانوا يتدحرجون في الأوحال إلى السماء ليكونوا نجوماً تشع فيها وليصبحوا قدوة حتى يوم القيامة.

٤- هفوة حُنين

حتى فتح مكة كانت هناك قبائل تتعقب الحوادث لكي تنضم إلى الجهة الغالبة، فلما تم فتح مكة بدأت هذه القبائل بالدخول إلى الإسلام قبيلة قبيلة، ولكن جريان الأمور على هذا النحو لم يعجب قبيلة ثقيف وقبيلة هوازن، ولكي لا تسمحا بالمزيد من هذه التطورات السلبية بالنسبة إليهما فقد أسرعتا إلى تشكيل جيش اشترك فيه كثير من النهاب والسلاب أيضا حتى بلغ مجموع أفراده ٢٠-٣٠ ألفاً.[2]

أرسل الرسول ﷺ عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي رضي الله عنه ليتسقط ويجمع له الأخبار من وسط هذه القبائل، وقام هذا الصحابي بعمله وبلّغ الرسول ﷺ كل ما جمعه من أخبار ومعلومات وقال: إن قبيلتي ثقيف وهوازن قد جمعتا جيشاً كبيراً في حُنين.

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ١٤٧/١

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٦٨/٤-٣٧٢

كانت كلتا القبيلتين معروفتين بالشجاعة وبالمهارة في رمي السهام، لذا كان يجب مقابلتهما بجيش شاب يشكل فيه المسلمون الجدد غالبيته، وهكذا كان، فقد أصدر الرسول ﷺ أوامره بالمسير نحو حُنين دون أي تأخر، لأن الأوضاع كان من الممكن أن تنقلب ضد المسلمين، ذلك لأن جيش العدو إن تيسر له الوقت للتوجه نحو مكة لكان ذلك فرصة أمام بعض من كانوا يتحينون الفرص في مكة لعمل شيء ما ضد المسلمين، وفي الوقت نفسه لو قام المسلمون الجدد في مكة الذين أحسوا أن كرامتهم قد أهينت بالاشتراك في الحرب ضد الأعداء لكان ذلك باعثاً على تثبيت إيمانهم بالإسلام وإحساسهم بوحدة المصير في المستقبل.

تم الذهاب إلى حُنين باثني عشر ألف من المقاتلين، كان من بينهم ألفان ممن لم يكونوا مسلمين عن صدق، أما الباقون فكان معظمهم من الشباب وتنقصهم التجربة والخبرة في القتال، وكان على رأسهم خالد بن الوليد ﷺ. كان العدو قد أخذ موضعه على شكل حدوة الحصان، وبدأت طلائع الجيش الإسلامي بشن الهجوم على منتصف جيش العدو ولكن دون أن ينتبهوا للأمر أو عن قصد.

ثم اضطرت إلى التراجع على أثر إمطارها بالنبال والسهام، لأن أكثر الجنود لم تكن لديهم دروع، وكانت السهام شديدة عليهم وتصيب أهدافها، فإن كان الهجوم على وسط حدوة الحصان تم عن علم فإن التراجع والتقهقر كان خدعة حربية، ذلك لأن رماة السهام ما إن رأوا تراجع المسلمين وهربهم حتى انطلقوا وراءهم وهم يطلقون صيحات الفرح وتركوا مواضعهم ولم يشعروا أنهم دخلوا داخل كماشة مما اضطرهم إلى التراجع، ولم تمض سوى ساعات حتى قتل منهم من قتل وفرَّ الباقون إلى الطائف واحتموا بقلاعها.(١)

ظهرت بوادر هزيمة ظاهرية في بداية معركة حُنين –مثلما حدث ذلك في وسط معركة أُحد– ولكن رسول الله ﷺ استطاع بشجاعته الفطرية التي كانت تلازمه حتى في

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٧٣/٤ وما بعدها

أحرج المواقف وأصعبها، وبفطنته الكبيرة أن يغير وجهة الحرب ويحولها بفضل الله تعالى من هزيمة مطلقة إلى نصر باهر.

عندما أحاط الذهول والذعر بجيش المسلمين وتقهقروا اندفع رسول الله ﷺ إلى الأمام.. كان عمه العباس رضي الله عنه –وفي روايةٍ أبو سفيان بن الحارث– قد أمسك بلجام بغلة الرسول ﷺ ليمنعه عن الاندفاع نحو العدو، بينما كان الرسول ﷺ يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

ثم قال لعمه العباس: «أي عباس! ناد أصحاب السَّمُرَة»، فأجابوه: "لبيك.. لبيك!" وجعلوا يسرعون إليه وسيوفهم مشهرة في أيديهم، وهكذا انتهت فترة الذهول والتراجع القصيرة وثابوا إلى الرسول ﷺ وانتهت المعركة بالنصر المبين.(١)

لا أملك نفسي هنا من الإشارة إلى نقطة، وهي أن رسول الله ﷺ اشترك في ثمانية عشر غزوة وانتصر في جميعها، ولكني أعتقد أن معركتي أُحد وحُنين أفضل معاركه من ناحية إظهار عبقريته العسكرية، ذلك لأن الأمور جرت في المعارك الأخرى مثلما خطط لها تماماً ووصل إلى النصر فيها بسهولة، أما في هاتين المعركتين فقد ظهرت أمور وطرأت مشاكل غير محسوبة حرفت خططه وغيرتها وأعطت فرصاً كبيرة للعدو، ولكنه استطاع مع هذا، الوصول إلى النصر ولم يكن له أي دخل في تلك المستجدات، لذا كان قيامه بإنقاذ جيشه من الهزيمة والوصول إلى النصر في هاتين المعركتين أفضل وأوضح برهان على العبقرية الفكرية لذلك القائد العظيم.

٥- ﴿ تبوك ﴾

تعد معركة تبوك من المعارك السريعة التي حققها الرسول ﷺ، فقد انتشرت شائعة مفادها أن الإمبراطورية البيزنطية هيأت جيشاً كبيراً وإن هذا الجيش بدأ بالتوجه نحو المدينة، وبينما أقلقت هذه الشائعات المسلمين فإنها أصبحت مصدر أمل وسرور للقبائل

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٥٢؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٦-٧٧؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٣٧٣/٤

المعادية للمسلمين، الجميع كانوا يتوقعون من الغسانيين شراً بالمسلمين.

ومع أن الرسول ﷺ كان يستعين بالكتمان في جميع غزواته، إلا أنه أعلن هذه المرة عن هذه الغزوة وأرسل رجالاً إلى القبائل القريبة يطلب منها مساعدته بالرجال وبالسلاح. كانت المدينة وما حواليها تعيش آنذاك ظروفاً صعبة، فالجو كان حاراً جداً والجفاف سائداً، كما كان وقت قطاف الثمار، ولكن في هذا السفر وفي هذه الغزوة كم من فقير ذهب إلى الرسول ﷺ يطلب منه أن يوفر له راحلة ليشترك في هذه الغزوة، وعندما لا يستطيع الرسول ﷺ ذلك رجع وهو يبكي.. والقرآن الكريم ذكر هذا المشهد المؤثر وخلّده في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما أَتَوْكَ لتحملهم قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون﴾ (التوبة: ٩٢).

في هذه الأثناء لم يكن المنافقون واقفين مكتوفي الأيدي، بل بدأوا بنشاط محموم لتثبيط عزيمة المسلمين وعرقلة سفرهم هذا، واستعانوا بكل حيلة في هذا المجال. أخيراً توجه الرسول ﷺ بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل نحو تبوك، وبقي في تبوك عشرين يوماً، ولكن البيزنطيين لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة لمواجهة هذا الجيش، لذا لم تقع حرب في تبوك، ولكن قدوم المسلمين حتى موضع تبوك أحدث تأثيراً كبيراً على كل من سمع بهذا النبأ، وكان تهديداً وتحدياً كبيراً للعدو أثر على معنوياته تأثير أي هزيمة كبيرة في ساحة القتال، وقد قبلت قبائل مسيحية عديدة أداء الجزية للرسول ﷺ وأعلنت انقيادها له، كما أعلنت بعضها إسلامها.(١)
لذا، يمكن عد حملة تبوك من ضمن الانتصارات التي حققها الرسول ﷺ.(٢)

لقد حاولنا بتقديم بعض الحوادث إظهار الجانب العسكري للرسول ﷺ، والآن سنقوم بذكر الخصائص العامة التي يجب توفرها في أي قائد عسكري، لكي يتسنى لنا معرفة أفضل بالعبقرية العسكرية له ﷺ وبفطنته الكبيرة في هذا المجال.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٥٢

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣/٥ وما بعدها.

الفصل الثالث: المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد

بجانب المعلومات والقابليات العسكرية التي يجب توفرها لدي أي قائد عسكري يجب توفر كل صفات الزعامة فيه، لأن القائد العسكري زعيم في الوقت نفسه وسنقوم بتلخيص هذه الصفات:

١- على كل زعيم أن يملك قابلية إعطاء القرارات الصحيحة. يعد إعطاء القرار بمثابة الأسس للأعمال التي يجب إنجازها، ولكن كما يمكن إعطاء قرار غير صائب كذلك من المحتمل أن يكون القرار خاطئا من ناحية التوقيت كذلك، فالقرارات المتأخرة أو المتقدمة عن أوقاتها الصحيحة تعد قرارات خاطئة، لذا فإن القرار الصائب الذي يتخذه أي زعيم يتميز عن أي قرار آخر اعتيادي بأنه قرار صائب متخذ في وقته المناسب تماماً.

هناك أوقات مهمة يجب فيها اتخاذ قرار سريع، والزعيم يتميز عن الآخرين في مثل هذه الأوقات بقابليته على اتخاذ القرار السريع الذكي والصائب، هذا مع أن القرارات المتخذة على عجل تكون في الغالب قرارات خاطئة لأن العجلة تكون عادة ضد الصواب ويصعب أن يوجدا معاً، والزعيم هو رجل مثل هذه الأوقات الصعبة حيث يستطيع الجمع بين هذين الضدين.

٢- على كل زعيم أن يملك شجاعة فطرية.. من لم يكن شجاعاً لا يمكن أن يكون زعيماً، فعلى الزعيم أن يكون شجاعاً رابط الجأش قوي القلب، فقد يأتي يوم يبقى فيه وحيداً وشجاعته الفطرية تنقذه آنذاك من التذلل، في مثل هذه الأوقات التي يضطر فيها الزعيم والقائد إلى تحمل تبعات دعوته وحده عليه أن يتصرف وكأن الآلاف خلفه، وذلك لكي يستطيع الوصول إلى هدفه.

أجل، على القائد والزعيم ألا يخاف من الموت أبداً. فالذي يخاف من كل شيء ويخشى من كل خطوة ومن كل أمر لا يمكن أن يكون قائداً ينظم ويدير جماعته.

٣- القائد رجل الإرادة التي لا تلين، فليس من الممكن له الرجوع عن قراره ولا تبديل إيمانه وعقيدته ولا إعطاء أي تنازل عنها، فالأمل صديقه الذي لا يفارقه، أما اليأس فعدوه الكبير الذي لا يقربه حتى في الأحلام، فالعراقيل الموجودة أمامه مهما كانت كبيرة لا تثنيه عن عزمه ولا تضعف من إرادته، فهو يملك قوة معنوية وروحية يغلب بها اليأس، وإلا فكيف يكون باستطاعته جذب الجماهير حلفه؟ أجل، إن القائد شخص ذو إرادة فولاذية لا تلين.

٤- القائد شخص يدرك مسؤولياته إدراكاً جيداً، وشعور المسؤولية هذا جزء لا يتجزأ من كيانه، فلو تفرق عنه جميع من حوله واحداً إثر واحد فهو يبقى مستعداً لتحمل التبعات الثقيلة لدعوته حتى النهاية وإن أصبح وحيداً. أجل، هذا هو مقدار شعوره بالمسؤولية، وليس هناك أمر أو عائق يستطيع إضعاف هذا الشعور الذي يتحول عنده إلى قناعة فكرية ثابتة.

٥- على الزعيم أن يكون بعيد النظرة يتجاوز زمنه، ويكتشف مسار الحوادث المستقبلية بحدسه وبفكره الثاقب ويراها مثلما رأى الأحداث الماضية ويعطي أحكامه وقراراته على هذا الأساس. ولكن إن كانت الأيام تثبت على الدوام عكس ما أمله وما توقعه وتنقض حدسه فليس في إمكانه إقناع من برأسه سكة من عقل.

على الزعيم أن يرى المستقبل لكي تكون قراراته نهائية، وإلا اضطر إلى تبديل قراراته على الدوام حسب تقلب الأيام، وهذا سيولد الخلاف الفكري والشقاق بين جماعته، وهذا يؤدي إلى انهدام الجماعة. فالقرارات المتغيرة على الدوام ستؤدي إلى تفتيت الجماعة إلى أفراد كل منهم يحمل فكراً خاصاً به. إذن، فعلى القائد أن يكون ذا بصيرة نافذة وفراسة حادة.

٦- على القائد أن يكون إنساناً مستقراً من الناحية النفسية لا يتأثر ولا يغير وضعه تحت تأثير أي حادثة، فلا يغره أروع النجاحات ولا يعيره أكبر الانتصارات، وعندما يواجهه الفشل يقوم بحماسية نفسه.

القائد هو الشخص الذي بَعُد عن وضاعة النفس واستمر في طرز حياته البسطية المتقشفة، يعيش حياته بتناغم موسيقي هادئ، بل إن القائد الجيد هو ينهي حياته بمستوى أعلى من البداية التي بدأها، وهذا لا يتم إلا إذا كان القائد يملك نفساً متواضعة تمام التواضع لكي لا ينسى أيامه الأولى ولا أصدقائه السابقين.

٧- القائد شخص يعرف التقييم الجيد للأفراد، ويعرف أكثر من غيره نوعية الأفراد الموجودين تحت قيادته، ويعرف أين يستعمل ومن يستعمل منهم وفي تحقيق أي هدف. والشخص الذي لا يعرف توزيع الأعمال حسب القابليات، ولا يسجل نجاحاً في هذا الأمر لا يستطيع أن يكون ليس فقط قائداً بل حتى إدارياً جيداً.

على القائد أن يودع كل عمل إلى أليق الأشخاص لذلك العمل وأكثرهم قابلية في إنجاز ذلك العمل. فالقائد أفضل من يقوم بهذا التقييم ويقوم بتوظيف القابليات والاستفادة منها على الدوام. وهو عادة لا يضطر إلى الرجوع عن قراراته السابقة في هذا المجال لأنه يملك بوصلة حساسة في تقييم القابليات ووزن الرجال، طبعاً عدا استثناءات قليلة لا يمكن لأي إنسان التخلص منها.

٨- القائد هوالشخص الذي يحب رعيته بحيث أن كل فرد منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو الشخص الذي تقابله رعيته أيضا بالحب.. ثقته بالرعية وثقة رعيته به تامة.

٩- لا يوجد في أي مرحلة من مراحل حياته شيء يمكن إشهاره في وجهه كتهمة، فماضيه معروف كحاضره، وماضيه نقي كحاضره، ولو قام أحد بتدقيق ماضيه -سواء بنية سيئة أو حسنة- لما وجد فيه ما يخجل منه، ولو أصبحت الدنيا بأجمعها خصما له لما استطاعت إلقاء أي ظل من الشك على عفته وسمعته.. طبعاً إن تم الالتزام بالصدق ولم يسلكوا سبل الكذب والافتراء.

١٠- القائد شخص له جوانب عديدة وميزات كثيرة، واستطاع التميز في مجتمعه في

كل جانب من هذه الجوانب، ولا يمكن لأحد أن يجد أي عيب في تصرفاته وسلوكه، وكلما دققت جوانبه المختلفة تبين هذا الأمر أكثر فأكثر.

لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من هؤلاء القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه كل هذه الصفات التي عددناها، أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلة أيضاً.

"الإسكندر الكبير"، "هَنيبَعل (Hannibal)"، "نابوليون (Napoléon)"، "هتلر (Hitler)"، ومن تاريخنا: "محمد الفاتح"، "السلطان سليم الأول"، "السلطان بايزيد" والملقب بالصاعقة، "جلال الدين خرزم شاه"، "صلاح الدين الأيوبي"، "طارق بن زياد"، "الشيخ شامل" الذي حارب الروس مدة أربعين عاماً... لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظاماً، غير أننا إن قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي سردناها لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبداً بقائد القادة محمد ﷺ.

أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله استطاع أن يجمع فيه جميع صفات القيادة الناجحة دون أي نقص وفي أعلى الذرى وهو محمد ﷺ.. ذلك لأنه كان رسول الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الإجراءات التي اتخذها طوال حياته.

أ- نظرة سريعة على حياته

كانت جميع قراراته سريعة وصائبة جداً، فلم ينتج الفشل والخذلان عن أي قرار اتخذه، وقد سبق وأن أعطينا أمثلة مفصلة حول هذا الأمر ولاسيما القرارات الصائبة التي اتخذها في معركتي أُحد وحُنين والتي أنقذت جيشه من هزائم محققة وأوصلته إلى انتصارات مبينة.

كان شخصاً شجاعاً بفطرته، سلك طريقاً طويلاً وصعباً تحدى به العالم أجمع، واستمر في طريقه هذا دون خوف لا من أي فرد ولا من أي جماعة، بل كان عندما تبدو بوادر الهزيمة في جيشه يسوق فرسه ويهجم بنفسه على الأعداء دون أي خوف ولا وجل حتى أن فارساً بشجاعة علي بن أبي طالب ﷺ كان يقول: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ

برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا.»[١]

يورد البخاري عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نَجْد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله تحت سَمُرَةٍ وعلق بها سيفه ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلْتاً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله» (ثلاثاً)، ولم يعاقبه وجلس.[٢] هذه هي شجاعة رسول الله ﷺ، وهذا هو مبلغ ثقته بالله واعتماده عليه.

وفزع أهل المدينة يوماً عندما سمعوا صوتاً عظيماً وخرجوا إلى الدروب لاستطلاع الخبر، دعونا نقرأ الحادثة في البخاري عن أنس ﷺ قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول «لم تُراعوا لم تُراعوا» وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف.[٣]

كان الرسول ﷺ أول من سمع الصوت فامتطى فرس أبي طلحة وتوجه إلى ناحية مصدر الصوت حتى اطمأن إلى عدم وجود أي خطر ورجع. إذن، فالإسراع وحده نحو مصدر صوت أفزع جميع أهل المدينة يبين مدى الشجاعة الفطرية التي كانت موجودة لديه.

وعندما خشي أبو بكر ﷺ وخاف على حياة الرسول ﷺ وهو في الغار معه بعد أن اقترب منهما المشركون قال له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!» فهدّأ بذلك روع أبي بكر الصديق ﷺ.[٤] ثم ألا يعد خروجه من داره والأعداء الذين أعماهم الحقد والغضب يحيطون بها شجاعة كبيرة؟ كان يملك إرادة صلبة لا تهتز ولا يمكن لويها لأنها كانت مرتبطة بمشيئة الله تعالى.

---

(١) «المسند» للأمام أحمد ٨٦/١

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٧٤، المغازي، ٣١؛ **مسلم**، كتاب صلاة المسافرين، ٥٧

(٣) **البخاري**، الأدب، ٣٩؛ **ابن ماجة**، الجهاد، ٩

(٤) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢؛ «المسند» للأمام أحمد ٢/١

ب- العظمة التي لا يمكن بلوغها

توفي والده قبل أن يولد، أي أصبح يتيماً وهو في بطن أمه، لذا لم يتعود الاعتماد على الأب وانتظار العون والمساعدة منه وما قد يستتبع هذا الاعتماد من ارتخاء لدى الإنسان، فدعوته كانت موجهة إلى تقوية إرادة الإنسان.

وتوفيت أمه وعمره ست سنوات، بينما تعد الأم أكبر سند للمرء، وليس هناك من يستطيع أخذ مكان الأم في القلب، إذن، فقد سُحب منه هذا السند أيضاً.. كانت الحوادث تهيئه وتربيه، وكانت إر ـه فخر الكائنات تقوى بمرور الأيام.

وفي سن الثامنة فقد جده، هذا الجد الذي كان سنداً لمكة ولأهل مكة.. ولكنه أفل هو الآخر.

كان الله تعالى يريد بهذه الحوادث أن يوجهه إلى منبع ومصدر الثقة والأمان.. إلى ذاته تعالى، وأن يسحب من حوله ومن يديه كل شيء يمكن أن يلقي ظلاً على هذا الأمر.. أجل، سيعاونه هو، ويسانده هو وسيربيه هو تعالى.. صحيح أنه من المحتمل أن هزة كانت تصيب رسول الله ﷺ كلما فقد سنداً، وذلك حسب طبيعته الإنسانية، غير أنه كان يجب أن يتهيأ تماماً لحمل عبء الوظيفة الكبرى التي بانتظاره وأن تشحذ إرادته أكثر فأكثر، وذلك لكي لا يفقد من عزيمته شيئاً ولا يتردد أبداً وإن سحبت الدنيا بجميعها يدها منه وبقي معلقاً في الفراغ وحده. ولوحدث له هذا -وهو لم يحدث في الحقيقة- لما تغير شيء بالنسبة إليه ولاستمر في طريقه.. ولو لم يكن هذا أمره فكيف كان يستطيع جمع أصحابه بعد كل ما أصابه وأصابهم، ويأمرهم بتعقب جيش العدو؟ كان صاحب إرادة قوية إلى درجة أنه رغم كل الجروح التي أصابته وأصابت أتباعه، ورغم التعب والإرهاق فقد كان في مقدمة جيشه وهو يتعقب جيش العدو.

لا توجد في حياته لحظة ذعر واحدة، ففي اللحظات التي تفرق عنه أصحابه الذين

كان كل واحد منهم أسداً هصوراً ذات اليمين وذات الشمال ثبت هو في مكانه فلم يتأخر خطوة واحدة.. أجل، لقد كانت إرادته إرادة فولاذية لا تلين.

لم يبق هناك أذى لم يصبه في مكة، ولكنه لم يهتز.. توفيت زوجته ثم عمه وكانا من أكبر مسانديه، ولكنه لم يصبه أي يأس ولم يظهر عليه أي تردد أو قلق.

عندما ذهب، إلى الطائف رموه بالحجارة فأدموا وجهه وألجؤوه إلى حائط، وظهر له ملك وقال له إنه مستعد لأن يحمل جبلاً ويطبقه على أهل الطائف إن أراد ذلك، ومع أن الدم كان يسيل على جسده الطاهر إلا أنه رفض هذا..[1] فما أعجب هذه الإرادة التي لا تتزحزح قيد شعرة عن قرارها.. إذن، يستطيع الإنسان أن يتبع مثل هذا القائد حتى الموت، وأن يغديه بكل شيء، لأنه يعلم جيدا أنه مع مثل هذا القائد لن يقف في منتصف الطريق.. فكيف يمكن السير وراء شخص ضعيف الإرادة يغير رأيه بسرعة ويترك أصدقاءه في وقت الضيق والشدة ويرجع عن قرارات ومبادئ سبق وأن تم التضحية في سبيلها بآلاف الأشخاص، بينما كان المنتظر منه الاشتراك بالتضحية نفسها؟ كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون قائداً وزعيماً؟ ثم أليس أمثال هؤلاء من مدعي الزعامة والقيادة هم السبب في خيبة الرجاء التي يحسها إنساننا اليوم؟

كان ﷺ إنسان مسؤولية وبطلاً من أبطال الإرادة الصلبة، فالقرآن الذي أنزل عليه لو أنزل على جبل لتصدع.. لقد كان صاحب إرادة مدهشة. كُلّف بمهمة التبليغ.. كان عليه أن يشرح الله تعالى لكل إنسان فرداً فرداً.. كانت مهمة صعبة مثل مهمة تفريغ مياه المحيط بقشرة بيضة، ولكن رسول الله ﷺ أخذ هذه المهمة على عاتقه دون تردد.. فتح القلوب وأدرك قابليات كل فرد من الأفراد.

تبليغ دعوة الإسلام كان هدف وجوده، فلم يكن قلقاً لا حول الدنيا ولا حول الآخرة، فلم يُنسِه أي شيء هذا الهدف وهذه المسؤولية، لا رؤيته الجنات ولا وصوله إلى

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٦٨/٣

قاب قوسين.. فمن ذلك المكان الذي رصفت النجوم تحت أقدامه كالحصى رجع إلى هذه الدنيا المملوءة بالآلام وبالمشقات وأصبح معنا وبيننا، لأنه كان يشعر بمسؤوليته وبوظيفته بكل ذرة من ذرات وجوده وكيانه.. بلغ شعور المسؤولية عنده درجة قال معه ذات يوم: «واللهِ لَوَدِدتُ أني كنت شجرة تُعضَد[١]»[٢] كان هذا هو إدراكه لمسؤولية كونه إنساناً يحمل عبء مهمة ثقيلة ويئن تحت ثقل هذه المسؤولية.. وحاله يوم المحشر امتداد لمسؤوليته هذه، لذا سيقع يوم القيامة ساجدا لله تعالى وهو يقول: «أمتي!.. أمتي!..»[٣] والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد غيره يستطيع حمل مثل هذه المسؤولية، لأنها كانت مسؤولية الإنسانية كلها، أي تمتد من الإنسان الأول حتى الإنسان الأخير.

كان صاحب رؤية وفراسة تتجاوزان أبعاد الزمان والمكان. أهذا فحسب؟.. كانت نظراته تصل إلى عالم الغيب وتبصره، إذ ألم يكن هو الذي شرح لنا وهو في الدنيا عالم الجنة وجهنم والصراط والمحشر بكل تفاصيله؟ كان يرى ويشاهد هذا العالم ثم يشرحه لنا[٤] وكما أكدنا من قبل مراراً فإن الحوادث صدقت كل أقواله التي قالها حول المستقبل ولم تكذبه، فكلما حان الوقت الملائم ظهرت الحادثة التي تنبأ بها، وهناك حوادث تنتظر الظهور.[٥] ولكي تدرك مدى بُعد نظره انظر إلى صلح الحُديبية الذي سبق وأن فصلنا الكلام حوله.

ج- الإنسان الذي لم يتغير

أنهى حياته مثلما بدأها.. أي سار فخر الكائنات على المنوال نفسه وضمن المقاييس نفسها والمبادئ نفسها فلم يتغير ولم يتبدل.. مثلما تصرف في مكة -وليس معه سوى

(١) **تُعضد**: أي تُقطّع.

(٢) **ابن ماجة**، الزهد، ١٩؛ **الترمذي**، الزهد، ٩

(٣) **البخاري**، التوحيد، ٣٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦

(٤) **مسلم**، الفتن، ٢٢-٢٥؛ «**المسند**» للأمام أحمد ٤/١

(٥) انظر إلى مباحث الفتن والملاحم في كتب الحديث.

امرأة وصبي وعبد وحر– تصرف في حجة الوداع وهو يخاطب أكثر من مائة ألف، بل إن تواضعه زاد وهو في أوج النصر والفتح المبين.

هو القائد الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبدل طوال حياته.. تأملوا كيف لم يغير سلوكه وتصرفه أمام الذين كانوا السبب في الأذى والشدائد التي تعرض لها طوال حياته. وعندما توسعت حلقات أصدقائه وتعددت بتقدم الدعوة والتحاق أناس جدد ذوي قابليات كبيرة، لم ينس أصدقائه السابقين أبداً، بقي كما كان سابقاً.

د– التواضع الرائع

كان جالساً في أحد الأيام يأكل مع أصدقائه، فمرت به امرأة بذيئة اللسان، فلما رأته قالت: "انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد." فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبدٍ أعبد مني؟» قالت: "ويأكل ولا يطعمني." قال: «فكلي.» قالت: "ناولني بيدك!" فناولها فقالت: "أطعمني مما في فيك" فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتى ماتت.(١)

وعن جرير أن رجلاً أتى النبي ﷺ من بين يديه فاستقبلته رعدة أي ارتجف من مهابة النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد.»(٢)

وعن ابن عباس أنه كان يحدث أن الله أرسل إلى النبي ﷺ ملكا من الملائكة معَ الملك جبريل عليه السلام، فقال الملك: "يا محمد، إن الله يخيِّرك بين أن تكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً"، فالتفتَ رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير فأومأ إليه أن "تواضع" فقال رسول الله ﷺ: «بل نبياً عبداً.»(٣)

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢١/٩

(٢) **ابن ماجة، الاطعمة**، ٣٠؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٠/٩

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٩/٩–٢٠

في هذه الأثناء كانت الغنائم والهدايا تأتيه من أرجاء الدنيا، ولكنه كان يوزع جميع هذه الغنائم والهدايا على أصحابه ولا يبقي لنفسه شيئاً منها، ولم يتغير سلوكه هذا طوال حياته، وعندما دخل مكة منتصراً وفاتحاً دخل وذقنه يكاد يلامس ظهر راحلته تواضعاً.[١]

عندما أقبل عليه سعد بن معاذ ﷺ قال لجلسائه: «قوموا لسيدكم.»[٢] ولكنه كان ينهى أصحابه عن القيام له ويقول: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم.»[٣]

صلى في ليلة المعراج إماماً لجميع الأنبياء،[٤] غير أن هذا الفضل المهدي إليه لم يغيره وقال: «لا تخيّروني على موسى.»[٥] وقال مرة: «لا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متّى عليه السلام.»[٦]

ومع أن أستار الغيب رفعت مرات عديدة أمام عينيه إلا أنه عندما دخل على إحدى نسائه وعندها جويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبيّ يعلم ما في غد، قال رسول الله ﷺ لها: «لا تقولي هكذا، وقولي الذي كنتِ تقولين»،[٧] وفي رواية أخرى: «أمّا هذا، فلا تقولوه، ما يعلم ما في غد إلا الله.»[٨]

أجل، هناك إنسان واحد وقائد واحد لم يغير سلوكه وتصرفه المتناغم طوال حياته، وهو بلا شك محمد رسول الله ﷺ.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٤٧-٤٨

(٢) البخاري، الاستئذان، ٢٦؛ «الإصابة» لابن حجر ٢/٣٨

(٣) أبو داود، الأدب، ١٥٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٥/٢٥٣

(٤) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/١٣٦؛ «جامع البيان» للطبري ١٥/٣

(٥) مسلم، الفضائل، ١٥٩-١٦٠

(٦) مسلم، الفضائل، ١٦٦-١٦٧

(٧) البخاري، معازي، ١٢، النكاح، ٤٨

(٨) الترمذي، النكاح، ٦؛ ابن ماجة، النكاح، ٢١

هـ- معرفته بالقابليات

لم يكن له نظير ولا مثيل في اكتشاف قابليات أتباعه، فعندما تقررت الهجرة إلى الحبشة اختار جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ليكون أمير المهاجرين، وقد أثبت جعفر رضي الله عنه في حواره مع النجاشي أن اختياره كان اختياراً صائباً.(١)

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أول من أرسله مرشداً إلى المدينة، وكان ما قام به مصعب رضي الله عنه في المدينة من أعمال، وما قدم من خدمات للدعوة الإسلامية أفضل وأصدق شاهد على حسن اختياره. لقد كانت المدينة في حاجة إلى رجل رقيق ودمث الخلق مثل مصعب، لذا اختاره الرسول لتلك المهمة.(٢)

وفي ليلة الهجرة كان لا بد من وجود أحدهم في فراشه لايهاب المشركين إذ كان من المحتمل ومن الممكن أن تقع عليه الضربات الموجهة إلى الرسول ﷺ، لذا كان لا بد من اختيار بطل مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه للقيام بهذه المهمة.(٣)

ثم من كان يجب أن يرافقه في هجرته ويصاحبه في سفره ويكون معه في الغار؟ أي شخص كان من المفروض أن يراه أهل المدينة معه؟ لقد قرر أن يكون هذا الشخص أبا بكر رضي الله عنه الذي حافظ على موقع الرجل الثاني على الدوام، كان الرسول ﷺ قد عينه في هذا المقام والموقع منذ بداية الأمر، واستمر أبوبكر في هذا الموقع حتى النهاية، ذلك لأن اختياره كان موفقاً منذ البداية.

هذا، مع العلم أننا نجد آثار بصماته في اختيار جميع الخلفاء الراشدين من بعده.. أي كان من المفروض أن يكون أبو بكر رضي الله عنه هو الأول وعمر رضي الله عنه هو الثاني وعثمان رضي الله عنه

---

(١) «المسند» للأمام أحمد ٢٠١/١-٢٠٢

(٢) «السيرة النبوية» لاس هشام ٧٦/٢

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٢٦/٢-١٢٧

هو الثالث وعلي كرم الله وجهه هو الرابع، ذلك لأن حدود آجال هؤلاء التي عينتها يد القدر كانت تقتضي هذا التسلسل، فالتصرف الإلهي ظاهر في هذا الأمر.

كان موفقاً في كل اختيار له بدءاً من تسليمه السيف إلى أبي دُجانة ﵁[1] وانتهاءً بمهمة زرع الشقاق بين قريش وبين اليهود التي أعطاها إلى نُعيم بن مسعود ﵁[2] كان يتصرف دائماً بمبدأ إعطاء كل مهمة إلى أهلها.

كان حُذيفة أهلاً لحفظ الأسرار فأعطى له بعض أسراره.[3] وكلف عمه العباس ﵁ بأمور المخابرات في مكة، وقام عمه بهذه المهمة خير قيام.[4]

اختياره للقواد واختياره للرسل الذين أرسلهم إلى الملوك والرؤساء.. اختياره للطلاب لكي يكونوا رجال علم في "الصُّفّة".. اختياره لعمال جمع الزكاة، كل هذه الاختيارات كانت صائبة كما أثبتتها الأيام.

أجل، إن من المهم جداً لكل قائد أن يعرف تماماً نوعية الأشخاص الذين يعهد إليهم القيام بمهمات معينة، والتاريخ يذكر الأخطاء الكثيرة والكبيرة التي اقترفها الكثير من الزعماء والقادة في هذا الأمر، فكم من قائد خانه من قربه إليه وجعله من خاصته.

استخدم الرسول ﷺ الأرقم بن أبي الأرقم ﵁ في الأمور المالية، واستمر في خدمته هذه للشؤون المالية في عهد أبي بكر وعمر ﵄، أما في عهد عثمان ﵁، الذي كان يخص من ماله الخاص بعض أقربائه بالعطاء، مما أدى إلى انتشار شائعة بأنه يفضل بني أمية على سائر المسلمين، فقد جاء الأرقم بن أبي الأرقم إليه وسلمه مفاتيح الخزينة قائلاً له بأنه لا يستطيع العمل في مثل هذه الظروف وفي ظل هذه الإشاعات.[5]

---

(١) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٨

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٠/٣ .

(٣) **البخاري**، المناقب، ٢٠

(٤) «**الإصابة**» لابن حجر ٢٨/١-٢٩

(٥) «**الإصابة**» لابن حجر ٢٨/١-٢٩

و- محبوب القلوب

كان قائداً يحب الناس ويحبه الناس، إلى درجة أن كل فرد كان يحس أنه هو الأقرب إلى قلبه، كما يحس أنه هو الأكثر حباً له.

كان يحب.. فكم من مرة التفتَ في مسجده قبيل وفاته واستعرض وجوه أصحابه ودمعت عيناه، لأنه كان يعرف جيدا أنه وإن التقى بهم بعد مدة إلا أنه سيفارقهم قريباً، ولن يراهم مرة أخرى في عالم الشهادة.. لقد آن رحيله إلى الرفيق الأعلى، فأهل السماء كانوا ينتظرونه بشوق، غير أنه لكونه أنموذج الوفاء، ذرف الدموع حزناً من مفارقة أصحابه الأحبة، ولكن منظر أصحابه وهم يصلون كان يملأ قلبه فرحا وحبورا وتجد البسمة طريقها إلى شفتيه المباركتين.(١)

كان يحب أصحابه ويصونهم ويقول: «لا تَسُبّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذَهَباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»،(٢) ويقول: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»،(٣) وأحاديث أخرى أيضاً تشكل دليلاً على هذا الحب وهذه الصيانة.

ثم إنه كان محبوباً من قبل الآخرين.. محبوباً بحب لا يوصف، بحب يسري في شغاف القلوب.. ثم ألم يكن حبه دليلاً على كمال إيمان المؤمن؟(٤) والصحابة الذين وصلوا إلى ذروة الإيمان وصلوا كذلك إلى ذروة حب الرسول ﷺ.

عندما أحضر كفار قريش الصحابي خُبَيْب رضي الله عنه الذي أسروه في ماء الرجيع إلى موضع الإعدام سألوه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك، وتكون أنت آمِناً في بيتك؟" فلو قال نعم،

---

(١) **البخاري**، المغازي ٨٣؛ **مسلم**، صلاة ٩٨؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٢٤-٢٥

(٢) **البخاري**، فضائل الصحابة، ٥؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٢١-٢٢٢

(٣) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١/١٣٢

(٤) **البخاري**، الإيمان، ٨؛ **مسلم**، الإيمان، ٦٩

لربما أطلقوا سراحه ولكنه أجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه."[١]

بعد انتهاء معركة أُحد أرسل الرسول ﷺ رجلا ليبحث عن سعد بن الربيع ﷺ، فوجده جريحا جرحاً بالغاً، فسأله عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأَبْلِغْ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأَبْلِغْ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف."[٢]

كانت الصحابية سُميراء تبحث عن رسول الله ﷺ في ميدان المعركة وتسأل: "أين رسول الله؟" وعندما أشاروا إلى مكانه ورأته بأم عينها قالت: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"[٣] أي هينة، هذا رغم استشهاد زوجها وابنها وأبيها في تلك المعركة.

وبينما كانت نسيبة الأنصارية ﷺ بيدها السيف تدافع عن الرسول ﷺ أشار الرسول ﷺ إلى ابنها الجريح وطلب منها مساعدته وتضميد جراحه.. كانت قد نسيت أن لها ابناً مقاتلاً وأنه جرح.. أسرعت إليه وضمدت جراحه ثم قالت له: "قم يا بني ودافِعْ عن رسول الله."[٤]

وتعرض أبو بكر الصديق ﷺ إلى الضرب حتى أغمي عليه، لأنه دافع عن الرسول ﷺ ودعا إليه.. وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله وهم لا يشكون أنه ميت، وجعل أبوه وبنو تيم يكلمون أبا بكر وهو لا يجيب حتى كاد النهار أن يولي، ثم تكلم فكان أول ما قاله أنه سأل عن حبيبه ﷺ: "ما فعل رسول الله؟" فقاموا عنه، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحّتْ عليه وجعل هو

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٧٦

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٤٤

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/١٠٥

(٤) «الإصابة» لابن حجر ٤/٤١٨

يقول: "ما فعل رسول الله ﷺ؟" فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك، وحلف ألا يأكل شيئاً أو يشرب حتى يسمع عنه.[1]

هذه الأمثلة ومئات غيرها تبين أن الرسول ﷺ كان محبوب قلوب صحابته الذين كانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيله.. كما أصبح محبوب أمته جميعاً. كان محاطاً بهذه الهالة من المحبة الخالصة، لذا لم يكن هناك حرس أو خدم على بابه[2] لأنه كان يثق فيمن حواليه. كان الجميع يحبونه، وكان هو يحب الجميع.

ز- كان ﷺ معصوماً منذ البداية

كان ماضيه نقياً طاهراً، فلم يقترف شيئا يمكن أن يعد عيباً أو قصوراً.. كان أبو بكر ﷺ صديق طفولته وصباه، فلو رأى فيه عيباً أكان يسارع إلى تصديقه أول ما أعلن نبوته؟ ألم تعجب أمنا خديجة ﷺ بأخلاقه، فاختارته مع أن العديدين طلبوا الزواج منها؟ وكما تقول الآية الكريمة: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ (النور ٢٦)، فالزوجة الطاهرة خديجة ﷺ بذلت كل ما في وسعها لتكون الزوجة اللائقة لهذا الشخص الطاهر، وبقيت كذلك طوال حياتها.

كان خلقه الرفيع وخصاله الحميدة معروفة للجميع حتى قبل بعثته ﷺ حتى لقبه أهل مكة بـ"الأمين" فاستقامته ووفاؤه بالعهد كان معروفاً للجميع. كان أبو جهل وأبو لهب يعرفان هذا ويعترفان به، وعداوتهما له واعتراضهما عليه كان من شيء آخر، وإلا فإن جميع أعدائه كانوا يعترفون بأنه صادق في كل ما يقوله.

كان الطهر والنقاء والبعد عن كل إثم صفة من صفاته.. كان معصوماً على الدوام، لذا لم يقترف أي خطيئة. وسنرجع إلى صفته هذه فيما بعد بالتفصيل.

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٤١٨

(٢) **البخاري**، الجنائز، ٣٢؛ **مسلم**، الجنائز، ١٥

يقول "سير وليام موير (Sir William Muir)": "إن محمداً شخصية ممتازة ومثال للفضيلة.. لم يقترف طوال حياته أمراً يستنكف عنه أي رجل فاضل.. بينما استطاع هو أن يؤسس وأن يهدم دولاً، وفي أثناء معترك حياته الحافلة حافظ على فضائله وعاش حياة نظيفة نقية."

كان إنساناً مبرءاً من الضعف الإنساني ومنزهاً عنه.. ذا قابليات عديدة واستعدادات عالية، ولم يكن إلا لنبي أن يجمع كل هذه القابليات السامية، ذلك لأن وجود كل هذه القابليات وبهذه المستويات الرفيعة لم تكن ضرورية لأشخاص عدا الأنبياء. فمثلا قابليته في التجارة كانت تؤهله لأن يكون أفضل تاجر، ولكن قابلياته السياسية والعسكرية كانت تبقى معطلة وغير مستعملة، هذا علماً بأنه إلى جانب كونه تاجراً جيداً كان إدارياً ممتازاً وعسكرياً عبقرياً، ولكن من الخطأ حتى حصره في مثل هذه المهن، ذلك لأنه خلق لكي يستوعب الإنسانية بأجمعها ويحتضنها. ومثل هذه الاستعدادات والقابليات لا توهب إلا لنبي أو رسول، وإلا فإن وجود استعداداته الأخرى كانت تعد آنذاك عبثاً والله تعالى منزه عن العبث.

كان ذروة في كل خير وفضيلة.. وكان هذا ضرورياً له لكي يبقى فوق كل قابليات واستعدادات أتباعه ويكون مرشداً وقدوة لهم. كان أبوبكر ﷺ يأتي بعده من ناحية القابليات، ولكنه كان تابعاً له، بل من أخلص تابعيه والمرتبطين به.

ح-٣- النتيجة

قمنا بشرح القابليات التي يجب توفرها في أي زعيم، ثم نظرنا إلى الرسول ﷺ من هذه الزاوية، وعلمنا أنه الشخص الوحيد الذي توفرت فيه كل هذه الصفات، وليس هناك أي شخص آخر استطاع الاقتراب منه لكي نتخذه مقياساً في هذا الأمر. ونصل من هذا إلى نتيجة مفادها أن خصال الرسول ﷺ وصفاته كانت في الذروة، فقد خلقه الله هكذا وزوده بصفات الخلق السامي.. أي لم يكن هذا السمو سمواً بالنسبة للآخرين، بل سمواً ذاتياً.

كان قائداً عسكرياً كبيرا، حتى أنه من الخطأ التعبيرُ عن صفته وفطنته الكبيرة هذه بكلمة "العبقرية"، وإن قصور اللغة وعدم كفايتها هي التي تقودنا إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء دون تعمد منا فنسند إليه صفة العبقرية العسكرية، لأنه لا يمكن شرح الجانب العسكري للرسول ﷺ بهذه الكلمة، لأن هذا الجانب كان مرتبطاً بالوحي الإلهي وبفطنته كرسول، وهذا هو ما أردنا التأكيد عليه على الدوام.. أي التأكيد على أن جوانبه هذه أدلة على نبوته، ونحن نقترب من جميع المسائل المتعلقة بسيدنا ﷺ من هذا المنطلق سواء أذكرنا ذلك صراحة أم لا.

كان عسكرياً بصفات مميزة ومستثناة، بحيث أنه كان متفوقاً على العسكريين المحترفين الذين نشأوا في السلك العسكري منذ بداية حياتهم، إذن، فلم يكن الجانب العسكري فيه من نفسه لأنه كان شخصاً أمياً لم ير حرباً من قبل سوى حرب الفِجار التي كانت نزاعاً محدوداً، ولم يشترك في تلك الحرب بشكل فعلي بل قام بنقل السهام إلى أعمامه. ولكنه بدأ الآن يدير معارك لها استراتيجياتها وينتصر في جميعها ويتفوق فيها تفوقاً يعجز عنه كبار القادة العسكريين المحترفين، وهذا من أدلة نبوته، ذلك لأنه:

أولاً : رسم بأمر من الله تعالى خط دعوة واضحة.. كان هدفه واضحاً وبيناً، كان عليه أن ينشر الحق ويزيل جميع العقبات والعوائق أمامه، وصرف كل حياته من أجل تحقيق هذه الغاية، واقترب هو وأتباعه يوماً فيوما من هذه الغاية وحدثت تطورات كبيرة ولكن الهدف بقي هو نفسه ولم يتغير ولم ينحرف عنه، فلم تكن الوصولية شيمة له ولا لأتباعه النجباء الميامين. والذين دققوا تاريخ فترة نبوته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً يعرفون أنه لم يغير شيئاً مما قاله منذ بداية أمر نبوته بل استمر يقوله حتى نهاية حياته.

لم تكن الحرب غاية من غاياته في أي مرحلة من مراحل حياته، بل كانت الوسيلة الأخيرة التي يطرق بابها، إذ كان يقدم البدائل للطرف الآخر على الدوام، أما البديلان

الأولان فكان إما الدخول إلى الإسلام أو إعطاء الجزية،[١] فمن قبل أحد هذين البديلين لا يجوز في الإسلام القتال معه.

كان النبي ﷺ يذكّر القواد والجنود الذين أرسلهم إلى جهات عديدة بعدم التعرض أبداً للنساء والأطفال والشيوخ ومن لا يحمل السلاح،[٢] وعندما أخطأ خالد بن الوليد وأسامة بن زيد ﷺ وقتلا بعض من توهما أنهم أظهروا الإسلام خوفاً ووسيلة للنجاة بأنفسهم فإن الرسول ﷺ عاتبهما عتاباً مراً.[٣] أجل، لقد عين هدفاً معيناً لم يسر هو وأصحابه فقط نحوه، بل سار نحوه جميع الذين جاؤا بعده بعدة عصور والتزموا بهديه.

ثانياً: كان الرسول ﷺ يتحرك وفق شعاره "الهجوم أحسن دفاع.". صحيح أنه اضطر للدخول في بعض الحروب الدفاعية، ولكنها كانت جميعها حروباً تهيء الفرصة والأرضية الصالحة للهجوم.

ثالثاً: كانت تصرفاته جميعها على بصيرة، فلم يدع شيئاً للحظ بل كان يحسب لكل خطوة حسابها. والدليل على هذا أنه لم يخط في حياته خطوة نحو الوراء، فمثلاً أراد الصحابة مرة أن يعرفوا عدد جيش العدو، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلى أن قبضوا على شخص وأكرهوه على الكلام، غير أن الرجل عندما كان يَصدُق لا يصدّقونه ويبدأون بضربه، وعندما يكذب إرضاءً لهم يدّعونه، فأمر الرسول ﷺ أن يدَعوا الرجل وألاّ يؤذوه، ثم استدعاه إليه وسأله عن عدد الإبل الذي ينحرونه كل يوم للطعام، واستنتج من هذا العدد تعداد جيش العدو، وأخذ أهبته لأمره ووضع استراتيجيته حسب هذه المعلومات،[٤] إذن، فلم يكن يخطو خطوة عشوائية، ويدقق أحوال وأوضاع عدده وعدد جيشه لكي يأخذ لكل أمر أهبته، وهذه هي إحدى الخصال الضرورية لكل قائد عسكري.

---

(١) **الترمذي**، السير، ٤٨

(٢) **البخاري**، أحكام، ٣٥؛ **الترمذي**، السير، ٤٨؛ **النسائي**، القضاة، ١٧

(٣) **مسلم**، الإيمان، ١٥٨؛ **أبو داود**، الجهاد، ٩٥

(٤) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٦٩

رابعاً: كان يتبع مبادئ معينة في تحركاته، ولم يدع هذه المبادئ، فقد كان مثلاً يخطط الوقت الذي يقرره للهجوم على الأعداء، وغزوة خيبر مثال واضح على هذا، فقد أظهر أنه متوجه نحو غَطَفَان ولكنه سار إلى خيبر، وظنت غَطَفَان أنه سائر إليها فتحصنت حلف أسوارها، واعتقدت خيبر أن الأمر لا يهمها وبعيد عنها، لذا لم تتخذ أي احتياط، وبينما كانت تفرك عينيها من أثر النعاس في الصباح الباكر لذلك اليوم قام المسلمون الذين كانوا قد أدوا صلاة الصبح ودخلوا إلى أجواء عالم روحي بمباغتتهم، وكان هذا نتيجة تخطيط رائع للرسول ﷺ الذي كان يحل كل المشاكل وكأنه يشرب فنجاناً من القهوة.(١)

ودخل مكة بالمبدأ نفسه، إذ لم يكن حتى أبو بكر ﷺ يعلم وجهة الرسول ﷺ. وكانت مفاجأة أهل مكة كبيرة، وعندما علموا بالموقف لم يجدوا مجالاً للهرب.(٢) فقد التزم في الأمثلة التي أعطيناها سابقاً وفي جميع غزواته الأخرى التي لم نذكرها والتي وردت في كتب السيرة بهذا المبدأ.

خامساً: كان يختار الوقت المناسب للدخول في صرام مع العدو بحيث يكون وقت المعركة ومكانها في صالح المسلمين وفي غير صالح العدو، ففي معركة بدر نزل المسلمون في موضع يتوفر فيه الماء بينما تم حرمان المشركين من الماء.(٣)

سادساً: كان يستعمل عامل الزمن استعمالاً جيداً، فقد أطال زمن معركة الخندق حتى هجم الشتاء على الأعداء فاضطروا إلى التراجع، كما كان موضع المعركة في صالح المسلمين.(٤) كما أن توقيت معركة حُنين كان توقيتاً رائعاً، فلو حصل هناك أي تأخير لما وجد المسلمون فرصة للهجوم بل لاضطروا إلى الدخول في معركة دفاعية تحت ظروف

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ١٢؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٤٢/٣ وما بعدها.

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤٢/٤

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧١/٢-٢٧٢

(٤) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١١٧/٤

غير مواتية لهم. ولكن رسول الله ﷺ أعطى أوامره للتوجه إلى الأعداء في الوقت المناسب، فجعل عامل الزمن في صالح المسلمين، كما قام بسحب رماة العدو المتحصنين من أماكنهم إلى وسط المعركة، فقد تظاهرت القوة المتقدمة للمسلمين بالانسحاب فتتبعهم الرماة الذين كانوا متحصنين جيداً وكانوا يمثلون أقوى قوة وسلاح للعدو، ولكنهم عندما تركوا أماكنهم المحصنة وخرجوا إلى قلب المعركة فقدوا هذه الميزة ولم تعد سهامهم تفيد كثيراً لأنهم دخلوا في معركة مواجهة قريبة حيث يكون العامل المهم فيها للسيف.. وكان توقيت الهجوم توقيتاً موفقاً.

سابعاً: لا شك أن تأمين الأرزاق والمهمات للجيش من أهم الضرورات لجيش محارب، ولم يحدث في جميع غزوات الرسول ﷺ أن قام جيشه بترك القتال والانسحاب منه بسبب نقص في تموين هذه الأرزاق والمهمات. والقرآن الكريم يدعو الناس في مئات من آياته للإنفاق وإلى الجود وهيأهم لهذا، واستطاع الرسول ﷺ تقييم هذا الاستعداد عند المسلمين أفضل تقييم، فالجهاد في الإسلام يكون بالنفس وبالمال.

ط- التلاميذ الذين رباهم الرسول ﷺ

تناولنا حتى الآن بعض سمات التكتيك الحربي للرسول ﷺ وبعض سمات إجراءاته الأخرى، غير أنه كوّن جيشاً لا مثيل له في زمن قصير، هذا الجيش الذي استطاع وفي فترة قصيرة فتح أرجاء المعمورة. لذا، فهو شخص لا مثيل له ولا نظير في مجال تكوين الجيوش، وتهيئة الجنود والمقاتلين، ذلك لأنه هو المنشئ الأول للجيش الإسلامي، وعلى يده المباركة نشأ هذا الجيش المبارك، أي أنه لم يأت على رأس جيش موجود سابقاً كما هي الحال لدى القواد العسكريين الآخرين.

وأهم ما يسترعي الانتباه أن الجيش الذي أعده الرسول ﷺ كان يتمتع بهذه الصفات المهمة الثلاثة:

١- إعداد جيد.

٢- خلق ممتاز وتربية جيدة.

٣- إيمان في الذروة، وشعور وإحساس بالطاعة والولاء.

وعندما قال الرسول ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» فإنه كان يشير إلى الصناعة العسكرية حتى يوم القيامة،[(١)] وهو من أقواله النيرة. وطبق كلامه هذا تطبيقاً فعلياً في عهده فاهتم بالرمي، وهناك أحاديث كثيرة تشوّق على الرمي وعلى إتقانه.[(٢)] ومن بين هذه الأحاديث هناك حديث يجلب النظر وهو قوله لسعد بن أبي وقّاص في أثناء الحرب: «اِرمِ فداك أبي وأمي»[(٣)] ذلك لأن الرسول ﷺ قال للكثيرين "فداك أبي" أو "فداك أمي"، ولكن لم يقل لأحد سوى سعد "فداك أبي وأمي."

كان الرسول ﷺ يهيء جيشه بنفسه، وفي أوقات السلم يشجعهم على أداء الفعاليات الرياضية ويرتب بعض المسابقات بينهم، حتى أنه اشترك في بعضها،[(٤)] كما أن ترتيبه لمسابقات المصارعة بين الفتيان الذين لم يبلغوا بعد سن القتال دليل على مدى اهتمامه بالفعاليات الرياضية.[(٥)] كان الجيش الإسلامي في ذلك العهد قوياً من ناحية التدريب البدني لأفراده ومن ناحية التخطيط الجيد للحرب.. هذا علاوة على الروح المعنوية العالية لجنوده.

كان الجيش الإسلامي يتمتع بأخلاق تغبطه عليها الملائكة، إذ ربى الرسول ﷺ جنوداً أصبحوا مصدر المن والأمان لكل مكان وصلوا إليه، فلم يحدث أي حادث اعتداء على عِرض أحد في أي مكان تم فتحه من قبل الصحابة. أجل، كان هذا هو مقدار الوعي

---

(١) **مسلم**، الإمارة، ١٦٧؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢٣؛ **ابن ماجة**، الجهاد، ١٩

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٨٦، المناقب، ٤؛ **الترمذي**، فضائل الجهاد، ١١؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢٣

(٣) **البخاري**، الجهاد، ٨٠؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٤١

(٤) **البخاري**، الصلاة، ٤١، الجهاد، ٥٧؛ **مسلم**، الامارة، ٩٥؛ **النسائي**، الخيل، ١٦؛ **أبو داود**، الأدب، ٨

(٥) **البخاري**، الصلاة، ٤١، الجهاد، ٥٧؛ **مسلم**، الامارة، ٩٥؛ **«السيرة النبوية»** لابن هشام ٧٠/٣

الأخلاقي والعفة التي بلغها الجيش الإسلامي. ولا شك أن هده الأخلاق الحميدة وهذه العفة كانت نابعة من عقيدتهم، ولم يكن هناك أي فرد يسلك سلوكاً مغايراً لعقيدته، لأن هذا من موجبات الإيمان ونتيجة من نتائجه، والقرآن الكريم يشرح هذا فيقول: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون مَنْ حادّ الله ورسوله ولو كانو ا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتَهُم أولئكَ كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزبُ الله ألا إن حزبَ الله هم المفلحون﴾ (المجادلة: ٢٢).

كانوا أصحاب إيمان عميق لا تمنعهم أي عقبة أو صعوبة من بلوغ أهدافهم، فقد وقف أمامهم في أثناء بعض الحروب إخوانهم[١] أو آباؤهم وأعمامهم.[٢] متل هذه المواقف التي ينشل أمامها الإنسان لم تستطع أن توقف الصحابة ولا أن تقذف في قلوبهم التردد والإحجام، بل قاموا بتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم والتوجه إلى الهدف المرسوم لهم. أجل، قام الرسول ﷺ بتشكيل جيش لم يدر حتى ذلك اليوم بخلد العالم مثيل له، فسيوف جنود هذا الحيش كان من الممكن أن تقتل آباءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم، وكان من الممكن أن يؤدي أي تردد في هذا الخصوص إلى شل حركة الجيش كله، بينما لم يتردد جندي واحد في جيش رسول الله لحظة واحدة أبداً.

تقابل أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ في معركة بدر مع والده، فتنحى وحاد عنه، ولكن والده تعقبه حتى اضطره إلى منازلته وقتله، فلم يكن وقوف والده أمامه في المعركة ليحول بينه وبين المضي في أداء مهمته، فالدعوة هي الدعوة، فمن وقف أمامها يجب إزاحته عن الطريق –هذا إذا استثنينا بعض الحالات التي تتطلب بعض الرحمة واللين– ولم يكن هذا التصرف مقتصراً على أبي عبيدة ﷺ بل كان الآخرون متله.[٣]

(١) «**المستدرك**» للحاكم ٤٧٥/٣

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٢٥٢/٢-٢٥٣

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ٢٥٢/٢-٢٥٣

وهذا عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ شهد معركة أُحد مع المشركين ورأى والده فتجنبه، وبعد أن أسلم قال له: قد رأيتك يوم أُحد فصفحتُ عنك، فقال أبو بكر ﷺ: "لكني لو رأيتك لم أصفح عنك."[1]

كان الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ﷺ مغتماً أشد الغم مما فعله أبوه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول ويعلم أنه استحق عقوبة الموت، غير أنه كان كثير التوقير لوالده، فأتى رسول الله ﷺ وهو يظن أنه أمر بقتل والده فقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمُرْ لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فواللهِ لقد علمتْ الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشي أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار."[2]

كان عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ﷺ صحابياً جليلاً، ولكن والده كان رأس المنافقين، ولكن الرسول ﷺ لم يشأ قتل هذا المنافق، بل أمر ابنه أن يبر أباه ويحسن إليه. وقد سبق وأن ذكرنا أن هذا الصحابي قال لأبيه بأنه لن يسمح له بدخول المدينة حتى يقول: "إنني أنا الأذل، ومحمد ﷺ هو الأعز"، ذلك لأن أباه كان قد قال: لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذل، حيث وصف نفسه بأنه هو الأعز والرسول ﷺ هو الأذل. –حاشاه–[3] و كان ابنه يرغب أن يبرهن أن العكس هو الصحيح.

لقد آمن الصحابة ﷺ بأنه ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ (آل عمران: ١٤٥)، لذا كانوا يتجولون في ساحات القتال دون خوف أو وجل، وإلا فكيف يمكن تفسير لا مبالاة أبي دُجانة ﷺ في ساحة القتال؟[4]

---

(١) «المستدرك» للحاكم ٤٧٥/٣

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣١٨/٩؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٧٩/٤-١٨١؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٠٤/٣-٣٠٥

(٣) **البخاري**، المناقب، ٨؛ **مسلم**، البر، ٦٣، صفات المنافقين، ١

(٤) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٨؛ «المسند» للإمام أحمد ١٢٣/٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٠٩/٦

كان علي بن أبي طالب ﷺ كثيراً ما يمرض، ولكنه كان يطمئن أهله وأصدقاءه القلقين عليه بأنه لن يموت من مرضه هذا، لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بأنه لن يموت إلا عندما تتخضب لحيته من دم رأسه مثلما أخبره الرسول ﷺ.[(١)]

قطعت أذن عمّار بن ياسر ﷺ في إحدى المعارك وبدأت الدماء تنزف بغزارة، ولكنه كان يطمئن القلقين على حياته بأنه لن يموت من هذا النزيف لأن رسول الله ﷺ قال له: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار.»[(٢)] كان متأكداً من هذا ولم يكن يشك من مصيره هذا.

كان هذا الإيمان هو الذي يقلب جميع حسابات الأعداء ويفشل خططهم. وهذا الإيمان هو الذي يفسر الشجاعة الكبيرة التي تدفع إنساناً إلى الخوض في مياه المحيط ليجاهد في سبيل الله.[(٣)]

ولا أدري أيجب ذكر طاعة الصحابة للرسول ﷺ؟.. طاعتهم له من البديهيات فما أن نتذكر الصحابة ﷺ حتى نتذكر معنى الطاعة الكاملة، ولما كان هذا موضوعاً مستقلاً آخر فلا نخوض فيه هنا. ألممنا فيما سبق بعض الإلمام بالأهمية التي كان الرسول ﷺ يوليها للتدريب العسكري، ولكي يكون الختام مسكاً فسنورد هنا حديثين وآية.

يقول الرسول ﷺ: «علموا أبناءكم السباحة والرمي»،[(٤)] ويقول: «من عَلِمَ الرَّمْيَ ثم

(١) «المسند» للإمام أحمد ١/ ١٠٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٥٨/٧-٣٥٩

(٢) البخاري، الصلاة، ٦٣؛ مسلم، فتن، ٧٠؛ الترمذي، المناقب، ٣٤؛ «كنز العمال» للهندي ٥٣٦/١٣-٥٣٧

(٣) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، ١٠٦/٤

(٤) «كنز العمال» للهندي ٤٤٣/١٦؛ «كشف الخفاء» للعجلوني ٦٨/٢

تركه فليس منا، (أو) قد عصى»،[1] ويأمرنـا ربنـا: ﴿وأَعِدّوا لهم ما استطعتم مـن قُـوةٍ ومِنْ رِباط الخيل تُرهِبون به عـدوّ الله وعدوّكُـمْ وآخرين مـن دونهـمْ لا تعلمونَهـم اللهُ يعلمُهمْ وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون﴾ (الأنفال: ٦٠).

(١) مسلم، الإمارة، ١٦٩؛ أبو داود، الجهاد، ٢٣



القسم الخامس:

عصمة الأنبياء (عليهم السلام)

وعصمة نبينا ﷺ

الفصل الأول: العصمة بمعناها العام

أ- معنى العصمة لغوياً ومصطلحاً

من صفات الأنبياء أنهم معصومون وأطهار من الذنوب. ونحن نطلق على هذا صفة العصمة.

والعصمة لغة: المنع، والحفظ، واصطلاحاً: حفظ الله تعالى أنبياءه من الذنوب كبيرها وصغيرها، أي أن الله تعالى لا يعطي للنبي الذي يرسله فرصة اقتراف الذنب إذ يحفظه من ذلك.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، فمثلاً قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿يا بُنَيَّ اركب معنا﴾ (هود. ٤٢) فأجابه ابنه: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ (هود: ٤٣) فكلمة "يعصمني" الواردة في هذه الآية تأتي من فعل "عصم" ومعناه "حفظ"، وأجاب نوح عليه السلام ابنه بجواب جاءت فيه كلمة من نفس الاشتقاق إذ قال: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ (هود: ٤٣). وسواء أجاءت كلمة عاصم بنفس معناها أم بمعنى معصوم فالأمر لايختلف كثيراً، إذ هناك عاصم، وهناك معصوم، والمعنى يدور حول العصمة.

وعندما شرحت "زليخا" عفة يوسف عليه السلام قالت: ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم﴾ (يوسف: ٣٢)، ومعنى كلمة استعصم هنا امتنع، صان نفسه، لم يقرب.

وكلمة "اعتصموا" الواردة في الآية ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ (آل عمران: ١٠٣) تأتي بمعنى استمسكوا بحبل الله المتين لكي تحفظوا أنفسكم من الوقوع ومن الانحراف، أي بمعنى الاستمساك بشيء قوي ومنيع. ومعنى المنع والحفظ يرد لكلمة "يعصمك" الواردة في الآية ﴿والله يعصمك من الناس﴾ (المائدة: ٦٧).

ب- كل نبي معصوم

كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف مقصود، فهم أناس مختارون ومخلوقون بشكل استثنائي.. هم ليسوا أخياراً فحسب، فهم مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون طوال حياتهم أي شيء يلقي ظلاً على اصطفائهم هذا وعلى قدسية المهمة التي بعثوا من أجلها.

فطرة الأنبياء صافية وطاهرة، وأرواحهم علوية وسامية، وإرادتهم صلبة وقوية، وقلوبهم نيرة ووضيئة.. فالتجليات الإلهية تتبلور وتنعكس في قلوبهم بأبعادها الحقيقية، فقلوبهم ونفوسهم مثل مرآة صافية نقية تنعكس عليها الأنوار على حقيقتها، فلا يوجد هناك أي انحراف ولا أي تحول في أي لون.

أجل، هم هكذا.. ومن المنطقي أن يكونوا هكذا، ذلك لأن الأنبياء وُجدوا معنا من أجل القيام بمهمة التبليغ، فغاية وجودهم هي التبليغ فقط، أي أنهم أول المخاطبين بكلام الله تعالى وأوامره، وعليهم أن ينقلوا من ثم هذه الأوامر إلى الناس كما هي، ولو لم يكونوا أصحاب أرواح ونفوس طاهرة وقوية لما استطاعوا نقل الرسائل الإلهية كما هي إلى الناس.. ولو كانت فطرتهم غير شفافة وقلوبهم غير طاهرة ونفوسهم غير صافية لانحرفت أشعة الوحي الإلهي عند سقوطها على قلوبهم هذه ولتلونت بلون أحاسيسهم ومشاعرهم -أرادوا ذلك أم لم يريدوا-، وهكذا تكون البلاغات الإلهية قد فقدت هويتها وتغيرت طبيعتها.

الأنبياء يقومون في الوقت نفسه بوظيفة المرآة التي تعكس الأسرار الصادرة من الذات الأقدس إلينا، لذا وجب أن تكون هذه المرايا صافية ونقية لكي لا تكون الحقائق التي تعكسها للقلوب خادعة.

يتعلم الإنسان جميع الأحكام المتعلقة بالإيمان والعقيدة والعمل بوساطة الأنبياء، لذا

يجب أن يرى الناس أفضل صورة متجلية للدين عند الأنبياء لكي يتبعوهم ويصلوا إلى سعادة الدنيا والآخرة، فلو اقترف هؤلاء الذين هم قدوة الناس وإمامهم الذنوب فكيف يجوز اتباعهم؟ لأن الاتباع نابع عن بحث الإنسان عن الاستقامة، أما اتباع من يجوز عليه الانحراف فهو ضد هذا الميل الإنساني للبحث عن الاستقامة وعن الطريق القويم.. كلا، لم يقترف أي نبي أي ذنب، بل كانوا قدوة في جميع تصرفاتهم طوال حياتهم، لأن من الصعب التصور أن إنساناً ليس من أهل الجنة يقوم بالإمساك بأيدي الناس وقيادتهم ليكونوا من أصحاب الجنة، بينما أرسل الله الأنبياء والرسل لكي يهدوا الناس ويجعلوهم أهلاً لدخول الجنة.

ولكون الأنبياء معصومين فإن هناك تفوقاً ساحقاً للدين المستند إلى الوحي على جميع النظريات والمذاهب البشرية والوضعية، ولو لم يكن هذا هو الواقع لما حصلنا على هذه النتيجة.

لا شك أن الأنبياء كانت لهم مبادؤهم وأفكارهم الخاصة بهم قبل بعثتهم، وهذا شيء طبيعي ولا يشكل قدحاً في حقهم، وقد يكون هذا هو السبب في أن الرسول ﷺ كان يبحث عن الحقيقة وعن خلاص للبشرية وهو معتكف في غار حراء قبل بعثته.. أجل، لقد كانت لديه غاية وهدف وهو إنقاذ البشرية من الظلام والشر.. غايته كانت تنتهي عند هذه الحدود.. ولكن صفة إنقاذ البشرية لم تكن عائدة له ولا لأفكاره.. كانت آتية من الله تعالى عن طريق الوحي.. إذن، هنا مفترق الطرق بين أفكارنا ومثلنا وبين الوحي. فأحدهما بشري تماماً والآخر إلهي تماماً، لذا كان على النبي أو الرسول الذي يتكفل بنقل النظام الإلهي وتحمل تبعاته أن يكون مختلفاً ومتميزاً عن غيره من أصحاب المبادئ والمثل.

وكما يتميز الأنبياء عن أصحاب المبادئ والمثل الأخرى إذ وهبوا العصمة، كذلك تتميز الأمة التي تتبع النبي عن غيرها من الجماعات الأخرى إذ تكون أقرب منها إلى الخير وإلى العصمة.

لا شك أن كل إنسان يجب أن يكون صاحب مبدأ، والإنسان الذي لا يملك مبدءاً في

الحياة يعد إنساناً متسيباً، لذلك قال بديع الزمان سعيد النورسي: إن تم نسيان أو تناسي المبدأ توجهت الأذهان إلى الأنانية.

إن عصمة الأنبياء وعدم اقترافهم لأي إثم أصبح لديهم فطرة وطبيعة، قد توجد بقع على وجه القمر أو كلف على وجه الشمس، ولكن لا يوجد حتى ظل للإثم في روح النبي.

إن اقترف ولي من الأولياء ذنباً –لنفرض أنه تلفظ بشيء مخالف للحقيقة دون أن يدري– عاش حياته كلها متألماً جراء ذلك، ولكن إن جرى على لسان نبي –على فرض المستحيل– شيء من هذا لأحس بتأنيب الضمير حتى يوم القيامة.

لذلك فإن الجمل الثلاثة التي حملت معنى "التعريض" وليس الكذب للنبي إبراهيم ﷺ والتي قالها من أجل المصلحة،[١] بقيت تسبب له الألم حتى يوم الحشر إذ حوّل الذين راجعوه للشفاعة إلى النبي موسى ﷺ.[٢] أجل، إن قلبه وقلوب جميع الأنبياء مقفلة أمام الإثم بهذه الصورة وبهذه الدرجة.

عندما نوينا تناول هذا الموضوع بالتحليل كنا نريد شرح عصمة رسولنا ﷺ، ولكن لكون جميع الأنبياء "أولاد علات"[٣] أي أبناء من أب واحد –أجل، فهم مثل أبناء تلقوا التربية نفسها من والدهم– لذا، كان لا بد لنا أن نستعرض عصمة جميع الأنبياء بشكل مختصر، وسنحاول بشكل خاص في ضوء نور القرآن شرح مدى بطلان وقبح التهم التي كيلت لبعض الأنبياء العظام في الكتب المحرفة، غير أن المحور الأساسي لموضوعنا الرئيسي سيكون كما قلنا سابقاً رسول الله ﷺ وعصمته.

أجل، كل نبي معصوم، أما رسول الله ﷺ فهو في قمة العصمة، ذلك لأن كينونته عُجنت بالتجليات الإلهية، وكان قلبه على الدوام مرآة لتجليات الله ﷻ، لذا فمثله لايكون إلا في أعلى قمة العصمة.

---

(١) سنتناول فيما بعد هذه الجمل الثلاثة بالشرح.

(٢) **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٤٨؛ **مسلم**، الفضائل، ١٤٤؛ **أبو داود**، سنة، ١٣

والأنبياء أشخاص مختارون ومصطفون من قبل الله تعالى لأداء مهمة خاصة جداً، لذا فقد صانهم على الدوام بسبب وضعهم الخاص هذا. وهذا يعني أنه زينهم بصفة العصمة، فلكي يكونوا أئمة الهدى وقدوة للإنسانية جمعاء ومرشدين للبشرية فعليهم أن يحافظوا على منزلتهم السامية ومواقعهم الطاهرة، وأن يصونوا أنفسهم من أي نجاسة أو تلوث لكي لا ينحرف الذين يتبعونهم، ولا تعدو أعينهم إلى نواحٍ أخرى، ذلك لأنهم هم الضمان الأكيد والموثوق في قيادة الإنسانية إلى الله وإلى رضا الله، بينما لا يوجد رضا الله في الذنوب وإن كانت صغيرة، فكيف يستطيع إنسان محروم من رضا الله قيادة الآخرين إلى رضاه؟ هذا لا يكون أبداً.. إذن، فالأنبياء لا يمكن أن يقترفوا إثماً.

ج- الأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها

الأنبياء -على مذهب الجمهور- معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها، فلم يقترفوا أي ذنب مهما كان صغيراً.. وبعض الهفوات أو الزلل المنسوبة إلى بعض الأنبياء لا تعد ذنوباً أولاً، وثانياً إن هذه الأخطاء وقعت قبل نبوتهم. وفي كلتا الحالتين يبقى النبي معصوماً، وما ندعوه نحن بالهفوة أو الزلة إنما يتعلق بمقامهم، أي أن هذه الهفوات لا تعد أخطاء بالنسبة للأشخاص العاديين، ولكنها تعد هفوات بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى.

وكيف لا يكون هؤلاء معصومين، وكيف يستطيعون اقتراف الذنوب بينما نقوم نحن بمقاييس البشرية بالتحقيق الأمني لأي موظف نقوم بتعيينه في موقع وفي وظيفة بسيطة، إذن، فتصور موضوع تعيين شخص وتكليفه بمهمة النبوة.. إذن، يجب هنا أن يمتد التحقيق إلى الجد السابع له.. أيتم كل هذا التحقيق في اختيار شخص لأمر ثانوي من أمور الدنيا ولا يتم إبداء حساسية شديدة في صدد أكبر مهمة.. مهمة تحتضن الدنيا والآخرة؟ ألا يدقق مدى قابلية ذلك الشخص ومدى لياقته لتقلد هذه المهمة الخطيرة؟

لنتأمل كيف أن الملك الذي ينقل الوحي يختار أيضاً من بين الملائكة.. ملك متميز بالأمانة لكي تُعهد إليه هذه المهمة، فالقرآن الكريم يصف جبريل عليه السلام بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ

أمين﴾ (التكوير: ٢١) أي تطيعه الملائكة في السماء والملإ الأعلى، وهو أمين في نقل الوحي كذلك، فهل يُطالَب الملك الناقل للوحي بهذه الصفات ولا يُطالب النبي الذي سيمثل هذا الوحي بالصفات نفسها؟

أجل، لا يمكن لله تعالى أن يعهد تمثيل هذه المهمة المقدسة إلى شخص مخادع أو لص أو سكير أو معتدٍ على الأعراض، فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الصفات القبيحة في نبي وهي صفات يشمئز منها حتى الأشخاص العاديون؟ ألا يشك الإنسان في عقول الذين يفترون مثل هذه الإفتراءات على الأنبياء؟ بل يشك في كونهم بشراً. إن الإنسان الملوث لا يمكن أن يكون ممثلاً للطهارة والنقاوة، ولا يمكن إطلاق اسم نبي على مثل هذا الإنسان، كما لا يمكن إطلاق كلمة الإنسان على من يسند هذه الصفات إلى أي نبي.

أجل، إن العقل يوجب عصمة الأنبياء، كما يوجب قيام أتباع الأنبياء من الذين جعلوا شعارهم في الحياة حمل دعوة الأنبياء أن يجعلوا التطهر والعصمة من الذنوب والآثام مبدءاً وغاية لهم، فعند هؤلاء يكون اقتراف أي إثم أو ذنب أكثر ألماً من دخول جهنم.

العصمة مهمة جداً، وحياة الأنبياء العظام عليهم السلام شاهدة على هذه العصمة، وإذا استثنينا الهذيان الموجود في بعض الكتب المحرفة فليس هناك من أسند اقتراف الإثم إلى الأنبياء، والقرآن الكريم يتحدث عنهم بما يليق بمكانتهم الرفيعة.

المكانة التي يشغلها جبرائيل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل في السماء يشغلها الأنبياء على الأرض، ولكننا لا نعرف منهم إلا ما سرد لنا القرآن منهم.

وكما قلنا سابقاً فإن بعض العلماء يرون إمكانية اقتراف بعض الأنبياء قبل بعثتهم ونبوتهم بعض الهفوات، ولكن هذه النظرة محصورة لدى عدد قليل من العلماء، وهي نظرة مرجوحة، لذا فهي نظرة مجروحة، بينما يعتقد أكثرية العلماء أن الأنبياء عُصموا منذ طفولتهم، وهناك أدلة عديدة تؤيد هذه النظرة.

د- الأدلة على عصمة الأنبياء

يقول الله تعالى في معرضٍ ممتنّا على موسى عليه السلام: ﴿وأَلقيتُ عليك محبةً مني﴾ (طه: ٣٩) ويفهم من هذه الآية أن الله تعالى لم يدع تربية موسى عليه السلام في قصر فرعون لا إلى فرعون ولا إلى أمه، بل رباه هو، فكيف لا يكون مثل هذا النبي معصوماً وهو منذ طفولته تحت رعاية الله وعنايته وتربيته؟!

يقول الرسول ﷺ في حديث له: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها.»[١] فإذا كان الله تعالى حفظ عيسى وأمه عليهما السلام من الشيطان منذ ولادته فكيف لا يكون معصوماً من الذنوب؟

وأراد رسول الله ﷺ مرتين أن يلهو في صباه، فذهب ليحضر حفلة عرس فألقى الله عليه النعاس فنام في المرتين.[٢] إذن، فقد حفظه الله تعالى من رؤية منظر قد يكون حراماً، إذن، كان مصانا على الدوام مع أنه لم يكن قد بعث بعد نبياً، ولم يكلف بعد بمهمة الرسالة.

كان صبياً عندما اشترك في بناء وتعمير الكعبة، فكان ينقل على ظهره الحجارة، وتأذى ظهره وجلد ظهره من هذا العمل فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال: «أرني[٣] إزاري» فشده عليه،[٤] بينما كان هذا الأمر اعتيادياً ولا بأس به، ولكن الله صانه من هذا، ذلك لأنه سيأتي يوم يأمر فيه بستر البدن وستتعلم منه الإنسانية دروس الأدب والحياء، إذن، كان ينشأ وهو بعد صبي تحت عناية الله وتربيته، وكان الله تعالى يعصمه من أهون الذنوب وأصغرها.

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٤٤؛ مسلم، فضائل، ١٤٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٨٨

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢/٣٥٠-٣٥١

(٣) أي أعطني.

(٤) البخاري، الحج، ٤٢؛ مسلم، الحيض، ٧٦؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٢/٣٥٠

وكما تدقق سجلات رؤساء أركان المستقبل في الجيش بكل دقة وعناية لمعرفة عما إذا مال يميناً أم يساراً، انتسب إلى الاتجاه الفلاني أو العلاني أم لا، كذلك يقوم الله تعالى بحفظ أنبيائه وصيانتهم ورعايتهم منذ طفولتهم ويعصمهم من الوقوع في الزلل أو الإثم.. هذا هو رأى الجمهور.

هم صفوة الإنسانية وزبدة فضائلها، يصفهم القرآن الكريم بـ﴿المصطفَيْنَ الأخيارِ﴾ (ص: ٤٧)، أي إن الأنبياء أشخاص مختارون من بين أفضل الناس وأكثرهم امتيازاً.

هـ- العصمة خارج الأنبياء

والجانب الآخر من الموضوع هو: أيمكن أن يوجد معصومون من غير الأنبياء؟ أي أيعصم الله تعالى بعض الأشخاص الممتازين من غير الأنبياء من الذنوب؟ رأي جمهور العلماء في هذا الموضوع هو عدم وجود معصومين من غير الأنبياء، فمن المحتمل أن يقترف الجميع الذنوب كبيرة أم صغيرة، لأن العصمة خاصة بالأنبياء، وهناك حديث نبوي يؤيد هذا إذ يقول الرسول ﷺ: «كل بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التوابون.»(١)

ولكن يجب الانتباه هنا إلى نقطة معينة، وهي أن قولنا بوجود احتمال اقتراف الذنب لكل شخص من غير الأنبياء لا يعني وجوب اقتراف الذنوب فعليا من قبل الجميع، لذا يمكن القول بإمكانية حفظ الله تعالى لبعض الأشخاص الكبار –من غير الأنبياء– من علماء الدين الذين هم أئمة وقدوة للإنسانية، وهذا لا يعني تأييد الفكرة الشيعية حول عصمة الأئمة الاثني عشر. فمثلاً إن سأل أحدهم: أيمكن أن يَقترف الإمام الرباني أحمد السرهندي الذنب؟ نقول له: أجل.يمكن، ذلك لأن الإمام الرباني ليس نبياً، لذا يمكن من الناحية النظرية اقترافه للذنب، ولكن هل اقترف الإمام الرباني ذنباً في حياته؟ لا يمكن إعطاء الجواب نفسه، لأنه ما من أحد يستطيع إثبات أنه اقترف ذنباً أو إثماً، أي أن

---

(١) **الترمذي**، القيامة، ٤٩؛ **ابن ماجة**، زهد، ٢٠

احتمال وقوع الذنب لا يعني وجوب تحققه فعليا، فمن المحتمل أن الله تعالى يحفـظ عباده المقربين من الوقوع في الآثام.

إن الله تعالى يحفظ الذين يسيرون في طريقه، والقرآن يشير إلى هذا فيقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيآتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ (الأنفال. ٢٩) فكما يتوضح من الآية الكريمة فهناك حفظ وصيانة من الله تعالى للمؤمنين المتقين إذ زودهم بخاصية وبحاسة يميزون بها الخبيث من الطيب فيبتعدون عن مواطن الإثم.

وتقول آية أخرى: ﴿أوَ منْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّنَ للكافرين ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام: ١٢٢).

والذين نذروا حياتهم في سبيل هذا الدين وجعلوه غاية حياتهم وهدفها سيعاملون حسب الدستور الإلهي ﴿وأوْفُوا بعهدي أُوفِ بعهدكم﴾ (البقرة: ٤١)، ماداموا باقين على العهد سُيحفظون من قبله تعالى: ﴿إنْ تَنصروا الله يَنصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم﴾ (محمد: ٧).

إذن، فالذين يقومون بالخدمة الإيمانية والقرآنية بإخلاص سيكونون مظهراً لمثل هذا الضمان إن شاء الله ولن يتلوثوا بذنوب كبيرة، بل قد يُحفظون حتى من الذنوب الصغيرة، ولكن هذا الضمان مرتبط بتحقق شرطه وبالتقدير الإلهي، وليس بمقدور أحد أن يعطي ضمانات قاطعة لغير الأنبياء، ولكن إن تحقق هذا الحفظ والصيانة وأصبح حدثاً واقعياً عند أحدهم عند ذلك نستطيع التحدث عن حفظ الله وصيانته له وعن عصمته ونقول إن الله تعالى حفظ الشخص الفلاني وعصمه من الوقوع في الإثم، ولكن لا يوجد ضمان في المستقبل لاستمرار العصمة إلا للأنبياء، أما عصمة الأنبياء فتشمل كل مرحلة من مراحل حياتهم.

ثم هناك عصمة مشاهدة بالتجربة والمعايشة حيث يلاحظ صيانة الله تعالى لبعض

عباده المقربين وأخذهم تحت رعايته وحفظه. إذا وضعنا الأشخاص العظام جانباً، ونظرنا إلى أنفسنا لوجدنا في كثير من الأحيان أن شروطاً عديدة تهيأت للوقوع في الإثم، فإذا بظروف تستجد وتنقذنا وتحفظنا من الوقوع فيه وتبعدنا عنه وتدعنا في ذهول وفي حيرة من هذه العناية.

ثم إن قيام الصحابة والذين اتبعوهم في طريقهم بعمل حسنات كبيرة وخدمات عظيمة تجعل لهم سداً منيعاً يحول بينهم وبين الوقوع في الإثم في مستقبل أيامهم، فكأن سر الآية ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ (الفتح: ٢) قد تجلى لهم وشملهم أيضاً، وهذا يعني ضمان الله تعالى لهم نتيجة أعمالهم الصالحة الماضية.. مثلاً قد يتوجه شخص إلى مكان يحتمل أن يقترف فيه الإثم، ولكن الله تعالى قد يكسر رجل هذا الشخص ويحول دون وصوله إلى ذلك المكان الآثم. وإذا كان سيرتكب الإثم بعينه أو بيديه يجعله لا يستطيع الرؤية ولا تستطيع يده الحركة أو الإمساك بشيء.. فيفهم من هذا أن الله تعالى يريد صيانة هدا العبد الذي يحبه، والمصائب الدنيوية التي تصيبه لحفظ آخرته لا تعد شيئا مذكوراً.

هناك حديث قدسي يتعلق بهذا الموضوع ورد فيه: «..وما تقرّبَ إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحِبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.»[(١)]

وهذا معناه أنني سأريه الخير والجمال على الدوام وأحفظه من الشر والفساد والسوء فأكون عيناً له فلا يرى سوى الخير.. ستتقطر في قلبه الحكمة والبصيرة فيكون دائم الذكر لله تعالى، ولا يسمع إلا خيراً ولا تتوجه إرادته إلا إلى الخير، ومهما كانت هناك من عراقيل أمامه تحول بينه وبين الخير فسأذللها له.. هو قريب م ني لا أرضى أن يجرح الإثم قلبه وجوارحه. وينتهي هذا الحديث هكذا: «وإن سألني لأعطينّه ولئنْ استعاذني لأعيذنه»

---

(١) البخاري، الرقاق، ٣٨، «المسند» للإمام أحمد ٢٥٦/٦

إذن، فإن الذنوب وإن كانت محتملة -حسبما يقول البعض- في حق الأنبياء والمقربين من عباد الله الصالحين، فإن الله تعالى يصون جميع أنبيائه ومن يشاء من عباده الصالحين من الآثام.

كان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاب صالح يكاد لا يفارق المسجد ويجتهد في العبادات وفي أداء النوافل، وكان عمر رضي الله عنه به معجبا، ولكن أمير المؤمنين بدأ يفتقده حيث لا يراه بين جماعة المصلين.. أليس هذا الأمر حكمة واحدة من حكم صلاة الجماعة في المساجد والتي يعدها بعض أصحاب المذاهب فرضاً وبعضهم سنة مؤكدة؟ الإمام يهتم بجماعته ويتفقد أفرادها، وإذا شعر بغياب أحدهم استفسر عنه ليعلم إن كان في ضيق أو واقع في مشكلة.. فما ظنك إن كان الإمام هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وجماعة المصلين هم الصحابة؟ كان عمر رضي الله عنه يعرف جماعته جيداً مهما زاد عدد أفرادها ويدقق أحوالهم.

وكان لهذا الشاب أب شيخ كبير، فكان إذا صلى العتمة انصرف إلى أبيه، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به، فكانت تنصب نفسها له على طريقه؛ فمر بها ذات ليلة، فما زالت تغويه حتى تبعها، فلما أتى الباب دخلت، وذهب يدخل فذكر الله عز وجل، وجُلِّي عنه، ومثلت هذه الآية على لسانه ﴿إن الذين اتقوْا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف: ٢٠١)، فخرّ الفتى مغشيا عليه، فدعت المرأة جارية لها فتعاونتا عليه فحملتاه إلى بابه، واحتبس على أبيه، فخرج أبوه يطلبه فإذا به على الباب معيشا عليه، فدعا بعض أهله فحملوه فأدخلوه، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله عز وجل، فقال له أبوه: يا بني ما لك؟ قال: خير. قال: فإني أسألك. فأخبره بالأمر. قال: أي بني، وأي آية قرأت؟ فقرأ الآية التي كان قرأ، فخرّ مغشيا عليه، فحركوه فإذا هو ميت؛ فغسلوه وأخرجوه ودفنوه ليلا. فلما أصبحوا رفع ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فجاء عمر رضي الله عنه إلىأبيه فعزاه به، وقال: لا آذنتني؟ قال: يا أمير المؤمنين، كان الليل. فقال عمر رضي الله عنه: فاذهبوا بنا إلى قبره. فأتى عمر ومن معه القبر. فقال عمر: يا فلان ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (الرحمن: ٥٦)، فأجابه

الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي عزوجل في الجنة مرتين.[(١)]

ما يهمنا في هذه الحادثة هو أن هذا الشاب لو اقترف الإثم لبقي الإثم محصوراً به، دلك لأنه لم يكن يحمل مسؤولية القدوة، ولكن لو اقترف نبي مثل هذا الإثم لكان شيئاً عظيماً تتزلزل منه الأرض والسماء، لأنهم في موضع القدوة والأسوة، لذا ألا يصونهم الله تعالى وهو الذي يصون حتى بعض عباده الصالحين.

يشرح الرسول ﷺ في حديث له صفات من يجد حلاوة الإيمان فيقول: «ثلاثٌ مَن كنّ فيه وَجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار.»[(٢)] لذا، فإن أي مؤمن اعتيادي ذاق حلاوة الإيمان تكون العودة عنده إلى الكفر أشنع من قذفه في أتون النار، لذا فما بالك بإيمان الأنبياء عليهم السلام؟ ألا يرى أولئك الذين يسندون الذنوب إلى الأنبياء أن إيمان الأنبياء من القوة بحيث تمنعهم من هذا؟ حاشاهم من الوقوع في الإثم.

وإذا إراد أحدهم أن يعرف كيف أن الله تعالى حفظ الكثير من أوليائه –دعك من أنبيائه– وصانهم من الإثم فعليه أن يطالع الكتب التي تتحدث عن حياتهم مثل "حلية الأولياء" ليرى كيف أن الله تعالى حفظ المئات من أوليائه وصانهم من اقتراف الذنوب. فمثلاً وُضع طعام أمام أحد الأولياء، ولكن هذا الطعام كان قد شابه شيء من الحرام، وتناول الولي لقمة منه، ولكنه لم يستطع بلعه مع أنه مضغه لعدة دقائق، فعلم أن الحرام شاب هذه اللقمة فترك أكلها.[(٣)] فإذا كان الله تعالى حفظ وليه من لقمة حرام واحدة فكيف لا يحفظ أنبياءه من الذنوب؟

---

(١) «**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» لابن منظور ١٩/١٩٠-١٩١

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٨، الأدب، ٤٢؛ **الترمذي**، الإيمان، ١٠

(٣) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٠/٧٤-٧٥؛ «**طبقات الأولياء**» لاس الملقن ١٧٦

و- العصمة في الكتب السابقة وفي القرآن الكريم

أجل، إن العصمة شرط لا ينفك عن الأنبياء، وصفة من صفات النبوة، وكل نبي يأتي إلى الدنيا وهو متزين بهذه الصفة، إذن، فمن لم تكن فيه هذه الصفة فلا يكون نبياً.

قبل إثبات عصمة الأنبياء سنعطي بعض الأمثلة عن التوراة وعن الإنجيل وهي الكتب المحرفة التي أسندت الكثير من التهم إليهم، ثم ننتقل إلى تحليل الموضوع حسب الدستور القرآني، ونعطي الأجوبة اللازمة للمفتري، غير أننا نريد هنا الإشارة إلى أمر أو أمرين.

لكون الكتب السابقة أمثال التوراة والإنجيل والزبور قد تعرضت للتحريف ودخل الكلام البشري بين نصوصها فلا يمكن البحث عن الحقيقة فيها، ولا المحافظة على سلامة الاتجاه الفكري فيها. لذا، فإن إسناد مناظر مؤذية لا تليق حتى بالإنسان العادي إلى الأنبياء ليس إلا نتيجة هذا التحريف، وهو بحد ذاته إحدى الأدلة على تعرض هذه الكتب للتحريف، ولو لم يكن هناك إلا هذا الدليل لكفى به إثباتاً لهذا التحريف.

لم يعط الله تعالى ضماناً لحفظ هذه الكتب، بينما قال في حق القرآن الكريم: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩)، أي أشار إلى أن القرآن مرجع إلهي وأنه محفوظ من قبله، لذا فهناك إجماع على أن أحكام القرآن سارية إلى يوم القيامة، ذلك لأنه تحت الحفظ الإلهي، إذن، فهو المرجع الوحيد لمعرفة شؤون الأنبياء، وكل ما ورد في تلك الكتب المحرفة من أمور تخص الأنبياء وتخالف ما جاء في القرآن فلا حكم له، لأن الأحاسيس والمشاعر البشرية دخلتها واختلطت بها، بينما لا يحق لأي إنسان التحدث في موضوع النبوة ولا في موضوع العصمة، فالأنبياء وحدهم لهم الحق في تناول هذه المسائل الغيبية العائدة إلى الماضي، وذلك لاستنادهم إلى الوحي الإلهي. وبما أن رسولنا هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا يحق لأحد بعده التحدث في هذا الأمر، وقد تحدث في كل أمر ذي بال، وكان عيسى عليه السلام قد ترك له حق التحدث هذا عندما قال: [لن أكلّمكم كثيراً بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ] (يوحنا - الباب ١٤، الآية ٣١).

ومع أنني لا أحب تصوير الباطل إلا أنني سأتناول -وأنا مضطر- بعض الأمثلة على الافتراءات الموجودة في هذه الكتب المحرفة ثم أعرض أحكام القرآن الخاصة بهذه المواضيع. ولا أملك هنا سوى الالتجاء إلى الأرواح الطاهرة لهؤلاء الأنبياء طالباً منها الصفح عني لاضطراري إلى ذكر هذه الافتراءات وإلى نقل بعض النصوص الباطلة لكي أدحضها وأثبت عصمتهم وبراءتهم.

ز- الافتراءات الشنيعة في الكتب السابقة حول الأنبياء

وردت في سفر التكوين في التوراة افتراءات شنيعة حول سيدنا لوط عليه السلام وكيف أنه شرب الخمر وسكر ثم زنى مع ابنتيه وأن نسله دام منهما. تأملوا! إن الله تعالى خسف بأهالي سَدوم وعامورة الأرض، لأنهم لم يستمعوا إلى نبي طاهر مثل النبي لوط عليه السلام بل استهزؤا به وبدعوته إلى الطهر والعفاف فاستحقوا بذلك العقاب الجماعي. ولو لم يكن هناك شاهد آخر على عفة لوط عليه السلام الذي هو ابن أخ النبي إبراهيم عليه السلام غير أنقاض هذه المدن المخسوفة وغير الجدران المتهدمة لبيوتها أما كان شاهداً كافياً؟ وهل يمكن أن ننظر إلى كتاب يحوي مثل هذه السطور الشنيعة على أنه كتاب إلهي؟

وفي الباب رقم ٣٨ في سفر التكوين يرد أن يهوذا بن يعقوب عليه السلام -الذي هناك احتمال في كونه نبياً- زنى بزوجة ابنه، وعن طريق هذا الزنى جاء أسلاف أنبياء بني إسرائيل أمثال داود عليه السلام وسليمان عليه السلام.

لا شك أن هذه الافتراءات القبيحة التي أطلقت على هؤلاء الأنبياء إنما هي أكاذيب شنيعة وقصص مختلفة لا أساس لها من الصحة. والرسول ﷺ يقول إن نسله دام بالنكاح منذ آدم عليه السلام.(١) ويقول في حديث آخر: «الأنبياء أولاد عَلاّت(٢)»(٣) وما دام لا يوجد

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي ١/١٧٣-١٧٤-١٧٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٢/٣١٣-٣١٤؛ «الخصائص الكبرى» للسيوطي ١/٩٢-٩٣

(٢) "أولاد علات" هم الإخوة لأب واحد من أمهات مختلفة، والمعنى أن شرائعه متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن وحسب العموم والخصوص.

(٣) البخاري، الأنبياء، ٤٨؛ مسلم الفضائل، ١٤٤

حادثة زنا في النسب الذهبي للرسول ﷺ فإن هذا الحكم سارٍ على جميع الأنبياء، أليس الرسول ﷺ حفيد إبراهيم عليه السلام؟ ويهوذا –الذي سبق ذكره– هو أيضاً من أحفاد إبراهيم عليه السلام ولا يمكن حدوث الزنا في البيت النبوي، وفي الفقه الإسلامي يكره أن يكون الإمام الذي يصلي بالناس مولوداً من الزنا إن كان غيره موجوداً،(١) فكيف يستطيع أن يكون إماماً للناس جميعاً أي يكون نبياً.. أهذا ممكن؟

وجاء في الباب ١١ من سفر الملوك أن سليمان عليه السلام ارتد في أواخر حياته وبدأ يعبد الأصنام.. كيف يُسند هذا الافتراء إلى نبي اختاره الله وأعطاه سلطنة في الدنيا وفي الآخرة؟ بل كان نبياً شاكراً لربه على أنعمه وعابداً له.. شكراً وعبادة تليق به كنبي.

يذكر القرآن الكريم أن المسيح عليه السلام كان روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ونفحة ربانية(٢) وأن إبراهيم عليه السلام كان خليل الله(٣) وأن موسى عليه السلام كليم الله(٤) وأنه تعالى خاطب آل داود قائلاً ﴿إعملوا آل داود شكراً﴾ (سبأ: ١٣). هذه هي الأوصاف التي يصف الله تعالى أنبياءه بها.

ويتحدث العهد القديم عن النبي داود عليه السلام فيقول إنه طمع في زوجة قائده "أُوريّا" وتسبب في قتله ليأخذ زوجته.(٥) هذا التصرف الدنيء الذي يستغفر الإنسان العادي الله إن رآه في حلمه أسند إلى نبي كريم قال الله تعالى في حقه ﴿نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾ (ص: ٣١). وكتاب هذا شأنه كيف يكون من عند الله تعالى؟ إن مجرد تصور إمكانية وقوع هذا لا يعني سوى الجهل التام بالنبوة وبالأنبياء.. النبي داود عليه السلام كان نبياً كثير العبادة

(١) «الهداية» للمرغناني ١/٥٦

(٢) قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ (النساء: ١٧١).

(٣) قال تعالى: ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (النساء: ١٢٥).

(٤) قال تعالى: ﴿ورُسُلاً قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً﴾ (النساء: ١٦٤).

(٥) انظر: صموئيل الثاني – الباب: ١١

كثير البكاء.. يبكي في مجلسه من يسمعه.. كثير التأوه والأنين.. منيباً إلى الله تعالى، لم يحول وجهه مطلقاً عن خالقه، وشعاره العبودية،[1] وقد مدح الرسول ﷺ عبادة داود عليه السلام فقال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً.»[2]

كان ملكاً وخزينة الدولة عنده، ولكنه لم يفكر في الاستفادة منها ولو لشراء لقمة واحدة من الطعام، ويؤمن نفقته ونفقة أهله من حرفته اليدوية ومن كسبه الشخصي.. على هذا النبي الكريم الذي يحاسب نفسه على اللقمة الواحدة التي يتناولها، والذي كانت عبوديته لله تعالى أخص سمة من سماته وأكثر صفاته تميزاً.. على هذا النبي الكريم يفتري الكتاب المحرف ذلك الافتراء الشنيع والدنيء الذي لا يسعه الخيال والبعيد عن عالم وجو النبي داود عليه السلام بُعد المشرقين. فهو النبي المنزه الطاهر النقي الذي لا يمكن أن يخطر على خياله ذرة واحدة من هذه الحادثة المفتراة عليه.

وادعاء غريب آخر ورد في العهد القديم لا يستوعبه أي عقل، وهو مصارعة إسرائيل مع الله وتغلبه عليه.. وإسرائيل هنا هو يعقوب عليه السلام، إذن، فالفلسفة المادية سرت في الغرب –الذي ساح دماغه إلى عينيه– إلى درجة لم تعد تستبعد معها قيام الله تعالى وكأنه بشر اعتيادي –حاشاه– بالمصارعة مع نبي من أنبيائه.

والقول الذي قاله حمزة رضي الله عنه للنبي ﷺ قبل إسلامه يشكل جواباً لهؤلاء إذ قال ما معناه: يا محمد يا ابن أخي، عندما أجوب الصحراء بالليل أدرك أن الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جدران.

إذن، فتصوروا كتاباً يدعون أنه كتاب إلهي لا يرقى إلى مستوى الإحساس والشعور الذي أبداه حمزة رضي الله عنه للرسول ﷺ قبل إعلان إسلامه، فكيف يمكن النظر إلى هذا الكتاب

---

(١) قال تعالى: ﴿إصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ (ص: ١٧).

(٢) **البخاري**، التهجد، ٧، الصوم، ٥٩؛ **مسلم**، الصيام، ١٨٢؛ **الترمذي**، الصوم، ٥٧

على أنه صادر من الله تعالى وهو بهذه السطحية والعقم في نظرته لله ﷻ؟ وهل يستطيع الإنسان إذن، أن يصدق ما تزعمه هذه الكتب في حق الأنبياء؟ كلا، فالتوراة والإنجيل مملوءان بالافتراءات في حق الله تعالى وفي حق عباده من الأنبياء ومملوئان بالانحرافات.. أحدهما منبع للافتراءات، والآخر منبع للانحرافات.

يرد القرآن الكريم جميع الافتراءات حول الأنبياء، ذلك لأنه يأمر باتباع الأنبياء اتباعاً مطلقاً، فهم أئمة الهدى والمرشدون الكاملون والأئمة الذين يجب اتباعهم في كل أمر من الأمور. وجميع الأنبياء مرايا تعكس لنا رضا الله تعالى، فلا يمكن أن تجد على هذه المرايا ذرة غبار، واحدة والقرآن الكريم يشير إلى هذا ويعرض لنا جوانبهم الجميلة ويأمر نبينا بذلك أيضاً.

وهناك سوء فهم في بعض ما ورد في القرآن الكريم حول الأنبياء، إذ فُهم إسناد بعض الأخطاء والذنوب إليهم، ووجد أنصار لهذا الفهم أحياناً، ويعود سبب وقوعهم في هذا الخطأ إلى تعثرهم بالقوالب الضيقة لبعض الكلمات وإلى ضيق أفقهم. فلو كانوا أكثر دقة وتأملاً لاستطاعوا التغلب على أفكارهم المسبقة واستطاعوا مقاومة بعض الإسرائيليات وفكروا مثل جمهور العلماء وكانوا أكثر احتراماً للأنبياء وأكثر توقيراً لهم.

الفصل الثاني: ﴿ العصمة والأنبياء الآخرون ﴾

قبل الانتقال إلى الآيات الكريمة المتعلقة بهذا الموضوع نود التنبيه على بعض الأمور بشكل مختصر.

أولاً: إذا اختار أي نبي الشيء الحسن مع وجود الأحسن فهذا يعد زلة بالنسبة إليه، ولكن هذا لا يعد في مقاييسنا خطأ ولا زلة، لأن ما اختاره كان حسناً، غير أن النبي عليه أن يختار الأحسن، لأنه من المقربين. لنضرب مثالاً يقرب الموضوع إلى الأذهان:

لنفرض أن أحدهم يريد ختم القرآن الكريم، ولكن في كم يوم عليه أن يختمه؟ هنا يظهر أمامه ترجيحان، أحدهما أن يقرأ القرآن على مهل متأملاً معانيه فيختمه في عشرة أيام، والتاني قيامه بختم القرآن في سبعة أيام على أساس أنه دليل علي تمسك أكثر وحب أكثر لكلام الله تعالى.

لنفرض أنه اختار الترجيح الأول وختم القرآن في عشرة أيام، ولنفرض أيضاً أن رضا الله تعالى كان يتحقق بشكل أكثر وأفضل في الترجيح الثاني، فهنا يكون نيل رضا الله هو الأحسن، بينما يكون ما قام به هو الحسن، إذن، فلا يوجد هنا ذنب لكي يقال له: لقد إذنبت وأخطأت، كل ما يمكن القول هو أنه اختار الحسن مع وجود الأحسن، وليس من الصحيح هنا إسناد الذنب إليه.

هذا هو الوجه الحقيقي للأمور التي يقوم فيها الأنبياء بالاختيار حسب اجتهادهم الشخصي، لذا لا يمكن إسناد اقتراف الذنب إليهم، وسنعود فيما بعد إلى هذا الموضوع.

ثانياً: يُعد الأنبياء قبل كل شيء أئمة المجتهدين حيث يجتهدون في المواضيع التي لم ينزل فيها الوحي سواء أكانت أحكاماً أم أموراً شخصية أم أموراً اجتماعية، وفي معظم الأحوال تتوافق هذه الاجتهادات تماماً مع المراد الإلهي، وفي أحيان قليلة قد لا تصيب تماماً هذا الهدف مع أنهم يتحرون الرضا الإلهي على الدوام، وقد يُعد بالنسبة لمستواهم

الرفيع خطأ، لأن عليهم أن يصيبوا هدف الرضا الإلهي إصابة دقيقة، ولكن خطأهم في الاجتهاد لا يُعدّ ذنباً أبداً ولا يُخلّ بعصمتهم، لذا فلا يُحاسبون عليه. ولو فرضنا العكس –وهو فرض محال– فهذا ليس من شؤوننا.

ثالثاً: إن مثل هذه البسيطة حدثت قبل نبوتهم، والزلة هنا تأتي بمعنى التزلزل البسيط، ولا تعني الوقوع والانكفاء على الأرض. والآن لنعط بعض الأمثلة الشاخصة لما عرضناه، ولنحول نظرنا أولاً إلى أب البشرية آدم عليه السلام.

أ- آدم عليه السلام

يشرح القرآن الكريم موقف آدم عليه السلام فيقول: ﴿وعصى آدم ربه فغوى ۞ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ (طه: ١٢١-١٢٢). واستعملت الآية تعبير "الاجتباء"، والاجتباء: الاختيار والاصطفاء، وهي عملية إنقاذ الشيء من أن يترسب إلى القاع أو من أن يتفرق يميناً وشمالاً كالفقاعات، أي أن الله تعالى أنقذ آدم من الوقوع في مثل هذا الوضع.

وسنتاول فيما بعد معنى كلمة "عصى" الواردة في الآية، وسنرى أنها لا تشير إلى معنى العصيان. والآن لنتابع موضوع آدم عليه السلام. نستطيع تعلم معنى الطاعة من آدم عليه السلام، فما أن زل حتى توجه إلى ربه الذي حفظه من السقوط: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣).

كان ذلك زلة، ولكن الله تعالى هداه إلى الطريق القويم بعد هذه الزلة والى الهداية، ونعلم من هذا أن هذه الزلة كانت قبل اجتبائه، ففي هذه الفترة كان آدم عليه السلام مثل نبتة انحنت أمام هبوب عاصفة ولكنها اعتدلت مثل سابق عهدها بعد انقضاء العاصفة ولم تقتلع من جذورها. والرسول ﷺ يشبه المؤمن بالزرع ويشبه الكافر بشجرة الأرز التي لها مظر ولكن إن قلعتها الريح العاصفة لم تستطع أن تعتدل مرة أخرى: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفِيءُ ورقُهُ من حيث تتها الريح تُكَفّئها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكُفّأُ

بالبلاء. ومثل الكافر كمثل الأرزة صمّاءُ معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء.»[1]

فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار علمنا أن زلة آدم عليه السلام كانت قبل نبوته. ثم إن زلة آدم عليه السلام كانت عبارة عن نسيان وعدم تذكر، والله تعالى يخبرنا بذلك فيقول: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ (طه: ١١٥). ويقول في موضع آخر: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رَغَداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ (البقرة: ٣٥).

ولكن آدم نسي هذا، والنسيان طبيعة بشرية، ويقول الرسول ﷺ وهو يحلل هذا الموضوع: «ونُسِّي آدم فنُسِّيتْ ذريته»،[2] وقد شرح الرسول ﷺ -الذي يعرف الطبيعة البشرية أفضل معرفة- هذا الموضوع بهذا الشرح الجميل.. الإنسان ينسى، وآدم إنسان إذن، فهو ينسى وقد نسي فعلاً، وفي هذا الحديث يشير الرسول ﷺ إلى تأثير الوراثة على تصرفات الإنسان وسلوكه، وعلى المختصين في هذا المجال الاستفادة من هذه الإشارة. إذن، فقد جاءنا النسيان من أبينا آدم عليه السلام، فالله تعالى وضع هذا في ماهية آدم عليه السلام وفي كروموزوماته، لذا لا نستطيع نحن التخلص من هذا. وعندما يذكر الله تعالى أن آدم نسي فهو يقطع سوء الظن ويبعده، ثم يقول بعده مباشرة: ﴿ولم نجد له عزماً﴾ (طه: ١١٥) أي لم نجده عاقداً عزمه على فعل تلك الزلة ولم يقصده قصداً، بل بدرت منه في ساعة نسيان.

ماذا كانت تلك الفاكهة المحرمة؟ هناك وجهات نظر عديدة في هذا الموضوع لا نستطيع سردها كلها هنا، وإلا قلبنا هذه الصفحة إلى دكان بائع الفواكه، الشعير، الحنطة، الرز، التمر، العنب.. الخ، ولا يغير نوع الفاكهة الموضوع أو يؤثر فيه، فالمهم هو ما حدث من وضع ومن مشكلة بعد أكل هذه الفاكهة. أما قناعتنا في هذا الموضوع فتختلف عما قيل حتى الآن بعض الشيء.

---

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣١؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٥٨-٥٩؛ **الترمذي**، الأدب، ٧٩

(٢) **الترمذي**، تفسيرسورة (٧) ٣

الفاكهة المحرمة هي الغريزة البشرية التي لم يكن بمقدور آدم عليه السلام الوقوف في وجهها. وبفضلها تكاثر النسل البشري، والأمر نفسه كان وارداً بالنسبة لأم البشرية حواء، ونحن نرى -والله أعلم- أن الاقتراب من الشجرة يأتي بمعنى العملية التي يتكاثر بفضلها الجنس البشري.

ومع ذلك فلا نقول إن أصح رأي هو ما نقوله، ولكننا نعتقد أن من المفيد إضافة هذا الرأي وهذا القول إلى جانب الآراء الأخرى في هذا الموضوع، فإن كان صحيحاً فهذا فصل من الله، وإلا فإنا نلوذ برحمته الواسعة.

أحب أن أنبه إلى أمر قبل الانتقال إلى الحكم الديني للنسيان والخطأ إذ يتوجب علينا وصل الحوادث المتفرقة التي يقصها القرآن علينا ثم عرضها بشكل تام.. والأمر نفسه وارد هنا، ففي مرحلة نبه آدم عليه السلام وحوّاء من عدم الاقتراب من الشجرة أو من الفاكهة المحرمة، ولكن كم من الزمن مر على هذه المرحلة؟ لا أحد يعرف هذا، ولكن الظاهر أن هذا الزمن كان طويلاً بحيث ساعد على نسيان آدم لهذا النهي، ثم تم تناول الفاكهة المحرمة بعد هذا النسيان.

والحساب مرفوع عن الخطأ فالرسول ﷺ يقول: «رُفِع عن أمّتِي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه.»[1] وألا يعلمنا القرآن الكريم أن نستغفر الله تعالى إن وقعنا في هذه الأمور؟ ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ (البقرة: ٢٨٦). أليست هذه الآية من الورد الذي نقرؤه كل يوم قبل نوم؟

نسي آدم عليه السلام وقطف الفاكهة المحرمة خطأً. فإذا كان هذا الأمر تم جراء الخطأ والنسيان الذي يقول الرسول ﷺ إن الحساب مرفوع عنهما، فكيف إذن، يعد آدم عليه السلام آثما أو مذنباً؟

---

(١) «**فيض القدير**» للمناوي ٣٤/٤. وانظر في الروايات المختلفة للحديث إلى: **البخاري**، الحدود، ٢٢، الطلاق، ١١؛ أبوداود، الحدود، ١٧؛ **الترمذي**، الحدود، ١؛ **ابن ماجة**، الطلاق، ١٥، ١٦

فإذا كان الإنسان الاعتيادي يجتنب ما هو ظلم وعصيان لدى الله تعالى، فكيف لا يجتنب الأنبياء الظلم والعصيان وهم الأشخاص المصطفون والمختارون من قبله تعالى؟ أرى أن قول العكس غفلة كبيرة، بل إن بعض العلماء كرهوا قراءة هذه الآية بهذا المعنى.. لا شك أنه يستطيع أي إنسان قراءة هذه الآية وشرح معانيها على ألا يكون وسيلة لفهم خاطئ، لأن آدم عليه السلام نبي ولا يمكن أبداً التحدث عن نبي وكأنه شخص عادي. وأسلوب القرآن حولهم يتأتى من زاوية درجة قربهم من الله تعالى وليس من زاوية تصرفاتهم، وكان القدماء يوضحون هذا بقول "حسنات الأبرار سيئات المقربين."

وحتى في القانون البشري نرى أن موظف الدولة إن اقترف ذنباً تزداد عقوبته، فإن كان مخالف القانون حاكما أو محاميا ممن يعرف القانون تضاعفت عقوبته. فالأنبياء موظفون من قبل الله تعالى، وهم يعرفون أكثر من غيرهم ماذا يعني اقتراف الذنوب، لذا كان من الطبيعي مضاعفة عقوبة من كان بهذا الموقع إن اقترف ذنباً. ثم ألا يعد اقتراف الذنب في حرم الكعبة شيئاً أكبر وأشنع من اقتراف الذنب نفسه في الأماكن الأخرى؟[1]

ألا يذكر القرآن الكريم مضاعفة العقوبة لزوجات الرسول ﷺ إن اقترفن الذنب؟[2]

ذلك لأن الكعبة رمز للقرب من الله تعالى، والناس هناك يُعدون ضيوف الرحمن، وكون أي امرأة زوجة للرسول ﷺ رمز أيضاً للقرب من الله تعالى، لأن بيت الرسول ﷺ هو البيت الذي يتنزل عليه الوحي، ويدخله جبريل عليه السلام على الدوام، لذا كان من الطبيعي مضاعفة العقوبة لأي ذنب يقترف في هذا البيت وذلك على قاعدة: "الغُرْم بالغُنْم"، فمع زيادة المغنم يزداد المغرم.

---

(١) قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ (الحج: ٢٥).

(٢) قال تعالى: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً﴾ (الأحزاب: ٣٠).

وهذا هو أيضاً وضع الأنبياء عليهم السلام، فقد شرفوا بالقرب من الله تعالى، وملك الوحي معهم في غالب الأحوال، لذا فمن الطبيعي أن يعد أقل زلة عندهم بمثابة ذنب، وأن تقدم الزله وكأنها ذنب، لأن طبيعة موقعهم تستوجب هذا، ولأكرر هنا فأقول بأن هذا الذنب وهذه العقوبة أو الجزاء لا يمكن تقييمه من زاوية ذنب أو جزاء إنسان عادي أو ولي من الأولياء، بل هو صورة ذنب من زاوية وضعهم وموقعهم كأنبياء فقط وليس ذنباً حقيقياً، لذا لا يجوز إطلاق كلمة الذنب هنا.

ثم لنفرض أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام بعدم ملامسة زوجته والصوم عن مقاربتها، ولكن لكون آدم عليه السلام قد تعلم الأسماء كلها فهو يعرف إذن، ما سيحل به بشكل من الأشكال. أجل، كان يعلم أن الدوامة التي دخل فيها ستقلبه مرات ومرات وتوصله –بتأثير من الدافع المركوز فيه– إلى النقطة التي خُطط لها.. فالإرادة الإنسانية التي تقاطعت في لحظة في عالم الأسرار في نقطة معينة مع المشيئة الإلهية أدت إلى هذه النتيجة، فإن لم نقل إنه نسيان –والقرآن الكريم يقول إنه نسيان– فعلى الأقل يجب مواجهته بمرونة.

وما دمنا وصلنا إلى هذه النقطة أرى من المفيد إيراد الحديث النبوي الذي يرويه البخاري ومسلم والترمذي، إذ يقول الرسول ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه أتلومني على عمل عملته كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض. قال: فحج آدم موسى.»[1] وهذا الحديث يبين أن آدم عليه السلام كان على حق في هذا النقاش، وهذا يعني أنه لم يقترف ما يعد إثماً بفعله ذلك.

عُلّمَ آدم عليه السلام الأسماء كلها –والمسميات كذلك– فعاش حياته مبهوراً في خضم أسرار هذه الأسماء، لذا فمن الغفلة ادعاء إمكانية قيام مثل هذا الشخص باقتراف ذنب عن سابق إرادة وتصميم. واحتمال آخر هو أن النهي عن تلك الفاكهة كان نهيا مؤقتا،

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة(٢٠) ١، ٣؛ القدر، ١١؛ **المسلم**، القدر، ١٣-١٥؛ **الترمذي**، القدر، ٢

وأن آدم (عليه السلام) كان يعرف هذا، ولكنه اجتهد برأيه ومد يده لتناولها قبل الأوان.. مد يده وأفسد صومه، وهذه العملية التي تعد الآن ثواباً إن تمت في دائرة الحلال كانت محرمة بشكل مؤقت على آدم (عليه السلام)، أو أن ذلك النهي كان بالنسبة لقربه من الله تعالى، لذا عُدّ تصرفه هذا زلة.

والمقياس الذي عرضناه في حق آدم (عليه السلام) سيفيدنا في فهم وضع الأنبياء الآخرين، إذ سنفهم أنهم متصفون بصفة العصمة، فالزلات المسندة إليهم ليست ذنوباً بالمعنى الذي نفهمه نحن من الذنب.

ب- نوح (عليه السلام)

ناجى نوح (عليه السلام) ربه لينقذ ابنه فتم تنبيهه، وقد يبدو هذا في النظرة الأولى زلة بالنسبة لنبي، لندقق النظر في وضع هذا النبي الكريم الذي يعد الأب الثاني للبشرية لنعرفه عن قرب في ضوء نور القرآن الكريم. يورد القرآن الكريم دعاء نوح (عليه السلام) وجواب الله تعالى وتنبيهه له: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ (هود: ٤٥).

كان الانفعال قد سرى في كيان نوح (عليه السلام) وهو ينتظر الحادثة التي ستقع على رأس أمته، وكان قلقاً على مصير ابنه كأي إنسان آخر، فهل كان قلقه للمصير الذي سيلقاه ابنه أم لأن ابنه سيموت كافراً؟ لا شك أن قلقه لم يكن منحصراً على دنيا ابنه وعلى بدنه وجسمه بل على حياته الأبدية وحياته الخالدة وهو الذي يعرف جيداً السعادة الأبدية التي هيأها مولاه، وكذلك عذابه الأليم، ثم أهناك أي والد لا يرتجف شفقة من مثل هذا المصير المرعب لابنه؟

أمام هذا الأنين الصادر من هذا القلب المكلوم جاء الإرشاد الإلهي الذي بين حقيقة الأمر: ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (هود: ٤٦).

إنه ليس من أهلك، صحيح أنه من صلبك وأن امرأتك ولدته وتربى في حجركم، ولكن أهلك هو من سار على دربك، ذلك لأنه اقترف عملاً غير صالح ودخل إلى دائرة فاسدة وتمرد عليك ودخل بين الكفار فقادوه إلى الغرق في المياه، وقاده الغرق إلى خسران حياته الأبدية، فلا تطلب مني شيئاً لا تعلمه حق العلم. إني أعيذك أن تكون من الجاهلين، ذلك لأنك أهل للعلم وأهل للمعرفة وللحب، لأنك تعلم مولاك الحق، فلا يليق بك هذا الطلب وأنت من الأنبياء والمقربين إليّ.

هذه هي الزلة الوحيدة لنوح عليه السلام الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة إذ دعا من الله أن ينقذ ابنه المشرف على الغرق، فلماذا قام بهذا الدعاء وبهذا التوسل؟

أولاً : لقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى أوصاه أن يحمل أهله والمؤمنين في السفينة: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفَارَ التَّنُّور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ (هود: ٤٠). كان هذا هو الوعد الذي أخذه نوح عليه السلام من ربه، وكان طلبه ودعاؤه مستنداً إلى هذا الوعد، ولكنه لم يكن يعلم صدور الحكم الإلهي ضد ابنه، لذا لم يكن طلبه إلا طلبا لوعد الله تعالى.

بنى نوح سفينة استناداً إلى الوحي، ودعا الناس إليها بناء على أمر الله تعالى، كان أفراد عائلته بالطبع ضمن هؤلاء المدعوين، دعا أفراد عائلته ولكن ها هو يشاهد ابنه وقد حاصرته الأمواج، فأسقط في يده ولم يجد هناك إلا ملجأ واحداً يلجأ إليه وهو ربه الذي يبقى المنقذ الوحيد عندما تنسد الأبواب جميعها.: التجأ إليه لإنقاذ ابنه، فلم يبق أمامه سوى باب الدعاء من ربه.

وقد فوجئ عندما أخبره ربه أن ابنه ليس من أهله، كان يحسب أنه من أهله لأنه ابنه، ولكنه عندما نبه رجع حالاً إلى ربه وأناب إليه واستغفره بهذا الدعاء الحار: ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ (هود: ٤٧) إذن، فعندما التجأ نوح عليه السلام بطلبه إلى ربه لم يكن عالماً بالأمر، وعندما علم أسرع

بالاستغفار، فهل يمكن إطلاق وصف الخطأ على هذا التصرف؟ وأي ضمير يرضى بذلك؟

ثانياً: ماذا كان طلب نوح عليه السلام؟ لقد طلب نوح من ربه هداية ابنه، وأليس هذا شيئاً طبيعياً لأي أب؟ أب هو في الوقت نفسه نبي يبذل كل ما في وسعه لهداية الناس جميعاً، لذا ألا يعد تضرع نوح من ربه لإنقاذ الحياة الأبدية لابنه تصرفاً طبيعياً بل تصرفا فاضلاً وهو الشخص الرحيم الذي مد جناحي رحمته ليظلل الناس جميعاً؟

أجل، نحن هنا أمام رحمة نبوية، هذه الرحمة التي تتجاوز خيالنا نحن، ولولا هذه الرحمة الواسعة لما كان بإمكانهم حمل عبء النبوة على أكتافهم. فكروا في أم من الأمهات.. فلكي تقوم هذه الأم بضم وليدها إلى صدرها والقيام بإشباع كل حاجاته ومتطلباته يجب أن تزود برحمة وبشفقة كبيرة، إذن، فما بالك بالرحمة المهداة إلى أي نبي من الأنبياء أو إلى أحد الأنبياء والكبار من أولى العزم وهم الذين فتحوا أذرعهم لاحتضان كل المطالب المشروعة الدنيوية منها والأخروية لبني الإنسان بأجمعهم!

ويقول القرآن الكريم وهو يصور الحالة النفسية لرسولنا ﷺ أمام المنكرين والكفار: ﴿فلعلك باخع[١] نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ (الكهف: ٦)، ويشرح رسول الله ﷺ وضعه منا بهذا المثل الذي يضربه إذ يقول: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذٌ بحُجَزِكمْ[٢] وأنتم تَقَحَّمُون فيه.»[٣]

إذن، فهذا هو مبلغ الرحمة النبوية، وكان نوح عليه السلام نبياً، لذا كان يحمل الشفقة نفسها. ولكنه ما إن سمع التنبيه الإلهي حتى أناب إلى الله تعالى وتخلى عن دعائه واستغفر ربه.

والآن لنر التشابه بين دعائي نوح عليه السلام وآدم عليه السلام.. لقد توجه كلاهما إلى الله عندما

---

(١) **باخع**: مُهلِك.

(٢) **الحجز**: جمع حجزة، وهي معقد الإزار والسراويل

(٣) **مسلم**، الفضائل، ١٧؛ وانظر إلى الروايات الأخرى وبألفاظ مختلفة في: **البخاري**، الأنبياء، ٤٠؛ **الترمذي**، الأدب، ٨٢

علما بخطئهما وتضرعا إليه بدعاء متشابه وبأسلوب متشابه، لأنهما كانا من خميرة متشابهة وخلق متشابه.. درسا في المدرسة نفسها وعلى يد المعلم علام الغيوب نفسه، لذا كان عليهما أن يرجعا عن الخطأ بالشكل نفسه، ومع أن القرآن الكريم استعمل كلمات مختلفة في بيان إنابتهما وأوبتهما إلا أنه استعمل الأسلوب نفسه.

ثالثاً : هناك قاعدة دينية تقول: "نحن نحكم بالظاهر"، ولهذا اشترك رسول الله ﷺ في الصلاة على عبد الله بن أبي مع علمه بنفاقه، كما اشترك في الصلاة على كثير من المنافقين ولم يهتك سترهم،[1] ذلك لأنهم كانوا في الظاهر يؤدون الصلاة ويصومون ويقومون بأداء جميع الشعائر الدينية.

لذا، فهناك احتمال أن موقف ابن نوح عليه السلام كان الموقف نفسه، فربماكان ابنه يتظاهر بالإيمان على الدوام مع كونه منافقاً أو أن نفاقه ظهر على السطح في تلك الأثناء، وكان نوح عليه السلام يحكم عليه حسب ظاهره ويعده من أهله، أما الحكم حسب الظاهر فلا يُعد ذنباً في أي وقت من الأوقات، لذا وبناء على هذا لا يكون نوح عليه السلام قد اقترف ذنباً، فقد قام بواجبه.. وتصوروا هذا النبي الكريم الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة وبذل كل جهده طوال حياته هذه، وتعرض إلى الهزء والسخرية وأسند إليه الجنون، ولكنه لم يهتز أبداً ولم تفتر عزيمته أبداً مع أن الذين آمنوا به كانوا قلة قليلة كما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ (هود. ٤٠).

ويستطيع من يريد فهم النبي نوح عليه السلام قراءة سورة نوح، عند ذلك سيفهم كيف أن هذا النبي الكريم بعيد عن اقتراف أي ذنب بُعد الثرى عن الثريّا، ندعو من الله تعالى أن يجعلنا من الفائزين بشفاعة نبينا وبشفاعة نوح عليه السلام.. آمين.

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣؛ **المسلم**، فضائل الصحابة، ٢٥؛ **الترمذي**، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣

ج- إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وخليل الله.. الإنسان الذي لم تطرف عيناه خوفاً من أي شيء.. الإنسان الكبير الذي وحد البرد والسلام داخل النار.. الشخص المجتبى الذي كان ينقل جو الجنة الذي كان يحمله داخل جوانحه إلى كل مكان يذهب إليه حتى وإن كان ذلك جحيماً، وبينما يفرح كل إنسان عند انتسابه لرسول الله ﷺ كان الرسول ﷺ يفرح لشبهه بإبراهيم عليه السلام إذ يقول إنه عندما عُرض عليه الأنبياء في معراجه: «ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً صاحبكم»[1] يعني نفسه. والآن لندقق حدود عصمته ونفهم ماهية العصمة عنده كذلك.

١- الكوكب والقمر والشمس

لم يعبد إبراهيم عليه السلام في أي مرحلة من مراحل حياته الكواكب ولم يقترب من الشرك. وإن إطلاقه كلمة "ربي" على كل من الكوكب والقمر والشمس لا علاقة له مع الشرك لا من قريب ولا من بعيد.

والآن لنتابع من القرآن الكريم هذا الموضوع: ﴿فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أحب الآفلين ۝ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ۝ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفَلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ (الأنعام: ٧٦-٧٨).

ولد إبراهيم عليه السلام حنيفاً، لذا لا يتصور أنه قال "ربي" بشكل حقيقي للكوكب والقمر والشمس، ذلك لأن من يتوهم ذلك فكأنه يتناسى عن عمد الآيات التي سبقت

(١) مسلم، الإيمان، ٢٧١؛ الترمذي، المناقب، ١٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٣٤/٣

هذه الآيات وهي: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ (الأنعام: ٧٤)، والآية التي تأتي بعد ذلك تقول: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام: ٧٥).

إذن، فمثل هذا النبي المنفتح قلبه على مثل هذا العالم الغيبي لا يمكن أن يعد الكواكب -ولو بشكل مؤقت- ربًا له مهما قالت الكتب المملوءة بالأساطير هذا. ثم إن الله تعالى لم يره ملك السموات والأرض فقط، بل أراه الملكوت كذلك، أي العالم الموجود وراء أستار هذا العالم الظاهري، وهو بهذا من الواصلين إلى الإيمان اليقيني.. بل إلى مرتبة حق اليقين التي هي المرحلة الأخيرة للإيمان اليقيني، لذا بعدما شرحت الآيتان السابقتان كيف حصل إبراهيم عليه السلام على الإيمان اليقيني نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يوصل إلى قومه بعض الحقائق في هذه الحادثة.. إذن، لنتناول الموضوع من هذه الناحية لنقوم بالتحليل:

في البدء نقول إن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون النجوم مثلما عبد العرب في مرحلة من مراحل الجاهلية "الشِّعْرَى" التي أصبحت إلهاً يُعبد لكونها نجمة لامعة وأكبر منْ غيرها حسبما كانت تبدو لهم، وكان أهل بابل القدماء يعبدون النجوم أيضاً، هنا نعلم أن إبراهيم نظر إلى هذا الكوكب الذي كان يبدو -لبعده- صغيراً وأثار انتباه من حوله إليه، ثم قام بتنبيه صغير ومعقول لهم يطابق الظاهر.. كان ما يقوله صحيحاً لا يخالطه أي كذب، وكان في كل دليل يقدمه لهم يهدم إلهاً لهم في السماء وإلهاً يمثله في الأرض.[1] أجل، كان إبراهيم عليه السلام يهدم بمنطقه أصنامهم واحداً إثر آخر.. كانت هذه هي مهمته.. هدم الأصنام.

قدّر بعض المفسرين وجود همزة الاستفهام في أول جملة "هذا ربي"[2] أي أن الجملة المقدرة هي سؤال إنكاري: "أهذا ربي؟" والجواب الطبيعي: "كلا.. ليس هو"، هذا أحد

---

(١) كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون النحوم، وكان لكل نجم صنم يمثله في الأرض.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ١٩/٧؛ «روح المعاني» للآلوسي ١٩٩/٧

التفاسير، غير أن تفسيرنا للموضوع هو: تظاهر إبراهيم عليه السلام أنه مهتم بما يعده قومه آلهة، وذلك كخطة وكتكتيك لكي يجرهم إلى المستوى الذي عينه للنقاش معهم، ولم يكن هناك حل آخر أمامه غير هذا، وأعاره قومه آذانهم له على اعتبار أنه يتكلم عن آلهتهم، ولكن عندما انتهت المناظرة بينه وبينهم بالجمل الأخيرة لإبراهيم كانت جبهة الإيمان قد انتصرت على جبهة الكفر والشرك.

لقد تجول إبراهيم عليه السلام مع قومه بين الكوكب والقمر والشمس وأراهم أن الجميع يأفلون.. كلهم يبزغون ويصعدون إلى كبد السماء ثم يأفلون في النهاية، والذي يولد ثم يكبر ثم يأفل ضمن قوانين معينة لا يمكن أن يحكم الكون، فكيف يستطيع من كان حادثاً الهيمنة على حادث مثله؟ كانت الجملة الأولى له لقومه وهي: ﴿لا أحب الآفلين﴾ أول تنبيه لهم.. يجب ألا يكون في القلب محل للآفلين وللغاربين، ولا يكون الآفلون أهلاً للسير وراءهم، لأنهم يختفون ويأفلون.. أعطوني حبيباً لا يأفل.. حبيباً يكون أقرب إليّ مني.. حبيباً يعرف جميع خلجات قلبي ورغباته، وعنده القوة والمقدرة على أن يحقق كل هذه الرغبات.

ثم يخطو خطوة أخرى.. يريهم القمر.. ولكنه يأفل أيضاً بعد مدة، فيقول جملة يتعرض لهم بها من طرف خفي ويريهم ضلالتهم: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ (الأنعام: ٧٧).

وفي الخطوة الثالثة ينظر إلى الشمس التي هي كبير الآلهة عندهم.. بدأ من الصغير وهدم إلهين صغيرين عندهم، والآن جاء دور الإله الأكبر، لذا عندما أفلت الشمس وغربت خاطب ضمائر القوم الموجودين هناك: ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ والآن جاء دور الجملة الأخيرة إذ توجه إليهم بهذا الكلام الحار الخارج من أعماق قلبه: ﴿إني وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام: ٧٩). ولو أن إبراهيم عليه السلام قال هذه الجملة منذ البداية لما استمع إليه أحد.. راعى

مستواهم ووضعهم وعقليتهم وتدرج معهم فبدأوا يستمعون إليه، ولو لم يتدرج في كلامه معهم لما وجد أحداً يستمع إليه ولما استطاع أن يؤثر فيهم.

وهكذا فضّل إبراهيم عليه السلام بفطنته اختيار هذا السبيل لكي يظهر حقيقة "لا إله الا الله" لكل فرد في قومه، وهذا المنطق مطابق تماماً للمنطق القرآني، وكيف لا وكلاهما استقى من المنبع نفسه وعكسا الحقيقة نفسها.

أود هنا جلب أنظاركم إلى نقطة معينة، فإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إني بريء مما تشركون﴾ وهذه الجملة جملة إسمية، والجمل الإسمية في اللغة العربية تفيد الاستمرار، وهذا معناه: إنني كنت بريئاً ولا أزال بريئاً مما تشركون. إذن، فلم يتفوه إبراهيم عليه السلام بأي كلام ولم يقم بأي تصرف يستشف منه أي شرك، والتعابير التي استعملها لم تكن إلا خطة محكمة من خططه الحكيمة، لذا فلا يوجد شيء في كلامه يخل بعصمته.

٢- إحياء الموتى

والشيء الثاني الذي يُزعم أنه زلة هو طلبه من ربه إحياء الموتى. والقرآن الكريم يشرح هذه الحادثة فيقول: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تُؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

كان إبراهيم عليه السلام بطلاً من أبطال الروح وعالم المعاني والإيمان الذي يبحث دائماً عن المزيد، وظل قلبه مفتوحاً على الدوام للمزيد من معرفة الله، لذا نراه يريد اقتحام آفاق جديدة من المعرفة بمشاهدة كيفية إحياء الله تعالى للموتى.

أكان لدى إبراهيم عليه السلام شك أو شبهة في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؟ كلا على الإطلاق، فقد تضرع إلى الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، إذ لم يقل لله تعالى: أتستطيع أن تحيى الموتى؟

واستجاب الله تعالى لطلبه فأمره أن يأخذ أربعة طيور ويجعلهن يألفنه ثم يذبحهن ويقطعهن

ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن فيأتينه سعياً: ﴿قال فخُذْ أربعة من الطير فصُرْهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والحقيقة أن الله تعالى أراه مثالاً واحداً من أمثلة الإحياء التي تتكرر في كل موسم ربيع آلاف المرات، غير أنه أكرم نبياً عظيماً من أنبيائه فقدم له هدية خاصة في هذا المجال لكي يرتشف الإيمان اليقيني وينهل من منهل الإيمان من درجة الاطمئنان.. كان إبراهيم عليه السلام يعب من هذا المنهل العذب ولا ينطفئ ظمأه وعطشه.. فلم يكن طلبه هذا ناتجاً عن شك أو شبهة أو تردد وهذا ظاهرمن سؤاله، إذ لم يقل لله تعالى: "هل تقدر أن تحيي الموتى أم لا تقدر؟" وهذا يشبه قولك لرسام كبير: "دعني انظر إليك وأنت ترسم لوحة" أو لخطاط فنان: "خط أمامي لكي أرى كيف تخط مثل هذه الخطوط الجميلة"، فليس في مثل هذا الطلب أي ناحية تعجيزية، بل هو تعبير عن الافتتان بفنه الجميل واعتراف به، ولهفة على رؤية دقائق فنه وسعادة كبيرة في تأمل كيفية ظهور لوحة رائعة مرحلة فمرحلة.. أجل، فالسؤال كان حول كيفية الإحياء وليس حول إمكانيته أو عدم إمكانيته.

ثانياً : إنه كما قال سيد قطب رحمه الله:

"إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل.. حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين!.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية الإيمان.. إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنه الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هذا هو إيمان إبراهيم الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل

ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ويتنفس في جوها ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان."[١]

ثم إن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يشبع إيماناً بمستواه هو، فالرجل الأمي قد يتصور أنه ما من أفق آخر غير أفقه المحدود، وليس هناك طريق تتجاور طريقه،.. ألم يزعم محيي الدين بن عربي –في شطحاته– أن خاتم الأنبياء يتلقى الدروس من خاتم الأولياء؟ لماذا؟ ذلك لأن رأسه لمس القبة المضروبة على قدره ومقياسه، وعندما دخل من الباب المقدر له دخوله ضاقت به أطر الباب، بينما كان هذا الباب صغيراً جداً بالنسبة للقصر الكبير.: مثل باب غرفة صغيرة فيه.. بينما كان الباب الذي دخل منه إبراهيم الخليل باب سور كبير وباب مدينة كبيرة.. قبته السماء، يستطيع أن يتطلع فيها إلى الشمس والقمر والنجوم.. فأفق المعرفة لأكبر ولي يبقى محدوداً جداً بالنسبة لأفق المعرفة الذي وهبه الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، وإذا كان إبريق من الماء يروينا، فإن البحار ما كانت لتكفي لإرواء ظمئه عليه السلام إلى المعرفة، لذلك كان صاحب هذا القلب الكبير كلما رأى دليلاً وآية من آيات ربه ذرف الدموع حباً ووجداً.

سأل شمس الدين التَبْرِيزِي جلال الدين الرومي: أيهما أعظم! هل النبي محمد ﷺ الذي يقول «ما عرفناك حق معرفتك يا معروف!»، أم أبو يزيد البسطامي الذي يقول: "سبحاني ما أعظم شأني!" فأجابه جلال الدين الرومي جواباً مذهلاً إذ قال: "نستطيع أن نعرف من هذين القولين كيف أن سيدنا محمد ﷺ أكبر من البسطامي بما لايقاس، ذلك لأن الرسول ﷺ كان كالبحر المحيط لا يمكن ملؤه، بينما كان البسطامي مثل إبريق ماء امتلأ بسرعة ثم فاض."[٢]

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرف حداً للشبع من المعرفة الإلهية.. كان دائم الطلب "هل من مزيد؟".. أعطني يا رب من معرفتك المزيد.. لذا، ففي حديث يرويه البخاري

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب ١/٣٠١-٣٠٢

(٢) «نفحات الأنس» لملا جامي ٥٢١ ترجمة لامعي جلبي.

ومسلم يقول الرسول ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم.»[١] أي بما أننا لا نشك من إحياء الموتى، لذا فمن الأولى عدم وجود الشك عند إبراهيم عليه السلام.

٣- التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام

عند البحث عن عصمة النبي إبراهيم عليه السلام يجدر بنا الإشارة إلى ثلاث أكاذيب أو بالأصح إلى ثلاثة تعريضات له، ذلك لأننا نستعرض هنا عصمة الأنبياء بشكل عام، بينما يُعد الكذب ذنبا كبيراً، لذلك فتفوه الأنبياء بأي كذب يخل بعصمتهم ويخل بالثقة بهم، فالكذب لا يصدر من قلب مؤمن.

يقول رسول الله ﷺ في حديث له: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثا.»[٢] ولا تأتي كلمة "يكذب" هنا بمعنى الكذب المعروف بل بمعنى "التعريض". وقد يبدو قولنا هذا تكلفاً من الناحية اللغوية، غير أنه صحيح من ناحية المعنى الذي سنوضحه بعد قليل، ذلك لأنه يجب الانتباه جيداً إلى التعبير، إذ لا يمكن إسناد الكذب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، فلا يأتي الكذب هنا بالمعنى الوارد في قواميس اللغة، نطلق كلمة "التعريض" لأمثال هذه الكلمات.

كان الرسول ﷺ يمزح أحياناً ولا يقول إلا حقاً، فمثلاً كان يمازح أنساً رضي الله عنه فيقول له: «يا ذا الأُذُنين!»،[٣] طبعاً كان لأنس رضي الله عنه أذنان. وخاطب امرأة فقال لها: «أأنتِ زوجة الرجل الذي في عينه بياض؟» فقالت: يا رسول الله، ليس في عين زوجي بياض. فقال لها الرسول ﷺ: «في كل عين بياض.» وأتته مرة امرأة فقالت: يا رسول الله، ادع لي أن يدخلني الله الجنة، قال: «يا أم فلان! إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولت العجوز تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز فإن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهن

---

(١) البخاري، الأنبياء ١١؛ مسلم الإيمان، ٢٣٨.

(٢) البخاري، الأنبياء، ٨، النكاح، ١٢؛ مسلم، فضائل، ١٥٤؛ أبو داود، الطلاق، ١٦

(٣) الترمذي، المناقب، ٤٥؛ أبو داود، الأدب، ٨٤

إنشاءً ۞ فجعلناهن أبكاراً﴾ (الواقعة: ٣٥-٣٦).»[١]

إن النبي يختار كلماته جيداً حتي وهو يمزح.. أجل، إن المقام الذي كان يشغله الأنبياء لم يكن يبيح لهم الكذب حتى في المزاح، ذلك لأنهم في موقع القدوة والأسوة للإنسانية جمعاء، فإن كذبوا في المزاح كذب الناس في الجد، لذا فلا يمكن أن يكون أي نبي مثالاً سيئا في أي شيء.

كان النبي إبراهيم عليه السلام منذ ولادته حنيفاً وعدواً للأصنام، وقف أمامها وعمل ضدها وكافح العكوف على الأصنام حتى قبل بعثته، حتى جاء يوم قرر فيه أن يهدم الأصنام جميعها. كان من عادات قومه النظر إلى النجوم لمعرفة ما سيقع من حوادث، لأنهم كانوا يعتقدون آنذاك أن الآلهة موجودة في السماء بين النجوم، وكانوا يعتقدون أن النجوم تتحكم في مصائر الناس، وكان إبراهيم عليه السلام ينظر أيضاً إلى النجوم ولكن من أجل محاولة إقناع قومه والوصول إلى تحقيق غايته، ولم يكن يفكر طبعاً تفكير قومه في هذا الصدد.

نظر إبراهيم عليه السلام نظرة إلى النجوم فقال "إني سقيم"، هذه هي كذبته الأولى أو بالأصح تعريضه الأول، وسنشرح فيما بعد لم قال هذا. وتعريضه الثاني قاله عندما كسر جميع الأصنام ثم علق مطرقته على عنق كبير الأصنام قائلاً لمن سأله من فعل هذا بأصنامهم: "إنه كبيرهم هذا فاسألوه."

أما الثالث فلا يذكره القرآن ويتعلق بزوجته إذ أوصاها بأن تذكر لمن يسأل عنها أنها أخته.[٢]

هذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام وسنتناولها جميعاً لنرى الوجه الحقيقي لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

---

(١) «الشمائل» للترمذي ٢٤١

(٢) البخاري، تفسير، سورة (١٧) ٥؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٦-٣٢٧

أ – " إني سقيم"

يشرح القرآن الحادثة الأولى فيقول: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم ۞ إذ جاء ربَّه بقلب سليم ۞ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ۞ أَئِفْكاً آلهةً دون الله تريدون ۞ فما ظنكم برب العالمين ۞ فنظر نظرة في النجوم ۞ فقال إني سقيم ۞ فتولوا عنه مدبرين﴾ (الصافّات: ٨٣–٩٠). كان إبراهيم عليه السلام يقصد من "إني سقيم" الإشارة إلى السبب الرئيسي لعدم شعوره بالراحة، كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه.. شعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها فلن يجد طعماً للراحة، وعندما قال لمن حوله: "إني سقيم" ظنوه مريضاً من الناحية الجسدية فتولوا عنه، إذ كانوا يصرون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني.. ما إن خرجوا من عنده حتى أسرع ليحطم الأصنام مبينا بذلك السبب الحقيقي لسقمه غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئا غير مقصوده الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً، كل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب عن قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، كان هذا هو مصدر الخطأ.

كان ما استعمله إبراهيم عليه السلام تعريضاً، ولكنه كان شخصاً مستقيماً إلى درجة أن هذا التعريض الذي استعمله آلمه إلى درجة أنه سيقول يوم القيامة لمن يأتيه يسأله الشفاعة أن يذهبوا إلى موسى لأنه تذكر كذباته، يقول الرسول ﷺ: «..فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من الأرض، اشفَعْ لنا إلى ربك، ويقول: –فذكر كذباته– نفسي نفسي اذهبوا إلى موسى.»[(١)]

تأملوا كيف أن إبراهيم عليه السلام استعمل تعريضاً مثل "إني سقيم" مرة في حياته وقارنوا بينه وبين أقوال من يرون أنفسهم في خدمة الإسلام –ولا أذكر غيرهم– إن كان ذلك اضطراراً أم لا لكي يتبين لكم مدى براءة أقوال النبي إبراهيم عليه السلام.. لقد سهل اليوم التذبذب بين

(١) **البخاري**، تفسير سورة (١٧) ٥؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦–٣٢٧

الصدق والكذب، لذا يجب الحذر تماماً حتى من تجويز استعمال "التعريض" اليوم، ذلك لزيادة الكذب وفشوه في أيامنا الحالية، ولما كانت هذه هي الحال فيجب الحذر حتى في المواضيع الثلاثة التي أجاز النبي ﷺ الكذب فيها،[١] ذلك لأنه كانت هناك هوة واسعة بين الصدق والكذب في العهد النبوي.. كان الصحابة يمثلون الصدق وكان مسيلمة وأتباعه يمثلون الكذب، كانت هذه هي المسافة الموجودة سابقاً، أما الآن فالوضع مختلف.

أجل، إن الذين يمتاون الحق يجب ألا يعطوا للكذب أي مجال سواء في حياتهم الفردية أم في حياتهم الاجتماعية، فهذا هو الشرط الأول للوصول إلى موضع الثقة والأمن، يجب أن نبتعد نحن عن الكذب ويبتعد عنا الكذب، فإذا كنا نبدي كل هذه الحساسية في هذا الموضوع، إذن، فخمنوا الحساسية التي يبديها الأنبياء عليهم السلام في هذا الخصوص وهم الذين تعلمنا الصدق منهم، خاصة إن كان هذا النبي هو النبي إبراهيم عليه السلام جد نبينا محمد ﷺ.

ب – " بل فعله"

والتعريض الثاني هو: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قَبْلُ وكنا به عالمين ۞ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ۞ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ۞ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ۞ قالوا أجئتَنا بالحق أمْ أنت من اللاعبين ۞ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ۞ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين ۞ فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يَرجعون ۞ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ۞ قالوا سمعنا فَتًى يَذكرهم يُقال له إبراهيم ۞ قالوا فَأْتوا به على أَعْيُنِ الناس لعلهم يَشهدون ۞ قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ۞

---

(١) «المسند» للإمام أحمد، ٦/٤٥٤؛ «كنز العمال» للهندي ٣/٦٣٢-٦٣٣

فقد ورد في الحديث «لا يصلح الكذب إلا في إحدى ثلاث. الرجل يكذب على امرأته ليصلح خلقها، ورجل يكذب ليصلح بين امرأيين مسلمين، ورجل كذب في خديعة حرب فإن الحرب خدعة.»

قال بل فعله كبيرهم هذا فسْئلوهم إن كانوا يَنطقون﴾ (الأنبياء: ٥١-٦٣).

يُسأل إبراهيم عليه السلام: ﴿قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ فيجيبهم: ﴿بل فعله﴾ ويسكت هنا، وفي القرآن الكريم علامة وقف هنا، أي يتم الوقوف هنا في التلاوة، والضمير (ـه) يعود إلى نفسه أي إبراهيم، ولكنه استطاع بمهارة حديثه توجيه أنظارهم إلى الصنم الكبير. والحقيقة أنه نطق هنا بجملتين مختلفتين، ولكن عند التلفظ بهما أصبحتا وكأنهما جملة واحدة، لذا فلم يستطيعوا فهم مراده الحقيقي. فالجملة الأولى هي: ﴿بل فعله﴾ والثانية هي: ﴿كبيرهم هذا﴾ ولكنه عندما ربط الجملتين أصبحتا وكأنهما جملة واحدة: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وهنا يكمن التعريض، ويكمن هنا أيضا استهزاء خفي من الكفر ومن عبادة الأصنام عندما قال: ﴿كبيرهم هذا﴾ ولكن عقولهم كانت مشبعة بفكرة الأصنام إلى درجة لم يفهموا معها سخريته هذه، فبما أنه أشار إلى الصنم وذكر أنه "كبير"، إذن، كان هذا كافيا بالنسبة إليهم ولا يهمهم بعد ذلك قصده ونيته.. ويل لعبادة الأوثان! ويل للتحجر الفكري! ويل للأذهان الضامرة والصدور المنغلقة دون النور الإلهي!

جـ - "أختي"

لا توجد في الحادثة الثالثة ذرة من الكذب، بل لا يمكن حتى إطلاق كلمة "التعريض" على كلامه، فهو كلام صحيح وصادق تمام الصدق، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمروذ ولرجاله إن سألوها "إنني أخته"، ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال "إنها أختي"، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لو قال إنها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد، وربما اضطرا إلى ترك تلك البلاد والرحيل عنها، غير أن ما قاله إبراهيم عليه السلام مطابق للحقيقة، ذلك لأن جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات: ١٠)، والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين، وفي غياب وجود هذه العلاقات فإن الذين يولدون من أب واحد وأم واحدة

لا يُعدون إخواناً، واختلاف الزمان والمكان لا يكون حائلاً بين أخوة الإيمان، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دون أي تفرقة بين ذكر وأنثى، أما نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمن بتطليق زوجته انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكن رابطة الإيمان تبقى موجودة. فالنبي إبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة وإلى هذه الرابطة وقال عن زوجته إنها أخته، وهذه الكلمة تفيد عين الحقيقة حتى أنها لا تُعد تعريضاً، غير أن الذين في أعينهم غشاوة وفي قلوبهم أكنة لن يفقهوا هذا أبداً. ما نستفيده نحن من هذا الموضوع:

١- إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب أبداً.

٢- يجب على الذين يسيرون في طريق الأنبياء وفي أثرهم ألا يكذبوا ولا يقتربوا من الكذب، والمؤمن الحقيقي يحس بآلام الضمير طوال عمره من منظر حرام تعلق بنظره، أو من كذب جرى على لسانه مرة، بل يذرف الدموع أسفاً وندماً.. وعلى المرشدين -مهما كانت مراتبهم ودرجاتهم- أن يقضوا حياتهم باستقامة ودون انحراف.

٤- استغفاره لأبيه

والآن لنلق نظرة على زلة إبراهيم عليه السلام عندما قام بالاستغفار لأبيه. فلماذا استغفر لأبيه الذي كان على ضلال مبين، ولماذا تضرع لله تعالى أن يغفر له؟ ألم يكن من الأولى لنبي مثله الاكتفاء بالذين آمنوا برسالته؟ ولماذا أصر في موضوع والده كل هذا الإصرار وتضرع إلى الله تعالى أن يغفر له؟ أكان هذا خطأ منه؟ وكيف نستطيع أن نعزو الخطأ إلى نبي معصوم؟ وإذا أخطأ هنا فما الضمان أنه لم يخطئ في مواضيع أخرى؟ وكيف نعرف ذلك؟ أنستطيع بعد معرفة ذلك من اتباعهم بقلوب مطمئنة؟

هذا هو أساس الشبه التي أوردها الملاحدة السابقون ويورده اليوم بعض أصحاب الشكوك والشبه من المتظاهرين بالمعاصرة. قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿واغفر لأبي إنه

كان من الضالين﴾ (الشعراء: ٨٦). ويشرح القرآن الكريم السبب الذي دعا إبراهيم إلى هذا الدعاء: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ (التوبة: ١١٤).

كما يشرح القرآن كيف أعطى إبراهيم الوعد لأبيه فيقول: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ (الممتحنة. ٤).

هنا دلالة واضحة جداً على وحود عداوة أبدية بين الكفر والإيمان، ففي روح الكفر هناك بغضاء نحو الإيمان كطبيعة في الكفر لا يمكنه الفكاك منه، لذا تكمن هنا عداوة الكافر للمسلم واستحالة محبته.

يبين القرآن الكريم ضلال أب إبراهيم عليه السلام، وهذا الضلال لم يكن ليشكل نقيصة في حق إبراهيم عليه السلام، إذ يمكن القول بوجود أناس لم يصلوا إلى نور التوحيد من بين أجداد رسول الله ﷺ كذلك، ولا يدري أحد ماذا كان موقف عبد المطلب أو هاشم أو لُؤَيّ من عقيدة التوحيد، ولكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أنهم عاشوا في عهد "الفترة" وأنهم سيعاملون على هذا الأساس، ومع ذلك فإن احتمال وجود أي قصور فيهم لا يمكن أن يشكل مانعاً من تكليف رسولنا ﷺ بالرسالة الإلهية إلى البشرية.

أولاً: ليكن معلوماً أن كان آزر أبا لإبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم عليه السلام يقول إنه على ضلال مبين، فلا يقدح هذا في نبوته، فالله تعالى يخلق أحياناً من آزر أمثال إبراهيم عليه السلام ومن نوح عليه السلام أمثال كنعان.. أجل، فمن أناس مثل الشياطين سوءاً قد يأتي أشخاص كالملائكة صفاء ونقاء.. والعكس وارد أيضاً، فالله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فقدرته تسع كل شيء وليس من حد أحد محاسته.. أجل، لقد خلق من شخص

ميت مثل آزر شخصاً حياً مثل إبراهيم عليه السلام -الذي كان ينفخ الحياة في الناس- ويجعله أبا لسلسلتين ذهبيتين، فابنان من أبنائه من الأنبياء. فبينما وقفت سلسلة ذرية ابنه إسحاق عليه السلام عند النبي عيسى عليه السلام استمرت سلسلة إسماعيل عليه السلام حتى رسولنا الكريم ﷺ.

ثانياً: إن دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه شيء إنساني وفطري تماماً، لذا نرى نبينا وهو يدعو عمه أبا طالب إلى كلمة التوحيد ويتلهف لهدايته، وبعد أن مات عمه قال الرسول ﷺ: «أما واللهِ لأستغفرَنَّ لك مالم أُنْهَ عنك»[1] علماً بأن عمه عاونه مدة أربعين عاماً وتحمل معه جميع المشاق والصعاب حتى أنه لم يتركه وحيداً عندما أعلنت قريش مقاطعة المسلمين.. فكما كان من الطبيعي ومن الفطري تلهف الرسول ﷺ لهداية عمه الذي حماه طوال حياته وآزره، كذلك كان من الطبيعي قيام إبراهيم عليه السلام بالاستغفار لأبيه، ذلك لأن والده هو سبب وجوده والذي وقام بتنشئته، ثم إن الدين يأمر ألا يقول الابن لوالديه -مهما كانت عقيدتهما- كلمة "أف".[2]

ثالثاً: التبليغ هو غاية وجود الأنبياء، ولكنهم لا يملكون الهداية. مهمتهم تبليغ الحق والحقيقة على الدوام واستعمال كل وسيلة مشروعة في هذا الصدد. لذا، كان إبراهيم عليه السلام يبذل جهده لتليين قلب والده تهيئة له لقبول الهداية، لذا فالمحتمل أن وعده بالاستغفار له كان من أجل هذه الغاية، ذلك لأن الدعاء وسيلة من وسائل الهداية وليس من الصحيح الوقوع في اليأس من هداية أي شخص.

يجب ألا يكون هناك يأس لأنه مع أن الآية الكريمة: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة: ٦) صريحة أن بعض الكفار لن يستطيعوا الوصول إلى الهداية فإن نبينا ﷺ كرر محاولاته مع كفار عنيدين أمثال أبي جهل وأبي لهب

---

(١) **البخاري**، الجنائز، ٨١، مناقب الأنصار، ٤٠؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٩؛ **النسائي**، الجنائز، ١٠٢

(٢) قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾ (الإسراء: ٢٣).

وابن أبي مُعيط ودعاهم مرة بعد مرة إلى الهداية.. إذن، فالهداية في يد الرحمن وكان إبراهيم ﷺ يؤمن بهذا، لذا جرب كل وسيلة مع والده حتى وسيلة الدعاء.. أجل، هذا هو سبب دعائه وتضرعه لله تعالى من أجل والده، إذ كان إيمانه بالله تعالى من درجة ومرتبة الاطمئنان، لكنه ما إن عرف المشيئة الإلهية حتى تخلى حالاً عن دعائه وفوض الأمر كله لله تعالى.

ثم إن إبراهيم ﷺ أتى في السبيل الممتد حتى رسولنا ﷺ وكلف بحمل رسالة النبوة. كانت وظيفته هي القيام بتبليغ قومه جميعاً، ولم يكن هناك أي سبب يدعوه لاستثناء أبيه، فإذا أضفت إلى هذا الميل الفطري رأيت أن كونه ابناً ونبياً في الوقت نفسه كان يدفعه إلى الإصرار في محاولة هداية أبيه، وعندما نقرأ القرآن الكريم نلمس مدى لهفة إبراهيم ﷺ ورغبته في هداية والده وعدم اهتمامه بالخشونة التي يواجهها من قبله مع الدوام أن يخاطبه على الدوام بقلب متوله: "يا أبت.. يا أبت..":

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صِدّيقاً نبياً ۞ إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ۞ يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ۞ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ۞ يا أبت إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ (مريم: ٤١-٤٥).

أجل، كان إبراهيم ﷺ يقدم لأبيه رسالته النورانية مثلما يقدمها للناس أجمعين، وهل هناك ابن لا يود من أعماق قلبه هداية أبيه إلى الحق ولا يسعى إلى ذلك بكل جهده، لاسيما إن كان شخصاً مثل إبراهيم ﷺ الحليم.. الأواه.. المنيب؟

رابعاً: يرى بعض المفسرين أن كلمة "أب" تأتي في اللغة العربية بمعنى "الجد" و"السلف"، لذا يقولون إن هناك احتمال بأن الذي خاطبه إبراهيم ﷺ بـ"يا أبت" ليس أباه، بل هو جده أو عمه أو قريب آخر من أقربائه،[١] وقد أتى جمع كلمة "أب" وهي "آباء"

(١) «**مفاتيح الغيب**» لفخر الدين الرازي ١٣/٣٧-٤٠؛ « **روح المعاني**» للآلوسي ١٦/٩٦

بمعنى "الأجداد" و"الأسلاف"، فمثلاً قول يوسف عليه السلام: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ (يوسف: ٣٨)، فكلمة "آبائي" تأتي هنا بمعنى "أجدادي"، كما أن تعبير "آبائنا الأولين" يرد كثيراً في القرآن الكريم. فإذا كان هذا هو الأمر فيجوز أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ابن آزر بل حفيده أو ابن أخيه حتى أن هناك رواية بأنه كان ابن تارح[1] وقد يكون ابن شخص آخر. فإذا كانت الاحتمالات واسعة بهذا الشكل، علمنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن بالشخص الذي يستغفر لأبيه بعد أن تبين له ضلاله، والقرآن الكريم ينقل لنا دعاء آخر له: ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ (إبراهيم: ٤١).

فإذا تطلعنا إلى الموضوع من هذه الزوايا نرى بوضوح مدى طهارة ونزاهة ونقاوة إبراهيم عليه السلام ومدى معصوميته وعدم اقترابه من اقتراف أي ذنب ومدى عظمته كنبي.. لقد نطق بالحق على الدوام، وكان بجانب الحق دائما.

كان إبراهيم عليه السلام إنسان التوحيد، ورمزاً للتسليم المطلق ﷺ، لذا أهديت أليه صفة "الخِلّة"، والآية: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (النساء: ١٢٥) تشير إلى هذه الخلة، فلم ينحرف قيد شعرة عن أي أمر من أوامر الله تعالى، فلما قيل له اذبح ابنك، لم يتردد في ذلك لحظة واحدة،[2] وعندما أمر أن يصطحب زوجته وابنه ثم يتركهما وسط صحراء موحشة لم يتردد في تنفيذ هذا الأمر، تركهما في الصحراء وانصرف دون أن يلتفت ويلقي نظرة وراءه،[3] وفي مرة أخرى امتحن بحياته وبنفسه، إذ ألقي داخل نار جهنمية،

---

(١) **«مفاتيح الغيب»** لفخر الدين الرازي ١٣/٣٧-٤٠؛ **«تفسير البيضاوي»** للبيضاوي ١/٣٠٧-٣٠٨؛ **«البداية والنهاية»** لابن كثير ١٠/١٦٣-١٦٤

(٢) قال تعالى: ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ۞ فلما أسلما وتلّهُ للجبين ۞ وناديناه أن يا إبراهيم ۞ قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ۞ إن هذا لهو البلاء المبين ۞ وفديناه بذِبْح عظيم ۞ وتركنا عليه في الآخرين ۞ سلام على إبراهيم ۞ كذلك نجزي المحسنين ۞ إنه من عبادنا المؤمنين﴾ (الصافات: ١٠٢-١١١).

(٣) انظر هذه الآية: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم: ٣٧)؛ وانظر أيضا: **البخاري**، الأنبياء، ٩

ولكنه لم يقلق ولم يضطرب أقل اضطراب. ويروى أن ملكاً جاءه يعرض عليه مساعدته فرفض إبراهيم عليه السلام مساعدته قائلاً: "يكفيني أنه يعلم"، لذا كان جزاء مثل هذا الاستسلام المطلق أن الله تعالى جعل تلك النار برداً وسلاماً عليه.[١]

إذن، فإبراهيم عليه السلام كان نبياً بهذا المستوى، وكانت علاقته بربه هذه العلاقة الرفيعة، لذا فالتفكير باحتمال اقترافه أي ذنب ليس إلا عدم معرفة هذا النبي الكريم على حقيقته وجهل به.

أجل، لقد كان أنموذجاً للرحمة وللشفقة، وانطلاقاً من رحمته الواسعة وشفقته العميقة أراد هداية أبيه، ولكنه عندما عرف الماهية الحقيقية لوالده تبرأ منه، وفي رواية أن الله تعالى سيقلب والده يوم القيامة إلى ذيخ[٢] ملتطخ، وعندما ينظر إبراهيم عليه السلام إلى هذا المنظر يتخلص من علاقته الفطرية بوالده،[٣] والله أعلم.

د- يوسف عليه السلام رمز العفة

التوراة مملوءة بالافتراءات على يوسف عليه السلام، فلم يبق هناك افتراء إلا وألصقوه به، حتى نزلوا به إلى مرتبة إنسان عادي، بينما كان نبياً طاهر السيرة والصورة، وكان -ككل الأنبياء الآخرين- مزيناً بزينة العصمة.

غير أن علينا أن نعترف بكل أسى بأن بعض المفسرين تأثروا بالتوراة أو بمعنى أعم بالإسرائيليات، واقتبسوا منها فأسندوا إليه مالا يصح الإسناد إلى نبي معصوم. أما نحن فسنتناول عصمة يوسف عليه السلام -مثلما تناولنا الأنبياء الآخرين- من الآيات القرآنية، وعلى ضوئها سنحاول أن نصل إلى عصمته، وليست محاولتنا هذه سوى إظهار ما هو موجود فعلاً في

---

(١) انظر هذه الآية: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (الأنبياء: ٦٩)؛ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ١١/٣٠٠-٢٠١؛ «**الدر المنثور**» للسيوطي ٣٢٢/٤

(٢) **ذيخ**: هو ذكر الضبع الكثير الشعر. **ملتطخ**: متلوث بالدم ونحوه.

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٨

الآيات بشكل واضح، فأي شخص عادي يستطيع فهم هذا من قراءته لسورة يوسف بشرط أن يدرك معاني الآيات، ويكفي هنا ألا ينظر إلى هذا الموضوع بفكرة مسبقة لديه.

ألقي النبي يوسف عليه السلام في البئر من قبل إخوته، ثم بيع عبداً حيث اشتراه وزير في مصر واعتنى به ورباه في بيته كابنه، ولكن عندما أُصبح شاباً بدأت زوجة الوزير تحمل تجاهه مشاعر خاصة، وأخيراً غلقت الأبواب في يوم من الأيام -كما يذكر القرآن- وأرادت وصاله.. ارتجف يوسف عليه السلام من هذا الطلب الذي لم يخطر بباله في يوم من الأيام، فأسرع يهرب منها، ولكنها وصلت إليه وقدّت قميصه من الخلف، وما أن انفتح الباب حتى رأيا سيدهما هناك، وهنا امتحن يوسف عليه السلام امتحاناً آخر، إذ لجأت الزوجة إلى الافتراء عليه وقالت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءً﴾ (يوسف: ٢٥).

والآن لننقل ما جاء في هذا الخصوص في القرآن الكريم: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ (يوسف: ٢٣).

أولاً: لا يقوم القرآن بالاغتياب، إذ لا يذكر اسم المرأة، بل يذكر فقط أنها ربة ذلك البيت. والمرأة هي التي قامت بغلق الأبواب، وكانت الدعوة -بكل ما تحمل من إغراء وفتنة- صادرة منها، فيأتي الجواب من رمز العفة: "معاذ الله"، فيكون يوسف عليه السلام بذلك رمزاً للعفة أمام جميع الشباب حتى يوم القيامة وقدوة لهم.

والآية صريحة تماماً في بيان الرد القاطع الذي رد به يوسف عليه السلام. فمن كان المقصود عندما قال يوسف عليه السلام ﴿إنه ربي...﴾ إما أنه كان يقصد الله تعالى ويرى في اقتراف الإثم جحوداً لكل النعم التي أسبغها الله تعالى عليه، إذ لا يمكن أن يصل الجاحدون إلى الفلاح أبداً، وإما أن يكون المقصود هو زوج المرأة تلميحاً إلى قوله لامرأته ﴿أكرمي مثواه﴾، فهذا الزوج أحسن كثيراً إلى يوسف عليه السلام فكيف يمكن له أن يقابل كل هذا الإحسان بالجحود والعقوق؟

هنا توجد نقطة مهمة يجب الالتفات إليها، إذ أن هروب يوسف عليه السلام من الإثم لم يكن بسبب النعم التي أسبغها الله تعالى أو إكرام زوج المرأة مثواه.. فهذه تشكل إحدى أسس المسألة فقط، وتقريب للموضوع إلى مستوى عقلية تلك المرأة ومستوى فهمها، إذ أن سبب ابتعاده عن الإثم يختبئ تحت الجملة الأولى التي نطق بها وهي "معاذ الله" أي ألتجئ إلى الله.. أي أن سبب تهربه من الإثم يعود إلى خشيته من الله تعالى، وهذا هو التقوى المقبول.

ثم إن يوسف عليه السلام كان على علم بالنتيجة التي سيولدها الإثم.. فالإثم ظلم وتجاور للحد ودخول إلى دائرة مفرغة وفاسدة، والنتيجة هي الخسران في الدنيا وفي الآخرة.

والآية التي أدت إلى سوء فهم موقف يوسف عليه السلام هي الآية التي أتت بعد تلك الآية مباشرة، وهي: ﴿ولقد هَمَّتْ به وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ (يوسف: ٢٤). وقبل تفسير الآية علينا أن نقف عند معاني بعض الكلمات فيها. الكلمة التي أدت إلى سوء الفهم هي كلمة "همّ".

هذه الكلمة فعل ماض ولها معان عديدة، حيث يُختار المعنى الأنسب بالنسبة لموقف الفاعل، وهنا قاعدة في علم اللغة تقول بوجوب اختيار المعنى الأساسي والحقيقي للكلمة إن لم يكن هناك دليل مناقض لهذا المعنى، ولم يكن هناك تناقض مع الموضوع المنوه عنه، أي يُختار المعنى الأول للكلمة. والمعنى الأول الذي يعطيه علماء اللغة —مع وجود بعض الفروق الإقليمية— لهذه الكلمة هو: قَلِق وحزن، ومصدره الهَمّ، ومعنى قَلِق أو أقلق هو الوقوع في اضطراب قلبي، وفي الغم وفي الحزن الشديد. فإن نسبنا هذا الفعل إلى زليخا لكان معنى "همت" أنها حزنت من جرّاء يوسف عليه السلام وقلقت بصدده وداخلها حزن كبير بسببه.

ثم إن يوسف عليه السلام قلق وحزن واغتم أيضاً، ذلك لأنه كان بمثابة أسير في ذلك البيت، فلو هرب منه لقبض عليه وأعيد إلى البيت، ثم إن هذه المرأة أصبحت مسلطة عليه، إذن، فكما كان يوسف عليه السلام مصدر حزن لها لأنها كانت تشتعل غراماً به، فإنه

كان قلقاً ومغتماً باسم عفته وعصمته. ولم يـزل قلقـه حتـى رأى برهـان ربـه وعلـم أنـه في حفظ الله تعالى ورعايته وأنه لن يسمح لأحد أن يلوثه، لأن الله جعله في حرز حريز بكل البراهين التي أحاطه بها. ولكنـه حتـى حصـول هـذا العلـم وهـذا اليقين عنده فقـد قضـى أوقاتاً عصيبة.. ويجب إمالة النظر في التفاسير من هذه الزاوية.

ثانياً: كانت زليخا قد عقدت عزمها ورسمت هدفها.. يجب أن يكـون يوسـف عليه السلام لها.. كانـت غايتهـا هـي هـذه.. وهنـاك آية أخـرى تشـرح وضعهـا: ﴿قـد شـغفهـا حبـاً﴾ (يوسف: ٣٠) أما موقف يوسف عليه السلام فهو: ﴿كذلـك لنصـرف عنـه السـوء والفحشـاء إنـه من عبادنا المُخلَصين﴾ (يوسف: ٢٤)، وكلمة "المُخلَصين" في الآية كلمة مهمة جداً.. هنـاك "المخلِص" و"المُخْلَص".. ويوسف عليه السلام من المُخْلَصين.. فكل نبي يكون مُخلَصاً.

المُخْلِص هو صاحب الإخلاص، أي هو الذي يعمل كل شيء في سبيل الله تعالى وفي سبيل نيل رضاه وحده، ولكـن يوسـف عليه السلام كـان آنـذاك في مرحلـة البحـث ولا يـزال في الطريق، أو بالتعبير الصوفي لا يزال في مرتبة "السير إلى الله"، وعندما يسير إلى الله يدخـل في نضال للمحافظة بعمله وبتصرفاته وبسلوكه على استقامة السير وعـدم الانحـراف عـن الوجهة الصحيحة.

أما "المُخلَص" فهو الشخص السامق القامة الذي تخلص نهائياً من أي قلق وتربـع علـى ذروة الإخلاص، فقد أتم قطع الطريق الـذي يسـلكه "المخلِص" مـن زمـان، وهـو الآن في مرتبة "السير من الله".. مثل هذا الشخص تخلص نهائياً من الزلل والورطات التي يقع فيها أمثالنا.. ويوسف عليه السلام من هذا النوع ومن هذه المرتبة. إذن، فكيف يمكن إسناد تصـرف أو سلوك إلى يوسف عليه السلام المُخْلَص مع أن هذا التصرف لايليق حتى بالمُخْلِص؟!

جاء في سورة يوسف أن النبي يوسف عليه السلام –بطل هذه السورة– مـن أهـل الإحسـان في خمسة مواضع، وهذا يعني أن الأرض والسماء.. الصديق والعدو.. الخالق والمخلوق.. الكل يشهد على يقينه وعلى قيامه بمحاسبة نفسه ومراقبتها.

عندما بلغ يوسف عليه السلام أشده ورشده أشار الله تعالى إلى صفة وشعور الإحسان عنده فقال: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ (يوسف: ٢٢). وفي السجن عندما اكتشف الجميع –الشقي منهم والسعيد– عمق أفق تفكيره وطهره وعلمه اللدني قبلوه مرجعا لهم، فأقبلوا عليه مؤمنين به وبكلامه عارضين عليه مشاكلهم: ﴿نبِّئْنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ (يوسف: ٣٦).

خرج بنجاح من كل امتحان دخله. لذا، يمدح الله تعالى رمز الرجولة هذا الذي استطاع التربع على عرش قلوب الأصدقاء والأعداء على السواء، ولم يستطع أي شيء تعيير سلوكه وتصرفه تجاه الدنيا وزينتها: ﴿وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نُضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف. ٥٦). وهكذا يبشره ربه ويقدم له ضمانا إلهيا.

وعندما جاء اليوم الذي استطاع فيه إخوته –الذين كان الحسد قد ملأ قلوبهم حتى آنذاك– التخلص من جو الحسد المحيط بهم قالوا: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ (يوسف: ٧٨).

وأخيرا عندما وصل يوسف عليه السلام إلى ذروة النضوج والاطمئنان أشار إلى نعم الله تعالى عليه وفضله فقال: ﴿إنه مَن يتقِ ويصبرْ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف: ٩٠). أجل، مثل هذا الإنسان الذي حاز على حسن شهادة الجميع لا يمكن –حسب السنن الإليهية– أن يكون معرضا للانحراف، ولا للتذبذب بين الهبوط والسمو ولا للحرمان.

نعم يعده الله تعالى من المحسنين. وبينما نصل نحن إلى العمل عن طريق الإيمان، وعن طريق العمل إلى الإيمان الحقيقي، وفي نهاية الطريق نستطيع الوصول إلى مرتبة الإحسان.. هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة نصل إليها نرى أن هذه المرتبة هي المرتبة الأولى التي يخطو منها الأنبياء، أي هي خطوتهم الأولى في طريق سيرهم.

والإحسان الذي يشرحه الرسول ﷺ: «الإحسان أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن

تراه فإنه يراك.»[١] هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة لنا هي المرحلة الأولى للأنبياء، لذا يجب النظر في الأمور من هذه الزاوية وتقييم الأمور على ضوئها، ولكن إن قمنا بقياس الأنبياء مع أنفسنا وقعنا في أخطاء عديدة ولم نصل إلى الحقيقة.

كانت زليخا ويوسف عليه السلام ينتسبان إلى عالمين مختلفين تمام الاختلاف.. أحدهما قد غلب عليه الغرام والهيام، قد شلت إرادته فلا تري عينه شيئا آخر.. إنسان يعيش عالم أحاسيسه ومشاعره.. بينما الإنسان الآخر إنسان يرنو ببصره إلى عالم آخر.. نبي مُحسن مُخلص.. إنسان قد فرد جناحيه ليطير في عالم آخر.

لكلا هذين الإنسانين تم استعمال كلمة "هم".. ولكن معنى هذه الكلمة يختلف باختلافهما وباختلاف هدف وغاية كل منهما. أجل، ينبغي إعطاء معنى مختلف باختلاف مستواهما من ناحية الروح والثقافة والعلم.

ثم إن الاختلاف الموجود بينهما سيظهر إلى السطح من اللوحة التي ستتبين بعد قليل.. يوسف يسرع نحو العفة والطهارة، وزليخا نحو الشهوة والإثم. كانا يتسابقان.. يوسف يهرب وهي تلاحقه، ولو كان لدى يوسف عليه السلام أي ميل للإثم لما كانت هناك مثل هذه المطاردة.. إذن، كان هدف يوسف عليه السلام وغايته شيئا آخر.. كان متوجهاً نحو غاية سامية.. وعندما أمسكت زليخا بثوبه تريد منعه من الخروج من الغرفة تمزق ثوب يوسف عليه السلام من الخلف، ولكنه استطاع فتح الباب والخروج من الغرفة والمرأة في أثره، وهنا وجدا الوزير أمامهما، فلم تجد المرأة التي فوجئت بهذا سوى الدفاع عن نفسها والافتراء بأن يوسف عليه السلام كان يحاول الاعتداء عليها، ولكن زوجها لم يقنع بكلامها لوجود شاهد صامت هناك، هذا الشاهد مع صمته كان باستطاعته إفحام أبلغ البلغاء، وهو الثوب الممزق ليوسف عليه السلام.. كان الوضع واضحاً لقريب من أقربائها المتواجد هناك، بل واضحاً حتى لطفل صغير.. لقد وضح الأمر، فيوسف عليه السلام بريء لأن قميصه كان

---

(١) البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ١٥٠؛ الترمذي، الإيمان، ٤

متمزقاً من خلف، ولو كانت المحاولة من قبله وقاومت المرأة لكان من المفروض تمزق قميصه من أمام.. كان هذا أحد البراهين التي رآها يوسف عليه السلام من ربه الذي حفظه بهذا القميص الممزق، ومهد له السبيل للمستقبل المشرق الرائع.

أي كان "همّ" يوسف عليه السلام متجهاً لحبيبه، و"همّ" زليخا متجهاً لحبيبها.. لذا، تورط كثير من المفسرين في خطأ كبير عندما لم يميزوا الفرق الكبير بين "همّ" نبي كريم يعيش تحت رقابة دائمة لله تعالى، وبين "همّ" امرأة أعمت الشهوة عينيها، ووضعوا كليهما في كفة واحدة وكأن تفكير كليهما كان محاطاً بستار كثيف من الشهوة الجسدية، وأنا أرى ضرورة إعادة النظر في جميع التفاسير والشروح والتعليقات غير المستندة إلى الكتاب والسنة، ومثل هذا التصحيح سيُرضي حتى أولئك المفسرين حسني النية الذين كانوا ضحية للإسرائيليات، فمن يدري كم من فيوضات حرموا منها بسبب أخطائهم هذه.

أجل، إننا موقنون بأن الذين يقيمون الأنبياء وكأنهم أشخاص عاديون سيحرمون من جوهرهم المعنوي ومن أنفاسهم التي تنفث الحياة.

أما ما قيل بأن يوسف عليه السلام مال إلى دعوة زليخا وهم باقتراف الإثم إلا أنه رأى أباه يعقوب عليه السلام وهو يعض على إصبعه محذراً يوسف فهو سفسطة وأسطورة وقصة مختلقة ومن قصص الإسرائيليات الموجودة في الكتب المحرفة ويجب طرح مثل هذه القصص المختلفة من كتبنا.

يقول الوليّ الكبير "عبد العزيز الدبّاغ" في شرح آية ﴿ولقد هَمَّتْ به وهَمَّ بها﴾ بأن زليخا همت لتحقيق غايتها، وهمّ يوسف عليه السلام بمنعها، ربما بضرب زليخا ورفع يده عليها،[1] ولهذا الولي كثير من الالتفاتات الرائعة والدرر النفيسة الأخرى.

ثم كيف يمكن تصور شيء آخر لمن قال الرسول ﷺ في حقه: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله.»[2] جده

(١) «**الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ**» للسيد أحمد بن المبارك ص٢٦٢

(٢) **البخاري**، الأنبياء، ١٩، المناقب، ١٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٩٦، ٣٣١

الكبير هو إبراهيم عليه السلام وجده إسحاق عليه السلام ووالده هو يعقوب عليه السلام.. إذن، فهذا هو يوسف عليه السلام الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم. فالرسول ﷺ أشار إلى المرتبة التي يشغلها يوسف عليه السلام وهي مرتبة لا يبلغها حتى خيالنا. وبينما لا يخطر على بالنا -نحن الأشخاص العاديين- مثل هذا الإثم الكبير، كيف يمكن لنبي طاهر وسليل نبوة طاهرة أن ينزل إلى متل هذا المستوى؟ هذا شيء لا يتصوره العقل ولا المنطق.

وعندما زادت فتن النساء وألاعيبهن تجاه هذا النبي التجأ إلى ربه: ﴿قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ (يوسف: ٣٣)، أي رضي بعفونة السجن وظلمته وحياته القاسية وفضّلها على حياته في ذلك القصر الفخم والأثاث الفاخر. إذن، ألا يكفي قضاؤه ما يقارب التسع سنوات في عذاب السجن ومحنته في سبيل المحافظة على عفته وطهارته دليلاً على عصمته؟ هؤلاء النسوة اللاتي فتن به وقطعن أيديهن أمام حسنه الباهر.. هؤلاء النسوة اللاتي حاولن إحراج موقفه بنشرهن خبر تعلق زليخا به وعشقها له، كما طرقن أبواب حيل أخرى للتقرب إليه.. غير أنهن وجدن كل مرة أمامهن هذا الشاب المؤمن الذي قُدت إرادته من الجرانيت، ولم يستطعن الحصول منه على أي شيء.

التجأ إلى ربه وسأله الحماية، فاستجاب له ربه وحفظه منهن ومن كيدهن داخل جدران السجن الآمن، وأصبح السجن منذ ذلك الوقت يستقبل الدعاة إلى الله وإلى القرآن.. أي أصبح "مدرسة يوسفية".

كان حرصه على عفته شديداً إلى درجة أنه عندما جاء وقت إطلاق سراحه من السجن رفض الخروج حتى يتثبتوا تماماً من عفته، وحتى يقوم الدليل القاطع على طهارته، ذلك لأن العيش طاهراً ونقياً شيء، وإثبات ذلك الطهر والنقاء شيء آخر، لأن ذلك كان ضروريا لمهمته في المستقبل.. رفض الخروج من السجن حتى قامت زليخا بالاعتراف على الملأ وأقرت كيف كان أنموذجاً للعفة. إذن، فماذا نقول لمن يريد إسناد اقتراف الذنب لهذا النبي الكريم حتى بعد قيام زليخا بالاعتراف بذنبها؟

الفصل الثالث: عصمة رسولنا ﷺ

كل الأنبياء معصومون، أما سيد الأنبياء فهو أسمى حتى من العصمة.. ذلك لأنه كان سلطان الأنبياء وغاية الخلق، وأحب الخلق لله تعالى.. لقد أرسل كل نبي لفترة من الزمن ولمكان معين، بينما أرسل للناس كافة حتى قيام الساعة.. كانت هناك حاجة لقافية شعر الأنبياء، فجعل الله تعالى أحب مخلوقاته قافية هذا الشعر ووضعه البلبل الغرير في سماء النبوة.(١)

أجل، لم يشرح أي نبي مثله معنى الوجود شرحاً جامعاً وعاماً وكلياً، لأن ذلك لم يكن من مهمتهم، لأن العلوم لم تكن قد تقدمت في أزمانهم ولم يدقق الوجود تدقيقاً جيداً.. كان ذلك مقدّرا لعصر الرسول ﷺ وللعصور التي ستأتي فيما بعد، فلم يحدث أي تناقض بين ما قاله وبين العلم الصحيح والاستكشافات العلمية.

كان كل نبي نجماً مضيئاً، ولكن رسول الله ﷺ كان شمساً ساطعة اختفت أضواء جميع النجوم أمام ضيائها، وما أجمل ما قاله البوصيري عنه:

فإنه شمس فضل هم كواكبها يُظهرن أنوارها للناس في الظُلَمِ

لذا، فهو أمير المعصومين وملكهم.. فاقت عصمته عصمتهم وعفته عفتهم. لم يجد ألد أعدائه ما يقولونه من طعن حقيقي في حقه، قال عنه خصومه بأنه "مجنون".. ولو قالوا عنه إنه متوله بحب الله.. ذائب في وجده لصدقوا.

قالوا عنه إنه ساحر.. ذلك لأن الإنسان -مهما كان عنيداً- كان يذوب في حضرته ويحس أن جيمع ركائز كفره وأسسه تهتز وتتقوض.. كم من شخص أُخذ بسحر بيانه فبذل في سبيله كل ما يملك، فكان تفسير هذه الظاهرة من قبل الكفار الذين طمست على قلوبهم "لا شك أنه ساحر".. كانوا غافلين عن قدرة الإيمان وقوته وعن تجلي الكمال وجاذبية الجمال.

---

(١) البخاري، التيمم، ١؛ مسلم، المساجد، ٣

قالوا إنه "كاهن" إذ رأوه وهو يخبر أخبار المستقبل حتى يوم القيامة، إذ لم يكونوا قد سمعوا مثل هذه الأقوال إلا من الكهان، ولكنهم لو دققوا قليلاً لاستطاعوا تمييز كلامه الصادق عن أكاذيب الكهنة.(١)

لو كان -حاشاه- مجنوناً لما كان على سطح هذه الدنيا عاقل واحد، أما السحر والكهانة وغيرهما من الأمور البعيدة عن الجدية كانت أبعد شيء عنه، ولا تر حتى في أحلامه وحتى أحلامه كانت جدية بقدر حياته الحقيقية، إذ أن أخبار الغيب التي كانت تهب عليه من العالم الآخر كانت تشكل بعض جوانب رسالته.(٢)

أجل، لقد قالوا كل هذه الأقوال المتعارضة مع العقل ومع المنطق في حقه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً حول عصمته وحول عفته ولم يتجاسروا على ذلك.، ذلك لأن أي كلام من هذا النوع كان يجعل صاحبه في وضع مخجل وفي وضع صعب، الأصدقاء والأعداء كانوا يعرفون هذا جيداً.

قام الآلاف من الناس والآلاف من الكتب بالحديث عنه.. كان فيهم مثل الفراشات التي تطير نحو النور وتطوف حولها، وفيهم من يشبه الخفافيش التي ترتعب من ضوء النهار، ولكن مع اختلاف هؤلاء في نظراتهم ومبادئهم وأديانهم فقد اتفقوا في شيء واحد، وهو إجماعهم على عفته وعصمته.

ونُعدّ نحن أيضاً -في معنى من المعاني- من الذين يطوفون حول هذا النور، وما كلامنا الدائم عن عفته وعصمته إلا لأداء دَيْن قول الحق والحقيقة حوله، ولكن علينا أن نعترف للذين يقرأون هذه الأسطر بألا يكتفوا بكلامي عن عفته وعن عصمته ﷺ، بل عليهم الرجوع إلى كتب السلف لكي تكون هـ ه الكتب والقلوب الصافية لمؤلفيها

(١) لتقصي الأوصاف التي أطلقها المشركون على النبي ﷺ انظر إلى «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٨٩/١-٢٩٠؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٧٨/٣

(٢) **البخاري**، التعبير، ٣-٤؛ **مسلم**، الرؤيا، ٦-٩؛ **أبو داود**، الأدب، ٨٨؛ **الترمذي**، الرؤيا، ١

مرشدة لهم.. هذه القلوب التي رأت دائماً الحق تعالى عنده، ولا غرابة في هذا، فرسول الحق تعالى لا يُعرف حق المعرفة إلا عند أمثال هذه القلوب.

أ- التنبيهات الواردة في حقه في القرآن

هناك بعض التنبيهات الموجهة مباشرة إلى رسولنا ﷺ في القرآن الكريم. وهذه التنبيهات قد تبدو في الظاهر وكأنها تمس عصمته، فقد يقول بعضهم: أيكون هناك تنبيه دون وجود خطأ؟ ولكننا نقول بإصرار -كما قلنا من قبل- بأن هذه التنبيهات لم تكن نتيجة اقتراف خطأ أو ذنب، بل ربما لقيامه -باجتهاد منه- باختيار الحسن مع وجود الأحسن، فمثله الذي هو رمز الجمال والحسن لا يجوز له إلا اختيار "الأجمل" و"الأحسن"، وليس "الجميل" و"الحسن".

وهذا يشبه قيامنا بشرب ماء نقي مع وجود ماء نبع أكثر نقاءً وصفاءً. أجل، يجوز تنبيه الأنبياء إن قاموا بشرب ماء زمزم مع وجود ماء الكوثر. وبينما نتعرض نحن لعتاب إن زلت قدمنا ووقعنا في هاوية الجحيم، يتعرض الأنبياء للعتاب وهم يسبحون في السماء إن غيروا مكانهم بعض التغيير. لذا، فلا يجوز أبداً تناول الأنبياء بمقاييسنا الدنيوية، وإطلاق الأحكام بحقهم من هذه الزاوية. هؤلاء الذين دعوا للقصر وشرفوا بالمثول في حضور السلطان كيف يمكن مساواتهم مع الذين بقوا خارج القصر ولم يستطيعوا حتى الاقتراب من الباب الخارجي لحديقته، وكيف يمكن وزنهم بالميزان نفسه؟ تبسم الموجودين خارج القصر يعد صدقة، ولكن تبسم الماثلين في الحضور السلطاني قد يعد إساءة.. الموازين مختلفة تماماً.. لذا، يجب تقييم التنبيهات الواردة في القرآن الكريم للنبي ﷺ من هذه الزاوية.

ما هي هذه التنبيهات؟ ولماذا خوطب النبي ﷺ بها؟ لنلقِ نظرة على أمثال هذه المخاطبات للرسول ﷺ والتي تبدو وكانها تنبيه له لنجد المدح الخفي له في طياتها،

والثواب في العمل الذي يبدو وكأنه ذنب لكي نوقن أنه لم يكن له مثيل ولا شبيه في العفة وفي العصمة من الذنوب، ويكون هذا دليلاً آخر على نبوته من زاوية العصمة.

ب- ما وراء الأستار في التنبيهات الموجهة للرسول ﷺ

١- أسرى بدر

نزلت الآيات التالية في موضوع أسرى بدر وكأنها تحمل تنبيهاً للرسول ﷺ: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ۞ لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ۞ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩).

لا يجوز أن يكون للنبي أسرى، وما كان للأنبياء السابقين، إذن، فما العمل بالنسبة للأسرى؟ ماذا يُفعل بهم؟ يجب ألا يكون للنبي أسرى حتى يقوي وضعه ويثبت رجله في الأرض دون الحاجة إلى معونة من أحد، أي ما كان له إطلاق الأسرى حتى مقابل الفدية، لأن هذا سيسرع من تمكين المؤمنين في الأرض ويقويهم ويعجل وصولهم إلى توازن مع أعدائهم ويجعل منهم قوة. وأنت أيضاً تهدف للوصول إلى هذه الغاية وأصحابك أيضاً. هناك اجتهاد، ولكن كان هناك اجتهاد أفضل وأحسن، أي أنكم اجتهدتم وأخذتم الحسن وغاب عنكم الأحسن الذي يريده الله تعالى منكم.

لولا أنه كُتب في القدر ألا أعاتبكم فيما أخذتم لجاءكم عذاب عظيم، ولكن هذا الكتاب وهذا الحكم موجود منذ الأزل، لذا فلن يأتيكم مثل هذا العذاب.

عندما قام الرسول ﷺ بردّ المشركين على أعقابهم في معركة بدر نزل النصر بردا وسلاما على قلوب المؤمنين. لكأنه أطفأ بذلك حريقاً دام في قلوبهم خمس عشرة سنة، لأنه لم يبق هناك ألم لم يتجرعوه من هؤلاء الكفار، ولم يبق هناك ظلم لم يصبهم منهم، ثم أخرجوهم من ديارهم وبيوتهم وأهليهم في مكة. تحملوا كل هذه الآلام والدموع دون

أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد كان ذلك ممنوعاً عليهم حتى وقت قريب، ثم صدر لهم الإذن بالدفاع عن أنفسهم لأنهم ظُلموا: ﴿والله على نصرهم لقدير﴾ (الحج: ٣٩). أجل، أصبح المؤمنون مخولين بالدفاع الفعلي عن أنفسهم ومقابلة القوة بالقوة، فكانت معركة بدر أول معركة كبيرة بين المؤمنين والكفار حيث انتصر فيها المسلمون وأسروا عدداً كبيراً من الكفار. كانت هذه الحادثة الأولى من نوعها ومسألة لم يكن لها أي حكم إلهي سابق أو أي إيضاح سابق، وهنا قام الرسول ﷺ كعادته دائماً واستشار أصحابه، فالذي يتقرر في هذه المشورة هو الذي سيعين كيفية التعامل مع الأسرى.

كان الرسول ﷺ يحب إطلاق سراح هؤلاء الأسرى تمشياً مع خلقه اللين وكذلك مع التوجيه الإلهي السابق له، لأن القرآن الكريم خاطبه ذلك الوقت ووجهه في هذا الاتجاه: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ (الحجر: ٨٥)، ﴿أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ (النحل: ١٢٥) حتى أصبح العفو والصفح طبعاً من طبائعه وخلقاً من أخلاقه، وأصبح أي تصرف يخالف هذا غير متوقع منه، ذلك لأن القرآن الكريم كان يمدحه ويقول: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ٤). لكل فرد نصيب معين مِن الخلق، أما هو فله الخلق الكلي الشامل لكونه في الذروة من التخلق بخلق الله تعالى، هذا الخلق المتدفق من بين سطور القرآن الكريم وسوره، وكان ﷺ هو الذي يمثل هذا الخلق.(١) ولكي تعرف هذا الخلق الكريم فيكفي أن تتأمل تصرفه وسلوكه تجاه أهل مكة الذين آذوه كل الإيذاء طوال سنوات طويلة، إذ قال لهم قول النبي يوسف عليه السلام: ﴿لا تثريبَ عليكم اليوم﴾ (يوسف: ٩٢)، ثم أعلن العفو العام عنهم.(٢)

كان خلقه وقناعته تميلان نحو العفو على الدوام، ومع ذلك كان يستشير أصحابه في كل شأن، فاستشار أولاً أبا بكر رضي الله عنه فكان جوابه: "يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة،

---

(١) مسلم، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ أبو داود، التطوع، ٢٦

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٥٥/٤؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٤٤/٤

أرى أن تأخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضداً." ثم توجه رسول الله ﷺ إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» فأجابه عمر ﷺ: "والله ما أرى ما رآى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم."[1]

توضحت الآراء، الصديق ﷺ يرى إطلاق سراح الأسرىن وعمر الفاروق ﷺ يرى قتلهم، والتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ﷺ ثم إلى عمر ﷺ قائلاً: «..وإن مَثَلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم الطَّيِّلا قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ (إبراهيم: ٣٦). ومَثَلك كمثل عيسى قال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة: ١١٨).»[2]

وفي مناسبة أخرى كرر رسول الله ﷺ هذا المعنى قائلا: «تَرِدُ عليّ أمتي الحوضَ وأنا أذود الناس عنه[3] كما يذود الرجلُ إبلَ الرجلِ عن إبله.» قالوا: يا نبي الله! أتعرفنا؟ قال: «نعم، لكم سيما،[4] ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غراً محجَّلين من آثار الوضوء، وليُصَدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول: يا رب هؤلاء أصحابي، فيجيبني مَلَك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك.» وفي رواية: «...فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ (المائدة. ١١٧).»[5]

---

(١) **مسلم**، الجهاد، ٥٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣١-٣٢

(٢) «**جامع البيان**» للطبري ١٠/٤٣؛ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ٨/٣١؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٣٨٣

(٣) **أذود الناس**: أمنعهم.

(٤) **سيما**. علامة.

(٥) **البخاري**، تفسير (٥) ١٥

كان أبو بكر ﷺ أول تلميذ من تلاميذه، وكان أسلوب تفكيره يشبه أسلوب تفكير الرسول ﷺ لذا، كثيراً ما تشابهت قراراتهما. التفت الرسول ﷺ إلى عمر ﷺ وشبهه بنبيين من الأنبياء من ذوي العزم: «وإن مَثَلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رب لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ (نوح: ٢٦)، ومثلك مثل موسى قال: ﴿ربنا اطمِسْ على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ (يونس: ٨٨).[١]

صبر هذان النبيان العظيمان عليهما السلام على الأذى الكبير والدائم من كفار ومشركي قبيلتهما ومن الكفار الآخرين، وعلى عناد قومهما الذي كان يزيد على مر الأيام، فلم يجدا أمامهما سوى التوجه إلى الله تعالى بدعائهما المذكورين، فبقاء هؤلاء الكفار كان شراً للأحياء وشراً للأموات، فاستجاب الحق تعالى لدعائهما وتجلى على هؤلاء الكفار باسمه القهار وأهلكهم.

وأخيراً استقر رأي رسول الله ﷺ مع رأي أبي بكر ﷺ منجذباً إليه من طبيعة حلمه وخلقه اللين المتسامح وطمعاً أن يهديهم الله للإسلام في المستقبل فيكونوا له عضداً. والآن لنستمع إلى بقية الحادثة من عمر بن الخطاب ﷺ:

..فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرَضَ عَليّ أصحابُكَ من أخذهم الفِداء، لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة» –شجرة قريبة من نبي الله ﷺ– وأنزل الله ﷻ: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩)، فأحل الله الغنيمة لهم.[٢]

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ١/ ٣٨٣

(٢) مسلم، الجهاد، ٥٨؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٣١-٣٣

كان الله تعالى قد أعطاه الإذن والصلاحية والقابلية للاجتهاد، فقام بهذا الاجتهاد وتوصل إلى "الحسن"، ولكن الله تعالى كان يريد لأحب مخلوق لديه أن يصل إلي الأحسن والأجمل، ولهذا السبب قام بتنبيهه وتذكيره، أي لا يوجد هنا ذنب أو إثم، ثم يجب الانتباه إلى الأسلوب المستعمل في الآيات الكريمة تجاه الرسول ﷺ: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ (الأنفال: ٦٨).

وكلمة "لولا" في اللغة العربية تُستعمل عند "امتناع الشيء لوجود غيره"، إذن، يجب الانتباه عند ذلك إلى معنى الآية التي تقول بأن حكماً صدر منذ الأزل وأنه تبعاً لذلك الحكم ستأخذون الغنيمة وتستفيدون منها.

إذن، فالغنيمة -وضمنها الأسرى- لم تعد حراماً حتى بعد هذا الاجتهاد، ويكون الموضوع كله موضوع امتحان تماماً مثلما حدث في موضوع آدم عليه السلام تُرك الأحسن للحسن، وبعد معركة بدر رجعت الأمور إلى أوضاعها الأعتيادية حيث تذكر آية أخرى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرِّقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدوا الوثاق فإمّا منّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضل أعمالهم﴾ (محمد: ٤).

فكأن الرسول ﷺ حدس هذا الحكم الإلهي من ذلك الوقت،. ولكن استباق هذا الحكم آنذاك كان "حسناً" أما انتظار صدور الحكم فكان هو "الأحسن".

ثم إن الرسول ﷺ عندما عدّ أموراً خمسة أعطيت له ولم يعطهن أحد من قبل ذكر «وأُحِلت لِيَ الغنائم ولم تحل لأحد قبلي.»[1] فالغنائم التي لم تكن حلالاً حتى معركة بدر، ولم تكن حلالاً للأنبياء السابقين أصبحت حلالاً للمسلمين بعد آية ظاهرها العتاب من الرسول ﷺ. وشيء آخر يجب الأنتباه له وهو ان الحكم الذي أحل الغنيمة جاء بعد اجتهاد الرسول ﷺ. هذا الاجتهاد -وكل اجتهاد آخر- الذي إن أصاب فيه المجتهد فله

---

(١) **البخاري**، التيمم، ١، الصلاة، ٥٦؛ **مسلم**، المساجد، ٣

أجران وإن أخطأ فله أجر واحد. وحسب خلقه العام لم يكن أمامه سبيل أخر غير هذا الاجتهاد، لذا فما لبث أن صدر الحكم على إثر اجتهاده هذا.

كون الغنيمة حلالاً ثابت بالنصوص الدينية، وهذا لا ينافي الإخلاص وكون الجهاد في سبيل الله. ذلك لأن الحصول على هذه الغنائم والإمكانات المالية الموجودة لدى الأعداء كان يضعف الأعداء ويُقوي المسلمين، ثم هناك ناحية التشويق والترغيب للذين لم يبلغ إخلاصهم المستوى المطلوب مع ملاحظة أنها أصبحت مورداً للعيش لا غنى عنه للذين نذروا كل حياتهم للجهاد على ألا تكون هي الغاية من الجهاد. ولكن لا يكره أحد أيضاً على أخذ الغنيمة، إذ يستطيع كل شخص أن يقول ما قاله عمرو بن العاص: "ما أسلمت من أجل المال."[1] ولكن يجب ألا يتوقع مثل هذه التضحية من الجميع.

وقبل اختتام هذا الموضوع أود أن أذكر بمسألة الفاكهة المحرمة لآدم عليه السلام، فكما امتحن الله تعالى آدم عليه السلام بالفاكهة التي أحلها له فيما بعد، كذلك أحسب أن الوضع نفسه تكرر في موضوع الغنيمة التي أحلت فيما بعد التي أصبحت وسيلة امتحان بعد معركة بدر، ثم جاءت الأحكام الأساسية في هذا الموضوع. وبما أن الاجتهاد كان متماشياً مع هذه الأحكام لذا، لم يكن هناك ذنب، وإنما اقتصر الأمر على التنبيه إلى الميل الفطري لدى الإنسان نحو مال الدنيا وتم التحذير من الانغمار في هذا الميل.

والحقيقة أن التحذير الوارد هنا والدرس المراد تلقينه هو للمسلمين جميعاً. أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فهو لم يكن له من قبل ولن يكون له من بعد أي ميل للدنيا، فهذا التحذير موجه للمسلمين في شخص الرسول ﷺ لكي يعتبروا من جهة ولا تُمس كرامتهم من جهة أخرى. وهنا يتبين مدى الحساسية التي تبديها التربية الإلهية عند توجيه خطابها للمستمع.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ١٩٧/٤

٢- ﴿ غزوة تبوك ﴾

مع أنه لم تقع معركة في تبوك ورجع المسلمون دون أن يدخلوا في حرب فعلية مع البيزنطيين إلا أنهم تهيأوا لهذه المعركة بشكل جدي وكانت حركة إرهاب للبيزنطيين، لذا دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الجهاد وطلب منهم التهيؤ الكامل له وخرج للحرب في جو من النفير العام. ولكن بعضهم استأذنوا رسول الله ﷺ وأبدوا له معاذير مختلفة فأذن لهم بعدم الاشتراك في الحرب، وكان هذا هو السبب في نزول آية نرى في ظاهرها عتاباً للرسول ﷺ إذ كانت تقول له: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ (التوبة: ٤٣).

وعندما ينظر الإنسان إلى جملة ﴿عفا الله عنك﴾ يتخيل وكأن هناك ذنباً تم اقترافه، ولكننا نرى أن هذه الجملة أقرب إلى تعبير "يا من هو مظهر لعفو الله."

أولاً إن البدء بمثل هذه العبارة يستهدف أخذ خاطره، وتأخرت الجملة التي تحتوي التنبيه إلى الأخير. وهكذا تم تلطيف الجو، إذ لو قال له ابتداء "لم أذنت لهم" لتفطر قلبه فَرَقاً. فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام. لذا، يقول علماء اللغة متل النحاس والمهدوي والمكي والمفسرون أن هذه الآية تحتوي على توجه للرسول ﷺ وليس على تنبيه.(١)

ولعل الله تعالى أراد أن يذكر رسوله بما يأتي:

كل من جاءك يستأذنك أذنت له دون أن تمانع مع أنك تعلم أن بين المستأذنين كثير من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وقلوبهم مملوءة بالنفاق والفساد، فلماذا أذنت لمتل هؤلاء؟ كان من المفروض أن يتميز المؤمنون الصادقون الذين برهنوا لك على الدوام على صدقهم عن هؤلاء المنافقين الكذابين الذين وصفتهم أنت فقلت عنهم أنهم: «إذا حدّث كذب وإذا

---

(١) **«الجامع لأحكام القرآن»** للقرطبي ٨/٩٨-٩٩؛ **«الكشاف»** للزمخشري ٢/١٩٢

وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»،[(١)] كانت هذه فرصة لكي يظهر لك هؤلاء فرداً فرداً.

وسيأتي يوم يعرفهم الرسول ﷺ، ولكن طبعه اللين وخلقه السمح أخّر هذا الأمر قليلاً.

وكما تبين فالأمر كله أمر تذكير وليس هناك عتاب، بل يمكن حتى حدس وجود ثناء. وهنا أيضاً يتم إرشاد الرسول ﷺ إلى "الأحسن" وإلى "الأجمل" لأن هذا هو ما يليق به.

يقول الزمخشري بأنه مادام هناك حديث عن "عفو" إذن، فلابد من وجود ذنب،[(٢)] ولكن فخر الدين الرازي لا يقبل هذا الكلام أبداً إذ يقول في تفسيره بأنه قد يكون هذا الأمر وارداً بالنسبة إلينا، ولكن إن ذكرت كلمة العفو بالسبة إلى الأنبياء فلا تحمل هذه الكلمة إلا معنى التبجيل والثناء.[(٣)] ونحن نرى هذا ونقول بأن هذه الآية تحمل ثناء للرسول ﷺ.

وكما قلنا سابقاً فالرسول ﷺ كان صاحب فطنة كبيرة، يعرف كيف تجري الأمور وكيف تنفذ المهمات والأعمال معرفة جيدة. وكانت الآية تعرض هنا عليه طريقة بديلة في العمل وهي: يجب ألا يؤذن لهؤلاء حتى يتميز المنافقون تماماً عن المسلمين، فلا يُعطى للمنافقين فرصة بريئة كالإذن يستظلون بها فلا يُعرفون حق المعرفة، ذلك لأن المنافقين ما كانوا ليشتركوا مع المسلمين في هذه الحملة حتى وإن لم يأذن لهم الرسول، ولكنهم كانوا يظهرون آنذاك على حقيقتهم وأنهم منافقون، وكان هذا هو مايريده الله تعالى وما يطلبه من رسوله ﷺ مع أنه أخبره بحال المنافقين، إلا أنه كان يريد إظهارهم في هذا الامتحان، وبقيام الرسول ﷺ بإعطاء هذا الأذن -تمشياً مع خلق العفو الموجود في طبيعته- فقد ضاعت هذه الفرصة.

هذا التصرف كان من آثار الخلق العام للرسول ﷺ، فمثلاً لم يحاول في أي فترة هتك ستر أي شخص، فلم يصحح خطأ أي فرد يذكر اسمه وأخطائه صراحة، بل فعل ذلك

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٢٤؛ **مسلم**، الإيمان، ١٠٧؛ **الترمذي**، الإيمان، ١٤

(٢) «**الكشاف**» للزمخشري ١٩٢/٢

(٣) «**مفاتيح الغيب**» لفخر الدين الرازي ٧٣/١٦-٧٤

على الدوام تلميحاً ودون تعيين، وبذلك حال دون المساس بكرامة أي شخص. كان هذا هو خلق النبي ﷺ كل إنسان يتصرف حسب طبيعته وخلقه، وكان النبي ﷺ يتصرف أيضاً حسب خلقه الرفيع، فأي نبي لا يهتك ستر أحد ولا يهيئ الأساس لهلاك مخاطبه، ولم يفكر النبي ﷺ بإظهار عيب أو عيوب أي شخص وفضح ذلك الشخص أو وضعه في موقف حرج ومُحجل. فمثلاً كان رسول الله ﷺ يعرف جميع المنافقين فردا فردا ويعرف رئيسهم ولكنه لم يفش هذا السر، بل كان يتصرف حيالهم مثلما يتصرف مع أي مؤمن أخر، حتى أن منافقاً جاءه يوماً معلناً ندمه بعد أن زال النفاق عن قلبه وأخبره بأنه يعرف منافقين كثيرين وأنه مستعد للتصريح بأسمائهم ودعوتهم إليه لكي يتوبوا مثله فلم يقبل الرسول ﷺ ذلك لأنه لا يرغب في هتك ستر أحد.

كان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول من ألد أعدائه ولكنه كان يتظاهر بالإسلام، وكان الرسول ﷺ يعامله حسب ظاهره ويود لو أنه كان كما يتظاهر، لذا لم يقطع عنه أمله حتى نهاية حياة هذا المنافق الذي لم يقدر له الله تعالى الهداية، بل الموت منافقاً. وعندما مات جاء ابنه إلى الرسول ﷺ طالباً منه قميصه ليكفن به والده كما طلب منه الصلاة عليه والاستغفار له فلبى الرسول ﷺ جميع هذه الطلبات إذ أعطاه قميصه، وقام بالصلاة عليه،(1) ولم يهتك سر هذا المنافق، ذلك لأن ابنه وبنته كانا من المسلمين الصالحين لذا، تحمل الرسول ﷺ بسببهما كل أعمال هذا المنافق.

ولإعطاء فكرة في هذا الصدد نورد هذا المثل الصغير: أراد أحد الصحابة بيع أمة له ولكنه أراد إبقاء الولاء عنده، بينما يكون الولاء في الإسلام لمن أعتق العبد، ولم يكن من الصحيح ولا من اللائق طلب هذا الشيء، بينما يأمر الدين بعكسه، ويحتمل أن ذلك الصحابي لم يكن يعرف حكم الدين في هذا الموضوع ولم يبلغه شيء حوله، وعندما علم الرسول ﷺ بهذا لم يستدع ذلك الصحابي ولم يعنفه، بل صعد إلى المنبر وأبان عن حكم

---

(١) **البخاري**، الجنائز، ٢٣، اللباس، ٨؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٥؛ «المسند» للإمام أحمد ١٨/٢

الدين في هذا الموضوع دون أن يسمي أحداً إذ قال: «إنما الولاء لمن أعتق.»[١]

ويمكن إيراد أمثلة عديدة جداً في هذا الخصوص، حيث يظهر لنا أن الرسول ﷺ لم يكن يجابه أي مذنب بذنبه، ولم يتسبب في إحراج أي أحد بسبب ذنوبه أو أخطائه.

وفي موضوع الإذن هذا أيضاً لعب خلقه الكريم هذا دوراً كبيراً، فلم يشأ أن يهتك سر أي أحد راجعه وأستأذنه، وقبل ظاهرهم وأذن لهم. أجل، كان صدره واسعاً حيث قال الله تعالى عنه: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ (الانشراح. ١)، أجل، لقد تجلت فيه سر هذه الآية الكريمة، فعندما كان المنافقون يكذبون في موضوع ما كان النبي ﷺ يقوم بإسدال ستار على هذا الكذب ولايفضحهم بل يريهم كيف يكون خلق النبي.. فما أعظمه من نبي تبارت التوراة والإنجيل والفرقان في مدحه.

٣- ﴿ سورة عبس ﴾

قد تبدو سورة عبس وكأنها تحمل عتاباً للرسول ﷺ. لذا، سنقوم –قبل الدخول إلى تحليل هذا الموضوع– بشرح سبب نزول هذه السورة ثم شرح معاني آياتها لإثبات عصمة الرسول ﷺ في هذا الموضوع الذي يريد البعض وضع ظل على عصمته الواضحة وضوح الشمس.

كان الرسول ﷺ جالساً مع كبار رجال قريش من أمثال عُتبة وأبي جهل يبلغهم رسالة ربه ويدعوهم إلى دينه، وبينما كان مندمجاً في هذا الموضوع، قد ركز عنايته وانتباهه إلى دعوتهم إذا بشخص ضرير هو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه يدخل عليهم ويخاطب رسول الله ﷺ قائلاً: "يا رسول الله! أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى"، وكرر ذلك ولم يعلم انشغال الرسول ﷺ بالقوم، فكره الرسول ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية. هذا هو ملخص ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

---

(١) البخاري، الكفارات، ٩. مسلم، العتق، ٥

فإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية قلنا بأن الصحابي لو لم يكن أعمى وكان بصيراً لما تعرض الرسول ﷺ لأي عتاب، أي كان من المفروض على الرسول ﷺ أن يسامح هذا الشخص لكونه أعمى، لذا فعبوسه وإعراضه عنه استوجب التنبيه. هذا هو الحكم السطحي الذي نصل إليه إن تناولنا الموضوع بهذا الشكل، ولكننا إن تعمقنا في الموضوع رأينا الوجه الآخر له وعلمنا مدى استعجالنا في إصدار الحكم السابق.

أولاً هناك شروط وآداب عند الدخول إلى مجلس أي شخص، ثم إن الدخول إلى مجلس رسول الله ﷺ لا يشبه الدخول إلى أي مجلس آخر، ولا يمكن التصرف فيه كالتصرف في أي مجلس شخص آخر، لذا نرى القرآن الكريم يشرح في آيات عديدة للمسلمين آداب حضور مجلس الرسول ﷺ، متى يتم الحضور وكم يمكث فيه(١) وكيف يتحدث معه بصوت خفيض،(٢) شرح الله تعالى للمؤمنين كل هذه الأمور.

والأمر وارد بالنسبة للمثول بين الله تعالى، وعدم جواز المرور بين يدي المصلي مثال جيد على هذا، ففي المذهب الحنفي ينبه الشخص المار بين يدي المصلي، ويمنع بالقوة من هذا في المذهب المالكي، فإذا أصر الشخص على ذلك يجوز أن تضربه ضربة على صدره.(٣)

ذلك لأن المصلي واقف بين يدي سلطان الكون ومالك الملك يتحدث إليه، علماً بأن

---

(١) قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ (الأحزاب: ٥٣).

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ (النور: ٥٨).

(٢) قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ۞ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ (الحجرات: ٢-٣).

(٣) «كتاب الفقه على المذاهب الأربعة» للجزيري ٢٧٢/١-٢٧٣

المرور بين شخصين عاديين يتكلمان لا يجوز من ناحية آداب السلوك والمعاشرة فكيف بمن يفعل ذلك مع المصلي؟ لذلك نرى رسول الله ﷺ يقول: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه.»[1] إذن، فكما توجد آداب معينة في حضور الله تعالى، توجد كذلك آداب معينة في مجلس رسول الله ﷺ.

ماذا كان رسول الله ﷺ يفعل آنذاك؟ كان يريد نقل إلهام قلبه إلى القلوب المتحجرة الصلدة، وهو الذي وصف القرآن الكريم حرصه على هداية الناس بقوله: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ (الكهف: ٦) و﴿لعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ (الشعراء: ٣).

أجل، كان يحزن ويغتم غما شديداً عندما يرى إنساناً غير مؤمن حتى يكاد أن يهلك غماً وحزناً. عندما كان النبي منشغلاً بكل جوارحه في جو الدعوة إلى الله دخل أحدهم وبدأ يتكلم ويخل بالجو الموجود هناك. صحيح أن للقادم عذراً في هذا، إذ كان أعمى لايرى.. فإذا عبس الرسول ﷺ وأعرض عنه فله عذره الشرعي في ذلك، لذا لا نتفق مع الذين يريدون استعمال هذه الحادثة في الطعن في الرسول ﷺ ونرى ذلك خطأ.

هذا هو الجواب إن كانت الحادثة جرت بهذا الشكل، هذا علماً بأنه لا يوجد في كتب الأحاديث المعتبرة كالبخاري ومسلم وابن ماجة وأبي داود والترمذي والنسائي ومسند ابن حنبل والمستدرك جريان هذه الحادثة بالشكل الوارد في بعض التفاسير التي تشير إلى بطلين في هذه الحادثة هما الرسول ﷺ وابن أم مكتوم ﷺ وإلى شخصين ثانويين هما أبو جهل وعُتبة، بينما يذكر المفسرون المحققون أسماء مختلفه للشخص الذي أتى إلى الرسول ﷺ حتى أنهم اختلفوا عما إذا كان هذا الشخص أعمى حقيقة أم بالمعنى المجاري. إذن، يجب النظر إلى هذه الحادثة من زاوية أفسح.

ترد هنا أسماء سبع أشخاص غير اسم ابن أم مكتوم، أي يبلغ عدد الأشخاص الواردة

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ١٠١؛ **مسلم**، الصلاة، ٢٦١؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٠٨

أسماؤهم ثمانية وليس هناك أي دليل يرجح اسم وابن أم مكتوم في هذه الحادثة. وهذا الصحابي الجليل ﷺ استخلفه الرسول ﷺ في المدينة في كثير من غزواته، واستشهد في أغلب الأقوال في معركة القادسية.[١] وكان قريباً للرسول ﷺ عن طريق أمنا خديجة رضي الله عنها إذ كان ابن خالها، لذا لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى استثقال دخوله إلى هذا المجلس، وعلى الرغم من كونه أعمى فقد استخلفه الرسول ﷺ في المدينة أي كان شخصاً يعرف كيف يتصرف التصرف اللائق ويعرف كيف يتكلم، لذا نرى أنه أقل الأسماء الواردة في هذه الحادثة احتمالاً.

ومن يدري فقد يكون الأعمى الذي جاء إلى الرسول ﷺ من سيئي النية، ولما كان الرسول ﷺ يعلم أنه غير مخلص في طلبه فقد عبس وتولى عنه، وهذا تصرف طبيعي، غير أننا لا نصر على قولنا هذا ولا ننظر إليه نظرة أكيدة، غير أن الحادثة الواردة في حق ابن أم مكتوم ليست أكثر قوةً، بل ننظر إلى كلا الاحتمالين نظرة متساوية.

هناك شيء أخر هنا يسترعي الملاحظة، فقد أورد بعض المفسرين أن الضمير في "عبس" و"تولى" يعود إلى الوليد بن المغيرة وورد فعل "عبس" في القرآن مرتين، أحدهما هنا والآخر في سورة المدثر في حق أحد الكفار، وسواء أكان ذلك الكافر الوليد بن المغيرة أم غيره (فالعَقّاد يقول أنه لا يمكن أن يكون الوليد بن المغيرة هو المقصود في سورة المدثر، ذلك لأن آية تقول عنه أنه "زنيم"، بينما كان والد خالد شخصاً معروفاً وأصيلاً –وإن كان كافراً– وسليل عائلة معروفة) لا نجد في السنة الصحيحة أيّ دليل على كون ذلك الشخص هو الوليد بن المغيرة.

فإذا كان القرآن الكريم استعمل كلمة "عبس" في حق كافر فكيف يستعملها في وصف رسول الله ﷺ وهو الشخص الذي كان دائم التبسم؟

والوضع نفسه نراه في الفعل "تولى"، إذ استعمل القرآن هذا الفعل في حق فرعون فقال

---

(١) «الإصابة» لابن حجر ٢/٥٢٣-٥٢٤

﴿فتولى فرعون﴾ (طه: ٦١). صحيح أن هذا الفعل لم يستعمل في حق فرعون فقط ولكنه استعمل بهذا الأسلوب في حق أمثال فرعون.[(١)]

فكيف يمكن أن يستعمل القرآن فعلين من هذا القبيل واحداً إثر آخر في حق الرسول ﷺ؟ وكيف يرى من المناسب تصويره بهذه الصورة؟

وفي الحقيقة يجب النظر إلى الذين قدموا هذه الملاحظة الأخيرة بأنهم قد يكونون على حق، فهؤلاء يرون أن الفاعل في الفعلين "عبس" و"تولى" ليس هو الرسول ﷺ بل هو الشخص الكافر الذي عمي عن الحقيقة.. جاء وكأنه أعمى لا يبصر شيئاً وعبس في وجه الرسول ﷺ، ثم تولى عنه. فإذا أخذنا عصمة الأنبياء بنظر الاعتبار قلنا: ربما يكون هذا صحيحاً، ولا أذكر في الحقيقة أي رواية تنقض وجهة النظر هذه، وما دام السياق يطابق المعنى فلاأرى سبباً لردها.

إن هدفنا من إيراد هذه الأمور التي أطلقنا صفة "المحتمل" على بعضها، و"الأكيد" على البعض الآخر هو بيان وإعلان قدسية السنة التي يحاول البعض النيل منها، وذلك بتناول الآيات التي نزلت في تنبيه النبي ﷺ تناولا سطحيا، والقيام بتصريحات غير لائقة بحق هذا المصدر الإلهي (السنة)، ومحاولة التهوين من قدر النبوة وإضعافها في نظر المؤمنين، وإظهار أنها ضعيفة ولا تستند إلى أساس ويمكن إيجاد بدائل عنها.. وإلا فإن الناس يعرفون جيدا المرتبة العالية للرسول ﷺ لدى الحق تعالى.

أجل، كان إنساناً متميزاً لا نظير له، أسس الله تعالى معه ارتباطاً وثيقاً في عهد فريد. الله يوحي إليه وهو يقوم بتبليغ هذا الوحي، وحافظ الله تعالى على عصمته على الدوام، لذا كان علينا أيضاً المحافظة عليها قياماً بحق الوفاء تجاهه، وأداء لحقه علينا، وهذا هو سبب ما نبديه من تلهف وعاطفة في هذا الموضوع، ذلك لأن هناك الكثير من القوى والأشخاص في الداخل وفي الخارج تريد وضع هذه الشخصية الفريدة العملاقة على

---

(١) انظر. البقرة: ٢٠٥؛ طه: ٤٨؛ النجم: ٣٣؛ المعارج: ١٧؛ الغاشية: ٢٣؛ الليل: ١٦؛ العلق: ١٣

منضدة التشريح والنقد وتقييمه مثل سائر الناس العاديين، لذا نرى أن الدفاع عن عصمته وعفته مقدم على دفاعنا عن اعراضنا وشرفنا.

غير أننا ندرك أن قوتنا محدودة، فإمكانياتنا في الصراع مع أعداء الدين والإيمان ومع أذنابهم غير كافية لأنهم يهدمون ونحن نبني، هم يستخدمون وسائل الدعاية العالمية المخيفة، بينما لا نملك نحن سوى هذه الإمكانيات الضئيلة، ولكنهم كما غُلبوا في كل عهد وزمان في المستوى العقلي والعلمي فسيكون هذا هو مصيرهم الآن أيضاً، ذلك لأنهم يحاولون حجب الشمس بالغربال، صحيح أننا لا نملك الإجابة على كل الاستفهامات التي يثيرونها، لأننا نعلم صحة ما كان يكررها آباؤنا من قبل:

لو كل كلب عَوَى ألقمتَه حجراً   لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

هنا لا أملك نفسي من التذكير بموضوع مهم هو بمثابة مؤشر يقوم بالإشارة إليه ﷺ: إن الأخبار المتعلقة بالمستقبل والتي أخبرنا بها الرسول ﷺ نراها وكأنها تشرح أحوالنا الحالية، يقول رسول الله ﷺ: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه.»(١)

إن الفلسفة المادية التي لا تعطي أذنا صاغية للحق ولا للحقيقة قامت بالقضاء على إنسان دنيا الكفر والإلحاد هذه قضاء معنوياً وبقتله قتلاً معنوياً وأشاعت الشك والشبهة بين المسلمين، أي سرى المرض إلى المسلمين أيضاً.

هناك فئة لا تعرف العربية ولا تفقه أسرار اللغة ودقائقها تدعي أن مآل القرآن الكريم –أي ترجمته إلى اللغة التركية– يكفينا وأننا لا نحتاج إلى الأحاديث الشريفة والسنة النبوية الكريمة. وليس هذا بالمشكلة الهينة كما تبدو في الوهلة الأولى، بل هو حملة بدأت منذ أيام أبي جهل وعُتبة وشيبة وامتدت إلى المستشرقين أمثال "غولتسهر (Goldziher)" متنقبة بنقاب العلم، ودخلت عالم المسرح والأدب من قبل أمثال "فولتير (Volter)". أجل، إنها

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٢٣٤/٧

حملة تطبخ في الخارج، وما البعض في بلادنا إلا ممثلون ثانويون يقومون بأدوارهم المرسومة لهم إما في سبيل الشهرة أو لقاء منفعة مادية ضئيلة، فتراهم يقولون:

"القرآن يكفينا، نستطيع أن نحل كل شيء بالترجمة، ما الحاجة إلى معرفة اللغة العربية؟ ألا تكفينا ترجمة معاني القرآن إلى التركية لكي نبلغ درجة الاجتهاد؟"

مثل هذه الأقوال وأمثالها ليست إلا فصلاً واحداً من فصول السيناريو المعد الذي يقف وراءها أخطبوط عالم الكفر، وما هذه الأقوال إلا تجربة وفحص عما إذا كان الجو مساعداً وملائماً لهم، فإن وجدوه ملائماً فلن تقف هذه الأقوال عند هذه الحدود.

لذا، فإننا في حاجة ماسة وأكثر من أي وقت مضى إلى إحياء التوقير نحو رسول الله ﷺ.. التوقير الذي كان يحسه الصحابة نحوه، لذا يجب جعل هذا الشعور عندنا جزء لا ينفصم من كياننا، ولا يكون هذا إلا بمعرفتنا الجيدة بعصمة رسول الله ﷺ وعدم إعطاء أي احتمال ضد هذه العصمة.

كان الصحابة يجلسون في مجلسه يستمعون إليه وكأن على رؤوسهم الطير،(١) وفي هذا المجلس لم يكن كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلي ﷺ يتكلمون إلا لماماً، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أنهم في مجلس نبي مؤيد بالوحي الالهي، فالاستماع إليه استماع إلى المتكلم الأزلي، لأن الوحي الإلهي كان ينعكس بكل صفاء ونقاء عن قلب الرسول ﷺ، لذا كان الذين يعرفونه يفضلون السكوت والاستماع إليه، وأي كلام آخر لم يكن يرقى إلى مستوى كلامه.. وعندما نرقى إلى مستوى فهم الصحابة سنستمع إلى كلامه ﷺ الناضح بالخير والجمال، ونفتش فيه عن علاج أمراضنا وعللنا المزمنة منذ عصور.

أيّ إنكار لسنته أو عدم توقير لها إنما هو جسر نحو الكفر، والذي اعتاد على التجول فوق هذا الجسر ستنقطع صلته بسلك رسول الله ﷺ ويخرج خارج دائرة أمته ويلتحق بجبهة أبي جهل وأمثاله.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٣٧؛ **أبو داود**، الطب، ١؛ **النسائي**، الجنائز، ٨١؛ **ابن ماجة**، الجنائز، ٣٧

إن طراز التفكير هذا خطير جداً، والطريق الوحيد للخلاص من هذا الخطر وإزالته يكون بمعرفة رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولا شك أن من أهم جوانب الرسول ﷺ هو عصمته، فكأن الدين كله قد ارتبط بهذا الجانب، وفتح أي ثغرة في هدا الجانب سيكون وسيلة لتخريبات كثيرة، وهذا هو سبب اهمامنا الكبير بهذا الموضوع.

٤- ﴿ اقتراح ثقيف ﴾

وآية أخرى تبدو وكأنها تنبيه للرسول ﷺ وهي: ﴿وإن كادوا لَيفتنونك عن الذي أوْحينا إليكَ لتَفْترِيَ علينا غيرَهُ وإذاً لاتخذوكَ خليلاً ۞ ولولا أن ثبّتناك لقد كِدْتَ ترْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً ۞ إذاً لأذقناكَ ضِعف الحياةِ وضِعف المماتِ ثم لا تجدُ لك علينا نصيراً﴾ (الإسراء: ٧٣-٧٥).

كانت قبيلة ثقيف تطلب من الرسول ﷺ بعض الامتيازات.(١) إذ سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم اللات ولا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى. وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون وأن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ.

وقد كانوا سألوه مع ترك اللات أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.»

وهذه الآيات توضح موقف أفراد هذه القبيلة والموقف الحازم للرسول ﷺ تجاههم، ونحن نقول بكل ثقة بأنه لا توجد في هذه الآيات أي شيء يمكن أن يلقي ظلاً علي عصمة الرسول ﷺ.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٨٤/٤؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣١٢/١-٣١٣؛ «الدر المنثور» للسيوطي ٣١٩/٥

لقد جاءوا إليه وهم يتصورون إنهم يستطيعون إمالة قلبه إليهم فقدموا اقتراحاً صبيانيا، لأنهم كانوا جهلاء لا يعرفون معنى الوحي ومعنى النبوة، وكانوا يقولون في أنفسهم إنه مادام حريصاً على دخول الناس إلى الإسلام فلن يرد طلبنا في موضوع هذه الامتيازات طمعاً في دخول هذا العدد الكبير منا إلى الإسلام، بل يغض نظره عن بعض الفرائض ويقبلنا طمعاً في هدايتنا.

كان هذا هو ما يطمعون به، أما الرسول ﷺ فلم يخطر ليس على باله فقط، بل حتى في عالم خياله مثل هذا الأمر، فالدين وحدة واحدة فإذا قمت بتجزئته فلا تستطيع أن تطلق كلمة الدين على هذه الأجزاء، والرسول ﷺ كان رجل استقامة، ما قاله في بدء الدعوة كان هو ما قاله في يومه الأخير، والإسلام هو دين الاستقامة، جاء ليرشد الناس إلى الصراط المستقيم، لذا لا يمكن أن نجد فيه التناقضات أو نجد أحكاماً تنقض أحكاماً أخرى، ومثل هذا التفكير لا علاقة له بأي تفكير أو منطق أو علم.

وما كان الرسول ﷺ بالرجل الذي يمكن أن يقترب من قبول مثل هذا الاقتراح، بل إن تلميذه أبا بكر رضي الله عنه لم يقبل في حوادث الرِّدّة اقتراح بعض القبائل بأداء الصلاة على ألا يدفعوا الزكاة بل دخل في حرب معهم.[1] إذن، فلا يوجد في هذه الآيات إسناد أي ذنب للرسول ﷺ، بل هي تشير فقط إلى بعض الجهلاء الذين قدموا بعض الاقتراحات التي لم تكن للرسول ﷺ أي علاقة معها من قريب أو بعيد. أما الرسول ﷺ فقد كان بريئاً ومنزهاً عن مثل هذه الأفكار.

أما الآية الثانية التي نقول: ﴿ولولا أن ثبّتناك لقد كِدْتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً﴾، فهي تقول لولا أننا قمنا بتثبيتك حتى جعلناك كالجبل الأشم كان من الممكن أن تحس بميل –ولو ضئيل– إليهم. وهذه الكلمات عرضت في معرض فرض المستحيل، أي يجب النظر إليها على أنها إظهار لسمو الرسول ﷺ وعلو هامته وقامته، أي أننا جعلنا له إيماناً

---

(١) البخاري، الاعتصام، ٢؛ مسلم، الإيمان، ٣٢؛ أبو داود، الزكاة، ١

قوياً راسخاً بحيث لا يميل قيد شعرة هنا أو هناك.

ولـو لم يكـن الرسـول ﷺ شـخصاً شـرف بـالسوة والرسـالة، بـل كـان صـاحب دعـوة اعتيادية أو مصلحاً فكرياً أو اجتماعياً لكان من الممكن أن يخطر على باله مماشاة هؤلاء طمعاً في كسبهم إلى جانبه بعد إبداء بعض المرونة واللين تجاههم ليقوي ارتباطهم بنفسه، ذلك لأن أمثال هذا الضعف مركوز في طبيعة الإنسان، ولكن رسول الله ﷺ كان نبياً مبرءاً من كل أمثال هدا الضعف، ولم يكن يحاول ربط الناس بنفسه بل بالله رب العالمين، ولما كان من العبث الحديث عن ارتباط أي شحص بالدين إن لم يقبل ذلك الدين ككل فلماذا يقوم الرسول ﷺ بإعطاء أي تعويضات لهم، ولماذا يقوم بتغيير أحكام الدين من أجل خاطرهم؟ ثم إنه ليس إلا نبيّ يبلغ أوامر الله تعالى ونواهيه، أي أن صاحب الأمر والنهي هو الله تعالى أولاً وآخرا وليس أحد غيره.

ومن الممكن أن نفهم المعاني التالية من ﴿لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً﴾: لولا أننا ثبتناك بالوحي، وجعلنا جميع تصرفاتك تحت مراقبة الوحي لربما قمت –مثل غيرك– باختيار طريق العقل والمنطق عند تبليغك للدين، وعند ذلك كان يمكن أن تفكر كما يأتي: الأفضل أن أقبل هؤلاء كما هم، ثم أقوم بتقوية علاقتهم بالدين شيئاً فشيئاً حتى يكونوا فيما بعد أشخاصاً كاملي الإيمان. أجل، لم يخطر على بالك هذا مطلقاً، غير أن عدم خطور هذا بالك ليس إلا نتيجة تثبيتنا لك، فلم ندعك لحظة واحدة لنفسك، لذا لم تُظهر أي ميل لهم.

ومعنى آخر: إنك حريص جداً –حسب طبيعتك– على هدايتهم وتكاد تهلك نفسك لأنهم لا يؤمنون، لذا بما أن صدرك واسع للجميع وترغب أن تفتح صدرك للجميع بمقتضى خلق الرحمة والشفقة عندك، فقد تميل بعض الميل إلى اقتراحهم لكيلا تردهم عن باب الهداية، ولكننا أعطينا لك استقامة ومقياساً وميزاناً لجميع أحاسيسك ومشاعرك بحيث حفظناك عن كل أنواع الإفراط والتفريط.

فالإفراط في شعور الرحمة عندك كان يمكن أن يجعلك تميل ميلاً خفيفاً إلى اقتراحهم، ولكننا حفظناك من هذا فلم تمل، إليهم لأن شعور الشفقة عندك شعور متوازن، وأنت

أفضل من تعرف متى وفي أي مقياس ونحو أي شخص تتم الشفقة والرحمة، لذا فلن تقوم بتقديم رحمتك أمام رحمة الله تعالى لتحمي وتصون باسم هذه الرحمة أشخاصاً ضالين.

هناك قول يسند إلى جلال الدين الرومي: "تعال!. تعال!. مهما كنت تعال." هذا القول صحيح من ناحية المعنى، وهو ملهم من السلوك الفعلي والعملي للرسول ﷺ الذي كان صاحب قلب كبير لا يستثني أي أحد وأي إنسان بل يدعو الجميع إلى الهداية، ولو فرضنا أن جميع من على الأرض اهتدوا إلا واحداً أو اثنين لأبدى الرسول ﷺ رغبة كبيرة في هدايتهما ولو تطلب ذلك منه التضحيات. كان ذا قلب واسع كالسماء يظلل الجميع، ولو لم تكن هناك صيانة الله وحفظه له لربما قبل في صفه حتى من اكتفى بشهادة "لا إله إلا الله" فقط وأخذه بين جناحي رحمته، ولكن الله تعالى ألهمه التوازن في مشاعره ورعاه وحفظه من الوقوع في الخطأ.

ولا تعني ﴿لقد كدت تركن﴾ إنك ركنت إليهم فعلاً، إذ لايجوز النظر إلى حادثة محتملة وكأنها وقعت فعلاً، فهذا ضعف في التفكير، وعدم معرفة بدرجة سمو منزلة الرسول ﷺ.

ثم إن سياق الآيات يبين أن الرسول ﷺ لم يركن إليهم أبداً: ﴿وإن كادوا ليستفزُّونك من الأرض لِيُخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ (الإسراء: ٧٦).

٥- خُلقه نحو الفقراء

هناك آية مديح أخرى جاءت بمظهر التنبيه، ونزلت عندما طلب الملأ من قريش من رسول ﷺ طرد العبيد والضعفاء عن مجلسه لأنه لا يجوز لهم أن يجلسوا معه مع هؤلاء المساكين ففي رواية: "مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب بن الأرَتّ وصُهَيْب وبلال وعمّار فقالوا: يا محمد! أرَضِيتَ بهؤلاء؟ لو طردتَ هؤلاء لاتبعناك."[1]

(١) «المسند» للإمام أحمد ١/٤٢٠؛ «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٣/٢٥٤-٢٥٥

فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردَهم فتكونَ من الظالمين﴾ (الأنعام: ٥٢). وتوجد آية أخرى في سورة الكهف بالمعنى نفسه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً﴾ (الكهف: ٢٨).

ما إن بدأ رسول الله ﷺ بدعوته حتى آمن به الكثير من الفقراء والعبيد، وكان الفقر والعبودية في ذلك النظام الكافر عيباً ونقيصة، بينما أتى الرسول ﷺ بدين يرى التمايز والعلو في تقوى الله فقط وخشيته،[١] فلم يكن الدين هنا يرى للأغنياء أي ميزة على الفقراء.

قال رسول الله ﷺ: «وإن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود.»[٢] كان هؤلاء الأربعة كلهم من الفقراء.. علي كان فقيراً وعمار كان فقيراً وكذلك سلمان ومقداد رضي الله عنهم، أي بينما يشتاق الجميع إلى الحنة، كانت الجنة هي التي تشتاق إلى هؤلاء، فكيف كان بمقدور الرسول ﷺ أن يطرد هؤلاء الذي امتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى وبذكره على الدوام، كيف يستطيع الابتعاد عن هؤلاء القريبين إلى نفسه وإلى قلبه؟

نبي قال لأبي ذر الغفاري ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وذلك عندما غضب على بلال وعيره بأمه قائلاً له: "يا ابن السوداء!" ثم قال له ناصحاً ومرشداً: «إخوانكم خَوَلُكُمْ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبُهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم.»[٣]

(١) قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣).

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/ ٣٠٧؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٤٢/١

(٣) **البخاري**، الإيمان، ٢٢؛ **مسلم**، الأيمان، ٤٠

كان نبياً متواضعاً يدخل الجميع إلى مجلسه، وكان هذا من طبيعة دينه وروحه، فجميع المؤمنين، الغني منهم والفقير، والسيد منهم والعبد، الآمر منهم والخادم كانوا يتوجهون إلى المسجد نفسه ويقفون جنباً إلى جنب في الصلاة ليؤدوا وظيفة العبودية. إذن، فكيف يمكن لنبي هذا الدين أن يطرد بعض المؤمنين لكونهم فقراء؟ أليس هو الذي كان يدعو من الله: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة.»[١] فهل يمكن لمن كان هذا دعاؤه أن يطرد من مجلسه أصدقاءه الفقراء؟ كلا، وألف مرة كلا.. لم يطرد الرسول ﷺ من مجلسه فقيراً واحداً ولم يخطر على باله مثل هذا التصرف أبداً.

ولكنه مع هذا كان نبياً يرغب في هداية الجميع بنفس الدرجة، ويروى أنه دعا من الله هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الإسلام، بل هناك رواية أن الرسول ﷺ أدخل أبا جهل واسمه عمرو بن هشام في دعائه فقال: «اللهم أعِزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب.»[٢] أما في دعائه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال: «اللهم أيّد الإسلام بعمر بن الخطاب.»[٣]

ربما أطلع الله تعالى نبيه على المستقبل وعلى الفتوحات التي سيحققها عمر رضي الله عنه فدعا الرسول ﷺ ليسرع عمر للدخول إلى الإسلام، أو أنه عرف بفراسته قابليته واستعداده فدعا له بهذا الدعاء.

كما كان اهتداء ملأ قريش وكبرائهم إلى الإسلام من أكبر بغية الرسول ﷺ، لذا دعاهم مرات عديدة إلى بيته وهيأ لهم الطعام وحاول تليين قلوبهم، ولكنهم قابلوه بالرد والرفض في كل مرة. من يدري كم من مرة عرض الرسول ﷺ هذه الفرصة الثمينة –فرصة الهداية– على كبراء قريش فلم يعرفوا قيمتها ولم يقدروها حق قدرها.

---

(١) الترمذي، الزهد، ٣٧؛ ابن ماجة، الزهد، ٧

(٢) الترمذي، المناقب، ١٧؛ المسند» للإمام أحمد ٩٥/٢

(٣) المسند» للإمام أحمد ٤٥٦/١؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٦٧/٩

والآن تسلم من هؤلاء القادة الكبراء عرضاً للاجتماع به، فهل بدت عندهم أي رغبة في الدخول إلى الإسلام؟ صحيح أنه لم يكن متأكداً من ذلك، ولكن وجود أي احتمال لهذا مهما كان ضئيلاً أعطى الأمل لرسول ﷺ، وكان تحقق هذا الاحتمال يُعد نصراً كبيراً للإسلام مثلما كان إسلام عمر ﷺ نصراً له.

ولكن الذي حدث هو أنهم جاءوا باقتراح مخالف لروح الإسلام، لذا فقد أسف الرسول ﷺ من اقتراحهم هذا، لأن مثل هذا الاقتراح كان قد قُدّم إلى جميع الأنبياء السابقين تقريباً، لذا كان عليه أن يرده مثلما رده الأنبياء الآخرون، ولكنه لم يكن يملك نفسه من الأسى والحزن، لأن هؤلاء الناس كانوا يرفضون الهداية التي جاءت حتى أبوابهم بسبب غرور كاذب، كان هذا سبب حزن الرسول ﷺ وكانت الآية تقول له إنه لا ذنب له في هذا الأمر.

كان الرسول ﷺ قد عقد عزمه على ألا يطرد الفقراء من مجلسه على أن يستمر في البحث عن طريق أخرى لهداية الآخرين، فهل كان مصيباً في قراره هذا؟ كانت الآية تقرر هذا وتؤيده في هذا الأمر.

٦- ﴿ تذكير ﴾

أود هنا أن أشير إلى أمر مهم: هناك أوامر عديدة في القرآن الكريم موجهة إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين كافة، وهذه الأوامر والنواهي بمثابة أحكام، ولا تعني أنهم -أي الرسول ﷺ والمؤمنون الآخرون- كانوا يعملون العكس، فمثلاً عندما يخاطب القرآن النبي ﷺ حول إقامة الصلاة والصوم وأداء الزكاة، مثل هذا الخطاب بمثابة أوامر ولا يعني أن الرسول ﷺ لم يكن يصلي أو يصوم أو يؤدي الزكاة كما لا يعني أنه نزل لتنبيه الرسول

ﷺ،[1] لذا، فعندما تأتي آية تقول: ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ فلا يعني هذا أن الله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: "لماذا طردت الذين يدعون ربهم؟"، فهذا معنى مخالف لعصمة الرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ لم يقم بأي عمل يمكن أن يكون إشارة أو إيماءة إلى أنه قام بما يخالف هذا الأمر، إذن، فهو أمر جاء تصديقاً للقرار الذي اتخذه الرسول ﷺ في هذا الأمر، وإعلاناً لعصمة رسوله وفطنته.

ويتوضح معنى ما قلناه في سورة الكهف بشكل أفضل حيث يقول الله تعالى هناك ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ (الكهف: ٢٨)، ومعنى الصبر عدم تغيير السلوك، فإذا كان هناك أي تغيير مهما كان طفيفاً فيه فلا يمكن هنا التكلم عن الصبر. فمثلاً تتحدث عن صبر إنسان في العبادة، أي تقول إنه لا يغير عادته في الدوام على العبادة، وتتحدث عن صبره أمام المحن وأنت تعني أن تصرفه وسلوكه بقي ثابتاً ولم يتغير أمام المحن، وكذلك الصبر أمام الذنوب والآثام، أي الاستمرار في الحال السابق دون أن تغيره الآثام، إذن، فعندما يقال لرسولنا ﷺ: "اصبر" فمعناه استمر في موقفك السابق وفي قرارك وتصرفك السابق. وهذا يوضح أن الموقف السابق للرسول ﷺ كان موقفاً يُرضي الله تعالى، لأن معنى الصبر ليس في تجديد موقف، بل الاستمرار عليه، إذن، فهنا نجد مدحاً للرسول ﷺ وتبجيلاً له، وكون تصرفه وسلوكه مما يرضي الله تعالى.

كان هذا هو خلق الرسول ﷺ الذي بقي محافظاً عليه طوال حياته وحتى التحاقه بالرفيق الأعلى وهو طاهر من الذنوب والآثام كيوم ولدته أمه.

٧- زواجه بالسيدة زينب رضي الله عنها

استغل أعداء الدين قديماً وحديثاً حادثة زواج الرسول ﷺ بأمنا زينب رضي الله عنها للافتراء على الرسول ﷺ. ولكن كيدهم ارتد إلى نحورهم وبقيت صورة رسول الله ﷺ صافيةً ونقيةً.

---

(١) هناك أمثلة كثيرة على مثل هذه الآيات: ﴿لئن اشركتَ ليَحبطَنّ عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ (الزمر: ٦٥)، ﴿ولا تتّبعْ أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله﴾ (الشورى: ١٥)، ﴿فلا تطع المكذبين﴾ (القلم: ٨)، ﴿فأما اليتيم فلا تقهر ۝ وأما السائل فلا تنهر﴾ (الضحى. ٩-١٠).

يذكر القرآن الكريم هذه الحادثة كما يأتي: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه أمسِكْ عليك زوجَك واتقِ الله وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناسَ والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطَراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطَراً وكان أمر الله مفعولاً﴾ (الأحزاب: ٣٧).

كان رسول الله ﷺ يحب زيداً حباً جماً، فهو الشخص الوحيد الذي تبناه، وكان زيد ﷺ يقابل هذا الحب بحب مثله أو أكثر وقريباً منه إلى درجة أن الناس كانوا ينظرون إليه وكأنه ابنه. كان زيد ﷺ قد ضحى بنفسه وترك أبويه من أجل البقاء قرب الرسول ﷺ، وفتح رسول الله ﷺ أبواب قلبه له.

كان زيد ﷺ عبداً فأعتقه النبي ﷺ وأعاد له حريته وتبناه، ولكن هذا لم يكن يمسح عن زيد ﷺ –حسب عادات القوم آنذاك– صفة أنه عبد عتيق. كان هذا التفكير والنظرة قد نفذ إلى أبعد أبعاد النسيج النفسي لذلك المجتمع، فحتى لو تحرر أي عبد فإنه يبقى مواطناً من الدرجة الثانية فيه. كان من الضروري هدم هذه النظرة من الأساس وتخليص المجتمع من هذه العلة التي كانت تقلق الرسول ﷺ الذي كان ينتظر حلها. ولكن هذا الحل يجب أن يكون عملياً ويُتقبل من ناحية المجتمع، لذا توجه الرسول ﷺ إلى هؤلاء العبيد المتحررين توجهاً خاصاً وبطريقة خاصة.

الحرية مهمة جداً، ولكن الأهم هو الحفاظ عليها والاستفادة منها، فالشخص الذي لا يستطيع حمل الحرية لا يمكن أن يتصرف كإنسان حر وإن أعطيت له الحرية، وهذا ما حدث عندما أعتق العبيد في أمريكا وظهرت هذه الحقيقة المؤلمة، ولم يأت الحل الحقيقي إلا بعد سنين، فهؤلاء العبيد الذين لم يتعودوا العيش بحرية باعوا ما أعطيت لهم من إمكانيات ووسائل العيش وعادوا إلى ساداتهم، لأن الظروف لم تكن بعد مناسبة لأجواء الحرية، فلم يكن الأفراد مستعدين نفسياً لها، ولم يكن المجتمع كذلك مستعداً، لذا لم تعط حركة التحرير ثمارها المرجوة بسرعة.

كان الرسول ﷺ يهيء هؤلاء من الناحية النفسية ومن ناحية التفكير والتصرف الحر من جهة ويهيء المجتمع لتقبّل هؤلاء كأفراد فيه من جهة أخرى. كان هؤلاء في السابق يعدون متاعاً من الأمتعة، أما اليوم فقد أصبحوا أعضاء في المجتمع.

كان الرسول ﷺ يتظر اللحظة المناسبة ليضرب الضربة الأخيرة لهذه النظرة الفاسدة المتغلغلة في المجتمع، لم يكن هذا بالأمر الهين البسيط، بل كان أمراً بالغ الصعوبة، ولكن كان بمقدور الرسول ﷺ إنجاز هذه المهمة.

وكما كان ﷺ يقوم في الحروب بتقديم أقربائه إلى المهمات الصعبة في جبهة القتال فقد عمل الشيء نفسه هنا إذ قام بتزويج بنت عمته أخت عبد الله بن جحش زينب بنت جحش أي بنتاً من عائلة أصيلة جداً من زيد رضي الله عنه الذي كان عبداً عتيقاً.

كان الرسول ﷺ يذهب إلي بيت قريبه هذا، لأنه كان بيت عمته، هذا البيت كان ينتظر منذ سنوات إشارة من الرسول ﷺ، ذلك لأن شرف التزوج منه كان حلم كل امرأة، ولم يكن في هذا ما يُستغرب. وكما ذكرنا سابقاً فعندما أراد الرسول ﷺ تطليق زوجته سودة رضي الله عنها أتت إليه سودة وتوسلت إليه أن يستبقيها، ووهبت يومها لعائشة رضي الله عنها، فرغبتها الوحيدة كانت البقاء بجانبه والوفاة وهي زوجته، وما كانت لتتراجع عن أي تضحية في هذا الموضوع.(١)

تلهف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكي يكون قريباً من هذا البيت الطاهر، لذا طلب يد فاطمة رضي الله عنها ولكن عندما زوجها الرسول ﷺ من علي رضي الله عنه لم يبق أمام عمر رضي الله عنه سوى انتظار أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه، وعندما تزوجها عمر رضي الله عنه كانت في سن صغيرة، وهكذا تحققت أمنية عمر رضي الله عنه في القرب من الرسول ﷺ.(٢) لذا، كان من الطبيعي أن تطمع عمة الرسول ﷺ في تزويجه من ابنته، وكانت زينب رضي الله عنها تليق لكي تكون زوجة نبي، وربما كانت ترغب في الزواج منه ﷺ.

---

(١) **البخاري**، النكاح، ٩٨؛ **مسلم**، الرضاع، ٤٧

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٤٩٢/٤

ذهب الرسول ﷺ إلى بيت عمته وقال إنه يطلب يد زينب، فطار أهل البيت فرحاً، ولكن ما إن أخبرهم بأنه يطلبها لزيد حتى وجموا، ذلك لأنه لو لم يكن الرسول ﷺ هو الطالب لردوا زيداً ولم يقبلوا به صهراً، ولكن لم يكن بمقدورهم رد طلب الرسول ﷺ. وهكذا تأسس بيت للزوجية غير قائم على الرضا، ولكن تم ما أريد تنفيذه من الناحية الاجتماعية.

كانت الزوجة ذات حسب ونسب، ونشأت في هذا الجو، أما زيد رضي الله عنه فهو على رغم عتقه من العبودية من قبل الرسول ﷺ كان لايزال في نظر المجتمع شخصاً عتيقاً، أي عبداً سابقاً ومن عائلة متواضعة، لذا لم يتم التوافق والانسجام بين الزوجين، ويجوز أن زيداً رأي بفراسته أنه ليس كفؤا لهذه المرأة التي كانت تملك روحاً وقلباً وسلوكاً وإرادة متميزة.. امرأة تليق لأن تكون زوجة نبي.

راجع زيد النبي ﷺ في هذا الأمر مرات عديدة ذاكراً له أنه يريد الانفصال عن زوجته، وكان النبي ﷺ يقول له كل مرة: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، لأن ما كان يهم النبي ﷺ هو قلع هذه الفكرة الجاهلية من المجتمع، لذا تسبب في هذا الزواج، ولكن التوتر وعدم التفاهم كان يزيد في البيت على الدوام، واقتربت الأمور إلى حد الانقطاع والانفصام.

صحيح أن الطلاق بدا في الأفق، إلا أن الرسول ﷺ كان قد برهن عملياً على إمكانية تزوج عبد عتيق من امرأة ذات حسب ونسب.. كان الرسول ﷺ مرشداً، وعلى كل مرشد أن يطبق ما يقوله أولاً على نفسه وعلى أقربائه، وهذا ما فعله في هذا الأمر أيضاً وحسب أوامر الله وتوجيهه، ثم بدا في أفق الوحي أمارات حوادث يصعب على النفس تحملها.

ثم علم عن طريق الوحي أن زينب رضي الله عنها ستكون زوجة له، ولكنه لكونه لم يتلق الإذن بعد لإعلان هذا الأمر أخفاه في نفسه، وكما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية"،[1] وهي الآية حول زواجه من زينب. أجل،

---

(١) **البخاري**، التوحيد، ٢٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٨٨

كان هذا هو مبلغ ثقل أمر زواجه من زينب، ولكن من يستطيع رد زواج كتبه الله تعالى في الأزل؟ كان الله تعالى يقول: "زوجناكها"، أي هو زواج تم من قبل الله تعالى، وكان الملأ الأعلى هم شهود هذا الزواج، وكان البدل والثمن الثقيل على النفس لهذا الزواج هو إعلان الله تعالى عن حكم معين، وهو أن المتبنين والأدعياء ليسوا مثل أبنائه الحقيقيين، فإن قام أحدهم مثلاً بتطليق زوجته فالأب المتبني يستطيع الزواج إن شاء منها، بينما كان المتبنى في الجاهلية يُعد وكأنه ابن حقيقي له، فإن مات أو طلق امرأته ما جاز للشخص المتبني التزوج من تلك المرأة. كان من الضروري هدم هذا الحكم الجاهلي، وكان من الضروري أن يحمل الرسول ﷺ على عاتقه هدم هذا الحكم، بينما كان من نصيب زينب رضي الله عنها الاشتراك في هدم أمرين مهمين من أمور الجاهلية في زواجيها الاثنين.

وجاء أمر هذا الزواج في بعض التفاسير وكأن الرسول ﷺ رأى زينباً رضي الله عنها عندما كانت لا تزال في ذمة زيد رضي الله عنه فأعجبه حسنها وقال: "سبحانك يا مقلب القلوب"، وأن أمنا زينب رضي الله عنها سمعته.. الخ. وهذا يبين أن بعض الإسرائيليات نفذت حتى إلى بعض التفاسير مع الأسف؛ حتى أن مفسراً –لا أريد ذكر اسمه هنا– قال: "عاد زيد إلى البيت فاطلع" أي علم بالأمر. وأنا أعتقد أن تخيل وقوع هذا الأمر لا يليق إلا بأعداء الدين وليس بعالم مسلم. ونستطيع دحض هذا بسهولة:

أولاً: لم يكن الرسول ﷺ يرى زينب للمرة الأولى، لقد شاهدها منذ صغرها وحتى أصبحت شابه، أي شاهدها مرات عديدة، فلم تكن رؤيته لها مفاجأة كما تصور القصة الكاذبة.

ثانياً: لو كان الرسول ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها فلماذا يقوم بتزويجها من زيد؟

ثالثاً: كان أهل زينب رضي الله عنها يتلهفون لزواج زينب من الرسول ﷺ، فما المانع من قيام الرسول ﷺ بتحقيق أمنيتهم والزواج منها؟ ولماذا قام إذن، بتزويجها من زيد رضي الله عنه؟

إذن، كان زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها من أجل تنفيذ أمر.. أمر الله تعالى نبيه

بذلك فأطاع ونفذ أمره. وكل كلام آخر لا يعد إلا تحريفاً وتضليلاً من قبـل أعـداء الدين من أمثال "فولتير (Volter)" في السابق وأمثال "غولتسـهر (Goldzıher)" في التـاريخ القريـب. فالسيناريوات المختلفة من قبل هؤلاء لا تلائم أبـداً أبطالهـا.. لا تلائـم لا الرسـول ﷺ ولا ريداً ﷺ ولا زينـب ﷺ، بـل هـي بعيـدة عنهـم بُعـد مـا بين المشرقين رغـم قيـام بعـض المسلمين بيننا بلعب بعض الأدوار الثانوية في هذه المسرحية المعدة من قبـل الأعـداء، ندعـو من الله أن يهديهم.

كنا قد بدأنا بحثنا بـالقول بأن جميع الأنبيـاء معصـومـون، أمـا رسـول ﷺ فهـو سـلطان المعصومين وأعطينا أمثلة على ذلك، علماً بأن عصمته أبعد بكثير ممـا شـرحنا، ولم نستطع أن نتناولها إلا بحدود قابلياتنا المحدودة. كان ما قلناه حتى الآن يتناول عصمـة الرسـول ﷺ وعفته وبعده عن الذنوب، والآن سنتناول هذه العصمة من زاوية أخرى، من زاوية زهـده وتقواه وخشيته لله تعالى وشعور العبودية والعبادة عنده، لكي نعرض على الأنظار بعـض أبعاد ارتباطه بالعالم الآخر وبربه.

الفصل الرابع: انعكاس العصمة في حياته

أ- زهد الرسول ﷺ وتقواه

كان رسولنا ﷺ أزهد الزاهدين، ولم يكن هناك شخص أبعد منه عن الشك والشبه، وكل حركاته وسكناته كانت قد تعيرت وضبطت على هذا الأساس، فالخوف من الله تعالى والخشية منه كان بالغاً عنده أقصاه حتى ليكاد قلبه أن يقف من هذه الخشية والرهبة.. كان يملك قلباً حساساً إلى درجة أن دمعه كان على الدوام جارياً على خده.. كان كالبحر عندما بهدأ وكالسيل العارم عندما ينفعل.

لذا، يكون من الغفلة وعدم الاحترام والضلال عن الحقيقة التقييم الخاطئ للآيات السابقة وإظهاره أنه كان يمكن أن يميل إلى الدنيا أو يقترب من أي ذنب. والله تعالى حفظه في مكان سامٍ بحيث لا يمكن أن تصل إليه ذرة من الوحل الذي أراد أعداؤه أن يلوثوا ثيابه الطاهرة به، ذلك لأن خشيته من الله وزهده كانا يتناقضان مع أي ميل له نحو أي ذنب. وهنا نريد أن نلم إلمامة حفيفة بالأبعاد العميقة لعالمه هذا:

فالزهد يعني ألاّ تفرح حتى ولو ملكت العالم بأسره، وألا تأسف ولو خسرت الدنيا كلها وأضعتها من بين يديك.. كان في الذروة من مثل هذا الزهد.. فلو أصبحت الدنيا كلها له لما فرح بأمتلاكها قدر فرحه بالعثور على حبة شعير واحدة، ولو ضاعت هذه الدنيا منه في لحظة واحدة لما حزن عليها حزن من فقد حبة شعير واحدة.. كان قد ترك الدنيا قلبياً.. ولكن هذا لا يعني ترك الدنيا وهجرها من ناحية الكسب والمعاش، ذلك لأنه هو الذي علمنا أفضل وأجمل طرق الكسب الحلال، لذا لا يمكن تصور قيامه بتحريض الناس على ترك الدنيا وهجرها. هجر الدنيا يجب أن يكون قلبياً، وأفضل دليل على هذا أن الدولة التي أنشأها الرسول ﷺ أصبحت من أغنى الدول وأقواها في وقت قصير، وكما قال أحد الكتاب فقد انبثقت خمس وعشرون دولة -كل دولة منها بحجم وقوة إمبراطورية- من

الدولة الكبيرة التي أسسها الرسول ﷺ. أجل، هذا هو الأساس في الزهد.

لم يتغير رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول الذي خطا فيه إلى عالم النبوة النوراني وحتى اليوم الذي أقبلت عليه الدنيا راكعة بين يديه، بل إنه عندما توفي بعد إقبال الدنيا عليه كان يملك أقل مما كان يملك عندما أتى إلى الدنيا، ذلك لأنه أنفق ووزع كل ما كان يملكه.. انظروا إلى ما تركه.. ترك بضع معزات وبعض الغرف الصغيرة التي كانت زوجاته يعشن فيها.. هذه الغرف عادت للأمة بعد وفاتهن حيث ألحقت بالمسجد النبوي، وكما يعلم كل من ذهب إلى هناك أنها كانت غرفاً صغيرة يمكن حشرها في زاوية من المسجد.

١- نومه على الحصير

دخل عمر بن الخطاب ﷺ يوماً على رسول الله ﷺ فوجده مضطجعاً على حصير قد أثر في جنبه، ونظر إلى خزانته فرأى فيها قبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قَرَظاً في ناحية الغرفة وأَدَم[١] معلق فلم يملك عمر نفسه وبكى حتى سالت دموعه على خده، فقال له الرسول ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقال عمر: "وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟" فقال الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[٢] ويقول رسولنا ﷺ في رواية أخرى: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[٣]

جاء إلى الدنيا بمهمة معينة.. بفكر وإحساس ينفثان الحياة في الناس، وعندما انتهت مهمته غادر الدنيا، فهل يقبل العقل أن مثل هذا الشخص الذي زهد في الدنيا كل هذا الزهد يمكن أن يميل إلى شيء دنيوي؟ أجل، لم يمل إلى الدنيا أبداً ولم ينحرف قيد شعرة نحوها.

---

(١) **قَرَظاً**: ورق السَلَم يُدبغ به. **أدَم**: هو الجلد الذي لم يتم دبغه بعد.

(٢) **البخاري**، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ **مسلم**، الطلاق، ٣١

(٣) **الترمذي**، الزهد، ٤٤؛ **ابن ماجة**، الزهد، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٠١/١

٢- حساسيته نحو الصدقة

جاء في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ وجد تحت جنبه تمرةً من الليل فأكلها، فلم ينم تلك الليلة، فقال بعض نسائه: يا رسول الله، أرقت البارحة؟ قال: «إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها، وكان عندنا تمر من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه.»(١)

كانت الزكاة والصدقة محرمتين عليه، ولكن كان من المحتمل أن تكون هذه التمرة من التمر المهداة إليه، وكان هذا هو الاحتمال الأقوى، لأن أموال الصدقة والزكاة ما كانت تبيت في العادة في بيته بل توزع بسرعة. فهل من الممكن لمثل هذا الشخص الذي يتصرف مثل هذا التصرف لأقل شبهة أن يقترب من إثم واضح وبيّن؟ كان يتصرف بحساسية شديدة تجاه أقل شبهة، ولا يقبل أي دنس -مهما كان ضئيلاً- من عالمه الروحي، فهل يمكن تخيل ضعف صاحب مثل هذه الإرادة القوية أمام أي إثم؟ كلا! لم يضعف أمام أي إثم، ولم يسمح لأي إثم أن يتسلل إلى روحه، فبقيت روحه وإرادته على الدوام طاهرتين ونقيتين.. هكذا عاش.. وهكذا التحق برفيقه الأعلى.

٣- شيبتني هود وأخواتها

قال أبو بكر ﷺ يوماً لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! قد شِبْتَ." قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت.»(٢) فقد قيل له في سورة هود ﴿فاستقمْ كما أُمرتَ﴾ (هود: ١١٢). هذه الاستقامة عينها الله تعالى لرسوله ﷺ وطلب منه. وفي سورة المرسلات نرى وصف الجنة وجهنم، ووصف الزمر التي تذهب إلى هنا أو هناك، ووصف المنظر المرعب الذي يطير بالألباب، كما تصف سورة الواقعة هذه الزمر وتضعها أمام الأنظار، كانت هذه الصور المعروضة في هذه الآيات تأخذ بلب الرسول ﷺ وتشيبه.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ١٩٣/٢

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، (٥٦) ٦

٤- نظرته إلى الآخرة

كان أحد الصحابة يقرأ القرآن بصوت عال، وعندما وصل إلى آية ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً ۝ وطعاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً﴾ (المزمل. ١٢-١٣) مر رسول الله ﷺ أمام بيته وسمعه وهو يقرأ هذه الآيات، فصعق واصفر وجهه وكاد أن يقع على الأرض مغشياً عليه.[١]

ولو كان هناك إنسان لا يجب عليه القلق من هذه الآيات لكان هو رسول الله ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه بكل عمل من أعماله وبكل تصرف من تصرفاته كان أسوة حسنة لأمته.

٥- رسولنا في النظر الإلهي

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن» قال فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ (النساء: ٤١) رفعت رأسي، -أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي- فرأيت دموعَه تسيل.[٢]

٦- تفكره

يروي ابن عمر رضي الله عنه عن أمّنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف أمر الرسول ﷺ وتبكي:

كل أمره كان عَجَباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبَّد

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٢٠٦/٧

(٢) البخاري، تفسير سورة (٤) ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨

لربي» ، قالت فقلت: واللهِ إني لأحِب قربَك، وإني أحب أن تَعبّدَ لربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ (آل عمران: ١٩٠)»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وفي رواية أخرى: «يا بلال! أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[(١)]

إذن، فرسول الله ﷺ كان يبكي ويذرف دموعاً ساخنة خشية ألا يكون قد وصل إلى ذروة مقام الشكر الذي يجب وصوله إليها، فهل تستطيع أن تتخيل أن إنساناً مثله يمكن أن يميل إلى الإثم أو يقترفه؟

وكما كان الرسول ﷺ يبدي حساسية شديدة في عدم الاقتراب عما نهى عنه الله تعالى كان يبدي الحساسية نفسها في إطاعة الأوامر الصادرة إليه من ربه، فإذا نظرنا إلى عصمته من هذه الزاوية فقط فلا نحتاج على ما أظن إلى أي دليل آخر.

وفي الحقيقة لم يكن في طاقة أحد أن يعيش حياة كالتي عاشها الرسول ﷺ، ففي عبادته الفردية كان صارماً ودقيقاً ولا يتهاون مع نفسه أبداً، فكأن حياته كلها نُظمت وخططت على أساس العبادة، فلم تكن هناك لحظة واحدة عنده دون عبادة، ولا نقصد بالعبادة الصلاة والصيام وغيرها، فكل عمل عمله كان يحمل شعورها وإحساس العبادة.

لقد قلنا عنه إنه كان "سلطان الزاهدين" أو "أزهد الزاهدين".. قلنا هذا لأننا لا نجد تعبيراً آخر ليوفي تعريفه.. فمفردات اللغة كلها قاصرة عن وصفه.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ١٦٤/٢؛ «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ١٩٧/٤

٧- سبقه في الخير

يروي أحد الصحابة الرواية التالية: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصرَ، فسلّم ثم قام مسرعا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال: «ذكرتُ شيئا من تِبْر عندنا، فكرهت أن يحبسني فأمرتُ بقسمته.»(١)

هذا هو زهده وتقواه وعلاقته بالدنيا.. أن يعطي كل شيء ويقسمه على الفقراء دون أن يسمح بأن يبيت المال في بيته. لقد تمثلت له الدنيا مراراً لتجذبه إليها، ولكنه ردها على أعقابها.(٢)

٨- بقاؤه جائعاً لأيام

كثيراً ما كان يقضي أياماً عديدة دون أن يضع في جوفه لقمة واحدة، علماً بأنه لم يشبع طوال أيام نبوته من خبز الشعير، وقد تمضي أيام وأسابيع وأشهر دون أن توقد في بيته نار لإعداد حتى حساء بسيط.(٣) رآه أبو هريرة ﷺ يوماً وهو يصلي -صلاة نافلة- جالساً، فسأله بعد انتهاء الصلاة عن سبب صلاته جالساً أيشتكي شيئاً؟ فكان جوابه شيئاً يمكن أن ينذهل منه الوجود كله.. كان جائعاً منذ أيام ولم تبق لديه قوة ولا طاقة للصلاة واقفاً.. كان الجوع قد هده.

يقول أبو هريرة ﷺ أنه عندما سمع جواب الرسول ﷺ بكي، فبدأ الرسول ﷺ يواسيه وكانه قد نسي جوعه قائلاً له: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تُصيب الجائع إذا احتسب.»(٤)

---

(١) **البخاري**، الأذان، ١٥٨؛ **النسائي**، السهو، ١٠٤

(٢) انظر: «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٣١؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١/٣٠-٣١

(٣) **البخاري**، الرقاق، ١٧؛ **مسلم**، الزهد، ٢٩-٣٦؛ **الترمذي**، الزهد، ٣٨

(٤) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم، ٧/١٠٩؛ «**كنز العمال**» للهندي، ٧/١٩٩

كان زعيماً، وكان من بين رعيته من يبيت جائعاً، لذا كان على رسول الله ﷺ أن يكيف حياته حسب مستوى حياتهم. كان يعيش في مستوى أفقر أتباعه، عاش هكذا باختياره وبإرادته، ولو شاء لعاش حياة مرفهة، ولم يكن هذا بالشيء الصعب له، فلو لم يقم بتوزيع الهدايا التي كانت تأتيه وأبقاها عنده لكان ذلك كافياً لعيشه حياة مرفهة وناعمة، ولكنه لم يفكر بهذا مطلقاً.

ولم يكن هذا يعني تركه أو ترك جماعته وأمته الدنيا وانعزاله عنها، فلم يكن الموضوع الدعوة إلى الاكتفاء بلقمة واحدة وبلباس خَلِق، فالإسلام لا يمنع الكسب والغنى، فإن اغتنى أيّ شخص أعطى الزكاة التي أمر بها الله تعالى وتصدق، وليس هناك من أحد ضد هذا الكسب الحلال، بل على العكس فالإسلام حث وحرض على الكسب الحلال، ومع ذلك فقد كان من الضروري للرسول ﷺ وأصحابه المقربين إليه أن يضربوا الأمثلة التي ذكرنا قسماً منها آنفاً لكي تبقى هذه الجماعة التي كانت تتوسع على الدوام وخرجت خارج نطاق المدينة ومكة.. تبقى صافية نقية مثل صفائها في اليوم الأول من بدء الدعوة، لأن هذه الجماعة لم تكن جماعة مرتبطة بالمعدة وبالحاجات الجسدية فقط، بل جماعة قلب وروح وإرادة ووجدان، وكان الرسول ﷺ يحافظ على قوة جماعته هذه بهذه الأسس الديناميكية، فكان يطبق على نفسه أولاً أي تضحية يطالبها من جماعته ليكون قدوة وأسوة لهم.

وها لكم مثالا رائعا: بلغ الجوع من رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة مبلغاً كبيراً حتى لم يستطع معه البقاء في المنزل فخرج، فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: "الجوع يا رسول الله!" قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا.»

فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيِّهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء، ولم يكن له خدم فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء. فلم

يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة، وعندما رأى ضيوفه وضع القربة ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويفديه بأبيه وأمه وقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. ثم انطلق فجاء بعذق فيه بُسْرٌ وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه. وأخذ سكيناً فقال له الرسول ﷺ: «إياك والحَلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا. فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده لتُسْألن عن هذا النعيم يوم القيامة.. أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم.» ثم قرأ عليهم الآية: ﴿ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ (التكاثر: ٨).[١] فلم يكن يسى لحظة واحدة مقاييسه الحساسة أبداً، لذا يستحيل أن يجد أي إنسان أي انحراف عنده أو ميل عن الحق.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وكان من أقرب الناس إليه-: "لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد دَقَلاً[٢] يملأ به بطنه."[٣]

وكما قلنا سابقاً لو أراد رسول الله ﷺ لعاش هو وعائلته حياة مرفهة وناعمة، وكان يكفي لهذا القيام بالاحتفاظ بالهدايا الكثيرة التي كانت تأتيه كل يوم، غير أنه كان يوزع ما يأتيه ولا يُبقي في بيته شيئاً منها.[٤] وعندما سئل لماذا لا يستفيد من نعم الدنيا قال: «كيف أَنْعَم وصاحب القَرْنِ قد التَقَمَ القَرْنَ واستمع الإذن متى يؤمَر بالنفخ، فينفُخ.»[٥]

ب- تواضع رسولنا ﷺ

كان رسول الله ﷺ متواضعاً جداً، فالتواضع علامة عند العظام على عظمتهم، والغرور علامة الصغر عند الصغار.. كان يكبر بنسبة تواضعه.. أجل، كان شخصاً

(١) **مسلم**، الأشربة، ١٤٠؛ **الترمذي**، الزهد، ٣٩

(٢) **الدَّقَل**: أردأ أنواع التمر.

(٣) **مسلم**، الزهد، ٣٦؛ **ابن ماجة**، الزهد، ١٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٤/١، ٥٠

(٤) **البخاري**، بدء الوحي، ٥، الصوم، ٧؛ **مسلم**، الفضائل، ٥٠

(٥) **الترمذي**، صفة القيامة، ٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢٦/١، ٧/٣

عظيماً، لذا كان متواضعاً، فهو القائل: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[(١)] وكان يقدم المثال العملي والمثال الحي من حياته، كان الجميع يشاهدون هذا التواضع الجم فيعرفون مدى عظمته وسموه.

لقد خسف الله تعالى الأرض بأصحاب الغرور والكبرياء.. ها هو قارون وها هو ثعلبة وها هو فرعون.. وغيرهم وغيرهم... أما الذين تواضعوا له فقد رفعهم إلى أعلى عليين.. ها هو موسى عليه السلام وها هو عيسى عليه السلام، وها هو إبراهيم عليه السلام وها هو محمد ﷺ.

كان تواضعه عميقاً مذهلا، فهو عبد الله ورسوله يؤدي فروض عبوديته لله تعالى في الليل وفي النهار، ويوصي بالاعتدال حتى في أداء فروض العادة ويقول: «فسددوا وقاربوا.»[(٢)] الإفراط أو التفريط –سواء في العبادة أو في غيرها– ليس هو سبيل رسول الله تعالى الذي كان رجل الاعتدال والتوازن والاستقامة، ثم أليس طلبُ الاستقامة هو الدعاء الذي يكرره المؤمن في صلواته الخمسة؟ هذا هو طريق وصراط الأنبياء والصديقين والشهداء، فمن أراد أن يرافقهم يوم القيامة ويكون معهم فعليه أن يسير في الدنيا علي آثارهم.

اليُسر هو روح الدين فمن أراد جعل الدين صعباً لا يطاق انسحق هو تحت هذا الثقل، بينما الدين المعاش في دائرة الاستقامة سهل ويسير. ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «إن الدين يُسر، ولن يُشادَّ هذا الدينَ أحد إلا غلبه.»[(٣)]

الدين هو ما عاشه الرسول ﷺ وما أراد أن يُعاش وحسب ما في وسع الإنسان أن يعيشه «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»، فلو عبد الإنسان ربه ليل نهار، أو كان مثل الأسود بن يزيد النخعي أو مسروق أو طاووس في العبادة فلا ينجو يوم القيامة بعمله وبعبادته لأنها لن تكون كافية.

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠/٣٢٥؛ «**كنز العمال**» للهندي ١١٣/٣

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٢٩؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٧٨

(٣) **البخاري**، الإيمان، ٢٩؛ **النسائي**، الإيمان، ٢٨

ما إن سمع الصحابة هذا الحديث الشريف حتى تبادر الرسول ﷺ إلى أذهانهم، لأن وضعه خاص جداً فقالوا: "ولا أنت يا رسول الله؟" فأجاب بكل التواضع الذي يجب أن يتحلى به العبد الرسول أمام الله تعالى: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل.»[1] هكذا كان تواضعه، بهذا العمق وبهذه القوة والإصالة.

والآن لننتقل من صفة التواضع عنده إلى صفة عبادته. يقول في حديث له: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.»[2] هكذا سيقيم الله تعالى شفاعة نبيه ﷺ يوم القيامة، وألا نعلق نحن آمالنا على هذه الشفاعة؟ نقر بذنوبنا ولكننا نرجو أيضاً عفو الله تعالى وشفاعة رسوله ﷺ لنا.. نحن مذنبون.. ولكننا لم نعبد سواه.. لم نكن عباداً لأحد سواه، وكما قال جلال الدين الرومي رحمه الله:

من بنده شدم بنده شدم بنده شدم — من بنده بخدمت سرافكنده شدم
هر بندكه آزاد شود شاد شود — من شاد ازآنم كه ترابنده شدم

أي: أصبحت عبداً.. أصبحت عبداً.. أصبحت عبداً. أحنيت ظهري في خدمتك، يفرح العبيد حينما يُعتقون.. وأنا أفرح لكوني عبداً لك.

ونؤمن أنه كما سيسعف الله تعالى دعاءنا وتضرعاتنا، فإنه عندما تزف ساعة شفاعة رسولنا سيسعف طلبنا وسيشفع لنا، لذا فإننا ندق باب شفاعته مرة أخرى قائلين له: "الشفاعة يا رسول الله!" سيشفع رسول الله ﷺ لأصحاب الكبائر من أمته، ونحن أيضاً نرجو شفاعته، ولا أظن أن من بينكم من لا يرجو ذلك، إذن، فعلينا جميعاً أن نطلب منه هذه الشفاعة، ولا يشكن أحد في سماعه لنا، لأننا عندما نقرأ "التحيات" نقول: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"، فكيف نخاطبه بهذا الخطاب المباشر إن كان لا يسمعنا؟ إذن، فهو يسمعنا، ولهذا طلب الله تعالى منا أن نخاطبه في الصلاة مثل هذا الخطاب المباشر.

---

(١) **البخاري**، الرقاق، ١٨، المرضى، ١٩؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٦

(٢) **أبو داود**، السنة، ٢١؛ **الترمذي**، القيامة، ١١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢١٣/٣

وبينما يوسع الرسول ﷺ ساحة شفاعته هذا التوسيع نراه في حديث آخر —وهو الحديث الذي نريد الوقوف عنده— يبدأ أولاً بمخاطبة أقربائه بدءاً من أبعدهم حتى أقربهم إليه عندما نزلت آية ﴿وأَنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين﴾ (الشعراء، ٢١٤). فيقول لهم: «يا معشر قريش! —أو كلمة نحوها— اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنتَ محمدٍ! سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً.»[١]

في ذلك العهد كانت القبائل تفتخر عند ظهور شاعر بينها، لذا فإن هذا الكلام من رسول الله ﷺ يدل على مبلغ تواضعه، فهو لم يكن مجرد شاعر أو محارب، بل خاتم الرسل وسيد الأنام، ومع ذلك كان يقول لقومه وعشيرته بأنه لن يغني عنهم من الله شيئاً، وكان يمنع بذلك قومه وعشيرته من التفاخر على الناس والنظر إلى أنفسهم على أنهم أفضل منهم وأعلى على أساس أن رسول الله ﷺ منهم، بل قام بتنبيههم إلى مسؤولياتهم: بدأ بخطاب أبعد القبائل عنه، ثم تدرج في الخطاب حتى وصل إلى عمته صفية رضي الله عنها قائلاً: «يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً.»

كانت صفية رضي الله عنها أخت عمه حمزة رضي الله عنه، وعندما استشهد حمزة في معركة أُحد أرادت أن ترى أخاها، فرغب الرسول ﷺ في منعها لظنه بأنها لن تحتمل رؤيته وهو على تلك الحال، ولكن هذه المرأة الشجاعة أرادت أن تراه.. ترى أخاها الشهيد الواصل روحه إلى الله تعالى، فذهبت ورأت الجسد الطاهر والممزق لأخيها. أجل، كانت امرأة قوية الإرادة، صلبة العزيمة، وكانت والدة الزبير رضي الله عنه الذي قال الرسول ﷺ في حقه أنه حواريه،[٢] وجدة عبد الله بن الزبير الذي استشهد وصلب وهو يدافع عن الكعبة ضد الحَجّاج

(١) **البخاري**، الوصايا، ١١، تفسير سورة (٢٦) ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٥١-٣٥٢

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٤٠-٤١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٤٨

الظالم،[١] وعلاوة على هذا كله كانت عمة رسول الله ﷺ، ومع ذلك خاطبها الرسول ﷺ بذلك الخطاب.

أجل، كان رسول الله ﷺ رجل حزم وتدبير ورجل توازن، فلم يقل -مثلما قال بعض الغافلين- أنه سيمد يده يوم القيامة إلى الجميع، بل لم يقل أنه سيمد يده إلى أقرب الناس إليه، إلى فاطمة رضي الله عنها فلذة كبده، فقال لها ما قاله لغيرها: «ويا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئاً.»[٢]

فاطمة ابنته هذه التي تزوجت مكراً من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والتي توفيت وعمرها خمس وعشرون سنة، والتي جاء من نسلها جميع الأولياء والأصفياء.. فاطمة هذه نشأت في بيت كان ينهمر إليه الوحي انهمار المطر الغزير، والتي قال الرسول ﷺ في حقها: «فاطمة بَضْعَة مني»[٣] وهي سيدة نساء أهل الجنة.[٤] ومع كل هذا فقد خاطبها الرسول ﷺ بالخطاب نفسه «يا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئاً»

إذن، فإنسان مثل هذا لم يقصر في إبداء العبودية والخضوع والأدب تجاه ربه، والمتواضع إلى هذه الدرجة الذي لم يعتمد على عمله ولم يضع كل أمله فيه أزهد الزهاد وأكثر الناس خشية لله تعالى، والذي كان يعرف معنى الآخرة أفضل من كل إنسان آخر، أيمكن أن يكون هناك أي احتمال انحراف أو مقارفة إثم، أو خروج عن خط الاستقامة الذي رسمه له؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٣٠٩/٢-٣١١؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٢٤٤/٣

(٢) **البخاري**، الوصايا، ١١، تفسير سورة (٢٦) ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٥٠-٣٥١

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١٢، ١٦؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩١-٩٤

(٤) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٩؛ **الترمذي**، المناقب، ٣٠

ج- عبودية رسولنا ﷺ

عبادته! عبادته! إن الشخص الذي يتأمل عبادته ﷺ سيظن بأنه لم يفعل في حياته شيئاً سوى العبادة، ولم يقم بأي عمل آخر في حياته، بل انصرف إلى العبادة وحدها، كان هذا مبلغ أبعاد عبادته، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان السباق دائماً في كل عمل خير وفي كل عمل جميل، فلم يستطع أحد الاقتراب منه في أي من هذه الأعمال والساحات. كلا، لم يكن في طوق أحد الوصول إليه في أي مجال من مجالات الخير والجمال.

كان خشوعه وعبوديته في صلاته عميقة إلى درجة أنه يكاد لا تكون هناك صلاة لا يذرف فيها الدموع. يقول الصحابة إن الرسول ﷺ عندما كان يصلي يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل، عن مطرف عن أبيه قال: "أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أَزِيز كأزيز المِرْجَل" يعني يبكي.(١)

كان شعوره بمسؤوليته كعبد قد جعل جوفه كالمرجل الذي يغلي. كانت الصلاة شيئاً يشتهيها بقوة، فلم تكن هناك لذة تعادل لذة الصلاة لديه، لذا قال مرة: «حُبِّب إليّ من الدنيا: النساء، والطِّيب، وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»(٢)

المرأة أكثر العناصر جذباً لاهتمام الرجل، فقد أودعت هذه الغريزة وهذه الشهوة في نفس آدم عليه السلام عند خلقه، والشهوة هي الأجر المعطى مقابل إدامة النسل، ولولاها لما فكر أحد بإدامة نسله، ذلك لأن النتائج الأخرى لعلاقة الرجل بالمرأة ليست إلا تكاليف شاقة، وحب البنين وحده ليس كافياً لإدامة النسل، لذا فقد خلق الله تعالى الشهوة لكي يميل الرجل إلى المرأة وتميل المرأة إلى الرجل، وليس في إمكان أحد مغالبة هذا الميل أو الخلاص منه، ولو كان ذلك بالإمكان لاستطاع آدم عليه السلام تجاوزه، لذا فالرسول ﷺ

---

(١) النسائي، السهو، ١٨؛ أبو داود، الصلاة، ١٥٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/٢٥-٢٦

(٢) النسائي، عِشرة النساء، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ٣/١٢٩، ١٩٩، ٢٨٥

يتحدث هنا عن الشعور الفطري هذا، ويقول «حُبِّب إليّ من الدنيـا: النسـاء.. الخ»، فهـو النبي الـذي يعرف أنـه مصبـوغ بصبغة الفطرة، إذ لا رهبانية في دينـه، وعندمـا سمـع أن بعض أصحابه قال: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهـر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. عندما سمع هـذا قـال ﷺ: «أنتـم الذيـن قلتـم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلـي وأرقـد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.»[1]

كان إنسان توازن صحيح، وجاء بمبادئ واضحة وموضوعية، جاء بالشريعة الحنيفية السمحة، بدين يستطيع الجميع تطبيقه، فلـم يـأت لفئة خاصـة، ولا لجماعـة قليلـة، جـاء للجميع وكانت رسالته تحتضن الجميع.

وإذا أتينا إلى الطيب نرى أن النفوس الحساسة تستطيب الروائح العطرة. والأنبياء فقـط هم الذين يستطيعون الوصول إلى درجة "النفس الصافية"، ورسولنا ﷺ كان في ذروة هذه الدرجة وهذا المقام، فجسده كان يسابق روحه في ليلة المعراج، فأينما وصل روحه وصـل إليه جسده.

وأنا لا أريد الدخول هنا إلى نقاش حول كيفية معراجه ﷺ، ولكني أقول بـأن جمهـور العلماء يرون أن معراجه كـان بـالروح والجسـد معـاً. فجسـده كـان قـد اكتسـب نورانيـة وروحانية إلى درجة وصل بها إلى كل مكان وصل إليه روحه. قد يستطيع غيره أن يعـرج بروحه في منامه، ولكن المعراج بالروح والجسـد كـان مـن نصيـب سيدنا رسـول الله ﷺ فقط. فهو بطل تلك الطريق، وسالك ذلك السبيل.

الطيب هو غذاء الملائكة والروحانيين، ولأن رسول الله ﷺ كان له علاقة بذلـك العـالم الروحاني فقد شغل بالطيب الذي كان ينشرح به كثيراً. لـذا، فعندمـا يذكـر أنـه حبـب إليـه النساء والطيب فهو يشرح في جملة واحدة حاجة الروح والجسد معاً، ويشرح بعض صفاته.

---

(١) البخاري، النكاح، ١؛ مسلم، النكاح، ٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٣/٢٨٥

غير أن هاتين الناحيتين هما من الحاجات الفطرية ومن مستوجبات الإنسان لأنه إنسان، لذا يشترك الناس الآخرون فيهما معه، أي أن حب النساء والطيب ليس مقتصراً على الرسول ﷺ لأنهما من مستوجبات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويوجدان في معظم الناس، أما الأمر الثالث فيجب الوقوف عنده قليلاً لأن الرسول ﷺ يقول: «وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»

فكما نفرح إذا أخبرنا بمجيء أحب الناس إلينا ولا تكاد تسعنا الأرض من السعادة، فكذلك كانت مشاعر رسول الله ﷺ -ولكن بأضعاف مضاعفة- وهو يقف للصلاة. فمثلاً لنفرض أنه بقي بعيداً عن فاطمة ؓ، فكم يفرح أن أُخبر بوصولها! كان فرحه لسماعه صوت الأذان يثير عنده فرحاً أضعاف هذا الفرح، ويسعد أضعاف هذه السعادة، لأن الصلاة كانت معشوقته وحبيبته وقرة عينيه.

ويروى حديث آخر يقوي هذا الحديث حيث جاء فيه: «إن الله جعل لكل نبي شهوة، وإن شهوتي في قيام الليل.»[1] وهذا يعني: أنتم تقومون باتباع اللذائذ الجسدية المختلفة، وهذه اللذائذ تجذبكم إليها فتتبعونها، أما أنا فإنني ما إن أسمع الصوت الواعظ للوجدان وهو يقول لي: قم فقد حان وقت الصلاة حتى أغيب عن نفسي من الوجد فلا أملك إلا الوقوف للصلاة، فتكون أسعد اللحظات عندي في الليل هي اللحظات التي أؤدي فيها الصلاة.

كانت عبودية الرسول ﷺ وقوة ارتباطه بالحق تعالى واعترافه بالوحدانية الإلهية من العمق بحيث لم يستطع كثير من الناس إدراكه، وما الحديث الشريف السابق الذي نقلناه آنفا إلا مثال على ذلك.

تقول أمنا عائشة ؓ: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٧١/٢؛ «كنز العمال» للهندي ٧٨٥/٧

سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.»[١]

وفي رواية أخرى تقول أمنا عائشة ﷺ: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي شأن آخر.[٢]

أجل، كان يقبل على الصلاة مثلما يقبل غيره على الشهوة. لنستمع إلى أبي ذر الغفاري ﷺ. قال أبو ذر ﷺ: صلى رسول الله ﷺ فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨).[٣]

إذن، فقد قرأ وصلى حتى الصباح.. لم يكن يشبع من الصلاة، ولم يكن يعرف حداً لحاجته إليها. والآن لنستمع إلى ابن مسعود ﷺ.. ابن مسعود هذا كان من كبار الصحابة، له أيادٍ بيضاء على مدينة الكوفة وعلى المذهب الحنفي، إذ تتلمذ عليه الكثير من العلماء أمثال علقمة وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان (الذي كان أستاذ أبي حنيفة)، وكان بعض المسلمين يظنون أنه من آل بيت النبي ﷺ لما يرون من كثرة تردده وتردد أمه على النبي ﷺ.[٤] والذي قال فيه النبي ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد -فبدأ به- ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وسالم مولى أبي حُذيفة.»[٥]

وعندما أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة كتب إليهم: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه."[٦] كان نحيف الجسم دقيق الساقين، ولكنه كان بحراً في العلم.[٧]

---

(١) **مسلم**، الصلاة، ٢٢٢؛ **أبو داود**، الصلاة، ١١٨، الوتر، ٥

(٢) **مسلم**، الصلاة، ٢٢١؛ **النسائي**، عِشْرة النساء، ٤

(٣) **مسلم**، الإيمان، ٣٤٦؛ **ابن ماجة**، إقامة الصلاة، ١٧٩؛ **«المسند»** للإمام أحمد ١٤٩/٥

(٤) **البخاري**، فضائل أصحاب البي، ٢٧؛ **مسلم**، فصائل الصحابة، ١١٠-١١١

(٥) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١١٦-١١٧؛ **«المسند»** للإمام أحمد ١٦٣/٢

(٦) **«الطبقات الكبرى»** لابن سعد ١٥٧/٣

(٧) **«المسند»** للإمام أحمد ١١٤/١؛ **أسد الغابة**، ٣٨٨/٣-٣٨٩؛ **«حلية الأولياء»** لأبي نعيم ١٢٤-١٢٩

يقول ابن مسعود ﷺ في رواية عن ابن وائل ﷺ: صليت مع النبي ﷺ ليلةً، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوءٍ، قلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ.(١)

ولكي نعرف لماذا همّ ابن مسعود بالقعود فإننا ننقل وصف صلاة الرسول ﷺ من صحابي آخر هو حُذيفة ﷺ إذ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ، ثم ركعَ فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال «سمع الله لمن حمده» ثم قام طويلاً، قريباً مما ركع ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه.(٢)

ويروي لنا عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ تلا قول الله عزوجل في إبراهيم: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني﴾ (إبراهيم: ٣٦) وقال عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة: ١١٨) فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي!.. أمتي!..» وبكى، فقال الله عزوجل: يا جبريل! اذهب إلى محمد –وربك أعلم– فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.(٣)

قضى حياته في العبودية لله تعالى، وكانت الصلاة أحب شيء إليه وقرة عينيه، ألم يقل: «يبعث كل عبد على ما مات عليه.»(٤) كان الموت مقدراً عليه كأي إنسان فانٍ، ولكنه عاش حياته وهو يصلي حتى التحق بالرفيق الأعلى.

---

(١) البخاري، التهجد، ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٨٥/١-٣٩٦

(٢) مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ أبو داود، الصلاة، ١٤٦-١٤٧

(٣) مسلم، الإيمان، ٣٤٦؛ «المسند» للإمام أحمد ١٤٩/٥

(٤) مسلم، الجنة، ٨٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٣١/٣، ٣٣٦

في أيامه الأخيرة ثقل عليه المرض حتى كان لا يستطيع فتح عينيه إلا بصعوبة وإلا بعد أن يصب على رأسه الماء، ولكنه ما إن يفتح عينيه ويعود إلى صوابه قليلاً حتى يسأل: «أصلّى الناس؟» كان كل فكره في الصلاة.. ويتكرر هذا عدة مرات.. لنقرأ ما جاء في هذا الشأن من كتب الحديث:

عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلّى الناس؟» قلنا: لا هم ينتظرونك. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب» قالت: ففعلنا فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلّى الناس؟» قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماء في المخضب.» قالت فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلّى الناس؟» فقلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله ﷺ، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة. فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر صلّ بالناس! فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين -أحدهما العباس- لصلاة الظهر -وأبو بكر يصلي بالناس- فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بألا يتأخر قال: «أجلساني إلى جنبه!» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد. في أيام مرضه الأخير صلى الرسول ﷺ صلاتين فقط في المسجد، كانت هذه الصلاة الأولى، أما الصلاة الثانية فصلاها خلف أبي بكر.[(١)]

إذن، فهذا هو مبلغ اهتمام الرسول ﷺ بالصلاة وبالجماعة، إذ جاء إلى المسجد وهو لا يستطيع السير بل يجر قدمه جراً مستندا إلى ذراع العباس وعلي.

يرى أحمد بن حنبل أن صلاة الجماعة "فرض عين"[(٢)] لأن الله تعالى يقول ﴿واركعوا

(١) **البخاري**، الأذان، ٥١؛ **مسلم**، الصلاة، ٩٠-٩٧

(٢) **«الفقه على المذاهب الأربعة»** للجزيري ١/٤٠٥

مع الراكعين﴾ (البقرة: ٤٣). ويعد بعض العلماء الجماعةَ من أركان الصلاة، فالصلاة دون جماعة لا تعد صلاة في رأيهم،[١] بينما يرى الإمام الشافعي أن صلاة الجماعة فرض كفاية،[٢] وهي سنة مؤكدة حسب المذهب الحنفي،[٣] وبعض العلماء يعدونها واجباً.[٤]

لا نريد هنا تحليل الموضوع فقهياً، بل أردنا القيام بتذكير بسيط، لأن موضوعنا الأصلي هو عبودية رسولنا ﷺ ومدى تعلق قلبه بالصلاة وعمق هذه الصلاة عنده. فإذا كانت الصلاة تنهى أي إنسان مبتدإٍ بالصلاة عن الفحشاء، وتبعده عن المنكر فكيف بصلاة الرسول ﷺ؟ ألا تبعده عن كل سوء وكل إثم؟

تصف أمنا عائشة رضي الله عنها صلاة رسول الله ﷺ فتقول فيما تقول: "..يصلي أربعاً فلا تسألْ عن حُسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن."[٥] هكذا كانت تصف حسن وطول صلاة رسول الله ﷺ.

لو لم يكن هناك دليل على وجود الله تعالى سوى الصلاة التي كان الرسول ﷺ يصليها لكانت تلك دليلاً كافياً، فكأن الله تعالى كان يتجلى في صلواته تلك، أيمكن لصاحب مثل هذه الصلوات أن يقترب من أي ذنب أو إثم؟

كانت عبادته كلا كاملاً، فبينما كان يؤدي الصلاة بأفضل وأعمق شكل، لم يكن يهمل العبادات الأخرى كالصوم مثلاً، إذ كان يصوم يومين في الأقل كل أسبوع، وكان صيامه يطول أحياناً حتى يظنوا أنه لن يفطر، وكان أحياناً يفطر كالآخرين، غير أن أيام

(١) «الفقه على المذاهب الأربعة» للجزيري ٥/١٦١-١٦٢
(٢) «الفقه على المذاهب الأربعة» للجزيري ١/٥٥
(٣) «الهداية» للمرغناني ١/٥٥
(٤) «شرح فتح القدير» لكمال الدين محمد عبد الواحد ١/٣٠٠
(٥) البخاري، التهجد، ١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين، ١٢٥

صيامه كانت أكثر من أيام فطره.[(١)]

كان أحياناً يصوم صوم الوصال، أي يبقى صائماً دون إفطار عدة أيام، وكان الصحابة يرون صيامه هذا فيرغبون في تقليده، ولكن سرعان ما يكتشفون مدى صعوبته. وفي إحدى المرات نوى الرسول ﷺ صوم الوصال في الأيام الأخيرة لشهر رمضان ونوى بعض الصحابة ذلك أيضاً، ولكن ما إن استمر الصوم عدة أيام حتى أنهكهم الجوع وخارت قواهم، ولكن حلول العيد –الذي فرحوا به كثيراً– أنجدهم، ولو استمر الصوم يوماً آخر أو يومين لما بقيت عند أحد منهم طاقة ولا قدرة على الدوام. وعندما رأى الرسول ﷺ هذا منهم ابتسم ونهى عن صوم الوصال رحمة بهم، فقيل له: إنك تواصل؟ فقال: «إني لست مثلكم، إني أُطعَم وأسقى.»[(٢)]

وفي أيام شهر رمضان كان له شأن آخر في العبادة، إذ كان يكثر منها ويقضي يومه فيها.[(٣)] ونادراً ما كان يهجع فيها. كان الرسول ﷺ يصوم في أشد أيام الحر.. وفي كثير من المعارك كان صائماً.. وكانت الحرب تشتد أحياناً إلى درجة كبيرة، حتى أنه لم يبق صائما مع رسول الله ﷺ في إحدى هذه المعارك الضارية سوى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه،[(٤)] ذلك لأنه كان يقول إن «الصيام جُنّة»،[(٥)] أي وقاية وستر من الانزلاق إلى الآثام والمعاصي.

---

(١) البخاري، الصوم، ٥٣؛ مسلم، الصيام، ١٧٨؛ أبو داود، الصوم، ٥٦

(٢) البخاري، الصوم، ٤٩؛ مسلم، الصيام، ٥٩

(٣) البخاري، ليلة القدر، ٥؛ مسلم، الاعتكاف، ٧

(٤) البخاري، الصوم، ٣٥؛ مسلم، الصيام، ١٠٨-١٠٩

(٥) البخاري، الصوم، ٢، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الصيام، ١٦٢-١٦٣

د- عالم أدعية الرسول ﷺ

١- الدعاء مخ العبادة

الدعاء هو العبادة،[١] والدعاء هو مخ العبادة،[٢] والدعاء هو الرجوع إلى الرب والاتجاه نحوه، ولا يمكن الحديث عن العبودية دون الحديث عن الدعاء، ألا يقول الله تعالى: ﴿قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعائكم﴾ (الفرقان: ٧٧)، وألا يقول: ﴿أدعوني أستجب لكم﴾ (المؤمن: ٢٠).

الدعاء علاقة قوية بين العبد وربه، وبتعبير آخر هو شكل عرض العبد فكره لله تعالى، فأي شيء يريده العبد ولا يستطيع الوصول إليه بقوته وبقدرته يلتجئ فيه إلى الله تعالى، والدعاء اسم هذا الالتجاء إلى القادر المطلق.

إن الدعاء الذي حصر في هذه الأيام في الصلوات الخمس أو في نهاية بعض العبادات وقُلّص من أهم حاجات وضرورات هذه الحياة وما بعد هذه الحياة أيضاً. لا يمكن تصور الحياة دون دعاء، الحياة التي نحياها عبارة عن الدعاء من أولها حتى آخرها. الدعاء هو شفرة الرضا الإلهي ومفتاح أبواب الجنة، والدعاء علامة العبودية الصادرة والمرتفعة من العبد نحو ربه، وعلاقة الرحمة الإلهية من الرب إلى العبد،[٣] وبعبارة أصح هو بؤرة العلاقة بين العبد وربه. وهو عبادة من جهة، ومعراج علوي يربط عالم الدنيا بعالم ما وراء الدنيا، معراج مقدس يسمو بالإنسان نحو الله تعالى درجة درجة.

الدعاء هو سر تجول يد الرحمة الإلهية فوق رؤوسنا، وهو مانعة الصواعق من الغضب الإلهي. الدعاء وسيلة عبودية مؤثرة في جلب الرحمة الإلهية ودفع الغضب الإلهي، وكثيراً

---

(١) انظر: **الترمذي**، تفسير القرآن (٣) ١٦، ٤٠؛ **ابن ماجة**، الدعاء، ١؛ **«المسند»** للإمام أحمد ٢٦٧/٤، ٢٧١-٢٧٢

(٢) انظر: **الترمذي**، الدعاء، ١؛ **«كنز العمال»** للهندي ٦٢/٢

(٣) انظر: **الترمذي**، الدعاء، ١؛ **أبو داود**، الصلاة، ٢٣ **«الفردوس»** للديلمي ٢٢٤/٢

ما يبدأ الشعور والدعاء عند النقطة التي تنتهي فيها القدرة لدى الإنسان، مع أن الأفضل وجوده في كل آن ومنذ البداية. والحقيقة أنه لا يمكن تحديد نقطة بداية ولا نقطة نهاية للدعاء، لأنه لا توجد لحظة في حياة الإنسان لا يكون فيها في حاجة إلى الدعاء، لأن الإنسان الذي لا يبعد في أي لحظة عن تجليات ربه ورحمته لا يمكن أن يكون بعيداً عن الدعاء، ذلك لأن الإنسان يصل إلى باب ربه بالدعاء ويتكلم هناك بالدعاء ويجلب الرحمة كأمطار السماء بالدعاء.

الدعاء من جانبنا هو طلب، فنحن نطلب كل حاجاتنا المادية والمعنوية من ربنا، غير أننا في كثير من الأحيان لا نعرف ماذا نطلب وكيف نطلب، ونتصرف بسوء أدب في موضوع الدعاء تجاه الله تعالى، إذ يرغب الداعي أن تجري الأمور التي يطلبها لا حسب القدر المطلق بل حسب إرادته ورغبته، لذا نرغب أن تتحقق رغباتنا بسرعة وبالشكل الذي نريده، وعندما لا تتحقق أدعيتنا نقع في اليأس ونعتقد بأنها ردت، وبتعبير أوضح فإننا نرغب أن تكون الإرادة الإلهية المطلقة تابعة لإرادتنا الجزئية، وهذا أمر يغاير آداب الدعاء. ومثل هذه الأدعية بعيدة من أن تكون رابطة بين الله وعبده. علماً بأن رعاية شروط وآداب الدعاء وسيلة مهمة من وسائل إجابته، وربما كانت أهمها.

قد يرتفع الدعاء في بعض الأحيان كرغبة وشوق عارم من القلب.. في هذه الحالة لا يقول العبد شيئاً، وربما لا تتحرك شفتاه بالدعاء، ولكنه يعلم أن علام الغيوب مطلع على حاله، لذا يجتهد في البقاء في حال توكل واعتماد عليه، تماماً كوضع إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، فعندما انقطعت جميع الإمكانيات وجميع الأسباب جاء الأمر الإلهي: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (الأنبياء: ٦٩)، جاء هذا الأمر الإلهي في لحظة غير متوقعة لينجده وينقذه.

والشكل الثاني من الدعاء هو التعبير عن الأحاسيس القلبية بالكلمات وإيصالها إلى رب العالمين. هنا يعرض العبد حاله ولكنه لا يطلب شيئاً، وأحياناً يعرض حاله ويعرض طلبه كذلك. وقد أورد القرآن الكريم هذين النوعين من الأدعية عن لسان أنبيائه، فالمثال

عن النوع الأول دعاء النبي أيوب عليه السلام: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين﴾ (الأنبياء. ٨٣)، وكذلك دعاء النبي يونس عليه السلام: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء. ٨٧)، والمثال على النوع الثاني هو دعاء زكريا عليه السلام: ﴿رب هَبْ لي من لدنك ذريّةً طيبة إنك سميع الدعاء﴾ (آل عمران: ٣٨).

إن اهتمام القرآن الكريم بالدعاء وقيامه بتعليم النبي ﷺ الأدعية التي يدعو بها يبين لنا أهمية هذه المسألة، ولولا هذه الأهمية أكان القرآن الكريم يؤكد في مئات من آياته على مسألة الدعاء بإصرار؟ وعلاوة على هذا نجد العديد من الأحاديث الشريفة التي تؤكد على أهمية الدعاء وتعلم الأمة الإسلامية كيف تدعو وماذا تدعو في مختلف شؤون حياتها، لذا فإن الإنسان يحتاج إلى التعبير عن أحاسيسه وأفكاره ورغباته في شكل أدعية بأفضل إسلوب وبأقل الكلمات الجامعة لمعان كلية وشاملة، والقرآن الكريم هو أفضل مساعد ومعاون للإنسان في هذا الشأن، ثم تأتي الأحاديث الشريفة بعده.

وهذا شيء طبيعي، فالله تعالى الذي يطلب منا أن ندعوه يعلمنا أيضاً كيف ندعوه. ولاشك أن الرسول ﷺ علم أفضل وأجمل هذه الأدعية وأكثرها تأثيراً وبركة، لأنه أفضل من عرف ربه وأفضل من دق باب رحمة مولاه.

هو إنسان استقامة، علماً بأن العبودية تعني الاستقامة، فالله تعالى يقول: ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ (يس: ٦١)، وهو يشير إلى الحقيقة أعلاه. والرسول ﷺ كان إنسان توازن في جميع حركاته وسكناته، فبينما كان يرسل الجيوش هنا وهناك لفتح العالم بأسره كان يحمل في الوقت نفسه مبدأ عدم إيذاء نملة واحدة.. استعان بالأسباب ولكنه لم يهمل الدعاء في أي وقت من الأوقات.

من أراد رؤية حياة انقضت في الدعاء ليل نهار وفي الابتهال وفي المناجاة فليمعن النظر في حياة رسول الله ﷺ.. ليمعن النظر لكي يرى معاني الدعاء وآداب الدعاء وما الذي يكسبه الإنسان منه من الناحية المادية والمعنوية لير ذلك وليعتبر.

قام المئات من المسلمين بجمع الأدعيـة المروية عن رسـول الله ﷺ في كتـب، وآخـر مـا طبع منها هو كتاب "مجموعة الأدعية المأثورة"،(١) وقد روعي في طبع هذا الكتاب جعله كتاباً صغيراً وعملياً. والذي يتصفح هذا الكتاب ويقرأ الأدعيـة المدرجة فيه يعلم أنه مـا من أحد يستطيع الوصول إلى الرسول ﷺ في موضوع الأدعية. فكأنه عاش كل لحظة مـن لحظات حياته وهو متوجه إلى الله تعالى بالدعـاء، ولـو قضـى إنسـان كـل حياتـه لا يعمـل شيئاً سوى الدعاء، لما تجاوز عدد أدعيته الأدعية التي رويت عن رسول الله ﷺ.

لقد تداخلت أدعيته مع كل شعبة من شعب حياته الكريمة، وأصبحت جزءاً لا يتجـزأ منها. لم تخل شفتاه ولا قلبه أبداً في أي لحظة من الدعاء ومن الورد، فلـم يستغن أبداً عـن شرب هذا الشراب الكوثري، كـان إنسـان عمـل ونشـاط دائـب، ولكنـه كـان في الوقـت نفسه إنسان عبادة ودعاء.

كـان الصحابـة رجـال عبـادة، ولكنهـم عندمـا يحـاولون السير معه في هـذا السـبيل لم يكونوا يستطيعون اللحاق به ويتعبون، أما هو فكان يغذ السير دون تعب ولا كلل، ذلـك لأن الله خلقه لكي يسير دائماً في المقدمة، وحتى في المعـراج حـاول جبريل أن يسـير معـه ولكنه وصل إلى نقطة وإلى موضع لم يستطع بعده مواصلة السير معـه. أجـل، كـان إنسـاناً سبق الملائكة في السير نحو الله تعالى.

كان في قمة منارة الدعاء والأحساس بالدعاء، لأنه كان يرمي ببصره من هـذه القمة إلى عظمة ربه وجلاله وجماله بشوق لا يعرف الاكتفاء أو الشبع وهو يقـول ويـردد: «مـا عرفنـاك حـق معرفتـك يـا معروف!.» والاعـتراف بعـدم الإحاطـة بمعرفـة الله تعـالى هـو المعرفة، لذا قال أبو بكر ﷺ شـاكياً: "العجـز عـن الإدراك إدراك"، لأنـه كـان يتجـول في أفق "هل من مزيد؟" على الدوام.

(١) وهو ضمن آثار المؤلف. (المترجم)

٢- باقة من أدعيته

لا نستطيع هنا تناول جميع أدعيته بالتحليل، لأننا لم نتناول هذا الموضوع إلا من زاوية الإشارة إلى عظمته، لذا سنكتفي بتناول بضعة نماذج من أدعيته.

أ - *قبل النوم*

النوم أخو الموت،[١] والإنسان المقبل على النوم يجب أن يتذكر هذا ويعرفه، ذلك لأن إغماضة عينيه عن الدنيا قد تكون الإغماضة الأخيرة، لذا يجب ألا يتمدد على فراشه غافلاً، بل مدركاً.

كان الرسول ﷺ عندما يقبل على النوم يقرأ أوائل سورة البقرة ثم الآيات الثلاثة الأخيرة منها،[٢] وآية الكرسي[٣] وسورة يس[٤] وسورة السجدة[٥] وسورة الملك[٦] ثم يقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاث مرات وسورة الكافرون مرة واحدة،[٧] ثم ينفخ في يديه ويمسح بهما بدنه حتى نهاية ما تصل إليه يديه.[٨] كما كان يقرأ أدعية أخرى لا نذكرها هنا مخافة التطويل، ويستطيع من يرغب الاطلاع عليها مراجعة الكتاب الذي ذكرناه وكتب مجاميع الأدعية الأخرى لمعرفة هذه الأدعية لتنوير حياتهم بها.

(١) انظر: «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٤١٥/١٠؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٩٠/٧

(٢) **الدارمي**، فضائل القرآن، ١٤

(٣) **الترمذي**، فضائل القرآن، ٢؛ **الدارمي**، فضائل القرآن، ١٤

(٤) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩٧/٧؛ «**المطالب العالية**» لابن حجر ٣٦١/٣

(٥) **الترمذي**، فضائل القرآن، ٨؛ «**المطالب العالية**» لابن حجر ٣٥٨/٣

(٦) **الترمذي**، فضائل القرآن، ٩، الدعوات، ٢٢

(٧) **أبو داود**، الأدب، ٩٨؛ **الترمذي**، الدعوات، ٢١-٢٢

(٨) **البخاري**، الدعوات، ١٢؛ **الترمذي**، الدعوات، ٢١-٢٢؛ **أبو داود**، الأدب، ٩٧-٩٨؛ **ابن ماجة**، الدعاء، ١٥

ب - عند دخوله الفراش

كان يقرأ عند دخوله الفراش سبحان الله ٣٣ مرة، الحمد لله ٣٣ مرة، الله أكبر ٣٣ مرة، وفي رواية ٣٤ مرة. ثم يقرأ أدعية كثيرة،(١) منها هذا الدعاء:

«اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»،(٢) «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادَك، باسمك أموت وأحيا.»(٣)

ثم يضع يده اليمنى تحت رأسه ويثني ركبتيه قليلاً وينام على جنبه الأيمن،(٤) ناوياً قيام الليل، فقد عاش على الدوام وهو يحمل عاطفة الشوق والوجد لقيام الليل ليتذوق حلاوة المثول بين يدي خالقه في تلك الساعات من الليل.

جـ - دعاء التهجد

كان يزين قيامة لصلاة التهجد بهذا الدعاء: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك نور السموات والأرض.»(٥)

قراءة هذا الدعاء في ساعات الليل البهيم تحمل معاني كثيرة، فالسماء تظهر في الليل بكل عظمتها وبهائها، والنجوم تومض بهدوء وبكل جمال، وتنساب المعاني إلى القلب الحي الذاكر، وتدخل الأرضُ في تناغم مع السماء في هذه الساعات ويرتفع الحمد لله

---

(١) **البخاري**، الدعوات، ١١؛ **مسلم**، الذكر، ٨٠

(٢) **البخاري**، الدعوات، ٦-٧؛ **مسلم**، الذكر، ٥٦-٥٧؛ **الترمذي**، الدعوات، ١٦

(٣) **مسلم**، الذكر، ٥٩؛ **أبو داود**، الأدب، ٩٧-٩٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٠٠/١، ٤١٤

(٤) **أبو داود**، الأدب، ٩٧-٩٨؛ **ابن ماجة**، الدعاء، ١٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٠٠/١، ٤١٤

(٥) **البخاري**، التهجد، ١؛ التوحيد، ٨، ٣٥؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٩٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٥٨/١

تعالى الذي خلق هذه السموات والأرض.

يرى الكثير من العلماء أن أسم "القيوم" هو من الاسم الأعظم، وعندما كان النبي ﷺ يحمد الله تعالى كان يحمده في أحيان كثيرة بهذا الاسم لكي يستفيد من تجلياته ويستشفع به. المُلك والمِلك لله تعالى، لذا فهو الْمَلِكْ وهو المالك.

انظروا إلى صدقه وصدق عهده، ها هو يقوم ويجدد العهد الذي سبق وأن عاهده قبل نومه، أي قبل بضع ساعات فقط، ذلك لأنه كان راجعاً من العوالم التي كان يرتادها في أثناء نومه إلى عالم الشهود، لذا كان عليه أن يجدد عهده. ثم يقوم بتكملة دعائه السابق فيقول:

«ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقائك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وماأسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت –أو– لا إله غيرك.»[1]

وعندما يقول "الحق" فإنه حسب قاعدة "مطلق الذكر ينصرف إلى الكمال" يعني بذلك الله تعالى، وبذلك يعلن الرسول ﷺ أن كل ما يأتي من الله (الذي هو الحق) حق.

يعرض استسلامه وتسليم كل أمره لله تعالى قبل نومه، وما إن يقم من النوم حتى يعلن ويجدد هذا مرة أخرى، وبذلك يبدأ يوماً آخر من حياته بهذا الاستسلام العميق لله تعالى وتفويض شأنه إليه وينهي دعاءه بذكر هذه الحقيقة "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ذلك لأن الإنسان إن لم يستمد القوة من الله تعالى فلن يستطيع تحمل الأعباء الملقاة على عاتقه، فالإيمان والتوكل والاستسلام لله لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، فإن لم يشأ ولم يُعن فمن غيره يستطيع ذلك، لذا فكل إنسان محتاج إلى حول الله وقوته.

وبعد أن ينيء الرسول ﷺ مثل هذا الجو الروحاني يقف للصلاة في ظلام الليل البهيم

---

(١) **البخاري**، التهجد، ١؛ التوحيد، ٨، ٣٥؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٩٩؛ **«المسند»** للإمام أحمد ٣٥٨/١

لكي يبلل أسدال الليل بدموعه. عندما كان يصلي وحده صلاة نافلة يكثر من الدعاء ويطول في صلاته،[١] وعندما يشرع في الصلاة يقرأ هذا الدعاء قبل سورة الفاتحة ويزيد فيها أحياناً زيادات أخرى: «اللهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدُّ»،[٢] وكان أحياناً يضيف بعد هذا الدعاء: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس»،[٣] ثم يقرأ بعد ذلك سبحانك، وبعد كل هذا التسبيح والتقديس ينتقل إلى قراءة سورة الفاتحة.

وفي الواقع هناك أدعية أخرى له كان يقرأها في صلواته هذه، غير أننا نحيل القراء الكرام إلى كتاب "مجموعة الأدعية المأثورة"، ونكتفي هنا بهذا القدر.

د – قيامه صباحاً

عندما يصبح كان يرطب شفتيه بهذا الدعاء: «اللهم إني أصبحت أُشهِدُكَ وأُشهِد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلاّ أنت وأن محمداً عبدك ورسولك.»[٤] يُشهد خلقَه.. الأشجار والأوراق وهمهمتها.. والمياه والشلالات والسيول ودمدمتها.. يشهد كل الخلق ويلحق هذه الشهادة بشهادته هو.. وترتفع هذه الشهادات كلها وتتجه نحو الله تعالى.

هذا الدعاء من الرسول ﷺ يبين مدى أفقه الواسع وشعوره وإدراكه العميق وطبيعة علاقته مع الحق تبارك وتعالى، ولو نطق غيره أيضاً بهذه الكلمات لما أدرك العمق الحقيقي لها مثله.

يُشهد الرسول ﷺ الوجود كله، ولاسيما الملائكة المقربين وسكنة السموات المشرفين

---

(١) **البخاري**، التهجد، ١٦؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٢٥، ٢٠٣-٢٠٤

(٢) **البخاري**، الدعوات، ١٨؛ **مسلم**، الصلاة، ٩٤؛ **الترمذي**، الصلاة، ١٠٨

(٣) **البخاري**، الأذان، ٨٩، الدعوات، ٣٩؛ **مسلم**، المساجد، ١٤٧

(٤) **أبو داود**، الأدب، ١٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٧٨

على الوجود، على توحيده لله تعالى وحمده له. ونفهم من إشهاد الرسول ﷺ للملائكة أنه عندما تريد دق باب العظماء فلا بد أن تبحث عن اليد التي تدق مطرقة الباب، لذا نجد شخصاً ذا فراسة مثل عمر بن الخطاب ﷺ يستسقي بالعباس بن عبد المطلب عام الرمادة في المدينة ويقول: "اللهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه إليك به فاسْقِنا"، فما برحوا حتى سقاهم الله.(١)

كان هذا فراسة من عمر ﷺ، وقد أخذها من دعاء رسول الله ﷺ وإشراكه الملائكة في دعائه وتضرعه، وبالشعور نفسه يتضرع داعية العصر العظيم فيقول:

"إلهي! الذنوب أخرستني، وكثرة المعاصي أخجلتني، وشدة الغفلة أخفتت صوتي، فأدق باب رحمتك، وأنادي في باب مغفرتك بصوت سيدي وسندي الشيخ عبد القادر الكيلاني وندائه المقبول المأنوس عند البواب بـ"يا من وسعت رحمته كل شيء، ويا من بيده ملكوت كل شيء، ويا من لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، ولا يغلبه شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يؤوده شيء ولا يستعين بشيء."(٢)

من بين أدعية الرسول ﷺ في الصباح نجد هذا الدعاء أيضاً: «اللهم فاطر السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أني أشهد أن لا إله الا أنت وحدك لا شريك لك..»(٣)

والذي يجلب الانتباه في هذا الدعاء استعماله ﷺ لكلمة الفاطر مع وجود كلمات وأسماء أخرى مثل البارئ والخالق والجاعل، فبكلمة الفاطر كان يرمي إلى المعاني التالية: أنت الذي خلقت السموات والأرض حسب قوانين الفطرة، وأنت الذي أعطيت النظام، وهذا الوجه المشرق النظيف لهذه القوانين.

---

(١) **البخاري**، الاستسقاء، ٣، فضائل أصحاب النبي، ١١

(٢) «**حزب أنوار حقائق النورية**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٦٦

(٣) **الترمذي**، الدعوات، ٩٤؛ **أبو داود**، الأدب، ١٠١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤١٢/١

هـ – دعاؤه في المساء

بعد شروق الشمس وفي الساعات الأولى من الصباح كان يقرأ هذا الدعاء وعشرات غيره من الأدعية، وما أن تغيب الشمس ويسود الظلام حتى نراه يقرأ الدعاء الآتي الذي يكون له نوراً وضياء، فأمسيه الرسول ﷺ منورة مثل صباحه، وأدعيته كانت مثل القناديل لا يهمل أبداً إيقادها: «اللهم إني أمسيت أُشهدك وأُشهد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدُك ورسولك.»[1] كان كل ركن من أركان صلاته بمثابة سُلّم نوراني يصعد نحو العرش، وكان الدعاء درجات هذا السلّم.

كان جو تهيئه للصلاة ذا علاقة بالجو النوراني لصلاته، فعندما يدخل الخلاء كان يدعو، وعندما يخرج كان يدعو وعندما يبدأ بالوضوء يدعو، وعند غسله أعضاءه في الوضوء له أدعية أخرى، وبعد أن يتم الوضوء كان يدعو، ثم دعاء آخر بعد انتهاء الأذان، ودعاء آخر عند بدء الصلاة، ودعاء آخر عند ذهابه إلى المسجد، ودعاء عند خروجه منه.

بعد تكبيرة الافتتاح يدعو.. يدعو في ركوعه وقيامه وسجوده.. وبين السجدتين وعند جلوسه للتحيات.. وبعد انتهاء الصلاة بالسلام.. دعاء.. دعاء...

و – في أثناء الصلاة

بعد تكبيرة الافتتاح كان يقرأ الدعاء التالي: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونُسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين. اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.»[2]

---

(١) **أبو داود**، الأدب، ١٠١ ؛ **الدارمي**، الاستئذان، ٥٤

(٢) **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢

وعند ركوعه يدعو أيضاً، من أمثلة دعائه هنا: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدميّ لله رب العالمين.»[(١)]

وعند قيامه من الركوع يدعو: «اللهم لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد.»[(٢)]

وفي السجود: «اللهم لك سجدتُ وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين. اللهم اغفر لي ذنبي كله دِقّه وجُلّهُ وأوله وآخره وعلانيته وسره.»[(٣)]

ماذا يفعل الإنسان خارج الصلاة والعبادة؟ يأكل ويشرب، يقوم ويقعد، يضحك ويبكي، يفرح ويحزن، يتزوج ويكون صاحب أولاد وذرية، يلبس لباساً جديداً، يسافر أو يرجع من سفر، يجاهد ويقاتل ويرجع من القتال، يستلم خبراً مفرحاً أو سيئاً من أحدهم، يقابل صديقاً يحبه، يمرض ثم يشفى، ينام ويرى مناماً مفرحاً أو كابوساً...الخ من مئات الأعمال. كان للرسول الله ﷺ دعاء خاص لكل أمر من هذه الأمور ولكل عمل من هذه الأعمال، يدعو ويؤكد عبوديته لله تعالى في كل عمل من أعماله وفي كل خطوة يخطوها.

ثم هناك حوادث تجري خارج إرادة الإنسان وتكون ذات علاقة غير مباشرة معه، مثلاً حدوث قحط أو مجاعة أو انحباس المطر أو حدوث حريق أو سيل أو إعصار أو انتشار آفة.. هذه الحوادث مع كونها غير مرتبطة مباشرة بالفرد إلا أنها تؤثر فيه سلبياً بطريق غير مباشر، وكان للرسول ﷺ أدعية يتوجه فيها إلى ربه في مثل هذه الأمور والآفات.

وكما قلنا في بداية الفصل بأننا لم نتناول هذا الموضوع لكي ننقل أدعية الرسول ﷺ، بل كانت غايتنا إظهار كيف أن أحداً لا يستطيع الوصول إليه حتى في موضوع الأدعية،

---

(١) **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **أبو داود**، الصلاة، ١١٩ ؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢

(٢) **مسلم**، الصلاة، ٢٠٢-٢٠٣، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢

(٣) **مسلم**، الصلاة، ٢١٦؛ صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢؛ **أبو داود**، الصلاة، ١١٩

وأنه كان يقضي كل لحظة من حياته في الدعاء، ولاشك أنه لا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة إلا بعد الاطلاع على جميع أدعيته، ولم نقدم هنا إلا نماذج قليلة وبنسبة أقل من واحد في الألف لكي نعطي فكرة سريعة حول الموضوع، أي أن ما قمنا به لا يعدو الإشارة إلى قطرات ماء مترشحة دليلاً على وجود عين فياضة.

أجل، نحن نؤمن ونعتقد بأنه ما من فضيلة إلا وهو السابق فيها سبقاً لا يدانيه فيه أحد، فهو في الذروة دائماً، وقد حاولنا منذ بداية هذا الكتاب إثبات هذا وإقامة الدليل عليه، فإن قصرنا في شيء فالقصور يرجع إلينا وهو مبرأ من كل تقصير ومنزه عنه، لأنه الرسول المصطفى ﷺ.

ولأنه نوّر كل لحظة من لحظات حياته بالتوجه إلى ربه فلن يجد أحد أي لحظة مظلمة في حياته، فحياته كلها عبارة عن دعاء وعن تضرع وعن توجه لرب العالمين، وبهذه الضراعة والتوسل والدعاء سيقول يوم القيامة: «أمتي!.. أمتي!..»[1]

والحقيقة أن قلبي لا يطاوعني على إنهاء هذا الموضوع المتعلق برسولنا ﷺ، فكأنني -وأنا أتحدث عنه- قد دخلت في صحبته وفي جوه، لذا يصعب علي إنهاء هذا الجو، ولكن ما باليد حيلة، لذا ها سأنهي الموضوع بإيراد هذه الكلمات النيرة من داعي القرن العشرين والتي أوردها في حق الرسول ﷺ:

"اعلم أن ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة فإن قلت: ماهو؟ وما ماهيته؟ قيل لك: هو الذي لعظمته المعنوية صار سطح الأرض مسجده، ومكة محرابه والمدينة منبره. وهو إمام جميع المؤمنين يأتمون به صافين خلفه، وخطيب جميع البشر يبين لهم دساتير سعاداتهم. ورئيس جميع الأنبياء يزكيهم ويصدقهم بجامعية دينه لأساسات أديانهم. وسيد جميع الأولياء يرشدهم ويربيهم بشمس رسالته. وقطب في مركز دائرة حلقة ذكر تركبت من الأنبياء والأخيار والصديقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣٦؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦

بها. وشجرة نورانية عروقها الحيوية المتينة هي الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانها الخضرة الطرية وثمراتها اللطيفة النيرة هي الأولياء بمعارفهم الإلهامية، فما من دعوى يدعيها إلا ويشهد له جميع الأنبياء مستندين بمعجزاتهم وجميع الأولياء مستندين بكراماتهم. فكان على كل دعوى من دعاويه خواتم جميع الكاملين، إذ بينما تراه يقول: "لا إله إلا الله" وادعى التوحيد فإنا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفين النورانيين -أي شموس البشر ونجومه القاعدين في دائرة الذكر- عين تلك الكلمة فيكررونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم، فكأنهم يقولون بالإجماع: "صدقت وبالحق نطقت." فأنّى لوهم أن يمد يده لرد دعوى تأيدت بشهادات من لا يحد من الشاهدين الذين تزكيهم معجزاتهم وكراماتهم.

اعلم أن هذا البرهان النوراني الذي دل على التوحيد وأرشد البشر إليه كما أنه يتأيد بقوة ما في جناحيه نبوةً وولاية من الإجماع والتواتر، كذلك تصدقه مئات إشارات الكتب السماوية من بشارات التوراة والإنجيل وزُبر الأولين، وكذلك تُصدقه رموز ألوف الإرهاصات الكثيرة المشهودة، وكذلك تصدقه دلالات معجزاته من أمثال شق القمر ونبعان الماء من الأصابع كالكوثر ومجيء الشجر بدعوته، ونزول المطر في آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبي والجمل والحجر إلى ألف من معجزاته كما بينه الرواة والمحدثون المحققون. وكذلك تصدقه الشريعة الجامعة لسعادات الدارين.

واعلم أنه كما تصدقه هذه الدلائل الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدقه الدلائل الأنفسية، إذ اجتماع أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته بالإتفاق، وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة، وكذا قوة إيمانه بشهادة سيره، وكمال جديته وكمال متانته، وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانه تصدقه كالشمس الساطعة في دعوى تمسكه بالحق وسلوكه على الحقيقة.

اعلم أن للمحيط الزماني والمكاني تأثيراً عظيماً في محاكمات العقول، فإن شئت فتعال لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة النبوية لتحظى بزيارته الكريمة ﷺ -ولو بالخيال-

وهـو على رأس وظيفته يعمل، فـافتح عينيك وأنظر! فـإن أول مـا يتظاهر لنا من هـذه المملكة شخص خارق له حسن صورة فائقة، في حسن سيرة رائقة، فها هـو آخذ بيده كتاباً معجزاً كريما، وبلسانه خطاباً موجزاً حكيمـاً يبلغ خطبة أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب! مـا يقـول؟ نعـم! إنـه يقـول عـن أمـر جسيم، ويبحـث عـن نبأ عظيـم، إذ يشرح ويحل اللغز العجيب في سر خِلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التي أشغلت العقـول وأوقعتها في الحيرة، إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟

فإن شئت أن تعرف أن ما يحركه إنما هو قوة قدسية فانظر إلى إجراآته في هذ الجزيرة الواسعة.. ألا ترى هـذه الأقوام المختلفة البدائية في هـذه الصحـراء الشاسـعة المتعصبـين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذ الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة وجهزهم بأخلاق حسنة عالية فصيّرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدنة. فانظر! ليست سلطنته على الظاهر فقط، بل ها هو يفتح القلوب والعقول ويسخر الأرواح والنفوس حتى صار محبوب القلوب ومعلم العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح.»(١)

يا سلطان أرواحنا! لقد تربعتَ على عرش قلوبنا.. نقدم إليك أرواحنا فتقبل منا بفضلك.

---

(١) «**الكلمات**» لبديع الزمان سعيد النرسي ص٢٥٥-٢٥٦
كتب الأستاذ النورسي هذا البحث باللغة العربية في كتابه "المثنوي العربي النوري" ثم ترجمه إلى التركية وجعله "الكلمة التاسعة عشرة" وعندما قام الأستاذ إحسان قاسم الصالحي بترجمة كتاب "الكلمات" إلى اللغة العربية احتفظ بالنص العربي الأصلي للمؤلف مع ما يستوجب من تقديم وتأخير وحذف وإضافة في ضوء النص التركي. (المترجم)



ملحق:

السنة ومكانتها

في الشريعة الإسلامية

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

علم الحديث هو العلم الذي يعلمنا أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأحواله. وقد عد كثيرون القسم التقريري من السنة ضمن أفعال الرسول ﷺ، ولن نقف عند هذا لأنه لا يهم موضوعنا كثيراً.

والمقصود من أقوال الرسول ﷺ هو كلامه خارج الوحي المتلو، أما المقصود من أفعاله ﷺ فهو الأفعال الصادرة منه والتي نحن مكلفون باتباع الجزء الأعظم منها. ومع عدم وجود ضرورة شرعية لاتباع أفعاله المتعلقة بعاداته الشخصية، إلا أن اتباعها بنية خالصة يقلب عاداتنا إلى عبادات ويضفي عليها البركة والثواب.

ومع أن هذا النوع الثاني من الأفعال لا يدخل في علم الفقه، إلا أن علم الحديث وقف عنده واهتم به، فأحوال الرسول ﷺ تدخل في محتوى علم الحديث، ولا تدخل في علم الفقه، فالفقهاء يقولون: إن كانت أحوال الرسول ﷺ من نوع الأفعال الاختيارية فهي داخلة ضمن الأفعال النبوية أصلاً، ولكن إن كانت شمائله الشريفة وميلاده النبوي والزمان الذي بعث فيه والمكان الذي وجد فيه.. الخ مما جاء في كتب السيرة والتي تشكل أساساً للأحكام الشرعية فهي لا تدخل ضمن مقاصد الفقهاء، ولا تكون من أسس التشريع، بينما يدخل كل ما يخص النبي ﷺ ضمن علم الحديث وضمن اهتمام أهل الحديث.

أما السنة: فهي كل قول أو فعل أو تقرير أضيف إلى الرسول ﷺ، وتعد عند علماء أصول الفقه مرادفة للحديث.

ولا نود الدخول إلى هذا الموضوع الواسع جداً، بل ندعه لأهل الاختصاص، ونقتصر

هنا على نظرة سريعة ومجملة على بعض المسائل المهمة المتعلقة بالسنة. السنة هي المنبع الإلهي الثاني للشريعة والذي احتفظ به المسلمون منذ العصر النبوي وحافظوا عليه بجانب كتاب الله وأقبل عليه كبار العلماء في كل عصر في كل شأن وفي كل مسألة.

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تأمر باتباع النبي ﷺ واتباع سنته إضافة إلى العديد من الأحاديث الصحيحة التي بينت ضرورة هذا الاتباع، ومدى أهمية السنة في التشريع الإسلامي، ونستطيع أن نقول بأنها اتخذت أساساً في الدين وفي الحياة الدينية بجانب القرآن الكريم في كل عصر إلا من قبل بعض المنحرفين القلة الذين لم يخل منهم أي عصر، وهي مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطاً قوياً بحيث لا تستطيع فصل القرآن عن السنة ولا فصل السنة عن القرآن.

تقوم السنة بتفسير مبهم القرآن وتفصيل مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص عامه، وهذا سبب وعلة اقترانها بالقرآن الكريم واستحالة فصلها عنه.

تقوم السنة مثلاً بشرح الصلاة وأركانها وشروطها ودرجة صحتها أو فسادها وسننها وآدابها، وجميع تفاصيل الحج والتمتع والعمرة، والزكاة: نصابها، أنواعها، كيفية أدائها... الخ. كل هذه الأمور وغيرها جاءت مجملة في القرآن فقامت السنة بشرحها وتفصيل أدق أمورها. ومع أن أحكام المواريث جاءت عامة في القرآن، جاءت السنة بشروح لها فذكرت أن الأنبياء لا يورثون وأن القاتل يحرم من الميراث... الخ. من التفاصيل وأحكام التخصيص. كما أن هناك أحكام مطلقة كثيرة جاءت السنة فقيدتها، وأحكام ومسائل لم ترد أبداً في القرآن بل جاءت بها السنة، فتحريم لحم الحمر الأهلية ولحم الحيوانات المفترسة وكذلك تحريم زواج ابن الأخ أو ابن الأخت من الخالات والعمات يمكن إيراده كأمثلة على هذا.

لذا، فقد رأت السنة بجانب القرآن منذ العصر الأول حتى اليوم اهتماماً كبيراً، وحوفظ عليها وسجلت ودرست وانتقلت بشكل كتب من الأسلاف إلى الأخلاف.

كان رسول الله ﷺ يرى إطاعته واتباع سنته جزءاً من الدين، ويريد من الشاهد تبليغ الغائب وانتقال سنته إلى الأجيال القادمة، ويوصي أصحابه بالرفق بالذين يأتون من أماكن بعيدة بقصد سماع الأحاديث، ويشجع على فهم أحاديثه جيداً، لذا نرى أحياناً يكرر كلامه ليساعدهم على فهم وحفظ أحاديثه.

لذا، نرى أن الصحابة الكرام –وقد عرفوا أنه بعث لتعليمهم وتربيتهم– يهتمون ليس فقط بالاستماع إلى أحاديثه المتعلقة بأسس الدين وقواعده، بل بكل تفصيل دقيق من تفاصيل حركاته وسكناته وحتى أموره الخاصة، ثم يكررون ما سمعوه منه فيما بينهم ويتداولون أحاديثه فيما بينهم حتى تنطبع في ذاكرتهم أو يسجلونها ويكتبونها. وكانوا يعدون كل كلام صادر منه ﷺ أبرك ذكرى وأفضل أمانة، ويجتهدون ألا تضيع حكمة واحدة منه، وقامت هذه الجماعة المباركة بحمل هذه الأمانة المقدسة في جو من الثقة والاطمئنان.

ثم إنهم ما كانوا يضيعون أي بيان أو ملاحظة أو توجيه، لأنهم كانوا يعرفون أنها توجيهات إلهية نورانية لا يمكن التفريط فيها، وفيها نبع الحياة وسر الوجود.. القلوب صافية، والرسائل والتوجيهات الآنية نضرة وطرية، والقلوب مشتاقة، والأمور التي تتناولها هذه الأحاديث تتعلق بالسعادة الأزلية الخالدة، وما دامت هذه الأحاديث مفتاحاً للسعادة الأبدية فكيف يمكن التهاون في شأنها أو نسيانها أو خلطها مع غيرها. وهكذا كان، فقلوب هؤلاء النفر من الصحابة الذين أقاموا حياتهم على الصدق، وابتعدوا عن كل نوع من أنواع الكذب والغش لم تكن لترضى عن ضياع ذرة واحدة من الصدق، كما كانت مقفلة على جميع ما يخالف الحقيقة والصدق، وعلى فرض المستحيل فلو تدنى أحدهم إلى درك الكذب لتعالت المئات من أصوات الاستنكار والمعارضة وأخرست هذا الكذب وكانت إنذاراً للآخرين كذلك. وقد حدث ما يشابه هذا فعلاً تجاه بعض المتجرئين في حوادث نادرة.

أجل، لقد تكفل الصحابة الكرام بمهمة فهم السنة وحفظها، وذلك بتطوير طرق المحاكمة

العقلية وطرق التحقيق وعرض كل ما يسمعونه على قواعد النقد، ويستنطقون الراوي ويريدون شهوداً على الرواية وبعد أن يمرروا الحديث على المحك ليقوموا بكتابته وتسجيله.

ولم يكن عدد الصحابة الذين كانوا يسجلون ما يسمعونه عن النبي ﷺ قليلاً، حيث سجلت الأحاديث -مثلما سجل القرآن الكريم وكتب- ولكن بشكل غير رسمي وفي دفاتر خاصة. أما القول بأن تسجيل الأحاديث وكتابتها بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ فصحيح ولكنه ناقص، ذلك لأن ما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ كان تدويناً رسمياً بأمر من الحكومة، ويشبه قيام أبي بكر ﷺ بجمع القرآن الكريم من حفظ حفاظ القرآن وكذلك مما كان مكتوباً على الجلود وعلى الجريد وغيرها، وضم جميع سور القرآن ضمن دفتي كتاب واحد بشكل رسمي.

وإلا فإن كل ما كان يصدر عن النبي ﷺ كان يكتب ويسجل في عهده، ومن الأمثلة على هذا "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ والتي اشتهرت كثيراً فيما بعد، و"الصحيفة" لهَمّام بن مُنَبِّه ﷺ و"المجموع" لزيد بن علي بن الحسين ﷺ، وقد أصبحت هذه الصحائف مصدراً مهما عندما بدأ التدوين الرسمي للأحاديث.

وكما اهتم الصحابة بتسجيل الأحاديث وكتابتها، كذلك اهتموا بالحفاظ على أصلها اهتماماً كبيراً، فكانت أمنا عائشة ﷺ تدقق هذه الأحاديث كلمة كلمة، وكان ابن عمر ﷺ يهتم بعدم تغيير حرف واحد عند رواية الحديث، أما ابن مسعود وأبو الدرداء رضي عنهما وغيرهما من كبار الصحابة فكانوا يتحفظون جداً من رواية الأحاديث وتصيبهم القشعريرة خوفاً أن تختلط كلمة من عندهم بكلمات الحديث.

وليس من المبالغة القول بأن التابعين أيضاً أبدوا هذه العناية وهذه الدقة وهذا الاهتمام بالأحاديث، ونستطيع أن نعد من هؤلاء سعيد بن المسيب والشعبي وعلقمة والثوري ﷺ. وفي العهود التالية ظهر علم تحقيق السند والمتن وتدوين علم الرجال بحيث صعب تسلل كلمة دخيلة إلى أصل الحديث، ولا أعتقد وجود أمة دققت المتون الدينية عندها مثلما فعلت الأمة الإسلامية.

المدخل

منذ أربعة عشر قرناً نشعر أننا وراء سيد الأنام.. نستشعره في أعماق وجداننا وخفقات قلوبنا وحنايا أضلاعنا.. شعور هو من العمق بحيث يخيل إلينا أحياناً بأننا نحس في صدورنا بأنفاسه التي تحيي الرمم، وأننا لو خطونا خطوة واحدة فسنجده أمامنا.

لقد دخلت الدنيا إلى عهد من التغير والتبدل السريع.. سقطت النظم التي كانت تعادي فطرة الإنسان وتخالفها في مزبلة التاريخ، وبدأت الإنسانية تفيق وترجع إلى الدين من جديد بل تعدو نحوه عدواً.. الأرثودوكس رجعوا إلى كنائسهم، والبوذيون إلى معابدهم والبراهمة إلى عقائدهم. لذا، كان من الطبيعي أن ترجع أمة محمد ﷺ إلى نبيها بعد أن بقيت سنوات طويلة حائرة هنا وهناك في ديار الغربة والضياع.

فكأن يد القدر الإلهي تناولت الحوادث التي جرت حتى النصف الأول من القرن العشرين ضدنا وأعطت لها وجهة جديدة، ووجهتها نحو رسول الله ﷺ، ففي جميع أنحاء العالم بدأت أمطار الرحمة ونسائم الرحمة تنزل وتهب، وبدأت السنابل الجديدة وأكمام الأزهار الجديدة تنمو وتتفتح من بين مخلفات الجليد والثلج والبرد السابق، ومن بين طيات الظلام أشرقت الأنوار التي طاردت الظلام وحصرتها في الزوايا.

الجيوش المحمدية التي كانت تحمل معها النور والضياء إلى مختلف أنحاء العالم، والتي تركت منذ عصرين تقريباً مهمتها، هذه الجيوش بدأت ترجع إلى معابدها التي سبق وأن تركتها وأهملتها، ترجع بكل فخر وبكل زهو غير مبالية بصرخات أعدائها الذين يحاولون إعاقة مسيرتها بالصياح والضوضاء.

أجل، في هذه الأيام تجري المحاولات لوضع البدائل للأنظمة الوضعية التي سبق وأن جاءت في ظل دعاية مكثفة واحتفالات صاخبة ولاسيما النظام الشيوعي الذي تلاحقه اللعنات الآن، إذ كما حاولوا في وقت من الأوقات إظهار "باسكال (Pascal)" و"برغسون

(Bergson)" بديلاً عن موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وذلك تحت اسم الحياة المعنوية، فاليوم يحاولون وضع فكرة استحضار الأرواح (Spiritvalism) وفكرة تناسخ الأرواح (Reıncarnatıon) بديلاً عن الدين.

لقد كانت لدى الإنسانية في جميع أدوارها التاريخية -كما يقول سلطان الشعراء[1]- منبعان: منبع نور، ومنبع وساخة. أجل، لا يختلف الوضع الآن عن أي وضع سابق، فالذين يريدون إحلال نظم عقيدية زائفة محل الدين لا يزالون يبذلون جهودهم في هذا السبيل. ولا يستغرب هذا منهم فهذا هو طبيعة نفوسهم، غير أن الغريب والشيء المستهجن هو قيام البعض عندنا بمحاربة السنة وجعل أنفسهم آلة بيد المستشرقين، إذ قاموا بنشر الشبه حول بعض الصحابة الكرام من أمثال أبي هريرة وأنس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، ومثل هذه المحاولات تحاول المساس برسول الله ﷺ من طرف خفي، ولا يمكن التكهن عن الأبعاد التي ستأخذها في المستقبل، فإذا امتدت هذه المحاولات إلى الرسول ﷺ، فلماذا لا تمتد أيضاً إلى جبريل عليه السلام، مثلما هو موجود في أحد المذاهب الباطلة؟

هذا، بينما السنة ضياء حياتنا ونورها، وهي المعالم والمصابيح التي تنير طريقنا التي تقودنا إلى رضا الله تعالى، ولا يستطيع أكبر الأولياء دونها أن يكون ذا فائدة كبيرة في إرشادنا في هذه الطريق الطويلة. ويعبر أحد الأولياء وهو الإمام الرباني عن هذا المعنى فيقول:

"لقد شاهدت في أثناء السَّيْر[2] بأن السنة النبوية تملك نوراً مختلفاً عن سائر الأنوار. أجل، فأنوار جميع الأولياء المنتشرة في الفضاء كانت تبدو خافتة بجانب نور أقل مسألة من مسائل السنة النبوية السنية"، ذلك لأن جميع الأولياء ليسوا إلا كواكب تحوم حول شمس النبوة الباهرة.. فنسبة أنوار الأولياء بالنسبة إلى النور النبوي هي بنسبة نور هذه الكواكب

---

(١) المقصود هو الشاعر نجيب فاضل (١٩٠٥-١٩٨٣) الذي كان يحمل لقب "سلطان الشعراء" في تركيا. (المترجم)

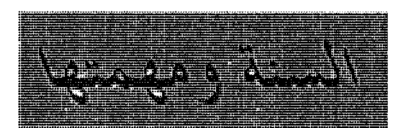
(٢) المقصود هو السير في المراتب القلبية والصوفية. (المترجم)

إلى نور الشمس. وكما قال صاحب "قصيدة البُرْدَة":

فإنه شمس فضل هم كواكبها يُظهرْنَ أنوارها للناس في الظُّلَم

أما الذين يريدون النيل منه وإخفاء نوره فلن يوفقوا، لأنه ما من أحد استطاع أن يستر الشمس بالغربال.. وستبقى السنة النبوية إلى الأبد هادية للبشرية.

الباب الأول:



(أ) ما السنة؟

السنة في معناها اللغوي هي الطريقة أو السيرة سواء أكانت حسنة أم سيئة، ففي الحديث الشريف: «من سنّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.»[1]

ومعنى السنة عند المحدثين والأصوليين والفقهاء هو كما يلي:

فالسنة حسب المحدثين: هي كل ما انتقل إلينا من رسول الله ﷺ من قول أو فعل – سواء بني عليه عمل أم لا– أو نهي، وهي حسب المذهب الحنفي إما فرض أو واجب أو سنة أو مستحب أو... أي هي من شمائل النبي ﷺ وطراز حياته. فالسنة بهذا المعنى مترادفة مع الحديث أو مرادفة له.

أما معناها حسب الأصوليين فمختلفة قليلاً فهي حسب رأيهم: كل قول أو فعل أو تقرير صادر عن رسول الله ﷺ، أي هي كل قول من رسول الله ﷺ وكل تصرف منه وكل تقرير أي كل ما رآه ولم يمنعه أو وافق عليه بسكوته.

أما السنة عند الفقهاء فهي مقابل البدعة في التشريع، أي ينظرون إليها من ناحية كونها تشكل أساساً للفرض أو الواجب أو الحرام.

---

(١) **مسلم**، الزكاة، ٦٩؛ **النسائي**، الزكاة، ٦٤؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ٢٠٣

والحديث مصدر من "حدّث" أي أخبر، ثم أطلق على كل قول أو فعل أو تقرير صادر عن رسول الله ﷺ. يقول ابن حجر بأن الحديث في عُرف الشريعة كل شيء منسوب إلى الرسول ﷺ.(١)

وقد حدس بعض فحول العلماء من كلمة الحديث ما لم يكن إلهي الصفة أي ليس له صفة القدم والإيجاز، وهذا مهم من ناحية الإشارة إلى بدء نقاط الافتراق بين القرآن الكريم وبين السنة. ويؤيد هذا ماجاء في إحدى الأحاديث الواردة في سنن ابن ماجة حيث يقول الرسول ﷺ: «إنما هما اثنان: الكلام والهَدْيُ، فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهَدْيِ هَدْيُ محمد.»(٢)

١- أنواع السنة

نستطيع أن نرجع السنة بعد تعريفها إلى هذه الأنواع:

أ- ﴿ السنة القولية ﴾

أي الأحاديث الكريمة الصادرة عن الرسول ﷺ، فالأحاديث النورانية هذه تكوّن جزءاً من السنة، وهي البيانات التي لم ترد في القرآن الكريم ولكن أخذت في كتب الفقه كأسس لكثير من الأحكام. ونستطيع أن نذكر أمثلة على هذا:

١- يقول الرسول ﷺ: «لا وصية لوارث»،(٣) أي لا يستطيع من يخلف مالاً لورثته أن يوصي بكيفية توزيع ثروته. يستطيع أن يتبرع بجزء من ماله للمؤسسات الخيرية ولكنه لا يستطيع تعيين المقادير التي يأخذها كل وارث من الميراث.

---

(١) «**شرح شرح نخبة الفكر**» لعلي القاري ص١٥٤

(٢) **ابن ماجة**، المقدمة، ٧

(٣) **الترمذي**، الوصايا، ٥؛ **النسائي**، الوصايا، ٥؛ **ابن ماجة**، الوصايا، ٦

٢- هناك حديث آخر دخل ضمن أصول الفقه ومبادئه وهو قوله ﷺ: «لا ضَرر ولا ضِرار»،[(١)] أي لا يجوز الإضرار بأحد ولا مقابلة الإضرار وبالإضرار.

٣- وحديث آخر عن مقدار الزكاة في الزرع: «فيما سقت السماء والعيون العُشر، وما سقي بالنضح نصف العُشر.»[(٢)] وما سقى بالنضح: أي ما سقي بواسطة الحيوانات.

٤- عندما سئل الرسول ﷺ عما إذا كان من الحائز التوضؤ من ماء البحر أجاب بجواب أصبح مصدراً للمئات من الفتاوى إذ قال: «هو الطُّهور ماؤه الحِلُّ مَيتته.»[(٣)]

ب- السنة الفعلية

وهي السنة النابعة عن أفعال رسول الله ﷺ وسلوكه وتصرفاته والتي لم تذكر في القرآن صراحة، فمثلاً ورد في القرآن الكريم أوامر حول أداء الصلاة، وجاء في بعض الآيات أن اركعوا واسجدوا، ومع أنه ورد فيه ذكر بعض الأوقات بشكل عام إلا أنه لم يتم بشكل مفصل ودقيق ذكر الأوقات ولا عدد مرات الصلاة أو عدد الركع ولا كيفية أدائها ولا المفروضة منها أو الواجبة أو النافلة، ولا الأمور التي تبطل الصلاة. كل هذه الأمور بينتها تصرفات النبي ﷺ الذي قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[(٤)] فأشار إلى التشريع الخاص للسنة. وهذا وارد أيضاً بالنسبة لمناسك الحج، فكثير من العلماء أخطأوا في هذا الأمر، وحتى من قاموا بتأليف الرسائل والكتب حول مناسك الحج لم يستطيعوا أداءها دون الاستعانة بإرشاد السنة النبوية. وهناك حادثة مروية عن ابن الهُمام في هذا الموضوع. أي أن مناسك الحج المعقدة بعض الشيء -مثلها في ذلك مثل الصلاة- وضحت بالسنة النبوية.

---

(١) ابن ماجة، الأحكام، ١٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٣١٣/١

(٢) البخاري، الزكاة، ٥٥؛ مسلم، الزكاة، ٧؛ الترمذي، الزكاة، ١٤

(٣) أبو داود، الطهارة، ٤١؛ الترمذي، الطهارة، ٥٢؛ النسائي، الطهارة، ٤٧؛ ابن ماجة، الطهارة، ٣٨

(٤) البخاري، الأذان، ١٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٣/٥

ج- ﴿ السنة التقريرية ﴾

كان رسول الله ﷺ عندما يرى تصرفاً لا يعجبه من بعض أصحابه ينبه هؤلاء الأصحاب دون أن يذكر اسماً معيناً ولا يهتك سراً، إذ يصعد المنبر ويقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.»(١) ومع كونه متسامحاً جداً عندما يتعرض لمعاملة سيئة فلا ينتقم لنفسه بل يصفح، إلا أن الأمر إن تعلق بانتهاك حرمة من حرمات الله فلا يسكت أبداً، ووصفت والدتنا عائشة رضي الله عنها خلقه هذا فقالت: "ما خُيِّر النبي بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثم. فإن كان الإثم كان أبعدهما منه. واللهِ ما انتقم لنفسه في شيء يُوتي إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله."(٢)

وكان أحياناً لا يمنع تصرفاً معيناً بل يسكت عنه، أي يعلن إقراره ورضاءه بسكوته، وهذا يشكل القسم التقريري من السنة.

١- مثلاً خرج صحابيان في سفر فلم يجدا ماء فتيمما وصليا، وبعد مدة وجدا الماء ولم ينقض بعد وقت الصلاة فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة ولم يفعل الآخر. ثم جاءا إلى النبي ﷺ وسألاه رأيه، فقال للذي لم يعد الصلاة «أصبت السنة» وقال للذي أعاد صلاته «لك الأجر مرتين.»(٣)

٢- عندما قرر الرسول ﷺ تأديب قبيلة بني قريظة قال لأصحابه: «لا يصليَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصرَ في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحداً منهم.(٤) وهذا مثال على السنة التقريرية.

---

(١) البخاري، الصلاة، ٧٠؛ مسلم، النكاح، ٥

(٢) البخاري، الحدود، ١٠ ؛ مسلم، فضائل، ٧٧، ٧٨ ؛ أبو داود، الأدب، ٤

(٣) أبو داود، الطهارة، ١٢٦؛ الدارمي، الطهارة، ٦٥

(٤) البخاري، المغازي، ٣٠، الخوف، ٥؛ مسلم، الجهاد، ٦٩

٢- السنة في القرآن الكريم

السنة روح حياتنا، والقرآن الكريم يقرر السنة ويؤكدها، لا بل يعدها أساساً في الإسلام لا يجوز الاستغناء عنه أبداً، وإليكم بعض الآيات في هذا الشأن:

أ- ترد عدة آيات تشبه إحداها الأخرى مع وجود فوارق قليلة بينها وبالمعنى التالي: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾ (الجمعة: ٢)

والكثرة الغالبة من المفسرين الكرام فسروا الكلمة "الحكمة" بـ"السنة". ذلك لأن القرآن ليس كتاباً تحشر فيه الكلمات كيفما اتفق، أو يُستعمل فيه الإطناب والتطويل دون معنى أو غاية، ولا يمكن أن يكون المقصود من "الحكمة" في الآية الكريمة هو "الكتاب" أو جزء منه، لأنه ما كان يجوز آنذاك عطف "الحكمة" على "الكتاب". والمقصود من "الكتاب" هنا -كما ورد في أماكن أخرى عديدة- هو القرآن الكريم. أما الحكمة فالمقصود منها هو السنة الصادرة من النبي ﷺ التي تفصل مجمل الكتاب أو تفسر مبهمه، أو تخصص عمومه، أو تقيد مطلقه.

ب- وفي آية أخرى يقول الله تعالى بأنه لا يرسل الرسل إلا ليطاعوا: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا لِيُطاع بإذن الله﴾ (النساء: ٦٤). يرسل الله تعالى الأنبياء لكي يُطاعوا، وليس إطاعة النبي إطاعة لشخصه بل لكونه وسيلة إلى الهدى المادي والمعنوي للفرد وللمجتمع، ولكونه مبلغاً عن الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تَوَلَّوْا عنه﴾ (الأنفال: ٢٠)، و﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ (النساء: ٥٩ والنور: ٥٤).

وإطاعة الله الواردة في الآيات ليست مثل إطاعة الرسول، فإطاعة الله تكون باتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، واتباع الرسول تكون باتباع سنته أي باتباع أوامره ونواهيه وأفعاله وما صدر عنه من إقرار، وهذا أمر واضح من أوامر القرآن الكريم. ذلك لأنه

خارج إطاعة أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه المبلغة بواسطة الرسول ﷺ هناك أوامر ونواهٍ مستقلة موجودة في السنة النبوية، وهناك ترغيب وترهيب ونصائح فيها حيث يقول الرسول ﷺ في هذا الأمر: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه.»[1]

وقد ورد في الآيات السابقة الأمر بالإطاعة مرتين: مرة بإطاعة الله تعالى، ومرة بإطاعة النبي ﷺ ثم أعقب بأمر "ولا تولوا عنه"، وهذا أمر باتباع السنة بل إشارة إلى أن التهوين من أمرها يُعد نوعاً من الارتداد.

ج- وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم تتعلق بهذا الموضوع نورد بعضها:

جـ١- ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩).

إذن، فبينما تأمر هذه الآية الكريمة المؤمنين بإطاعة أُولي الأمر منهم الآتين بعد الرسول ﷺ فكيف يمكن أن يخطر على البال عدم إطاعة فخر الكائنات؟ وكيف يمكن النظر إلى أحاديثه وأقواله وتصرفاته نظرة لامبالاة؟ وكيف يتصور عدم وجود صلاحية الأمر والنهي عنده؟

جـ٢- ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتَفْشَلوا وتذهبَ ريحُكم واصبِروا﴾ (الأنفال ٤٦).

تعد هذه الآية إطاعة الله ورسوله مصدر النصرة والقوة والوحدة وأساس الدولة. وعندما يتم البعد عن طاعة الرسول ﷺ، أو عند عدم معرفة إمام المسلمين أو عدم طاعته يظهر التيه فلا يدري أحد إلى أين يتجه، إذن، فالسبيل الوحيد لعدم الوقوع في النزاع والاضطراب هو إطاعة الرسول ﷺ والاقتداء به، لذا تقول الآية الكريمة: ﴿فإن تنازعتم في شيء فرُدُّوه إلى الله والرسول﴾ (النساء: ٥٩).

إذن، فهذه هي الحقيقة.. حقيقة أن الرسول ﷺ وسنته هي التي تستطيع تأمين وحدتنا

---

(١) أبو داود، السنة، ٥

وقوتنا. لذا، ألا يفكر من يقف ضد السنة إلى أي شيء سيقودنا إنكار السنة وعدم إتباعها؟

جـ٣- ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران: ٣١).

محبة الله تعالى تعني محبة الرسول ﷺ، ومحبة الرسول ﷺ تعني محبة الله تعالى. فلا يمكن أن تحب الله تعالى دون أن تحب نبيه ودون أن تتبع سنته، وأي ادعاء بحب الله دون حب رسوله ادعاء فارغ وباطل.

جـ٤- ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوا اللهَ واليومَ الآخِرَ وذكَرَ اللهَ كثيراً﴾ (الأحزاب: ٢١) إذن، فالطريقة الوحيدة للعثور على الصراط المستقيم من بين السبل الكثيرة والاتجاهات المتعددة هي اتباع الإنسان الذي يمثل الاستقامة واتباع سنته.

جـ٥- ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم﴾ (النساء: ٦٥).

في رواية أن امرأة يقال لها أمّ يعقوب -وكانت تقرأ القرآن- أتت عبد الله بن مسعود فقالت له: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن والمغيّرات خَلْق الله؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ؟ وهو في كتاب الله. فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته. فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر: ٧). ذلك لأن مثل هذا الحديث وارد عن الرسول ﷺ.[(١)]

٣- السنة في الأحاديث

بينت الأحاديث كذلك أهمية السنة وموقعها المتميز، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله.»[(٢)]

---

(١) **البخاري**، البيوع، ٢٥ ؛ **مسلم**، اللباس، ١٢٠ ؛ **الترمذي**، اللباس، ٢٥

(٢) **البخاري**، الأحكام، ١؛ **مسلم**، الإمارة، ٣٢-٣٣؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١

طريق النبوة هو الطريق إلى الله، والسير خلف النبي هو السير في الطريق المنير المؤدي إلى الله. لذا، كان رفض السنة وإبعادها خارج الحياة والتمرد عليها تمرداً على الله تعالى. فالله تعالى يختار إنساناً ذا روح صافية تعكس كل ما يتلقاه دون أي خطأ أو قصور، ويصطفيه من بين الناس ليرسل رسالته بواسطته إلى الإنسانية جمعاء، ويقوم هذا الرسول الكريم بشرح هذه الرسالة وتفسيرها وتقديمها إلينا، ثم يقوم البعض ممن فقدوا توازنهم بأخذ موقف عدائي ضد هذا الرسول. مثل هذا الموقف يعد عصياناً لله تعالى وتمرداً عليه يستحق صاحبه دخول جهنم، ففي حديث ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى.» قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»[(١)]

وهناك حديث آخر ورد في سنن أبي داود والترمذي: «فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ» وتتمة هذا الحديث تؤكد أيضاً على الأهمية الفائقة للسنة «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة.»[(٢)]

وهناك حديث مشتهر على الألسن يقول: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد.»[(٣)] ونحن نسوق لهؤلاء الذين يفتشون عن طريق آخر غير طريق السنة، نسوق لهم السؤال القرآني: ﴿فأين تذهبون﴾ ؟

---

(١) البخاري، الاعتصام، ٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٦١/٢

(٢) أبو داود، السنة، ٥؛ الترمذي، العلم، ١٦؛ ابن ماجة، المقدمة، ٦

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٧٢/١؛ «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٢٠٠/٨؛ «الفردوس» للديلمي ١٩٨/٤

﴿ب﴾ وظيفة السنة

السنة مصدر آخر للتشريع بجانب القرآن الكريم، تقوم -مثل القرآن الكريم- بتحليل بعض الأشياء وتحريم أخرى، وتضع مقاييس الفرض والواجب والسنة والمستحب والمباح والمكروه، كما تقوم بتفصيل مجمل القرآن وتفسير مبهمه وتخصيص عامه وتقييد مطلقه. والآن لنشرح هذه الأمور بعض الشيء.

١- تفسير القرآن

نقرأ كل يوم في صلاتنا سورة الفاتحة ونتضرع إلى الله تعالى بأن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. ومع أن صفة المغضوب عليهم وصفة الضالين صفتان عامتان فهناك حديث شريف يقول: «فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضُلاّل.»(١) وهكذا يقوم الحديث بتفسير القرآن. فاليهود استحقوا الغضب منذ تاريخهم الماضي المظلم وفي أثناء العهد النبوي، وهم أول من يتبادرون إلى الذهن في هذا الخصوص على قاعدة أن "مطلق الذكر ينصرف نحو الكمال"، لأنه لا يوجد أحد مثلهم يستحقون الغضب، وذلك بقتلهم الأنبياء وبأخلاقهم الخسيسة وعاداتهم السيئة وعبادتهم للمال وكونهم حتى الآن ممثلي المادية في القرن العشرين، لذا فلا يملك الإنسان إلا الموافقة على هذا التفسير النبوي الشريف. ولاشك أن هذا الغضب الإلهي يشمل كل من اتصف بهذه الأخلاق اليهودية.

ومن جانب آخر فإن النصارى الذين ساروا في أول الأمر على الهدى وعلى الصراط المستقيم واستمسكوا بكل شجاعة بدينهم الذي لم يكن سوى الدين الإسلامي الحنيف.. هؤلاء النصارى ضلوا الطريق لأسباب عديدة، أي سقطوا في الضلالة، لذا دخلوا ضمن

---

(١) **الترمذي**، تفسير القرآن، (١) ٢؛ ٤٢ **«جامع البيان»** للطبري ١/٦١، ٦٤

صفة "الضالين" لذا، قال الرسول ﷺ بحقهم «وإن النصارى ضُلّال» لأنهم قلبوا التوحيد إلى التثليث وغيروا الكتاب وحرفوه، لذا انطبقت عليهم صفة "الضالين" انطباقاً تاماً. وسواء أكان الرسول ﷺ يقصد بهذا التفسير أقواماً معينين أم سلوكاً خاصاً، فلو لم يقم بهذا التفسير ما كان باستطاعتنا معرفة هذه الحقيقة المبهمة. وهكذا قام الرسول ﷺ بهذا التفسير بتوجيه الأنظار إلى بعض الأقوام وكذلك إلى بعض الحالات النفسية المنحرفة، وبين من وقع ولماذا وقع وبأي الأعمال استحق الغضب أو استحق الضلالة بياناً واضحاً.

عندما نزلت آية: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانَهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام: ٨٢) قلق الصحابة الذين كانوا يعرفون معنى الظلم وأنه الخروج خارج الحق والحقيقة، فقالوا للرسول ﷺ: وأينا لم يظلم؟ فقال الرسول ﷺ بأن الأمر ليس كما يظنون، وذكرهم بقول لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه: ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان: ١٣).[1]

عرفنا من تفسيره ﷺ لهذه الآية أن الظلم المقصود هنا هو الشرك وليس أي ظلم أو تجاوز أو تعدٍ آخر. ولو لم يقم الرسول ﷺ بهذا التفسير لبقينا إلى الأبد تحت غموض وإبهام.

ويُروى عن أمنا عائشة رضي الله عنها وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن "الصلاة الوسطى" الواردة في الآية ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ (البقرة: ٢٣٨) هي صلاة العصر إلى درجة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقرأ هذه الآية كما يلي: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين." وقال أبو يونس مولى عائشة رضي الله عنها: أمرتني عائشة رضي الله عنها أن أكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ فلما بلغتها أذنتها فأملت عليّ ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وصلاة العصر ﴿وقوموا لله قانتين﴾ وقالت: سمعتها من رسول الله ﷺ.[2]

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة، (٦) ٣؛ **مسلم**، إيمان، ١٢٤

(٢) **مسلم**، المساجد، ٢٠٧؛ **الترمذي**، تفسير القرآن، (٢) ٢٩؛ **أبو داود**، الصلاة، ٥

٢- قيام السنة بتفسير مجمل القرآن

إلى جانب قيام السنة بتفسير مبهم القرآن قامت بتفصيل مجمله أيضاً.

مثلاً يأمر القرآن الكريم فيقول: ﴿أقيموا الصلاة﴾ ولكنه لا يوضح إقامة الصلاة ولا أوقاتها. صحيح أن بعض المفسرين ﷺ استنبطوا الصلوات الخمسة من الآية التالية: ﴿وأقم الصلاة طرفَيِ النهار وزُلَفاً من الليل إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات﴾ (هود: ١١٤)، إلا أن السنة هي التي حددت أوقات هذه الصلوات التي يذكر الله تعالى بأنها مرتبطة بأوقات معينة: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ (النساء: ١٠٣). فهناك حديث يبين أن أوقات الصلاة عينها جبريل عليه السلام، أي أن مصدرها سماوي وإلهي، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ:

«أمّني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس وكانت قدر الشِّراك،[1] وصلى بي العصر حين كان ظلُّه مثله، وصلى بي -يعني المغرب- حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله، وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلى بي الفجر فأسفر ثم التفت إليّ فقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين.»[2]

فلما قام رسول الله ﷺ بتعليم أمته بأوقات الصلاة فهو المرجع الوحيد لأمور كثيرة متعلقة بالصلاة مثل أقسامها من فرض أو واجب أو مستحب أو مكروه وما يفسدها، وشرح ركوعها وسجودها وقراءة التحيات فيها والخروج منها بالسلام. أجل، فهو المفسر

---

(١) **الشِّراك**: النعل المعدني الذي يدق في قدم الحصان.

(٢) **أبو داود**، الصلاة، ٢؛ **الترمذي**، المواقيت، ١

الوحيد للصلاة التي جاء الأمر بها في القرآن الكريم بصيغة مجملة وهي ﴿أقيموا الصلاة﴾، إذ قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي.»[١] ولو قام القرآن بإعطاء كل تفاصيل الصلاة لزاد حجمه مرتين على الحجم الحالي، لذا ترك إيضاح هذه التفاصيل إلى صاحب الفطنة الكبيرة الذي هو أفضل من فهم عن ربه، وقام فعلاً بنقل هذا الوحي غير المتلو إلينا بالتفصيل المطلوب، وقد أنجز هذا بالفطنة التي تعني تجاوز العقل بالعقل والاستعانة بالإلهام في المواضيع التي يقف فيها العقل.

والسنة هي التي شرحت مناسك الحج أيضاً. صحيح أن القرآن تناول موضوع الحج في موضع أو موضعين وقدم بعض الشروح القيمة، ولكن هذه الشروح تناولت جزءاً من مناسك الحج، لذا نرى أن السنة هي التي قامت بتفصيل وشرح جميع مناسك الحج، وهذه التفاصيل هي أضعاف ما ورد في القرآن الكريم. وقد أدى الرسول ﷺ الحج مرة واحدة، هذا الحج سمي بـ"حجة الوداع" لأنه ودع فيه أصحابه، وأدى مناسك الحج وهو راكب على بغلته بحيث يراه الجميع. شرح كل شيء بكلامه ثم بأفعاله إلى درجة التصريح بكونه صائماً أم مفطراً، وبعد أن أتم هذا قال لهم: «خذوا مناسككم»[٢] مشيراً إلى موقع كلامه وأفعاله في الشريعة. ولا شك أن القرآن الكريم لم يأتِ ناقصاً ولكنه جاء مع مبلغه ومع شارحه ومفسره الرسول ﷺ.

٣- قيام السنة بتخصيص بعض الأحكام

تناول القرآن الكريم الميراث بشكل عام فقال: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ (النساء، ١١). وهذا الحكم عام يشمل الجميع سواء أكانوا أنبياء أم أولياء أم أصفياء أم من المقربين أم من الناس الاعتياديين، غير أن فاطمة رضي الله عنها عندما

(١) البخاري، الأذان، ١٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٣/٥

(٢) مسلم، الحج، ٣١٠؛ أبو داود، المناسك، ٧٧؛ النسائي، المناسك، ٢٢٠؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٦٦/٣

راجعت أبا بكر ﷺ بعد وفاة والدها لأخذ ميراثه قرأ أبو بكر ﷺ هذا الحديث الذي سمعه عن والدها النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة.»(١)

كما أن حديث «القاتل لا يَرِث»(٢) يحرم القاتل من الميراث، فمن يقتل والده يحرم من ميراثه ومن يقتل عمه يحرم من ميراثه وكذلك من يقتل خاله أو أخاه. وهكذا قامت السنة بتقييد الحكم العام الذي جاء به القرآن في موضوع الميراث.

٤- تقييد السنة لبعض الأحكام

تقوم السنة أحياناً بتقييد بعض الأحكام العامة الواردة في القرآن الكريم، فمثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله﴾ (المائدة: ٣٨). هذا أمر مطلق، ولم يتم شرح الشروط والظروف التي يجب توفرها لإجراء هذا العقاب ولا نصاب السرقة ولا مقدار ما يقطع من اليد، وبما أن اليد تمتد من الأطراف حتى المرفق حسب الآية التي تشرح الوضوء(٣) لذا، قامت السنة المطهرة بتقييد الجزء الذي يقطع من اليد، أي قامت بتقييد حكم مطلق في القرآن. وعندما أمر النبي ﷺ بقطع يد أحد السراق من الكف فقد قيد ما جاء في القرآن في هذا الخصوص من حكم عام.

ومثال آخر، يقول القرآن الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾ (النساء. ٢٩). وتأتي السنة هنا فتقيد هذه الآية في موضوع معين، إذ ورد حديث شريف عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله

---

(١) البخاري، الاعتصام، ٥؛ الخُمُس، ١؛ مسلم، الجهاد، ٥١؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٦٣/٢

(٢) الترمذي، الفرائص، ١٧؛ ابن ماجة، الديات، ١٤

(٣) قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكمْ إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ (المائدة: ٦).

ﷺ قال: «لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه.»[١]

وكما قلنا سابقاً فالسنة أساس مستقل في التشريع لكونها تضع أحكاماً غير واردة في القرآن. ومن الأمثلة على ذلك تحريمها لحم الحمر الأهلية ولحوم الضواري وتحريمها الزواج بخالة الزوجة وعمتها.

والسنة التي تعد أساساً مستقلاً في التشريع بدأت في إجراء عملها ومهمتها منذ بداية الوحي، والتحمت مع القرآن الكريم، وتم النظر إليها من هذا المنظار من قبل جمهور العلماء وجمهور الأمة. ولكنها تعرضت إلى هجوم من قبل المعتزلة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية مثل النظّام، ومن قبل المستشرقين الحاقدين على الإسلام الذين حاولوا على الدوام تعكير هذا النبع الصافي. وفي القرنين الأخيرين تأثر بعض رجال العلم المسلمين بهؤلاء المستشرقين بسبب مركب النقص عندهم تجاه الغرب، وأصبحوا أداة بيد المستشرقين، وبدأوا باتهام السنة والتهوين من شأنها. غير أن جهود السلف الصالح وما خلفوه من كتب وآثار قيمة استطاعت أن تقف في وجه هذه الحملات، وحافظت على صفاء هذا النبع ونقائه.. نبع السنة النبوية المطهرة.

---

(١) **البخاري**، البيوع، ٨٢؛ **مسلم**، البيوع، ٥١

الباب الثاني:

تدوين السنة

إن السنة التي تعد أحد الأركان الأساسية في الإسلام تدخل ضمن وعد الله تعالى بالحفظ بالآية الكريمة: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩). لذا، فقد دونت مثلما دون القرآن الكريم وحفظت عن ظهر قلب ووصلت إلينا دون تغيير، لذا سنتناول هذه الحادثة السعيدة من ناحية الأسباب وتطور مراحلها وخصائصها.

(أ) ضرورة تدوين السنة

السنة هي طريقة معيشة رسول الله ﷺ، وأسلوب الحياة الإسلامية وأنموذج لكيفية التخلق بخلق الله ورسوله. فقد جعله الله تعالى أسوة وقدوة للناس ومناراً للهدى ومعلماً للحق، وقد قام الرسول ﷺ بهذا بتوجيهاته وأقواله وأفعاله وما أقره من تصرفات أو عمل، أي قام بهذا بسنته.

السنة نافذة مفتوحة على رسول الله ﷺ، وطريق مبارك موصل إلى يمن الإسلام وبركته، فمن أراد الهدى بخلوص قلب وصفاء نية أسرعت السنة النبوية لإجابة طلبه وتحقيق غايته وإرشاده إلى النور.

(ب) العوامل المؤثرة في تدوين السنة

أدرك الصحابة أهمية السنة إدراكاً جيداً، فالقرآن كان يتنزل عليه وكان يقوم بتبليغه إليهم وشرحه وتفسيره وعيشه، أي توفرت لديه كل عوامل الفهم والإدراك.

١- حث القرآن للاهتمام بالسنة

يقول القرآن الكريم: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (الحشر: ٧). فاسم الموصول "ما" الموجود في الآية الكريمة تشمل الوحي المتلوّ أي القرآن والوحي غير المتلوّ أي الأحاديث القدسية والأحاديث الشريفة، وحرف "ف" هنا يوجب الاتباع والإطاعة. وكذلك نرى وجوب الانتهاء والابتعاد عن كل ما نهى عنه الرسول ﷺ، وتستمر الآية فتقول ﴿واتقوا الله﴾ أي أن هذه الطاعة مسألة من مسائل التقوى يجب تنفيذها بكل دقة وحساسية.

وقد فهم الصحابة هذا الأمر جيداً، وعلموا أنهم لن يحصلوا على تقوى الله إلا باتباع كل حديث وكل تقرير وكل فعل للرسول ﷺ. ولما كانت الآية الكريمة تنتهي بـ﴿إن الله شديد العقاب﴾ فما كان أي واحد منهم ليجرؤ على أخذ هذا التهديد إلا بمأخذ الجد، لأنهم كانوا أفضل كادر وجماعة سعت إلى رضوان الله تعالى وإلى التقرب إليه.

ويقول القرآن كذلك: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (الأحزاب: ٢١)، فيعلن بذلك أن التمسك بالسنة النبوية هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى ساحل السلامة والأمن، وهو السبيل القويم الوحيد من بين السبل العديدة والطرق الكثيرة المتعرجة. وقد أدرك الصحابة الكرام هذا وأن سبيل النجاة هو في الالتحاق بقافلته ﷺ وركوب سفينته وأنهم إن فعلوا هذا استحقوا شفاعته يوم القيامة حيث يسجد وهو يقول: «أمتي!.. أمتي!..» فيقال له: "يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفعْ تُشفَّع."[(١)]

وهم يعرفون أن الويل هو للشخص الذي لن يعرفه الرسول ﷺ في البرزخ وفي المحشر وعلى الصراط يوم القيامة. لذا، كانوا يتتبعون كل حركة من حركاته وكل سكنة من

---

(١) البخاري، تفسير سورة (٢) ٤؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٢

سكناته ويلاحظونها بدقة، حتى تعابير وجهه ونظرات عينيه أو تبسم شفتيه.. يلاحظونها ويفهمونها ثم ينقلونها، لأنهم سمعوا من فمه المبارك هذا والحديث: «نضَّر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يُبَلِّغه غيره.» وفي رواية أخرى: «نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني.»(١)

٢- حث الرسول ﷺ للاهتمام بالسنة

وكما جاء في الحديث السابق فقد حث الرسول ﷺ المسلمين على فهم مقالته وأحاديثه وعلى وعيها وتبليغها ويدعو الله أن ينضر وجه من يفعل ذلك، ذلك لأن دوام مهمته وبقاء الدين الذي جاء يبلغ به وإنقاذ البشرية مرتبط ومتعلق بهذا.

وفد وفد من قبيلة عبد القيس بعد فتح مكة إلى الرسول ﷺ وقالوا: "يا رسول الله! إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر، فمرنا بأمرٍ فصْلٍ نُخبر به مَنْ وراءنا وندخل به الجنة"، فأمرهم الرسول ﷺ ببعض الأمور ونهاهم عن بعضها ثم قال لهم: «احفظوه وأخبروا به من وراءكم»(٢) أي أمرهم بحفظ حديثه.

وخطبهم خطبة الوداع في حجة الوداع، فلما انتهى قال: «لِيبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فإن الشاهد عسى أن يُبلِّغ من هو أوعى منه.»(٣) ونراه في حديث آخر يحذر من كتم العلم: «من سئل عن علم ثم كتمه أُلجِم يوم القيامة بلِجام من نار.»(٤)

فكما أدرك الصحابة الكرام قيمة السنة وضرورتها أدركوا وجوب وضرورة نقلها وتبليغها، فكما كانوا ينتشون ويسعدون من حث الرسول ﷺ لهم كانوا يرتجفون عندما

---

(١) **الترمذي**، العلم، ٧؛ **أبو داود**، العلم، ١٠؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١٨

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٤٠؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٤

(٣) **البخاري**، العلم، ٩؛ **مسلم**، القسامة، ٢٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٤١/٥

(٤) **الترمذي**، العلم، ٣؛ **أبو داود**، العلم، ٩؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ٢٤

يسمعون وعيده وتخويفه، كما كانوا في الوقت نفسه يسمعون تهديد القرآن الكريم لمن يكتم العلم: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ (البقرة، ١٧٤). فمثل هذه الآيات كانت تخوفهم وترعبهم، لذا أقبلوا على الكتاب وعلى السنة يفهمونهما ويقومون بتبليغهما إلى الآخرين.

وكما كان الرسول ﷺ يعلم الصحابة القرآن الكريم كان يعلمهم السنة كذلك. فقد روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "علمني رسول الله ﷺ التشهد كفّي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن."[(١)] وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "كان رسول الله يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن."[(٢)]

كان رسول الله ﷺ يتحدث ببطء لكي يفهم السامعون كلامه جيداً، وكان يكرر بعض كلامه ثلاثاً. عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه.[(٣)] وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم.[(٤)]

ولم يكتف بهذا بل شجع أصحابه على الاجتماع وتدارس كتاب الله وشؤون الدين، ففي حديث له يقول الرسول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكَرهم الله فيمن عنده.»[(٥)] وهكذا كان الرسول ﷺ يحث أصحابه على تدارس كتاب الله ومعرفة معانيه وتدارس السنة التي هي تفسير كتاب الله.

---

(١) **مسلم**، الصلاة، ٦١؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٧٨

(٢) **البخاري**، التهجد، ٢٥؛ **أبو داود**، الوتر، ٣١؛ **الترمذي**، الوتر، ١٨

(٣) **البخاري**، المناقب، ٢٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٦٠

(٤) **البخاري**، المناقب، ٢٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٦٠

(٥) **مسلم**، الذكر، ٣٨؛ **الترمذي**، القراءات، ١٠؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢/٣

٣- شوق الصحابة الكرام

كان شوق الصحابة الكرام لمعرفة معاني القرآن الكريم والسنة النبوية ونقل ما علموه إلى الآخرين كبيراً، فقد علموا أنهم كانوا على شفا حفرة من النار، وأن الله تعالى أنقذهم منها بإرساله هذا الرسول الكريم إليهم، لذا صرفوا جل اهتمامهم لمعرفة أحاديثه السنية وأفعاله وما أقره وما نهى عنه، ويتذاكرون هذا فيما بينهم.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه."[1] وكان أصحاب الصُّفّة بالأخص يقومون بإحياء الليل بالصلاة وقراءة القرآن وتدارسه، حتى أن عدد المتحلقين حول معلم واحد هناك كان يبلغ أحياناً سبعين شخصاً، وكان الدرس يمتد أحياناً حتى الصباح.

كانوا يسمعون من الرسول ﷺ حثاً على هذا التدارس، فمثلاً يسمعونه وهو يقول: «من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله.»[2] لذا، فما أن يتعلم أحد الصحابة عنه شيئاً حتى يقوم بتبليغ ذلك إلى غيره في شوق وفي سعادة لكي يستفيد الآخرون من علمه. ولم يكن هذا مقتصراً على الرجال فقط، فالنساء كن يشاركن الرجال في هذا الأمر ولا يتأخرن عنهم.

كان النساء يصلين في المسجد خلف صفوف الرجال والصغار، فكن لا يسمعن جيداً ما يقوله الرسول ﷺ، وأحيانا كان الرجال يملأون المسجد فلا يبقى لهن موضع فيه، فاشتكين إليه وقلن له: "غَلَبَنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك."[3] فوعدهن الرسول ﷺ خيراً واستجاب لطلبهن ورتب لهن اجتماعاً معه ووعظهن وأجاب عن أسئلتهن.

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٦١/١؛ «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ٣٦٣/١-٣٦٤

(٢) ابن ماجة، المقدمة، ١٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٥٠/٢، ٤١٨

(٣) البخاري، العلم، ٣٦، الجنائز، ٦؛ مسلم، البر والصلة، ١٥٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٤/٣

كانت زوجات الرسول ﷺ معلمات للنساء، فكن ينقلن ما يفهمن من القرآن والسنة إلى الأخريات بحكم عيشهن معه ﷺ. وكان الرسول ﷺ يهتم بتعليم زوجاته لكي ينقلن عنه إلى النساء الأخريات وإلى الأجيال القادمة أيضاً. فكان ما يقوله لهن وما يشاهدنه ينتقل بواسطة أمّنا صفية رضي الله عنها إلى أهالي خيبر، وبواسطة أمّنا ميمونة رضي الله عنها إلى بني عامر بن صعصعة، وبواسطة أمنا أم سلمة رضي الله عنها إلى بني مخزوم، وعن طريق أمنا أم حبيبة رضي الله عنها إلى بني أمية، وعن طريق أمنا جويرية رضي الله عنها إلى بني المصطلق. فهؤلاء الزوجات الطاهرات لم يكن يقصرن في وظيفة الإرشاد والتبليغ عن رسول الله ﷺ إلى قبائلهن وأقاربهن، وكانت هذه القبائل تفتخر بمصاهرتها مع الرسول ﷺ.

٤- كلمات خلفت بصماتها وحوادث خلدت نفسها

كان رسول الله ﷺ يتحدث أحياناً في مناسبات حيوية وهامة بكلام لايمكن إلا استقراره في الأذهان حيث لا يمكن نسيانه أبداً، لأن الحوادث التي قيل فيها مثل هذا الكلام كانت حوادث مهمة لاسبيل إلى نسيانها، وكلما خطرت هذه الحوادث على الأذهان خطر معها ما قاله الرسول ﷺ فيها. لنعط بعض الأمثلة:

أ- عندما مات الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه حزن رسول الله ﷺ عليه وبكى، ولم يكن يبكي عادة خلف ميت، ولكنه بكى خلف حمزة وعثمان بن مظعون رضي الله عنه. روى ابن عباس أن النبي ﷺ دخل على عثمان بن مظعون حين مات فقالت زوجته أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه؟» فقالت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أما عثمان، فقد جاءه واللهِ اليقين، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل به!» قالت: فوالله لا أزكّي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك. فنامت فأُريتْ لعثمان عيناً تجري، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ذلك

عمله»(١) فهذه الحادثة ما كان بإمكان من شاهدها نسيانها أو نسيان ما قيل فيها.

ب- ومثلاً قاتل قُزْمان في معركة أُحد قتالاً شديداً وأبدى شجاعة فائقة، وعندما مات من جراحه في المعركة ظنوا أنه مات شهيداً وغبطه الكثيرون، ولكن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه من أهل النار، فتعجبوا حتى جاء الخبر بأنه لم يمت في المعركة بل جرح جرحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، كما أن بعضهم سمعه وهو يقول بأنه لم يقاتل في سبيل الله بل قاتل حمية. فأمر رسول الله ﷺ بلالاً قائلاً: «يا بلال! قم فأذِّن؛ لا يدخل الجنة إلا مؤمن. وإن الله لَيؤيِّد هذا الدينَ بالرجل الفاجر.»(٢) فكلما تذكر معركة أُحد هل يمكن نسيان هذا الحديث الذي قيل في هذه المناسبة؟

ج- يروي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحادثة التالية: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مرّوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إني رأيته في النار، في بُرْدة غَلَّها(٣) أو عباءة.» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنةَ إلا المؤمنون.»(٤)

إذن، فكلما جاء ذكر معركة خيبر وجاء ذكر الشهداء وجاء ذكر الغنائم وجاء ذكر أوصاف من يدخلون الجنة تذكر الصحابة ما قاله الرسول ﷺ في تلك المعركة في هذا الخصوص، إذ لا يمكن نسيان هذه الحادثة ولا نسيان ما قاله الرسول ﷺ فيها.

أجل، لقد كانت الحقائق القدسية التي تذكرها السنة النبوية السنية تلتحم في الأذهان والقلوب مع الحوادث الجارية بشكل لا يمكن للأيام والسنين محْوها، إذن، فلم ينس

---

(١) **البخاري**، الشهادات، ٣٠ ؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٣٧/١، ٣٣٥

(٢) **البخاري**، القدر، ٥؛ **مسلم**، الإيمان، ١٧٨

(٣) **الغُلول**: هو الخيانة في الشيء وفي الغنيمة خاصةً.

(٤) **مسلم**، الإيمان، ١٨٢؛ **الترمذي**، السير، ٢١؛ **الدارمي**، السير، ٤٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٠/١

الصحابة هذه الأحاديث، بل نقشوها في أذهانهم وحفظوها في قلوبهم وأرواحهم، وعاشوها في حياتهم ثم قاموا بنقلها تامة ومحفوظة إلى الأجيال القادمة.

د- كان الصحابة الكرام يوقرون النبي ﷺ توقيراً كبيراً ويتصرفون أمامه بأدب واحترام كبيرين، وكلما زادت معرفتهم ومرتبتهم زاد احترامهم وتوقيرهم وأدبهم تجاهه، حتى أنهم كانوا يستحون أحياناً من سؤاله فينتظرون من يتجرأ على السؤال. وفي أحد الأيام جاء رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال بغلظة وجفاء: أيكم محمد؟ -والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم- فقال الصحابة: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابنَ عبد المطلب! فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتُك.» فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجدْ عليّ في نفسك. فقال: «سل عما بدا لك» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم.» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم.» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم.» فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَنْ ورائي من قومي، وأنا ضِمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.(١)

والآن هل يستطيع ضِمام بن ثعلبة أو قومه أو جميع الصحابة الكرام الذين شهدوا عدم احترامه في بدء الأمر ثم صدق إيمانه في الأخير؟ هل يمكن لأحد أن ينسى هذه الحادثة، أو ما قاله الرسول ﷺ آنذاك؟ كلا.. أبدا، إذ لا يمكن نسيان هذه الحادثة التي حفرت نفسها في العقول والأفهام.

هـ- استدعى الرسول ﷺ مرة أُبيّ بن كعب وقال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك

(١) البخاري، العلم، ٦؛ أبو داود، الصلاة، ٢٣؛ ابن ماجة، الإقامة، ١٩٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٦٤/١

﴿لم يكن الذين كفروا﴾ (البينة: ١)» قال: وسمّاني؟ قال: «نعم.» فبكى.[١] بعد هذه الحادثة كان بإمكان ابن أبي أن يقول مفتخراً: "أنا ابن من قرأ الرسول عليه سورة البينة بأمر من الله تعالى." فهذه حادثة حفرت في ذاكرة أُبيّ بن كعب وأولاده وأحفاده.

٥- دقة الصحابة وجديتهم

كان الصحابة الكرام كأنهم خططوا وبُرمجوا على حفظ القرآن والسنة وعدم إضاعة حرف واحد منهما، وما كانوا يحتملون مثل هذا الضياع. والرسول ﷺ نفسه كان يبدي الاهتمام نفسه، فعند نزول الوحي كان يستعجل في قراءة الآيات واستعادتها مخافة النسيان حتى طمأنه الله تعالى ذاكراً له ألا يقلق لأنه سيحفظ هذا القرآن وقال له: ﴿لا تحرِّك به لسانك لِتَعجَل به إن علينا جمعَه وقرآنَه﴾ (القيامة: ١٧).

أجل، فكما كان الرسول ﷺ يبدي غاية الحرص والاهتمام والدقة في الحفاظ على الوحي الإلهي الملقى عليه، كان الصحابة الكرام أيضاً يبدون غاية الحرص والاهتمام لكل كلمة أو حرف يخرج من بين شفتي الرسول ﷺ، إذ كانوا يعرفون أنهم أمام فرصة لا تتكرر مرة أخرى.. فرسول الله ﷺ كان يشرح لهم ويعلمهم دينهم ويفسر لهم القرآن ويبين لهم أسس السعادة في حياتهم الأبدية، لذا ما كانوا يرغبون بقاء أي شيء غامض أو مبهم لديهم.

في السنوات الأولى للخلافة الأموية كان المجاهدون المسلمون يقاتلون على أبواب إسطنبول، وعن إحدى المعارك التي جرت هناك ننقل هذه الرواية عن أسلم أبي عمران التُّجيبيّ قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عُبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا:

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٩٨) ١-٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٢

سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب فقال: "يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لماّ أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يردّ علينا ما قلنا ﴿وأَنفِقوا في سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة: ١٩٥)، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترْكِنا الغزو." فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم.[1]

وهكذا نرى الصحابة يتعلمون دينهم عن الرسول ﷺ على الوجه الصحيح ويحفظون ما تعلموه، ثم يعلمونه للآخرين.

٦- الجو الجديد الذي أنشأه القرآن والسنة

كان كل ما جاء به القرآن آنذاك لذلك المجتمع البدائي أمراً جديداً وأصيلاً، وكان يبدو كل ما يجيء به القرآن والسنة شيئاً جذاباً لإنسان ذلك العهد. وبدأ عهد من التغيير والتبديل الذي يذهل العقل، فهؤلاء القوم الذين كانوا بدواً يسكنون الخيام بدأوا يتهيأون ليكونوا معلمي العالم وقادته.. ففي كل يوم كانت تتنزل عليهم مائدة سماوية جديدة، وفي كل يوم كانت تلك الجماعة تستقبل أشياء جديدة وتُخاطَب حول أمور جديدة.. كانوا أذكياء بالفطرة وأصحاب ذاكر ة قوية، فإن سمعوا شيئاً مرة واحدة انطبع في أذهانهم فلا ينسونه. ونحن نجد حتى في هذه الأيام -التي ضعفت فيها الذاكرة لاعتماد الجميع على الكومبيوتر وآلات التسجيل الأخرى- أشخاصاً لهم قوة ذاكرة مدهشة بحيث يستطيعون حفظ القرآن الكريم في شهرين أو ثلاثة أشهر، بينما كان كل بدوي آنذاك له ذاكرة قوية جداً يحفظون أي شيء يسمعونه.

(١) **الترمذي**، تفسير السورة (٢) ١٩؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢٢

بعد صلح الحُديبية بدأ الرسول ﷺ بإرسال الرسل إلى رؤساء القبائل وإلى رؤساء الدول، وبجانب هؤلاء الرسل أرسل المعلمين لكي يعلموا الناس أينما ذهبوا ما تعلموه من القرآن والسنة، وقد استفاد هؤلاء من جو الصلح واستغلوه استغلالاً جيداً وانتشروا بين القبائل حتى أصبحت في كل ناحية من نواحي الجزيرة العربية مدرسة يدرس فيها القرآن والسنة، إلى درجة أنه عند فتح مكة كان عدد من استمع إلى الرسول ﷺ من العرب يزيد على عشرة آلاف شخص. في هذه الحملة التعليمية كانت للنساء أيضاً نصيبهن منها بجانب الرجال، ولاسيما نصيب أمهات المؤمنين الطاهرات. وقد بلغ من انتشار هذه الحملة وسرعة تأثيرها أن الرسول ﷺ عندما حج حجة الوداع بعد سنتين استمع إليه ما يقارب مائة ألف من المسلمين إلى خطبة الوداع.

في هذا الحج نرى التبليغ المكثف للسنة، وإعطاء العديد من الفتاوى، فقد تحدث الرسول ﷺ إلى الناس عن الميراث وعن رفعه لثارات الدم، وتحدث عن حقوق النساء، وعن حرمة الربا وألقى العديد من النصائح التي تفيد أمته في مستقبل حياتها. وطلب من الشاهدين أن يبلغوا كلامه للغائبين.. لقد تم إكمال الدين واستكمال النعمة ورضي الله الإسلام ديناً للمؤمنين. كل هذه الأمور كانت جيدة سوى أمر واحد كان يحز في قلوب الصحابة، وهو علمهم أن الرسالة كملت وأن الرسول ﷺ سيفارقهم بعد إتمام مهمته وأداء رسالته، لذا فبينما كانت أعينهم تفيض دمعاً كانت آذانهم صاغية لما يقوله.[1] ثم ما لبث أن نزلت آخر آية في القرآن: ﴿واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ (البقرة: ٢٨١). آية تذكر مدى أهمية الاعتصام بالدين، وتذكّر الصحابة وللمرة الأخيرة بمدى أهمية الوفاء للدين والوفاء للنبي ﷺ الذي صرف ثلاثا وعشرين سنة من حياته في تبليغ هذا الدين. كان الصحابة يدركون هذا.. سمعوا وفهموا ونفذوا ما فهموه وعاشوا حياتهم حسبه ثم نقلوا ما عرفوه وما سمعوه. وهكذا انتقلت السنة إلينا –مثلما انتقل القرآن– ضمن هذه القنوات الطاهرة النقية، وستنتقل إلى الأجيال القادمة حتى يوم القيامة.

---

(١) **مسلم**، الحج، ١٤٧؛ **أبو داود**، المناسك، ٥٦؛ **ابن ماجة**، المناسك، ٨٤؛ «**المسند**» لأحمد، ٧٣/٥

(ج) الحساسية التي أبداها الصحابة الكرام في اتباع السنة

مثلما اهتم القرآن الكريم برسالة رسولنا ﷺ، اهتم الصحابة بالمحافظة على كل شيء صدر منه، قبلوا ما جاء به وحافظوا عليه ونشروه. فلم يخطر ببالهم أبداً أن يعارضوا الرسول ﷺ في أي أمر من الأمور، بل تقبلوا كل ما جاء به الرسول ﷺ وتشرَّبت أرواحهم بتعاليمه، فكما أشرب العجل في نفوس بني إسرائيل، أشرب هؤلاء الصحابة حب الحق وحب ممثل هذا الحق على الأرض وهو الرسول ﷺ. لذا، أبدوا حساسية كبيرة في موضوع السنة، كيف لا والقرآن الكريم يخاطبهم قائلاً: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ ويسلِّموا تسليماً﴾ (النساء: ٦٥).

وقد انقضت كل دقيقة بل كل ثانية بل كل عاشرة من حياتهم في مثل هذه الحساسية والتسليم. وما كان بوسع أحد من الذين جاءوا بعدهم من الذين قضوا حياتهم ضمن هذه الحساسية والتسليم إلا إبداء كل الاهتمام بالسنة النبوية. والآن لنعط بعض الأمثلة:

١- سرية أسامة

كانت السرية الأخيرة التي شيعها الرسول ﷺ.هي سرية أسامة. ففي الأيام الأخيرة من حياته السنية فكر في إرسال جيش إلى الروم وعين أسامة بن زيد على رأس هذه السرية. كان أسامة قد كبر في حجر رسول الله ﷺ، لأن الرسول ﷺ كان قد تبنى والده زيد بن حارثة بطل معركة مؤتة والشهيد فيها. استدعى أسامة إليه وقال له: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك فأوطِئْهم الخيلَ، فقد ولَّيْتُك هذا الجيش.»[1]

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢/ ١٩٠؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٢٥٣؛ «**فتح الباري**» لابن حجر ٧/ ٧٥٩

وكان في هذا الجيش صحابة كبار من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ. ولكن قبل أن يتحرك الجيش مرض الرسول ﷺ ثم ازداد مرضه وثقل، وجاء أسامة ودخل عنده وطأطأ رأسه فقبله رسول الله ﷺ وهو لا يتكلم وجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي، ثم جاء يوم الاثنين، ولوحظ بعض التحسن في صحة الرسول ﷺ فاستدعى إليه أسامة وقال له:« أُغْدُ على بركة الله.» فودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذ سمع بأن الرسول ﷺ يحتضر فرجع، وأقبل ومعه عمر وأبو عبيدة إلى بيت الرسول ﷺ فبلغهم وفاته.[1] لقد رحل من بعث أسامة إلى مؤتة ولكنه حلف من بعده من يتابع دعوته ورسالته وميراثه بحق.

وبعد أن بويع لأبي بكر ﷺ بالخلافة اهتم بسرية أسامة مع أن خبر وفاة الرسول ﷺ شاع بين العرب وبدأت حوادث الردة. فمسيلمة الكذاب وأَسْوَد العَنْسِي كانا قد أعلنا نبوتهما في حياة الرسول ﷺ، فما أن بلغهما خبر الوفاة حتى أشعلا الجزيرة العربية بفتنة الارتداد. ومع هذا تقرر إرسال جيش أسامة لكي يواجه الجيش المحتمل إرساله نحو المدينة من قبل البيزنطيين، ذلك لأن الرسول هو الذي جهز هذا الجيش، وهو الذي قال: «أنفذوا بعث أسامة»، وما كان بإمكان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر ﷺ أن ينحرف قيد شعرة عن أمر الرسول ﷺ وقال:"واللهِ لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع حول المدينة."[2] ثم استعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير وسار معهم ماشياً وأسامة راكباً فقال أسامة: "يا خليفة رسول الله! إما أن تركب وإما أن أنزل" فقال: "والله لستَ بنازل ولستُ براكب."[3] كان هذا هو مبلغ حساسية الصحابة في تنفيذ أوامر الرسول ﷺ.

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢/ ١٩١؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٠١/٤

(٢) «البداية و النهاية» لابن كثير ٦/ ٣٣٥؛ «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» لابن منظور ٤/ ٢٥١

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ٦/ ٣٣٦؛ «كنز العمال» للهندي، ١٠/ ٥٧٩

٢- فاطمة رضي الله عنها وأرض فَدَك

عاشت المدينة المنورة هزة بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد كانت الآلام تعتصر قلوب الصحابة ولاسيما قلب أبي بكر رضي الله عنه. في هذه الأثناء قدمت فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر تسأله ميراثها من والدها في فَدَك. فماذا يعمل أبو بكر رضي الله عنه؟ وكيف يجيبها وهو يحبها ولا يرغب أبداً في إزعاجها؟ كانت ذكرى من الرسول ﷺ وابنته التي كان يحبها ويعدها بضعة من نفسه. ولكن ارتباطه بسنة رسول الله ﷺ كان أقوى من أي رابطة أخرى، لذا قال لها: "واللهِ لا أَدَع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته."[1] وأبلغها أن الرسول ﷺ قال: «لا نورثُ، ما تركناه صدقة.»[2] فما تركه يجب صرفه في الوجوه التي كان يصرف فيها. إذن، فحتى في أحرج الأوقات لم يكن هناك أي انحراف عن السنة.

٣- الموقف من الذين امتنعوا عن أداء الزكاة

في تلك الأيام نفسها كان هناك من يتكاسل عن الصلاة أو يستثقل أداء الزكاة، وعندما عظمت فتنة الردة رأى عمر رضي الله عنه أن يُسمح بعدم أداء الزكاة فترة من الوقت حتى تقوى شوكة الإسلام بعد تلك الفتنة التي انتشرت في كل مكان، واستند في ذلك إلى حديث عن رسول الله ﷺ حيث يقول: «أُمِرت أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله.»[3]

ولكن أبا بكر رضي الله عنه لم يقبل هذا وقال قولته المشهورة: "واللهِ لأقاتلن من فرَّق بين

---

(١) **البخاري**، الفرائض، ٣؛ **مسلم**، الجهاد، ٥٢؛ **«المسند»** للإمام أحمد ١/ ٤

(٢) **البخاري**، الخُمُس، ١؛ المغازي، ١٤؛ **مسلم**، الجهاد، ٥٢؛ **«المسند»** للإمام أحمد ١/ ٤

(٣) **البخاري**، الإيمان، ١٧؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٦

الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللهِ لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعها."[١] وهكذا أظهر مدى حساسيته ومدى اتباعه للرسول ﷺ.

ولم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقل منه حساسية في هذا الأمر، فعندما كان يذكّر بآية أو بحديث نبوي وهو يخطب أويتكلم أو يعطي تعليماته وقف حالاً وأصبح أذنا صاغية، لذا أُطلق عليه وصف "الوقّاف عند الحق."[٢] وهناك روايات في كتب التاريخ والحديث بأن عمر بن الخطاب اعترف بأنه قد أخطأ وأن امرأة خاصمته قد أصابت قائلا: "اللهم غَفْراً، كل الناس أفقه من عمر!"[٣] ومثل هذا الاعتراف زاد من قدر هذا العملاق. وهناك أمثلة متعددة في هذا الموضوع، وكلها تظهر أن هذا الرجل العملاق لم يكن يتأخر أبدا عن الاعتراف بالحق، ولا يعترض أبدا على الحق، بل لا يخطر ذلك على باله.

٤- مدى الحساسية في اتباع السنة

أ- كان عمر رضي الله عنه رجل فراسة ومنطق وكياسة، ورجلاً عبقرياً، فعرض له مرة مسألة دية أصابع اليد فاجتهد فيها برأيه إذ جعل في الخنصر ستاً من الإبل وفي البنصر تسعاً وفي الوسطى عشراً وفي السبابة اثنتي عشرة وفي الإبهام ثلاث عشرة، ولكن ما أن بلغه حديث رسول الله ﷺ: «دية أصابع اليدين والرجلين سواء عشرة من الإبل لكل أصبع» حتى رجع عن رأيه متبعاً سنة رسوله ﷺ.[٤]

ب- جاء في رواية عن عبد الله بن السعدي أنه قدم على عمر في خلافته فقال له عمر: ألم أُحَدَّثْ أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً فإذا أعطيتَ العُمالة كرهتها، فقلت:

(١) **البخاري**، الزكاة، ١؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢؛ **الترمذي**، الإيمان، ١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/ ١٩

(٢) **البخاري**، الإعتصام، ٢، تفسير سورة (٧) ٥

(٣) «**كنز العمال**» للهندي ١٦/٥٣٧-٥٣٨

(٤) **الترمذي**، الديات، ٤؛ **أبو داود**، الديات، ١٨؛ «**تحفة الأحوذي**» للمباركفوري ٤/٦٤٩؛ «**كنز العمال**» للهندي ١٥/١١٨

بلى. فقال عمر: ما تريد إلى ذلك؟ قلت: إن لي أفراساً وأعبداً وأنا بخير، وأريد أن تكون عُمالتي صدقةً على المسلمين. قال عمر: لا تفعل فإني كنت أردتُ الذي أردتَ وكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ «خذه فتَموّلْهُ وتَصدّقْ به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وإلا فلا تُتبعه نفسك.»[1]

ج- رأى عمر بن الخطاب ﷺ يوماً الصحابي زيد بن خالد الجهني ﷺ وهو يصلي ركعتين بعد صلاة العصر فضربه بالدرة، لأن الصلاة وإن كانت معراج المؤمن إلا أنها تتبع مواقيت معينة، فإن صادفت الصلاة مواقيتها الصحيحة كانت عبادة وإلا أصبحت بدعة. وجمهور الصحابة والعلماء يرون أنه لا توجد صلاة نافلة بعد صلاة العصر، ولكن الصحابي زيد بن خالد ﷺ قال لعمر: "يا أمير المؤمنين! فوالله لا أدعهما أبدا بعد إذ رأيت رسول الله ﷺ يصليهما" فجلس عمر إليه وقال: "يا زيد بن خالد، لولا أني أخشى أن يتخذها الناس سلما إلي الصلاة حتي الليل لم أضرب فيهما."[2]

وتوجد رواية حول هذا الموضوع من أم المؤمنين أم سلمة ﷺ: صلى النبي ﷺ بعد العصر ركعتين وقال: «شغلني ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر.»[3] ويجوز أن زيد بن خالد الجهني ﷺ رأى صلاة رسول الله ﷺ في حالة مثل هذه الحالة، ومهما كان منشأ هذه المسائل الفقهية فالذي يهمنا هنا هو إظهار مدى تمسك الصحابة بالسنة.

عندما طعن عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان متمسكاً بالسنة كل التمسك -وهو يصلي- سُئل وهو على فراش الموت أن يستخلف فقال: "إن أستخلِفْ فقد استخلف من

---

(١) البخاري، الأحكام، ١٧؛ مسلم، الزكاة، ١١١

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢/ ٢٢٣؛ «فتح الباري» لابن حجر ٢/ ٧٨

(٣) البخاري، المواقيت، ٣٣، السهو، ٨؛ مسلم، المسافرين، ٢٩٧؛ النسائي، المواقيت، ٣٦

هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ.»[١] أي أنه إن استخلف أو لم يستخلف فلن يكون معارضاً للسنة، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع اختيار سبيل من بين السبل، فلاشك أن سبيل الرسول ﷺ سيكون هو الأرجح، لذا سلك عمر ﷺ طريقاً وسطاً واضعاً ظروف ومصلحة الأمة بنظر الاعتبار، فجعل اختيار الخلف من وظيفة ست من الصحابة الذين توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ والذين كانوا ضمن الأحياء من العشرة المبشرة بالجنة. وجعل ابنه عبد الله بن عمر حَكَماً والقَعْقَاع حارساً، وأوصاهم بالإسراع في تعيين الخلف لكيلا تبقى الأمة دون رأس.[٢]

د- في أثناء خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وعندما كان يطوف حول الكعبة اقترب عمر ﷺ من الحجر الأسود الذي قبّله الكثير من الأنبياء فقال: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.»[٣] إذن، فتقبيله للحجر الأسود لم يكن إلا بسبب اتباعه السنة النبوية.

هـ- كان الصحابة الكرام يعرفون أن السنة النبوية أمانة مقدسة لديهم، وأنهم يتقربون إلى الله تعالى بمقدار قربهم من السنة، وأنهم إن ابتعدوا عن السنة -معاذ الله- فلن يلقوا أي معاملة كريمة في الدار الآخرة.. وهي معاملة الخائن للأمانة.

في رواية لميسرة بن يعقوب أن علياً ﷺ شرب الماء قائماً ثم قال: "إن أشربْ قائماً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً، وإن أشربْ جالساً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب جالساً.»[٤]

إذن، يجب فهم الحدود جيداً ويجب التصرف في مختلف الأمور والشؤون حسب

---

(١) **البخاري**، الأحكام، ٥١؛ **مسلم**، الإمارة، ١١؛ **أبو داود**، الإمارة، ٨؛ **الترمذي**، الفتن، ٤٨

(٢) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد، ٣/ ٣٤٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ٧/ ١٥٥

(٣) **البخاري**، الحج، ٥٠؛ **مسلم**، الحج، ٢٤٨-٢٥١

(٤) **البخاري**، الأشربة، ١٦؛ **أبو داود**، الأشربة، ١٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/ ١٣٤

تصرفه ﷺ، ونقل سنته كما هي إلى الأجيال القادمة. صحيح أن هناك توصيات للرسول ﷺ في الشرب قاعداً وأن هناك فوائد فيه، إلا أن هذا لا يعني عدم جواز الشرب قائماً، وليس من الملائم تصعيب الأمور في هذه المسائل.

و- في رواية عن عبد بن خير عن علي ﷺ قال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخُفّ أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه."[1] إذن، نجد هنا استسلاماً مطلقاً للسنة وعدم العمل بالرأي وبالاجتهاد الشخصي عند وجود خبر في السنة. وهذا يشير إلى مبلغ تمسكهم بالسنة.

ز- كان الصحابة كلهم سواء أكان علي أم عثمان أم أبو بكر أم عمر ﷺ أو أي صحابي آخر عندما يبلغهم وجود أثر أو حديث عن رسول الله ﷺ يخالف رأيهم أو اجتهادهم الشخصي في أي أمر من الأمور تراجعوا عن آرائهم فوراً واتبعوا السنة.

وكمثال على ذلك نورد اجتهاد عمر ﷺ في القتل الخطأ، إذ كان يرى أن دية المقتول خطأ لا تقع على القاتل بل على ورثته حسب قاعدة "بِحَسَبِ المغْرم المغنمُ"، ويقال لهؤلاء "العاقلة" وكان عمر ﷺ يرى أن الدية للعاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها حتى قال له الضحاك بن سفيان: "كتب إليّ رسول الله ﷺ أن أُورِّثَ امرأة أَشْيَم الضبابيّ من دية زوجها" فرجع عمر عن رأيه.[2]

ح- كان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ قريباً من قلب عمر ﷺ إلى درجة أنه قال وهو على فراش الموت: "لو كان أبو عبيدة حياً لولّيته."[3] عندما أقبلت الدنيا على المسلمين بعد طول مشقة وحرمان لم يتغير شيء عند أبي عبيدة ﷺ ولم تستطع الدنيا إغراءه، ففي إحدى المرات دخل عمر ﷺ إلى خيمة أبي عبيدة ﷺ عندما كان قائداً على

---

(١) **أبو داود**، الطهارة، ٦٣؛ **الدارمي**، الوضوء، ٤٣؛ «**السنن الكبرى**» للبيهقي ١/ ٢٩٢

(٢) **أبو داود**، الفرائض، ١٨؛ **الترمذي**، الفرائض، ١٨؛ **ابن ماجة**، الديات، ١٢

(٣) «**المسند**» للإمام أحمد، / ١٨؛ «**المستدرك**» للحاكم، ٣/٢٦٨

الجيش الإسلامي فرأى من بساطة خيمته ما جعله يبكي ويقول له: "غيَّرتْنا الدنيا كلنا غيرَك يا أبا عَبيدة."[١]

أجل، كان يحبه جداً، ولكن عمر ﷺ عندما توجه إلى الشام لزيارة جنده ووصل إلى "سَرْغ" لقيه قائد الجند أبو عبيدة ﷺ مع أصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بأرض الشام فاستشار عمر أصحابه في الذهاب أو عدم الذهاب إلى هناك فاختلفوا، وكان من رأي أبي عبيدة المضي حيث قال لعمر: "أفِراراً من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عُدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيتَ الخِصْبَة رعيتَها بقدر الله وإن رعيت الجَدْبَة رعيتها بقدر الله." فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، فحمد عمر الله ثم انصرف.[٢]

وهكذا تقطرت السنة النبوية في قلوب هذه الأرواح الحساسة متغذية بحوادث الحياة وتقلباتها وظروفها التي لا يمكن نسيانها، وانتقلت إلى كتب المحققين والمحدثين حتى وصلت إلينا.

---

(١) «**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» لابن منظور ١١/ ٢٧٢؛ «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي، ١/ ١٧

(٢) **البخاري**، الطب، ٣٠؛ **مسلم**، السلام، ٩٨

(د) دقتهم في الرواية

لم يكن الصحابة الكرام ولا تابعوهم بإحسان ولا تابعو التابعين من نمط الأشخاص الذين يقبلون ويتبعون كل ما يسمعونه، فمع أن قلوبهم كانت صافية ونقية إلا أنهم كانوا دقيقين لا يقبلون شيئاً إلا بعد التمحيص والتدقيق ولاسيما إن كان الموضوع متعلقاً بالسنة النبوية. لذا، حفظوا السنة بدقة كبيرة وسجلوها في الكتب وحققوا الروايات تحقيقاً دقيقاً ثم نقلوها بالدقة نفسها. وهناك أمثلة عديدة جداً على هذا ندرج هنا بعضها.

١- تحذير النبي ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية أخرى «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.»(١)

في ذلك العهد الذي كان الفرق بين الصدق والكذب كالفرق بين الرسول ﷺ وبين مسليمة الكذّاب وكالفرق بين السماء والأرض.. في ذلك العهد الذي كان الصدق أهم سمة له وأهم صفة ما كان بوسع مؤمن ولاسيما إن كان هذا المؤمن صحابياً أو تابعياً أن يكذب في أمر عادي، فكيف يجرؤ على الكذب على رسول الله ﷺ نفسه؟ فما كان بمقدور أحدهم أن يلفق شيئاً عن الرسول ﷺ متبعاً في ذلك أهواءه. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فوَالله لأن أخِرّ من السماء أحَبّ إليّ من أن أكذب عليه."(٢) كما قال رسول الله ﷺ: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(٣)

---

(١) **البخاري**، العلم، ٣٨؛ **مسلم**، الزهد، ٧٢؛ **أبو داود**، العلم، ٤؛ **الترمذي**، الفتن، ٧٠

(٢) **البخاري**، استتابة المرتدّين، ٦؛ **مسلم**، الزكاة، ١٥٤؛ **أبو داود**، السنة، ٢٨

(٣) **مسلم**، المقدمة، ١؛ **الترمذي**، العلم، ٩؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ٥

إذن، فأمام كل هذه التحذيرات والتهديدات، هل يمكن للذين أرشدوا العالم إلى الصدق وإلى الحق وإلى النور وكانوا أئمة الهدى والحق أن ينحرفوا ويدخلوا ضمن دائرة هذا التهديد والوعيد؟

٢- حرص الصحابة والتابعين

ولكون هذه المسألة تتطلب كل هذه الحساسية فقد تناولها الصحابة بحرص شديد ودقة متناهية، لذا نرى الكثير من الصحابة يحذرون من رواية الحديث، حتى أن صحابياً جليلاً مثل ابن مسعود ﷺ الذي كان بعض الصحابة يظنونه من أهل بيت الرسول ﷺ لكثرة تردده وتردد أمه على بيت الرسول ﷺ والذي قال في حقه عمر بن الخطاب ﷺ عندما بعثه إلى الكوفة: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي وخذوا منه"،[١] هذا الصحابي الجليل نرى وصفه وحاله عندما كان يضطر إلى رواية حديث عن رسول الله ﷺ.. عن عمرو بن ميمون قال: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط "قال رسول الله"، فلما كان ذات عشية قال: "قال رسول الله" قال: فنكس. قال: فنظرت إليه فهو قائم مُحللةً أزرار قميصه، قد اغْروْرقتْ عيناه، وانتفخت أوداجه. قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك.[٢]

كان الزبير بن العَوّام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته البطلة صفية من المسلمين الأوائل ومن العشرة المبشرة بالجنة، ولكنه كان قليل الرواية عن الرسول ﷺ وقد سأله ابنه عبد الله بن الزبير مرة عن سبب ذلك قائلاً: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان فقال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار.»[٣]

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٥٧/٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٩١/٩

(٢) **ابن ماجة**، المقدمة، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٥٢/١

(٣) **البخاري**، العلم، ٣٨؛ **أبو داود**، العلم، ٤؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ٤

أما الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات فقد قال: "لولا أني أخشى أن أخطئ لحدثتكم بأشياء سمعتها من رسول الله ﷺ ."[١]

يقول التابعي الكبير عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه الذي قابل خمسمائة صحابياً: "لقد أدركت في هذ المسجد عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم أحدٌ يحدث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه الفُتيا."[٢]

في السنوات الأولى لظهور الإسلام فتح الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه بيته للرسول ﷺ، أما ابنه زيد فقد صحب الرسول ﷺ وأدرك خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكان أمين بيت مال المسلمين، ولكنه عندما رأى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه بدأ يوزع بعض ماله الذي أودعه في بيت مال المسلمين على بعض أقربائه حمل مفاتيح البيت وسلمها إلى عثمان رضي الله عنه مُعلناً استقالته من عمله لأن الناس سوف يظنون به الظنون، هذا الصحابي الجليل جفل عندما طلب منه التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه أن يحدثه عن رسول الله ﷺ واعتذر. إليكم الرواية: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قلنا لزيد بن الأرقم: حدِّثْنا عن رسول الله ﷺ قال: "كبِرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد."[٣]

أ- الحرص في الرواية

يجب على الراوي للحديث أن يكون ملماً باللغة العربية إلماماً جيداً لكي لا تتسلل كلمة أجنبية إلى سياق الحديث. ومع أنه يجوز إيراد معنى الحديث إن تعذر إيراد نصه، إلا أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا حريصين جداً على كل كلمة بل على كل حرف عند رواية الحديث. فمثلاً عندما أورد الصحابي عبيد بن عمير رضي الله عنه حديث «مَثَل المنافق

---

(١) مسلم، المقدمة، ٢؛ الدارمي، المقدمة، ٢٥

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١١٠/٦؛ «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢٦٣/٤

(٣) ابن ماجة، المقدمة، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٧٠/٤

كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين» في مجلس ضم الصحابي عبد الله بن عمر ﷺ غضب هذا الصحابي وقال: كلا، لم يقل هكذا. فسأله عمير: وكيف قال إذن؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين.» علماً بأن الفرق بين الروايتين هو الفرق بين "الرابضة" و"العائرة" فقط.

أما في "المسند" فقد جاءت رواية الحديث عن عبيد الله بن عمير بهذه الصيغة:

«إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الربيضين من الغنم، إن أتت هؤلاء نطحتها، وإن أتت هؤلاء نطحتها.» بينما يورِد عبد الله بن عمر ﷺ هذا الحديث مقطع "كشاة بين الغنمين" بدلاً من "كشاة بين الربيضين" لأنه سمعه هكذا عن رسول الله ﷺ.[1]

وانتقل هذا الحرص من الصحابة إلى التابعين وإلى تابع التابعين. فمثلاً نرى العالم المشهور سفيان بن عيينة يروي الحديث التالي: "نهى رسول الله ﷺ عن الدُّبّاء والـمُزَفَّت أن يُنتبَذ فيه." ولكن عندما روى هذا الحديث مرة في مجلسه بصيغة "نهى رسول الله ﷺ عن الدُّبّاء والـمُزَفَّت أن يُنبَذ فيه" قال سفيان: أنا لم أسمع هكذا من الزُهرى.[2] بينما الفرق بين الصيغتين هو فقط بين الفعل الخماسي "ينتبذ" والفعل الثلاثي "ينبذ" وليس بينهما فرق كبير في المعنى. ولكن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا حريصين جداً في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ كما قاله تماماً.

لذا، فأمام مثل هذا الحرص والحساسية الشديدة في رواية الحديث أيمكن أن يأخذ أحد مأخذ الجد ما يزعمه البعض من أن الصحابة كانوا ينقلون ما يسمعونه عن الرسول ﷺ بكلماتهم وتعابيرهم، لذا فلا مجال لاتخاذ الأحاديث أساساً في التشريع؟

عن البراء بن عازب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأْ وضوءك

---

(١) **مسلم**، صفات المنافقين، ١٧؛ **النسائي**، الإيمان وشرائعه، ٣١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٦٨/٢؛ «**المسند**» للطيالسي ص٢٤٨

(٢) «**الكفاية**» للبغدادي ص١٧٨

للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبة ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. فإنْ مِتّ متّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول» فقلتُ: أستذكرهن "ورسولك الذي أرسلت" قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت.»(١)

وسواءٌ استطعنا أن نحدس الفرق الذي عناه رسولنا ﷺ من وجوب قول "بنبيك" وليس "برسولك" أم لم نستطع فقد ألزمَنا قراءة الدعاء بهذه الصيغة.

أجل، إن الإنسان عندما يغمض عينيه وينام فإنه يدخل إلى عالم الرؤية والأحلام، أي يدخل إلى عالم فيه جزء من النبوة (هذا الجزء يبلغ ١/٤٦). أي أن النوم والرؤيا له علاقة بالنبوة وليس بالرسالة التي تتطلب الصحو، أي تتطلب صحوة العين والقلب. لذا، فالدقة والحرص والحساسية التي أبداها الرسول ﷺ في هذا الموضوع أبداها الصحابة الكرام عند تلقّيهم للأحاديث وعند نقلهم وروايتهم لها.

ب- التدارس

لم يكتف الصحابة الكرام ﷺ بنقل الأحاديث وروايتها، بل كانوا يتدارسونها فيما بينهم لكي يحيطوا بمعانيها. وكما تدارسوها فقد طلبوا من طلابهم تدارسها أيضاً، فمثلاً نرى الصحابي الجليل أبا سعيد الخدري ﷺ يقول لطلابه: "تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث"(٢) كما كان الصحابي الجليل ابن عباس ﷺ يقول: "رُدُّوا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه "قد حدثته مرة"، فإنه من كان سمعه يزداد به علماً ويسمع من لم يسمع."(٣) ذلك لأن الصحابة الكرام كانوا يعرفون مدى أهمية الحديث والسنة، ويعرفون من أحاديث رسول

(١) البخاري، الدعوات، ٦؛ مسلم، الذكر، ٥٦

(٢) الدارمي، المقدمة، ٥١

(٣) الدارمي، المقدمة، ٥١

الله ﷺ أن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم،[1] لذا، حرصوا على حفظ الحديث وتدارسه ثم روايته ونقله. هذا هو الجو الذي تم فيه حفظ الحديث ونقله إلينا.

٣- تحقيق الصحابة والتابعين

بجانب تدارس الصحابة للأحاديث فيما بينهم، كانوا أمام أي أمر أو مسألة تثار يبحثون عما إذا كان هناك حديث في هذه المسألة، أي أنهم كانوا يدركون مدى الأهمية التشريعية للسنة وللحديث، ومع كونهم رجال صدق واستقامة إلا أن هذا لم يكن يمنعهم أن يكونوا رجال تحقيق أيضاً فما كانوا يقبلون كل ما سمعوه.

جاءت مرة إلى أبي بكر ﷺ امرأة تسأله عن نصيبها من ميراث حفيدها، فقال لها أبو بكر ﷺ: "ما أجد لك في الكتاب من حق، وما سمعت رسول الله ﷺ قضى لك بشيء، وسأسأل الناس" ثم سأل الناس فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال له أبو بكر ﷺ: ومن سمع ذلك معك؟ قال: محمد بن مسلمة، فأعطاها السدس.[2]
كانت عائشة أم المؤمنين ﷺ التي جاء حديث ضعيف في حقها «خذوا نصف دينكم من هذه الحُميراء»[3] ذكية وفطنة تسأل وتحقق كل شيء، فعن ابن أبي مُلَيْكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وإن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذّب»، قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى ﴿فسوف يحاسَب حساباً يسيراً﴾ (الانشقاق: ٨)؟ فقال: «إنما ذلك العرضُ ولكن من نوقش الحساب يهلك.»[4]

---

(١) **أبو داود**، العلم، ١؛ **الترمذي**، العلم، ١٩؛ **النسائي**، الطهارة، ١١٣؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١٧

(٢) **الترمذي**، الفرائض، ١٠؛ **ابن ماجة**، الفرائض، ٤؛ **الموطأ**، الفرائض، ٨

(٣) **«البداية والنهاية»** لابن كثير ٨/١٠٠؛ **«الأسرار المرفوعة»** لعلي القاري ص١١٦؛ **«كشف الخفاء»** للعجلوني ١/٣٧٤، **«الفوائد المجموعة»** للشوكاني ص٣٩٩؛ **«الفردوس»** للديلمي ٢/١٦٥

(٤) **البخاري**، العلم، ٣٥؛ **مسلم**، الجنة، ٧٩

وبصدد قيام الصحابة بتحقيق ما يسمعونه يرد هنا موضوع الأوجه المختلفة التي أنزل فيها القرآن الكريم، وهناك روايات عديدة حول هذا الموضوع نورد هنا ماجاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم بن حِزَام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبّبته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي: «أرسله.» ثم قال له: «اقرأ.» فقرأ قال: «هكذا أنزلت»، ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا منه ما تيسر.»(١)

وكمثال آخر نورد هذه الرواية عن أبي سعيد الخُدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت. فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذَن له فليرجع.» فقال: "والله لتُقيمن عليه بينة" أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أُبيّ بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم. فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك.(٢)

أ- الرحلة من أجل التحقيق

كان الصحابة يولون تحقيق الحديث أهمية بالغة إلى درجة أنهم كانوا يسافرون من بلد إلى بلد ويقطعون المسافات الطويلة أياماً وليالي لتحقيق حديث واحد أو لسماع حديث واحد. إذ يروي عطاء بن أبي رباح –الذي تتلمذ عليه كبار العلماء– أن

---

(١) **البخاري**، الخصومات، ٤؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٧٠؛ **أبو داود**، الوتر، ٢٢؛ **النسائي**، الافتتاح، ٣٧؛ **الموطأ**، القرآن، ٤

(٢) **البخاري**، الاستئذان، ١٣؛ **مسلم**، الأدب، ٣٣، ٣٤، ٣٧؛ **أبو داود**، الأدب، ١٢٨

الصحابي أبا أيوب الأنصاري ﷺ أراد أن يحقق حديثاً سمعه من النبي ﷺ وعلم أن الصحابي الوحيد الباقي على قيد الحياة من الذين سمعوا هذا الحديث هو عُقبة بن عامر وكان مقيماً في مصر فتوجه إليه، أي سافر من المدينة المنورة إلى مصر من أجل تحقيق حديث واحد يعرفه.

خرج أبو أيوب إلى عُقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلّد الأنصاري وهو أمير مصر، فأخبر به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: "ما جاء بك يا أبا أيوب؟" قال: "حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة فابعث من يدلني على منزله." قال فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: "ما جاء بك يا أبا أيوب؟" فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن. قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمناً في الدنيا عن خزية ستره الله يوم القيامة.»[1] فقال له أبو أيوب: "صدقت" ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة ابن مخلد إلا بعريش مصر.[2]

وهناك رواية عن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ سمعه من النبي ﷺ لم أسمعه منه فسرت شهراً إليه حتى قدمت الشام، فإذا هو عبد الله بن أُنيس فأرسلتُ إليه أن جابراً على الباب، فرجع إليّ الرسول فقال: أجابر بن عبد الله؟ قلت: نعم. فخرج إليّ فاعتنقني واعتنقته. قال: قلت: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه في المظالم، فخشيت أن أموت أو تموت. قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يُحشر الناس –أو العباد– عُراةً غُرْلاً بُهْماً، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٤٣؛ **مسلم**، البر والصلة، ٥٨؛ **أبو داود**، الأدب، ٣٨؛ **الترمذي**، الحدود، ٣

(٢) **«الرحلة في طلب الحديث»** للبغدادي ص١١٨؛ **«جامع بيان العلم»** لابن عبد البر ٣٩٢/١؛ **«الكفاية»** للخطيب البغدادي ص٤٠٢

وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى يقتصه منه، حتى اللطمة.» قال: وكيف، وإنما نأتي عراةً غُرْلاً؟ قال: بالحسنات والسيئات.(١)

ب- رحلة التابعين

لم تقتصر الرحلات من أجل تحصيل الحديث على الصحابة الكرام فقط، بل استمرت في العهود التي تلت عهد الصحابة. فسعيد بن المسيّب كان يسافر أياماً وليالي في طلب حديث واحد،(٢) وكان مسروق بن الأجدع يرحل من أجل حرف واحد.(٣) وعن كثير بن قيس قال: "كنت جالساً عند أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء! أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي ﷺ. قال: فما جاء بك تجارةٌ؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا."(٤)

انتقل الحرص الذي أبداه الصحابة في رواية الأحاديث إلى التابعين، وكما سنشرح فيما بعد فقد ورث هذا العلم -حسب تعبير الأعمش- أناس كان أحبَّ إليهم أن يخروا من السماء ولا يزيدوا "واواً" أو "ألفاً" أو "دالاً" على الحديث،(٥) إذ كانوا حساسين جداً وحريصين على ألا يتبادل حرفا "الواو" و"الفاء" مكانهما في الحديث، أي الحفاظ على متن الحديث مثلما صدر عن الرسول ﷺ.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٣/٤٩٥؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٠/٣٤٥-٣٤٦؛ «أسد الغابة» لابن الأثير ٣/١٧٨؛ «الأدب المفرد» للبخاري ص٣٣٧؛ «جامع بيان العلم» لابن عبد البر ١/٣٨٩-٣٩٠

(٢) «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١/٥٥؛ «الرحلة في طلب الحديث» للبغدادي ص١٢٧؛ «الكفاية» للخطيب البغدادي ص٤٠٢؛ «جامع بيان العلم» لابن عبد البر ١/٣٩٥

(٣) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر ١/٣٩٦؛ «الرحلة في طلب الحديث» للبغدادي ص١٢٧

(٤) الترمذي، العلم، ١٩؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٧؛ «الرحلة في طلب الحديث» للبغدادي ص٧٨

(٥) «الكفاية» للبغدادي ص١٧٨

وعلى الرغم من كون الصحابة الكرام بأجمعهم عدولاً لا يتسلل الكذب إلى أي أحد منهم إلا أن أئمة التابعين كانوا يحققون ما سمعوه من حديث ويراجعون الصحابة الآخرين كذلك. فمثلاً نرى أبا العالية –وكان من كبار علماء التابعين– يقول: "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم."[1]

ففي رواية مسلم عن ابن سيرين أنه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"،[2] فلم يكونوا في العهود الأولى يسألون عن الإسناد، أي عن الشخص الذي روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، ولكن حينما وقعت الفتنة بعد شهادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه –الذي كان باباً موصداً أمام الفتنة– ومقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه والحوادث التي جرت في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بدأ وضع الحديث وإن كان في نطاق ضيق، إذ وُضعت أحاديث ضد عثمان رضي الله عنه، ودفع هذا بعض البسطاء إلى اختراع أحاديث في صالحه وللدفاع عنه وكأنه يحتاج إلى مثل هذا الدفاع. كما تم وضع أحاديث في الثناء وفي مدح علي بن أبي طالب رضي الله عنه –مع أن هذا العملاق لا يحتاج إليها– وذلك مقابل الأحاديث الموضوعة للطعن فيه.

لذا، فما أن ظهرت الأحاديث الموضوعة حتى بدأ الأئمة الكبار بالاستفسار عن "السند" وبتحقيق الأحاديث. فبدأ علماء مثل شعبة والشعبي والثوري رحمهم الله بتحقيق دقيق عند جمع الأحاديث. ونجد حادثة مشابهة في رواية وردت في صحيح مسلم لمجاهد بن جَبْر قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدّث ويقول: "قال رسول الله

---

(١) **«الكفاية»** للخطيب البغدادي ص٤٠٢- ٤٠٣

(٢) **مسلم**، المقدمة، ٥

ﷺ، قال رسول الله ﷺ" فجعل ابن عباس لا يأذن[١] لحديثه ولا ينظر إليه. فقال: يا ابن عباس! مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: "قال رسول الله ﷺ" ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول[٢] لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.[٣]

يروي العالم الأندلسي الكبير ابن عبد البر عن الشعبي الذي كان من كبار أئمة التابعين عن الربيع بن خثيم الحديث الآتي: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كن له كعتق رقاب أو رقبة»، قال الشعبي: فقلت للربيع بن خثيم: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: عمرو بن ميمون الأودي. فلقيت عمرو بن ميمون فقلت: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: عبد الرحمن بن أبي ليلى، فلقيت ابن أبي ليلى فقلت: من حدثك؟ قال: أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ.[٤] وبعد هذا البحث والتدقيق اطمأن الشعبي إلى صحة الرواية.

٤- حملة ضد الوضع والوضاعين

في تلك العهود بدأت حملة ضد الكذب وإعلان حرب ضده، إذ بدأ العلماء من أمثال ابن شهاب الزهري وابن سيرين وسفيان الثوري وعامر بن شراحيل الشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي وشعبة وقتادة بن دِعامة وهشام الدستوائي ومسعر بن كُدَام الهلالي بإعلان حملة ضد وضع الحديث وضد الوضاعين وفرز الأحاديث الصحيحة عن الأحاديث الموضوعة.

وعندما كان أبو هلال وشعبة وسعيد بن أبي صَدَقة يروون حديثاً عن قتادة بن دِعامة واختلفوا في صيغة الحديث هل كان كذا أم كذا، راجعوا هشام الدستوائي ليكون

---

(١) **لا يأذن**: أي لا يستمع إليه ولا يصغي.

(٢) ركب الناس الصعب والذلول: أي سلك الناس كل مسلك مما يُحمد أو يُذم.

(٣) **مسلم**، المقدمة، ٤

(٤) **«المحدث الفاصل»** للرامهرمزي ص٢٠٨؛ **«السنة قبل التدوين»** لمحمد عجاج الخطيب ص٢٢٢-٢٢٣

حَكماً. وعندما كان شعبة والثوري يختلفان كانا يراجعان مسعر بن كُدَام الهلالي.(١)

كان هؤلاء العلماء يتعقبون من يرون فيه تعصباً مذهبياً، فإذا شكّوا في رواية أحدهم وقفوا أمامه وحاسبوه وسألوه: ممن سمعت هذا الحديث؟

أ- مهمة الحفظ ودوره

في هذه الأثناء كان عباقرة الحفظ يحفظون الأحاديث دون توقف، فقد روى أبو زرعة الرازي أن أحمد بن حنبل رحمه الله كان يحفظ ألف ألف حديث مختلف من ناحية السند والمتن ومختلف من ناحية الصحة من صحيح أو حسن أو ضعيف،(٢) واختار في مسنده المشهور أربعين ألف حديث من بين ثلاثمائة ألف حديث، هذا علماً بأن من بين هذه الأحاديث البالغ عددها أربعين ألفاً بعض الأحاديث المكررة وبعض الزوائد التي أضافها ابنه عبد الله.

أما يحيى بن معين الذي نذر حياته كلها لأحاديث رسول الله ﷺ فقد حفظ حتى الأحاديث الموضوعة، وعندما سأله أحمد بن حنبل مرة عن سبب قيامه بكتابة "الجامع" لمعمر عن أبان عن أنس مع أنه يعلم أنها موضوعة قال له: رحمك الله يا أبا عبد الله، أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجيء بعده إنسانٌ فيجعل بدل أبان ثابتاً ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك فأقول له: "كذبت إنما هي عن معمر عن أبان لا عن ثابت."(٣)

فبدءاً من الإمام الزهري إلى يحيى بن سعيد القطّان، ومن البخاري ومسلم إلى الدارقطني والحاكم نرى المئات من كبار محققي الأحاديث وحفاظها.

---

(١) «المحدث الفاصل» للرامهرمزي ص٣٩٥؛ «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب ص٢٢٩

(٢) «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني ٦٤/١

(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للبغدادي ٢٨٣/٢؛ «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب ص٢٢٩

ب- ﴿ شعور الالتزام بالحق ورعايته ﴾

مطاردة الكذب والوضع والوقوف ضد الكذب وإعزاز الحق وعدم السماح بقول غير الحق.. كان هذا شعارهم.. فمثلاً خطب عمر بن الخطاب ﷺ مرة فقال: ألا لا تغالوا في صَداق النساء، وإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه جعلتُ فضل ذلك في بيت المال. ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، لَكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: كتاب الله، فما ذاك؟ قالت: نَهيتَ الناس آنفا أن يتغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا﴾ (النساء: ٢٠)؟ فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر -مرتين أو ثلاثا-. ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: "إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، فليفعل رجل في ماله ما بدا له."[١]

وعلى هذا المنوال تصرف كبار علماء التابعين، فمثلاً نرى زيد بن أبي أُنيسة يقول: "لا تأخذوا عن أخي"،[٢] قد يكون بسبب عدم دقة أخيه أو توهمه أو تعصبه المذهبي أو لسبب آخر لا نعرفه، وعندما سئل الإمام علي بن المديني -وهو إمام الكثير من المحدثين الكبار من مستوى الإمام البخاري ومسلم وأول من كتب عن الصحابة- عن أبيه قال: "سلوا عنه غيري" فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال: "هو الدين، إنه ضعيف."[٣]

أما الإمام وكيع بن الجرّاح الذي تربى في مدرسة أبي حنيفة وتتلمذ عليه الإمام الشافعي القائل بأنه لم ينس شيئاً سمعه طوال حياته. وقد ذكره الشافعي في قصيدته:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي[٤]

(١) «كنز العمال» للهندي ١٦/٥٣٦-٥٣٨
(٢) مسلم، المقدمة، ٥
(٣) «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب ص٢٣٣
(٤) «ديوان الإمام الشافعي» للإمام الشافعي ص٦٩

كان والد هذا الإمام الكبير على بيت المال، لذا فعندما كان يروي عنه كان يقرن معه آخر،[١] لأنه كان يخشى أن يقوم والده الموظف لدى الدولة بتخفيف بعض العبارات من أجل الدولة.

ج- كتب العلل

كتب هؤلاء الأشخاص العظام كتباً عديدة في العلل، أي قدموا كتباً تتناول سند الأحاديث ومتونها بالتحليل الدقيق. وكتبوا عن الضعفاء والمتروكين أي عن الرواة الضعفاء والذين لا يجوز أخذ الأحاديث عنهم بل يجب تركهم وأعلنوا هذا ونشروه، فقد كانوا حساسين جداً في هذا الموضوع إلى درجة أن أحدهم كان يراقب -كما قلنا- والده لأنه موظف في خزينة الدولة لكيلا يحرف رواية الحديث، ونرى آخر يقول إن والده روى الحديث حتى بلغ عمره كذا سنة، ولكن ما إن كبر حتى ضعفت ذاكرته، لذا قام بمنع الزوار من اللقاء به.

يقول الإمام عبد الرحمن بن مهدي -وهو من كبار أئمة الحديث-: "سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يُتهم بالكذب، فقالوا: أنشره، فإنه دين."[٢] وعن يحيى بن سعيد قال: "سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكاً وابن عُيينة عن الرجل لا يكون ثبتاً في الحديث فيسألني الرجل عنه، قالوا: أخبر عنه أنه ليس بثبت."[٣]

وعن أبي بكر بن خلّاد قال: قلت ليحيى بن سعيد: أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءَك عند الله يوم القيامة؟ فقال: لأن يكونوا خصمائي أحبّ إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول لي: لِمَ لم تَذُبّ الكذب عن حديثي.[٤]

---

(١) «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب ص٢٣٣

(٢) «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب ص٢٣٤

(٣) «مسلم» المقدمة، ٥

(٤) «علوم الحديث» لابن الصلاح ص٣٨٩

(هـ) وضع الحديث

أجل، لقد دونت السنة في ظل مثل هذه الدقة والحساسية، ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول إنه لم يتم وضع أحاديث كاذبة. وضعت أحاديث كاذبة ولكنها ارتطمت بالحراسة المشددة التي وضعها الصحابة والتابعون، ولم تستطع أن تفلت منها، ومن أفلت منها ظهرت للعيان بمرور الزمن ولم تستطع أن تدخل إلى كتب صحاح السنة، وعلاوة على هذا فقد اتبعت الطرق التالية أيضاً في هذا الموضوع:

١- فرز الأحاديث الموضوعة

أ- الاعتراف

ففي كثير من الأحيان كان صاحب الأحاديث الموضوعة يعترف في أواخر حياته وقبل وفاته بالأحاديث التي وضعها واختلقها، أو بعد توبته من مذهبه الباطل ورجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

ب- الكذب تحت المراقبة

كان وضاع الأحاديث تحت مراقبة جيدة، وذلك بالأساليب التي شرحناها سابقاً، فمن كذب مرة واحدة في حياته لم يؤخذ حديثه. ولم يكن يؤخذ الحديث من صاحب الوهم والنسيان وإن كان صادقاً ثقة، فلنأخذ مثالاً يوضح ما نقول:

كان هناك شخص زاهد وصاحب تقوى اسمه ابن أبي لهيعة تردد اسمه كثيراً في سنن أبي داود، وكان يروي الحديث ولكن ليس من ذاكرته وحفظه بل من كتبه، وعندما ضاعت منه هذه الكتب فقد منزلته في رواية الحديث فجأة، وبدأ العلماء يتحفظون من أخذ الحديث عنه، فالإمام البخاري مثلاً بدأ لا يأخذ منه سوى الأحاديث المؤيدة بالأحاديث الأخرى وسوى الفتاوي.

ج- ﴿ دلالة الأسلوب ﴾

كما نعلم فهناك موضوع الأسلوب في الأدب، فمثلاً من قرأ "موليير (Molière)" ثلاثين مرة، أو قرأ "شِكِسبير (Shakespeare)" أو "تولستوي (Tolstoï)" أو "دانته (Dante)" أو "نجيب فاضل" أو "نور الدين طُوبْجُو" أو "سَزائي قَرَه قُوجْ" مرات عديدة يستطيع أن يستدل على كتِاباتهم من أسلوبهم من ضمن أكوام من الكتب. فهذا موضوع تعوّد على أسلوب معين ومعرفة به، ولا يحتاج هذا إلى قراءة لثلاثين مرة في أكثر الأحيان، بينما كان أئمة الحديث -الذين ذكرنا أسماء بعضهم- قد نذروا حياتهم للحديث وكانوا في الوقت نفسه من كبار علماء اللغة ومن أبطال الذاكرة القوية فعرفوا أسلوب الرسول ﷺ معرفة جيدة لأنهم كانوا يعيشون معه صباح مساء، لذا كان بإمكانهم معرفة أحاديث الرسول ﷺ وفرزها عن غيرها بكل سهولة، فما أن يقرأوا النص مرة أو مرتين حتى يستطيعوا القول بأنه حديث أو أنه ليس بحديث.

د- ﴿ القرآن والأحاديث المتواترة هي المحك والمقياس ﴾

قسمت الأحاديث حسب كثير من علماء الحديث إلى حديث متواتر وحديث آحاد. فإذا كان الحديث مروياً عن جماعة لا يمكن إتفاقهم على الكذب عُدّ "حديثاً متواتراً." والحديث المتواتر يعد ركناً من أركان العلم الثلاثة عند أهل السنة، أما الأحاديث خارج المتواترة فتعد "أحاديث آحاد" أي هي الأحاديث التي نُقلت من راوٍ واحدٍ. ومع أن بعض الأحاديث التي كانت أحاديث أحاد في زمن الصحابة إلا أنها اشتهرت في عهد تابعي التابعين فأطلق عليها اسم "الأحاديث المشهورة" إلا أن التصنيف الأساسي هو التصنيف إلى حديث "متواتر" وحديث آحاد. وأحاديث الآحاد هذه تُعرض على القرآن والسنة، فإن تماشت معهما قبلت وإلا عدت من الأحاديث التي فيها نظر وأصبحت موضع نقاش وحساب.

هـ- ﴿ لقاء وراء الزمان والمكان ﴾

مع أن ما سنقوله لم يدرج ضمن أصول الحديث إلا أن هناك أناساً ربانيين تجاوزوا الزمان والمكان وأخذوا بعض الأحاديث من الرسول ﷺ مباشرة. فمثلاً يقول محيي الدين بن عربي إنه أخذ هذا الحديث الذي لا نستطيع عده حديثاً صحيحاً والذي لا يوجد في أي كتاب من كتب الحديث الصحاح من الرسول ﷺ مباشرة: «كنتُ كنزاً لا أُعرَف، فأحببت أن أُعْرَفَ فخلقتُ خلقاً فَعرّفْتُهُمْ بي فَعَرَفوني.»(١)

ونقل عن الإمام الكبير جلال الدين السيوطي أنه التقى برسول ﷺ في اليقظة مراراً. أما الإمام البخاري فكان عند قيامه بتدوين أي حديث من الأحاديث التي توصل إليها بجهوده وتدقيقه يتوضأ ويصلي ركعتين ويتوجه بقلبه إلى الرسول ﷺ متضرعاً وقائلاً: "هل هذا الحديث منكم يا رسول الله؟" ويتصرف حسبما يتلقاه من إشارات قلبية.(٢)

هناك جانب للروح يتجاوز الزمان والمكان.. وما نعرفه عن الزمان والمكان ليس شيئاً قطعياً، كما أن الأمور المعروفة في هذا الموضوع ليس شيئاً كثيراً. فـ"أينشتاين (Einstein)" يقول بوجود بُعد رابع غير أبعاد المكان الثلاثة —مع أن هذا لم تتم البرهنة عليه بمعطيات القوانين الفيزيائية حتى الآن— هذا مع العلم أن كثيراً من أولياء الله وقفوا عند هذا الموضوع، وكانت أحوالهم التي تتجاوز الزمان والمكان إشارة إلى التجليات الجوانية لنظام الوجود.

و- ﴿ تأليف كتب عن الرواة ﴾

كتبت كتب مفصلة حول رواة الأحاديث سواء أكانوا من الصحابة أم من التابعين أم من تابعي التابعين، أين ولدوا؟ إلى أين هاجروا؟ أين أقاموا؟ أين عاشوا؟ أين توفوا؟ أين

(١) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١٣٢/٢؛ «**الأسرار المرفوعة**» لعلي القاري ص١٧٩؛ «**النوافح العطرة**» للصعيدي ص٢٦٤

(٢) «**تهذيب التذهيب**» لابن حجر ٤٩/٩ ؛ «**فتح الباري**» لابن حجر مقدمة ص٥١٣

نشروا علومهم ومع من التقوا؟ وممن أخذوا علومهم؟ تناولت هذه الكتب كل هذه الأمور والتفاصيل.

كان علي بن المديني أول من كتب في هذا الموضوع، إذ سجل في كتابه "كتاب معرفة الصحابة" عن الصحابة الذين هاجروا من مكة أو من المدينة فسجل فيه من ذهب منهم إلى الطائف أو إلى الشام، ومن ذهب إلى الكوفة أو إلى البصرة أو إلى بلاد ما وراء النهر وأين بقوا ومع من التقوا ومن درسوا عليه. ونستطيع أن نعد الكتب التالية من الكتب المشهورة في هذا المجال:

⇐ كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر،

⇐ كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر،

⇐ كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير،

⇐ كتاب "الطبقات" لابن سعد،

⇐ كتاب "التاريخ" لابن عساكر،

⇐ كتاب "التاريخ" للبخاري،

⇐ كتاب "التاريخ الكبير" ليحيى بن معين.

فمن هذه الكتب كتب تناولت تاريخ ثلاثة آلاف من الصحابة، ومنها من تناولت حياة خمسة آلاف أو عشرة آلاف من الصحابة. فعندما نطلع على كتاب "الكاشف" للذهبي نراه يعطي معلومات عن كل شخص يذكره: أسماء الأشخاص الذين أخذ عنهم الأحاديث وأسماء الأشخاص الذين رووا عنه. وهكذا نستطيع تقييم الأحاديث من ناحية السند بعد إحاطتنا علماً بسلسلة الأحاديث ومن روى الحديث وممن روى هذا الحديث.

ز- تدقيق كتب الحديث وتمحيصها

ومع كل هذا التدقيق والتمحيص والحيطة والحذر تسللت بعض الأحاديث الموضوعة إلى كتب الحديث الصحاح، لذا تم القيام بنخل الأحاديث مرة أخرى وتمييز اللآلئ

الحقيقية عن اللآلئ المصنوعة وألفت كتب عديدة في هذا المجال. فقام المقدسي ولأول مرة بجمع الأحاديث الموضوعة في كتابه "التذكرة الكبرى" وتبعه الآخرون، وكان مقياس المقدسي وغيره من ألفوا في هذا الموضوع شديداً بل حتى قاسياً جداً إلى درجة أن "ابن الجوزي" حكم على بعض الأحاديث الواردة في مسند الإمام أحمد الذي يحتوي على أكثر من أربعين ألف حديث بالوضع أو بالضعف أو بالترك مع أن الإمام أحمد بن حنبل إمام مذهبه، وبدأ بتقييم الأحاديث الواردة في المسند، وجاء بعده الحافظ ابن حجر العسقلاني فتناول الأحاديث التي حكم عليها ابن الجوزي بالوضع أو الضعف أو الترك، ومحصها من جديد ودققها في كتابه "القول المسدّد في الذبّ عن مسند أحمد"، ونتيجة لهذا التدقيق والفرز استطاع أن يبرهن على صحة أحاديث "المسند" عن طرق أخرى مختلفة عدا ثلاثة عشر حديثاً ذكر أنه لا يستند إلى أساس متين.

وأريد هنا أن أجذب انتباه القراء إلى أن الكثير من المحدثين يتهمون "ابن الجوزي" بالتساهل وعدم الدقة لأنه أسند الضعف أو الوضع إلى كثير من الأحاديث الصحيحة. لذا، قام ابن حجر الملقب بخاتم الحفاظ والإمام جلال الدين السيوطي بتدقيق الأحاديث التي عدها "ابن الجوزي" موضوعة من جديد فقال السيوطي: "لم أر ضمن هذه الأحاديث أي حديث موضوع، بل فيها أحاديث ضعيفة فقط"،[١] وقام السيوطي بتدقيق كتاب "الموضوعات الكبرى" لابن الجوزي والأحاديث التي قال إنها موضوعة، وذلك في كتابه المشهور: "اللآلئ المصنوعة" حيث بيّن فيه أي حديث من تلك الأحاديث موضوعة وأي منها متروكة وأي منها صحيحة.

وعدا هذا فقد كتب بعض المستدركات، إذ تم فيها جمع الأحاديث التي تعد صحيحة حسب المقاييس والشروط التي وضعها البخاري ومسلم ولكنهما لم يدرجاها في صحيحهما، بل جمعت ضمن كتب أخرى، وأشهرها "المستدرك" للحاكم النيسابوري.

---

(١) «اللآلئ المصنوعة» للسيوطي ٢/١

وبعده جـاء مستدرك الإمـام الذهـبي الـذي قـال ابـن حجـر في حقـه أنـه صـرف حياتـه في الإعجاب به وأنه كان يكتب أدعية في تقوية الذاكرة ثم يبلغها لكي يهـب الله لـه ذاكـرة كذاكرة الذهبي. وقام الذهبي في مستدركه هذا بتدقيق ما جاء في مستدرك الحـاكم بكـل عناية وحرص وحلله وأوضح كل شيء من جديد.

ثم كتبت بعض الكتب حول الأقوال التي اشتهرت لدى العامة بأنها أحاديث، فكتـب السخاوي كتابه المعروف بـ"المقـاصد الحسنة"، وكتـب العجلونـي كتابـه "كشـف الخفـاء" حيث تناولا هذه الأقوال وبيّنا أيا منهـا حديـث نبـوي وأيا منهـا ليس بحديـث، فبجـانب الأحاديث العديدة التي تحض على العلـم إلا أن بعـض مـا اشـتهر لـدى العامـة مـن أقـوال أمثال: «العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلـم ولـو بـالصين»،[1] و«خـير النـاس مـن ينفع الناس»[2] ليست بأحاديث مثلما أوضحا ذلك.

إذن، فبعد كل هذه الجهود في التدقيق والتمحيص وبعد بذل كل هذه العنايـة في جمـع الحديث وتحليله وفرزه وتدقيقه أيمكن النظر بعين الشك إلى الأحاديث الموجودة في كتـب الصحـاح، وهـل مـن الإنصـاف محاولـة التشـكيك في النبـع وفي المصـدر الثـاني للديـن الإسلامي؟ وكيف يمكن تفسير هذه المحاولات؟

٢- أمثلة من الأحاديث الموضوعة

شرحنا فيما سبق الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الحديث العظام في جمع الأحاديث وفرزها فأصبحنا نعرف بفضل هـذه الجهـود الكبـيرة الأحـاديث الصحيحـة والأحـاديث الموضوعـة بوضوح تام، لأن السنة التي هي تفسير للقرآن الكريم مشمول بالوعد الإلهي بالحفظ ﴿إنا نحن

(١) «**كنز العمال**» للهندي ١٣٨/١٠؛ «**فيض القدير**» للمناوي ٥٤٢/١؛ «**كشف الخفـاء**» للعجلونـي ١٣٨/١؛ «**الفردوس**» للديلمي ٧٨/١

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ١٢٨/١٦؛ «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٣٩٣/١

نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩). ولكن هذه السنة تعرضت لهجوم المستشرقين ولهجوم بعض السائرين في ركابهم، لذا فسنقوم باستعراض أمثلة من الأحاديث الموضوعة، ثم باستعراض بعض الأحاديث الصحيحة التي تعرضت لها ألسنة البعض.

هناك رواية وردت على أنها حديث وهي: «أبو حنيفة سراج أمتي.»[1] صحيح أن أبا حنيفة أصبح سراجاً لأمة محمد ﷺ، فقليل من خدم الإسلام خدمته بعد الصحابة، غير أن هذا الكلام لم يصدر من فم سيد المرسلين ﷺ، بل هو قول أملاه التعصب المذهبي.

ومثال آخر: «اتخِذوا الديكَ الأبيض»،[2] الديك الأبيض محبوب من قبل الناس، ولكن نقاد الحديث بينوا أنه حديث موضوع من قبل بعض الرواة الكذابين، وأنه ليس بحديث، وقد يكون واضع هذا الحديث أحد تجار الديوك.

هناك قول شائع بين الناس وهو: «اتق شر من أحسنت إليه»،[3] وهذا القول علاوة على أنه ليس بحديث فإنه يخالف المنطق، ولو عكسنا هذا القول أي لو قلنا: "أَحسِنْ إلى من اتقيتَ شره" لكان هذا أقرب إلى المنطق، ذلك لأن الإحسان يلين قلب الإنسان.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

وهناك قول أو حكمة مأثورة تقول: "الإنسان عبيد الإحسان" أما القول الأول فهو كذب صريح لايمكن إسناده إلى الرسول ﷺ.

قلت قبل قليل بأن الكلام المذكور والمنسوب إلى الرسول ﷺ لا يتفق مع العقل ومع المنطق. أجل، فالإسلام دين العقل والمنطق، إلا أن كونه عقلياً ومنطقياً شيء واستناده إلى العقل والمنطق شيء آخر. فالإسلام حقيقة فوق مستوى الإنسان.. حقيقة وضعها الله تعالى وبلغها الرسول ﷺ، ووظيفة الإنسان هي الوصول إلى هذه الحقيقة، وإلا فإن العقول

---

(١) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٣٣/١؛ «**الأسرار المرفوعة**» لعلي القاري ص٤٧

(٢) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٣٦/١

(٣) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٤٣/١؛ «**الأسرار المرفوعة**» لعلي القاري ص٥٠

المنفردة لا تستطيع الوصول إلى أفق هذه الحقيقة وحدها أبداً.

هذه هي الحقيقة.. ومع ذلك نرى جهود بعض المحافل العلمية لجر الموضوع إلى مجرى آخر، فمثلاً يسندون القول التالي إلى الرسول ﷺ (أو ما معناه): عندما تنقلون مني حديثاً فتشاوروا بينكم فإن كان موافقاً للحق فصدقوه واتخذوه أساساً لدينكم، لا يهم إن كنت أنا قائل ذلك الكلام أم لا، المهم أن يكون الكلام موافقاً للحق.

هذا الكلام ليس بكلام الرسول ﷺ أبداً، ذلك لأن الله تعالى وحده هو الذي يعلم الحق وحده ويعينه والرسول ﷺ هو الذي ينقل إلينا هذا الحق فقط، والحق لا يتسع المقاييس التي يضعها الأشخاص، ولا يمكن اتخاذ هذه المقاييس معياراً لأحاديث الرسول ﷺ. على العكس تماماً فإن على الأشخاص أن يعيروا تصرفاتهم حسب السنة النبوية، أي حسب أقواله وتصرفاته.

هناك حديث مختلق آخر وهو: «وُلدت في زمن الملك العادل»،[1] وهو كلام مختلق في مدح الملك الإيراني "أنوشيروان"، فالرسول ﷺ لا يحتاج إلى مدح مضاف إليه بسبب شخص آخر، لأنه هو الذي أعطى الزهو والفخر للزمان والمكان، ولا يعلي مرتبة مثل هذا الرسول الكريم أن ملكاً عادلاً كان يعيش في زمانه.

وهناك قول متداول بين الناس وسمعناه من المنابر كثيراً على أنه حديث نبوي وهو ليس كذلك مع أنه لا يخالف العقل والمنطق وهو: «النظافة من الإيمان.»[2] ومع كون معنى هذا القول صحيحاً إلا أنه ليس بحديث. قلنا إن معناه صحيح إذ ورد في حديث صحيح: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان.»[3]

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/٣٤٠؛ «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص٢٥٩

(٢) «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص٩١

(٣) مسلم، الطهارة، ١؛ الترمذي، الدعوات، ٨٦

وقول خادع آخر: «تختموا بالعقيق.»[١] مثل هذا الكلام لم يصدر عن الرسول ﷺ، ولكن هناك حديث روته أمنا عائشة رضي الله عنها وهو: «تخيموا بالعقيق»، أي اضربوا خيامكم في العقيق. والعقيق اسم وادٍ بين المدينة المنورة ومكة المكرمة. ولما كانت الكتابة في العهود الأولى خالية من التنقيط فقد انقلبت كلمة "تخيموا" إلى "تختموا"، واختلطت عليهم كلمة "العقيق" فظنوها حجر العقيق، ثم أضافوا في نهايته كذباً آخر وهو «فإنه ينفي الفقر.»[٢]

وحديث موضوع آخر وهو «النظرة إلى وجه جميل عبادة.»[٣]وهو قول مكذوب وضلالة وانحراف. كما أن: «اطلبوا العلم ولو بالصين» ليس بحديث بل هو حديث موضوع. الغاية من وضعه -كما توهم واضعوه- إظهار اهتمام الإسلام بالعلم. ففي القرآن الكريم وفي السنة النبوية الكثير من الحض على العلم والتشويق له بحيث لا نحتاج إلى مثل هذه الأقوال الشبيهة بسجع الكهان، فالقرآن الكريم يقول مثلاً: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ (فاطر: ٢٨) ويقول: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر: ٩) وفي الحديث الصحيح: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم.»[٤] فوجود عشرات من الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة تغنينا عن أقوال موضوعة.

---

(١) **«كنز العمال»** للهندي ٦٦٣/٦؛ **«كشف الخفاء»** للعجلوني ٢٩٩/١-٣٠١؛ **«كتاب الموضوعات»** لابن الجوزي ٥٧/٣

(٢) **«كنز العمال»** للهندي ٦٦٣/٦-٦٦٤؛ **«كشف الخفاء»** للعجلوني ٢٩٩/١

(٣) **«كشف الخفاء»** للعجلوني ١٣٨/١؛ **«الفردوس»** للديلمي ٧٨/١؛ **«الأسرار المرفوعة»** لعلي القاري ص٢٥٢

(٤) **أبو داود**، العلم، ١؛ **الترمذي**، العلم، ١٩؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١٧

(و) الأحاديث الصحيحة المتهمة بالوضع

بينما لا نرى من يتكلم ضد هذه الأقوال المنتشرة والمحسوبة كأحاديث بل حتى أنها تكون أحياناً موضوعاً للخطب والمقالات. فإننا نرى من يتهم بالوضع الكثير من الأحاديث الموجودة في صحاح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الأحاديث الستة.

١- بشارة التوراة

فمن هذه الأحاديث الحديث التالي الوارد في صحيح البخاري: «في التوراة: [يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بِفَظٍّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملةَ العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عُمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.]»[(١)]

قام بعض المستشرقين ومن يسير خلفهم في العالم الإسلامي بنقد هذا الحديث وزعموا أنه موضوع، والسبب بسيط وهو كون رواة الحديث هم عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وأنس وأبو هريرة وكذلك وجود كعب الأحبار ضمن الرواة.

أولاً ليس هناك في هذا الحديث شيء يناقض صفات الرسول ﷺ أو أي حادثة تاريخية أو أي وصف قرآني للرسول ﷺ، ثم نستطيع ذكر أن التوراة والإنجيل لا يزالان حافلين ببشارات وإشارات حول رسولنا ﷺ رغم تحريفهما، والقرآن الكريم يقول في حق الذين يؤمنون بالرسول ﷺ من أهل الكتاب: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ (الأعراف: ١٥٧) ويقول أيضاً في نهاية سورة الفتح:

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٤٨) ٣، البيوع، ٥٠؛ **الدارمي**، المقدمة، ٢

﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ (الفتح: ٢٩).

إذن، ألا يخبرنا القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل يتحدثان عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه؟ حتى أن العلامة حسين الجِسْر ثبت في نسخ التوراة والإنجيل الموجودة حالياً ١١٤ إشارة تتعلق برسولنا ﷺ. ولا يسع الإنسان إلا الذهول من كثرة هذه البشارات رغم كل هذا التحريف والتغيير، وسوف يأتي اليوم الذي ستؤيد البحوث صحة إنجيل بَرنابا إن شاء الله حيث نجد فيه اسم رسولنا ﷺ صراحة، أجل، فإن التبشير باسم الرسول الذي سيأتي من بعده كان من أهم وظائف عيسى عليه السلام.

ثم إن معظم من دخل الإسلام كان إما من المشركين أو من النصارى أو من اليهود، وكان كعب الأحبار مسلماً من أصل يهودي، ويقول عنه مفكر العصر الحديث "إن معلوماته أسلمت أيضاً بعدما أشهر إسلامه."[1]

وكان ينقل بعض الإسرائيليات التي لا تخالف القرآن والسنة في المواضيع التي سكت عنها القرآن والسنة. ولم يكن -كما ادعى البعض- عدواً متعصباً ضد الإسلام. أما اتهامه بوجود علاقة بينه وبين مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهي تهمة اختلقت بعد عدة عصور. وكان كبار الصحابة من أمثال ابن عباس وأبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم يستمعون إليه وهو ينقل إليهم بعض أخبار التوراة، ولكن ما كان يكذب لا هو ولا أحد من هؤلاء الصحابة الكرام. فالكذب ما كان ليقرب حتى أحلامهم، لذا فالقيام باتهام أحاديث صحيحه بالوضع واتهام رواتها من كبار الصحابة دون أي مبرر وبملاحظات سطحية وارتجالية مع كون الحوادث والوقائع التاريخية واضحة جداً في هذا الخصوص لا يقصد منه سوى النيل من السنة النبوية التي هي الركن الثاني للإسلام ومحاولة هدمها.

---

(١) «**صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٣٤

٢- التوسل

والحديث الصحيح الآخر الذي جوبه بالاعتراض هو عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ بيد العباس رضي الله عنه في عام القحط وتوسل به إلى الله تعالى واستمطره قائلاً: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا" فيُسقَون.(١)

جاء الاعتراض على هذا الحديث في كتاب ابن أبي الدنيا وفي كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ الذي كان تلميذاً من تلاميذ "النظّام" إمام المعتزلة المعروف بإنكاره للكثير من الأحاديث الصحيحة والمعروف أيضاً بنظرته المادية، إذ يقول الجاحظ في كتابه هذا إن في حادثة استسقاء عمر رضي الله عنه اضطراباً كثيراً إذ ترد مرة بأنه دعا وهو على المنبر، ومرة أنه دعا بعد الصلاة.

أولاً: إن الجاحظ ليس بمحدث، وعلاقته مع الحديث علاقة أي إنسان عادي، أما ابن أبي الدنيا فهو رغم كونه شخصاً تقياً إلا أن كثيراً من المحدثين يتفقون على احتواء كتابه على الكثير من الأكاذيب والأخطاء. إذن، فكيف يمكن إصدار حكم على حديث ما استناداً إلى مثل هؤلاء؟ ولو قال أحدهم إن الحديث الفلاني رواه الإمام الغزالي لضحكوا منه، لأنه مع كونه مفكراً إسلامياً فريداً وكبيراً إلا أنه لم يكن محدثاً، حتى أن زين الدين العراقي –الذي يعد مجدداً في علم الحديث– تناول الأحاديث الواردة في كتاب "إحياء علوم الدين" فأشار إلى الصحيح وإلى الحسن وإلى الضعيف منها، أي قام بنقد وتقييم الأحاديث الواردة فيه.. فلا يسأل من الطبيب علوم الهندسة ولا من الكيمياوي علوم الطب.. إذن، فإن الاعتراض على هذا الحديث لا يستند إلى أساس علمي ولا إلى أساس متين.

ثانياً: إن التوسل ليس شيئاً غريباً أو مستهجناً، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يا أيها الذين

---

(١) **البخاري**، الاستسقاء، ٣، فضائل أصحاب النبي، ١١

آمنوا اتقوا الله وابتغُوا إليه الوسيلة﴾ (المائدة: ٣٥). وكان الصحابة الكرام يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم، وهذا الطلب مبني على الأمر نفسه، أي أمر التوسل. فمثلاً جاء بدوي إلى الرسول ﷺ في أحد الأيام وشكا إليه القحط وطلب منه أن يستسقي لهم فرفع رسول ﷺ يديه ودعا: «اللهم اسقنا غيثاً» فلم يلبث حتى تجمعت السحب وأرعدت وبدأ المطر ينزل مدراراً، واستمر المطر أياماً حتى اشتكى الناس وجاءوا إليه ورجوا منه الدعاء لقطع المطر فدعا فانقطع المطر، وشكلت الغيوم تاجاً فوق المدينة وذهب الناس إلى بيوتهم تحت أشعة الشمس حتى أن الرسول ﷺ تبسم أمام هذا المنظر وقال ووجهه مشرق: «أشهد أن الله على كل شيء قدير وأني عبد الله ورسوله.»[١]

وقد ورد في أحاديث صحيحة حادثة انحباس ثلاثة مؤمنين في مغارة وقيام كل واحد منهم بالتوسل لله بأعماله الصالحة للتخلص من ذلك المأزق، فذكر أحدهم بره بوالديه، وذكر الآخر ابتعاده عن غواية ابنة عمه خشية من الله تعالى، وذكر الثالث قيامه بتنمية وتشغيل أجرة شخص خدمه ولم يتيسر له تسليمها له ثم قيامه بإعطاء هذا المال الذي نماه له عند لقائه به.. ذكروا هذا ودعوا الله تعالى أن يخلصهم مما هم فيه من الضيق بحرمة هذه الأعمال الصالحة.[٢] كما وجد في عهد الرسول ﷺ من استعان بالوسيلة وأقرهم الرسول ﷺ على ذلك، فمثلاً جاء أحدهم يشتكي من عمى عينيه فعلمه الرسول ﷺ أن يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يدعو الله تعالى بالدعاء الآتي: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، اللهم فشَفِّعْه فيّ.»[٣] وما أن نفذ ذلك الشخص توصية الرسول ﷺ حتى تخلص من العمى وأصبح مبصراً.

---

(١) البخاري، الاستسقاء، ١٤؛ أبو داود، الاستسقاء، ٢؛ ابن ماجة، الإقامة، ١٥٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/٢٥٣-٢٥٦

(٢) انظر: البخاري، الإجارة، ١٢؛ مسلم، الذكر، ١٠٠

(٣) ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٨٩؛ الترمذي، الدعوات، ١١٨

فإذا كان القرآن الكريم يوصينا بالبحث عن وسيلة إليه، وإذا كان الرسول ﷺ يوصينا بالتوسل بـالقران، وإذا كـان يجوّز التوسل بـه كما يوصـي بالتوسل بأعماله الصالحة،[١] إذن، فما الغرابة في التوسل، ولماذا يستهجنون قيام عمر بن الخطاب ﷺ بالتوسل عند استسقائه المطر؟ ليس هذا إلا تمرداً على السنة والوقوف في وجهها.

٣- الإناء الذي ولغ فيه الكلب

هناك حديث آخر رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حنبل رفضه المستشرقون ومن يسير في أثرهم، وذلك لمجرد أن عقولهم لم تستطع استيعابه أو لكون الرواة هم إما أبو هريرة أو عبد الله بن عمر أو أنس ﷺ والحديث هو: «طهور إناء أحدكم إذا وَلَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[٢] ويرد الحديث في رواية أخرى بصيغة: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات.»[٣]

وتعبير "سبع" الوارد في الحديث قد يقصد منه العدد "سبعة" نفسه أو هو يرمز إلى الكثرة، لذا رأى فقهاء المذهب الحنفي أن غسل الإناء ثلاث مرات يكفي، أي إذا كان غسل الإناء ثلاث مرات يكفي لنظافته تم الاكتفاء بذلك.[٤]

يمكن كتابة كتاب في المعاني الشاملة لهذا الحديث الشريف، وهو إشارة من إشارات النبوة، فقد تم في العصر الحديث فقط معرفة وجود أمراض تنتقل من الكلاب إلى الإنسان. وهذه المسألة المهمة في موضوع حفظ الصحة نبهت إلى وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والكلب لوجود بعض الجراثيم والفيروسات التي تستطيع العيش في الكلب

---

(١) انظر: **البخاري**، الإجارة، ١٢؛ **مسلم**، الذكر، ١٠٠

(٢) **البخاري**، الوضوء، ٣٣؛ **مسلم**، الطهارة، ٩١؛ **أبو داود**، الطهارة، ٣٧؛ **الترمذي**، الطهارة، ٦٨؛ **النسائي**، الطهارة، ٥٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٤٥، ٢٥٣

(٣) **البخاري**، الوضوء، ٣٣؛ **مسلم**، الطهارة، ٩٠

(٤) «**الهداية**» للمرغناني ١/٢٣

وفي الإنسان وتسبب لهما المرض، أي أن هذا الحديث يعد معجزة نبوية، وقد ظهرت كتابات لا تعد ولاتحصى في المجلات العلمية حول هذا الخصوص.

٤- حديث الذباب

وشبيه بالحديث السابق ما جاء في حديث صحيح آخر تناوله بالنقد حتى "موريس بوكاي (Maurice Bucaille)" الذي بدأنا نترجم كتبه بكل تقدير، إذ ادعى أن المسلمين قبلوا هذا الحديث نتيجة ذهول أو جهل، إلا أن النتيجة كانت في صف رواة الحديث من أمثال أبي هريرة وخيبة وخسرانا للمستشرقين وتابعيهم، والحديث هو: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمِسْه كله ثم ليطرحه.»[1] ليس في الإمكان نقد الحديث من ناحية السند، ذلك لأننا نجد أن رواته هم البخاري وأبو داود والنسائي والدارمي وابن حنبل، وأن الصحابة والأمة قبلته ولم يورد علماء الحديث أي اعتراض حوله حتى وصوله إلينا.

كان أئمة المعتزلة أول من اعترضوا عليه لأنه خالف العلم الموجود آنذاك ثم اعترض عليه المستشرقون ورجال العلم في القرن العشرين، هذا علماً بأن هذا الحديث يشكل وحده معجزة، ذلك لأن الرسول ﷺ يجلب الأنظار قبل كل شيء إلى قيام الذباب بنقل الجراثيم لأن الحديث يستمر هكذا: «فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء.»

فعندما يريد الذباب أن يحط على مكان نراه يستعمل أحد جناحيه باحتياط وهو نادراً ما يحط على مكان لا يستطيع أن يطير منه كالعسل مثلاً، فدماغه الصغير جداً مخطط ومبرمج لتسيير أموره الحياتية، ولكن هذا الذباب ينقل معه للإنسان عندما يحط على وجهه أو طعامه أمراضاً عديدة كالتيفود والكوليرا والديزانطري. وهكذا نرى أن العلم متأخر عن رسول الله ﷺ -الذي أعلن أن في أحد جناحي الذباب داء وفي الآخر دواء-

---

(١) **البخاري**، الطب، ٥٨، بدء الخلق، ١٧؛ **أبو داود**، الأطعمة، ٤٨؛ **النسائي**، الفرح، ١١؛ **ابن ماجة**، الطب، ٣١؛ **الدارمي**، الأطعمة، ١٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٢٩، ٢٤٦

عدة عصور. وقد كشف علم الطب الآن هذه الحقيقة التي عبر عنها الرسول بكلمات قليلة. إذن، فإن رد هذا الحديث -الذي قبلته الأمة أربعة عشر قرناً- لمجرد وجود أبي هريرة ضمن الرواة أو لمجرد عدم استيعاب عقولهم له يعد قراراً مستعجلاً لا يتلاءم مع العلم ولا مع الحقيقة.

ولا تقتصر صفة حمل الداء في جانب وحمل الدواء في جانب آخر على الذباب فقط، فالأمر واردة أيضاً لدى العقرب ولدى النحل، فعندما يلسع العقرب شخصاً يأخذون العقرب ويسحقونه ويضعونه على موضوع اللسع فيكون شفاء، أما النحل فنراها تصنع العسل في جانب والسم في جانب آخر.

٥- شد الرحال إلى المساجد الثلاثة

وحديث صحيح آخر تعرض للنقد على أساس أنه يهدم قواعد السنة ولكونه مروياً عن الصحابة عن كعب الأحبار، أو المظنة أنه يقدس المسجد الأقصى باسم اليهودية. والحديث هو: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى»[(١)] ويرد المسجد الأقصى في بعض الروايات قبل المسجد النبوي.

أولاً: لا يوجد مؤمن يشعر بأي غضاضة عند مدح المسجد الأقصى، لأنه المسجد الذي يذكر القرآن الكريم عنه ﴿باركنا حوله﴾ (الإسراء: ١)، وهو المكان الذي عرج إليه الرسول ﷺ في ليلة المعراج وأمّ أرواح الأنبياء العظام فيه. فالمسجد الأقصى ليس معبداً لليهود، بل هو رمز لحكم الإسلام الذي هو دين الله المبين. فالبقعة المباركة التي تضم المسجد الأقصى هي البقعة التي فتحها يوشع بن نون فتى الرسول العظيم موسى عليه السلام عندما رأى أن جماعته قد نضجت وتهيأت للأمر، ثم أصبح فتح هذه البقعة المباركة من

(١) **البخاري**، الصلاة في مسجد مكة، ١؛ **مسلم**، الحج، ٥١١؛ **الترمذي**، الصلاة، ١٢٦؛ **النسائي**، المساجد، ١٠؛ **ابن ماجة**، إقامة الصلاة، ١٩٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٣٤/٣

نصيب عمر بن الخطاب ﷺ ثم للقائد الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي وسيكون فتحها الأخير من نصيب الربانيين في المستقبل القريب إن شاء الله. المسجد الأقصى رمز، وفقده هزيمة معنوية، وفتحه من جديد سيكون رمزاً لوجدان الإسلام ذاته.. فإذا كان المسجد الأقصى يملك قيمة ومكانة كبيرة في كتاب الله وقام الرسول ﷺ بالتعبير عن هذه القيمة والمكانة فما الداعي لتكذيب هذا الحديث؟ أما كونه مرجحاً على المسجد النبوي فهذا موضوع يمكن مناقشته، أما العبادة في المسجد الأقصى وفي غيره من الأماكن المماثلة فلا توجد عبادة خاصة لها، وتعيين زمان ومكان العبادات يعود للشارع، ففي رواية عن ابن عباس أن امرأة نذرت أن تصلي في المسجد الأقصى إن شفاها الله من مرضها، وعندما شفيت بدأت تستعد للسفر، وقبيل سفرها زارت أم المؤمنين ميمونة ﷺ وأعلمتها بأمرها فقالت لها ميمونة ﷺ: أجلسي فكلي ما صنعت وصلي في مسجد الرسول ﷺ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة.»(١)

أجل، إن الصلاة يمكن أن تؤدى في كل مكان ما دام الله تعالى لم يخصص زماناً خاصاً ومكاناً خاصاً للعبادة والطاعة.. فمن نذر أن يضحي هنا أضحية يستطيع أن يذبح أضحيته في مكان آخر، ومن نذر أن يضحي في مكان آخر يستطيع أن يوفي بنذره هنا أيضاً. وعندما تناولت أمنا ميمونة ﷺ الموضوع من هذه الزاوية أرادت أيضاً أن تبرز أهمية وأفضلية الصلاة في المسجد النبوي، ومع ذلك فإن بعض الفقهاء الكرام استثنوا المسجد الحرام من هذه القاعدة العامة لكونه مشتملاً على بعض الخصوصيات مثل إمكانية الصلاة فيه على الدوام وإمكانية الطواف حوله إلى جانب أداء الصلاة، لذا قالوا بأن من نذر أضحية في المسجد الحرام عليه أن يوفي بنذره هناك. ولا تقلل هذه المسألة الفقهية ولا كلام أمنا ميمونة ﷺ من قيمة المسجد الأقصى أو من قيمة أي مسجد آخر ومنزلته.

---

(١) **البخاري**، الصلاة في مسجد مكة، ٤؛ **مسلم**، الحج، ٥١٠؛ **الترمذي**، المواقيت، ١٢٦؛ **النسائي**، المناسك، ١٢٤

٦- الطائفة الملتزمة بالحق

وحديث صحيح آخر تعرض للتكذيب يرينا مستوى المكذبين له، وهو حديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.»[(١)]

من الصعب فهم السبب في معارضة هذا الحديث، فالتاريخ الإسلامي لم يشهد على مدى أربعة عشر قرناً أي عهد انمسح فيه الإسلام من الدنيا ومن القلوب ولم يجد له مناصرين ومعاونين. أجل، فالتاريخ لا يحدثنا عن عهد لم يكن للإسلام جماعة عملت في سبيله.. لندع الماضي ولنتأمل القرن العشرين وهو أكثر القرون تهجماً على الدين وعلى المتدينين، ومع ذلك لم يستطيعوا إزالة الدين ومسحه من الوجود، إذن، فأين الجانب غير المقنع في هذا الحديث؟ قامت الشيوعية بمطاردة الدين في ديارها وأعلنت عليه حرباً ضروساً بهدف مسحه من الوجود، ولكن كان هناك على الدوام حتى في تلك البلاد الشيوعية من نذر نفسه للدين، بل إن الإنسانية بعد أن سبحت في مستنقع الكفر كل هذه السنوات تفتش الآن عن مخرج وعن منقذ لها، فلا تجد إلا الدين –والدين الإسلامي على الأخص– لأن الدين الإسلامي شمعة إلهية لا يمكن إطفاؤها بالنفخ.

قدمت تفاسير عديدة لكلمة "الجماعة" الواردة في الحديث، فالبخاري يقول: "إنهم أهل الشام"،[(٢)] ذلك لأن الشام كان في عهده مركز العلم، ومع أن الخلافة كانت قد انتقلت من الشام إلى بغداد إلا أن بلاد الشام حافظت على صفة مركزيتها هذه عدة قرون، فالعلماء الكبار من أمثال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك كانوا يرسلون طلابهم إلى الشام ليلتفوا حول الأمراء وينشروا العلم.

---

(١) البخاري، الاعتصام، ١٠، التوحيد، ٢٩؛ مسلم، الإمارة، ١٧٠؛ أبو داود، الفتن، ١؛ الترمذي، الفتن، ٥١؛ ابن ماجة، المقدمة، ١

(٢) البخاري، التوحيد، ٢٩

ورأى آخرون أن المقصود بـ"الجماعة" هم المحدثون، ورأى آخرون أنهم هم المفسرون. وعلى أي حال فلو تجنبنا حصر معنى "الجماعة" في الحديث في زمان معين أو في مجموعة معينة لكان ذلك أفضل وأقرب إلى معنى الحديث. فهذه الجماعة وجدت على الدوام.. في الشام مرة وفي غيرها مرة.. مرة حول عمر بن عبد العزيز ﷺ ومرة حول الإمام الغزالي ﷺ، وأخرى حول الإمام أحمد السرهندي ﷺ أو حول مولانا خالد البغدادي ﷺ أو حول آخر.. ولكن المهم أنهم وجدوا على الدوام وسيوجدون في المستقبل أيضاً على الدوام.

٧- غسل اليدين بعد الاستيقاظ

هناك حديث آخر تعرض للرد من قبل من لم يفهموه وهو حديث: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده، أو أين كانت تطوف يده.»[1]

وقد استهزأ أحمد أمين صاحب كتاب "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" بهذا الحديث قائلاً: "ألا يعرف الإنسان أين كانت تطوف يده؟" واستهزأ به أيضاً أبو ريّة والمستشرق "غولتسهر (Goldziher)" الذي يُعد أستاذاً لهؤلاء. ولكن أحقاً يعلم الإنسان أين كانت يده تطوف في الليل؟ أنا أرى أن هذا الحديث يتضمن معجزة من ناحية علم حفظ الصحة جاوزت الأزمان وهي تظهر وتبين حقائق مهمة.

قد يكون الإنسان مصاباً بحساسية أو مرض جلدي، وقد يحك في الليل دون أن يشعر بعض أجزاء جسده، وعلم الطب اليوم يقول إن ملايين الجراثيم توجد تحت الأظافر، إذن، أيجوز مثل هذا الإنسان الذي لوث أظافره وتحت أظافره بالجراثيم أن يمد يده عند فطوره

---

(١) **البخاري**، الوضوء، ٢٦؛ **مسلم**، الطهارة، ٨٧-٨٨؛ **أبو داود**، الطهارة، ٥٠، «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٤١، ٢٥٢، ٢٦٥

صباحاً إلى الطعام أو إلى إناء الماء؟ ألا يقوم بذلك بالتسبب في قرب الجراثيم إلى جسمه؟

إذن، فإن رد مثل هذا الحديث الذي قبلته الأمة منذ البداية حتى الآن والذي لا يتناقض مع العلم بل يتماشى ويتلاءم معه، وذلك لمجرد أن بعض المستشرقين -ومن ورائهم بعض المستغربين في العالم الإسلامي- لم يعجبهم رواة هذا الحديث من الصحابة، أو لأن المستوى العلمي في عهد هؤلاء المستشرقين لم يكن كافياً لفهم هذا الحديث، أيجوز رد هذا الحديث استناداً إلى هذه الأسباب الواهية؟

٨- لقاء النبي موسى عليه السلام في المعراج

من بين الأحاديث التي حاولوا ردها هو الحديث الوارد حول لقاء رسول الله ﷺ بموسى عليه السلام في المعراج والذي أرشد رسولنا ﷺ إلى تقليل أوقات الصلاة -التي فرضت بادئ الأمر خمسين وقتا- إلى خمس أوقات،[1] مع أن هذا الحديث رواه أوثق الرواة من رجال الكتب الستة وغيرها.

أولاً: إن هذا كان لقاء ولم يكن مراجعة، وحتى لو راجع رسولنا ﷺ موسى عليه السلام لما كان في الأمر غرابة، فالرسول ﷺ كان في المعراج لأول مرة، أما موسى عليه السلام فكان في ذلك العالم منذ زمان كنبي مكرم. ثم إن رسولنا ﷺ كان مثال الأدب سواء تجاه الله تعالى أو تجاه النبي موسى عليه السلام، وكان يبحث دائماً عن اليسر في سبيل أمته. وكان لقاؤه مع موسى عليه السلام ضمن هذا الإطار. ثم إن كان هذا مراجعة فمراجعته لموسى عليه السلام كانت مهمة من زاوية تلطيف الجو مع نبي إسرائيل أو مع اليهود من الناحية النفسية والاجتماعية. كما أن الرسول ﷺ جاء مصدقاً لجميع الأنبياء، وكان هذا اللقاء يعبر عن هذا المعنى، وكان قبوله وتصديقه لجميع الأنبياء قبولاً رائعاً حتى أنه لم يأذن بتفضيله على

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ١؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٦٣؛ **النسائي**، الصلاة، ١؛ **ابن ماجة**، إقامة الصلاة، ١٩٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٠٨/٩

الأنبياء السابقين أو عدم احترامهم.. وعندما غمز أحدهم في حق موسى عليه السلام تدخل حالاً وقال: «لا تُخيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله.»(١) أي قام بحفظ حق موسى عليه السلام.

ثم إننا لا نعرف جميع أبعاد المكان، لذا لا نعرف في أي بُعد جرت بعض الحوادث، فمثلاً هناك حديث ذكر في الكثير من كتب الأحاديث الصحيحة ككتب أحمد بن حنبل ومسلم وابن ماجة عن تميم الداري –الذي أسلم بعد أن كان نصرانياً– الذي ذكر خبر "الجسّاسة" والدجال في إحدى الجزر، فهل يمكن إنكار مثل هذا الحديث بدعوى أن الداري كان قبل إسلامه نصرانياً وأنه جلب هذا من النصرانية؟ وهل يمكن إنكاره بدعوى أن هذا أمر غير ممكن؟ ألا يمكن أن نعد هذا رؤية لأشخاص في حالة التحول (Transcedent)؟ ولا نقول إننا يجب أن نعده هكذا، علماً بأننا لا ندري في أي بعد مكاني شاهد الداري هذه الحادثة.

ثم هناك أحاديث عديدة حول نزول المسيح عليه السلام(٢) –مهما كانت طبيعة هذا النزول– فهل علينا أن ننظر إلى جميع هذه الأحاديث على أساس أنها مختلقة من قبل النصرانيين؟ ألم يكن عيسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل الذي نؤمن بنبوته والذي بشر بقدوم رسولنا ﷺ؟ إنه نبينا أيضاً مثله في ذلك مثل إبراهيم وداود وسليمان وموسى عليهم السلام. ثم أيمكن قبول التخاطب عن بُعدٍ، وتحت الماء بطريقة "تليباثي (Telepathy)" وتحضير الأرواح وتنويم الإنسان عن بعد وبوساطة التلفون ولا يمكن قبول الحوادث المذكورة سابقاً، والتي لا نعرف في أي بُعد حدثت، أو لا يمكن قبول حديث "شق الصدر" مثلا الذي ورد في كتب معتبرة مثل كتاب "الشفاء" للعلامة القاضي عياض وفي

---

(١) **البخاري**، الخصومات، ١، الأنبياء، ٢٥؛ **ابن ماجة**، الزهد، ٣٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٣/٢

(٢) **البخاري**، البيوع، ١٠٢، الأنبياء، ٤٩؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٤٢-٢٤٧؛ **أبو داود**، الملاحم، ١٤؛ **الترمذي**، الفتن، ٢١، ٥٤؛ **ابن ماجة**، الفتن، ٣٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٤٠/٢، ٣٩٤، ٥٣٨، ٦٧/٤

"الدلائل" لأبي نعيم الأصبهاني وفي "الشمائل" لابن كثير وفي غيره من الكتب وذلك لمجرد عدم إمكان تفسيره بالعقل أو بالعلوم التجريبية؟

أجل، إن الذين يحاولون هدم السنة بإنكار مثل هذه الأحاديث الصحيحة سيذهبون، أما السنة فستبقى إلى الأبد.

(ز) العوامل التي أدت إلى كثرة الأحاديث

أشار بعض المستشرقين ومن تبعهم في العالم الإسلامي إلى كثرة الأحاديث وإلى أن بعض الصحابة أكثروا من رواية الأحاديث، وزعموا باستحالة صدور كل هذه الأحاديث عن الرسول ﷺ وذلك وصولاً إلى غاية محددة، وهي إلقاء الشبه والشكوك على الأحاديث الصحيحة وعلى السنة النبوية.

١- أهمية الحديث

من الواضح عدم وجود أي مستند متين لمثل هذا الزعم وأمثاله. ذلك لأن للحديث -كما أوضحنا ذلك- أهمية قصوى في الدين الإسلامي وفي حياة المسلم، وكان الصحابة الكرام ﷺ على وعي كامل بهذا في كل حين، لذا كانوا حريصين على التقاط كل كلمة تخرج من بين شفتي الرسول ﷺ وكل عمل أو حركة من حركاته أكثر من حرص صاحب الجواهر على جواهره، لأنهم كانوا يعلمون أن سر سعادة الدنيا والآخرة موجود ضمنها، لذا كانوا حريصين على تدارس كل كلمة وكل سلوك أو إقرار صادر منه وعلى نقشه في ذاكرتهم ثم جعله دستوراً لحياتهم.

أجل، كانوا يراقبون حركات وسكنات الرسول ﷺ طوال ثلاثة وعشرين عاماً عن قرب ويقلدونه في كل مرحلة وفي كل صفحة من صفحات حياتهم، وكان الرسول ﷺ يشرح لهم ولكل المسلمين الذين سيأتون إلى الدنيا حتى يوم القيامة كل ما يهمهم في حياتهم الدنيوية والأخروية بشكل يستطيعون فهمه واستيعابه. وكان أحياناً كما يقول أبو زيد عمرو بن أخطب: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبرَ فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصرُ ثم نزل فصلى. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا."[1]

---

(١) مسلم، الفتن، ٢٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٤١/٥

كان الصحابة الذين معه يعون كلامه هذا طوال ثلاثة وعشرين عاماً ويعضون عليه بالنواجذ مثلما قال الرسول ﷺ.[١] كان يصلي أمام أصحابه ثم يقول لهم «صلوا كما رأيتموني أصلي.»[٢] ويحج معهم ويقول لهم: «خذوا مناسككم مني.»[٣] لذا، كان من الطبيعي أن يتابع الصحابة كل كلمة منه وكل حركة بكل حرص ويحفظوها ويجعلوا كلامه هذا دستوراً لحياتهم وينقلوه إلى الأجيال القادمة.

أجل، لقد حفظ الصحابة الأحاديث ومزجوها بحياتهم ونقلوها لأنهم كانوا شديدي الارتباط برسول الله ﷺ، وقد آمنوا أن كل كلمة وكل تصرف منه باب مفتوح إلى الجنة، ونحن أيضاً نؤمن بهذا. كانوا يحبونه من أعماق قلوبهم، وما كانوا يحفظون أحاديثه فقط، بل يحتفظون بكل شعرة منه ويتسابقون في ذلك، إذ كانوا يتبركون بكل شيء منه ويجعلونه أعز ذكرى عندهم وكأنه شيء جاء من الغيب أو من اللانهاية، وأنا شخصياً لم أنس رغم كل حوادث الدهر كلمات بعض الأشخاص الذين كنت أجلهم سواء أكانت هذه كلمات مديح أو كلمات تنبيه، وسواء أكانت ترغيباً أم ترهيباً، وأعتقد أن الأمر وارد بالنسبة لكل مسلم.

٢- الذكريات التي خلفت آثارها

إذا كان كل مؤمن لا يستطيع نسيان أقوال بعض من يجلهم من العلماء الذين يتمنون لو كانوا عبيداً عند باب الرسول ﷺ ويحتفظ بهذه الأقوال كأعز ذكريات لديهم، فكيف يمكن للصحابة الكرام -وهم من هم من المرتبة العالية من سمو النفس والخلق- أن ينسوا جواهر كلام المصطفى ﷺ الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة والتوحش

(١) **الترمذي**، العلم، ١٦؛ **أبو داود**، السنة، ٥؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ٦؛ **الدارمي**، المقدمة، ١٦

(٢) **البخاري**، الأذان، ١٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٥٣

(٣) **مسلم**، الحج، ٣١٠؛ **أبو داود**، المناسك، ٧٧؛ **النسائي**، المناسك، ٢٢٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/٣٦٦

إلى العلم وجعلهم مربي العالم ومرشديه؟ هذا محال، فهم لم ينسوا. وإذا كنتم أنتم تتسابقون لرؤية شعرات من لحيته الشريفة وتتزاحمون من أجلها تزاحماً كبيراً فكيف يستطيع الصحابة رضوان الله عليهم أن يستهينوا بذكراه وهم على تلك الدرجة من القرب منه؟!

كان أنس ﷺ يضم خف الرسول ﷺ إلى صدره بقوة مخافة أن يأخذه منه أحد، وعندما سمع أمير المؤمنين معاوية في الشام أن هناك شخصاً يحتفظ بجبة الرسول ﷺ بذل وزنها ذهباً ليحصل عليها. لقد احتفظوا بقربته سنوات طويلة، أما قوسه ونبله وأشياء أخرى فلا تزال محفوظة في "قصر طوب قابي" وهي مصدر نشوة لقلوبنا وعيوننا، وعندما جلب السلطان سليم الأول هذه الأمانات المقدسة ووضعها في "طوب قابي"، ووضع حولها قراء يتلون القرآن الكريم صباح مساء دون انقطاع، ودامت هذه العادة عصوراً عدة وحتى سنوات قريبة،(١) وكثير من المسنين عندنا يعرفون هذا جيداً. أما السلطان أحمد سلطان الدولة العثمانية التي امتدت في قارات ثلاث فقد تمنى لو كان في الإمكان أن يضع قالب أثر قدم الرسول ﷺ في الطين فوق رأسه كتاج قائلاً: "كم أتمنى أن أضع أثر قدميه المباركتين فوق رأسي."

فإذا كان الذين أتوا بعده بعدة عصور يبجلون ذكراه كل هذا التبجيل، أيمكن أن يستهين صحابته الكرام بذكراه وهم الذين عاشوا معه؟ كلا، أبداً. هذا، علماً بأن الأشياء التي تعد ذكرى منه لا تُعد مساوية في الأهمية للسنة في حياة المؤمن، فإذا كانت مخلفاته المباركة يحافظ عليها كل هذه المحافظة فكيف إذن، بأحاديثه وسنته؟

يروي أحمد بن حنبل في مسنده: كان للعباس ميزاب على طريق عمر بن الخطاب، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة —وقد كان ذُبح للعباس فرخان— فلما وافى الميزاب صب ماء بدم الفرخين فأصاب عمر وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس ثياباً غير ثيابه ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه

(١) هذه العادة تستمر اليوم والحمد لله. (المترجم)

النبي ﷺ. فقال عمر للعباس: "وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ." ففعل ذلك العباس رضي الله عنه.[(١)]

إذن، فكيف تستطيع جماعة هذا دأبها في احترام وتوقير وتبجيل أصغر ذكرى للرسول ﷺ إبداء أي إهمال نحو أحاديثه ﷺ، ذلك لأن الحديث يعني الدين ويعني الحياة ويعنى "الحقيقة الأحمدية" بتعبير المتصوفة، ويعني بالنسبة إلينا الجسر بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

٣- حث النبي وترغيبه في تحصيل العلم

وكما قلنا سابقاً فقد حث النبي ﷺ على طلب العلم وشوق إليه فقال مثلاً: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر.»[(٢)]

أي كان يشوق أتباعه لبلوغ أهداف وآفاق عليا. فإذا كان العلم يطلب الآن –عدا استثناءات قليلة– من أجل بلوغ المراتب أو في سبيل المعيشة، فقد كان يُطلب آنذاك في سبيل رضا الله تعالى. وكانت الحياة العلمية آنذاك نابضة بالحياة إلى درجة أن سفيان بن عُيينة حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين وبلغ درجة الاجتهاد والفتوى وهو شاب حدث.[(٣)] وكما أوضحنا سابقاً فقد كان هناك ترغيب

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢١٠/١

(٢) **أبو داود**، العلم، ١؛ **الترمذي**، العلم، ١٩؛ **النسائي**، الطهارة، ١١٣؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٤١/٤

(٣) «**الطبقات الكبرى**» للإمام الشعراني ٤٨/١؛ «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي ٤٥٩/٨

كبير لمذاكرة الأحاديث وشوق كبير لها، فحسب رواية الدارمي كان أبو سعيد الخدري وابن عباس يقولان لطلابهما: "تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث"[١] و"رُدُّوا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه "قد حدثته مرة"، فإنه من كان سمعه يزداد به علماً ويسمع من لم يسمع."[٢]

ودامت هذه الحيوية العلمية في عصر التابعين ثم في عصر تابع التابعين بل دامت في العصور الخمسة الأولى إلى درجة أن ابن حجر العسقلاني الذي يعد من أواخر الحفاظ والذي عاش قبل خمسة عصور تقريبا يقول إنه قرأ "صحيح مسلم" في بضع جلسات أي أنه استوعب "الجامع الصحيح" لمسلم في بضع جلسات، ذلك لأنهم كانوا يملكون شوقاً كبيراً لعلوم القرآن والسنة آنذاك، وكانوا يقومون بتحصيل هذه العلوم ضمن شعور العبادة ونشوتها، ودام هذا الأمر مدة أربعة أو خمسة عصور حتى أن الإمام النووي انكب على العلم ولم يتزوج مخافة أن تشغله مطاليب المعيشة والأسرة عن تحصيل العلم وتفرغ للعلم وحده.[٣] أما العالم الكبير "السرخسي" فقد ألف كتابه "المبسوط" المؤلف من ثلاثين جزء في قاع بئر[٤] ومن ذاكرته وحفظه حيث أملاه على طلابه، ومن طريف ما يروى في حق هذا العلامة أن أحد طلابه قال له يوماً إن الإمام الشافعي كان يحفظ ثلاثمائة صحيفة، عند ذلك قال هذا العالم العملاق: إذن، فقد كان يحفظ زكاة حفظي.[٥] ولو قمت بِعَدّ الصفحات التي كتبها هؤلاء العلماء الأعلام من أمثال ابن حجر وابن جرير والسيوطي وفخر الدين الرازي لما استطعت إكمال العد في أسبوع كامل.

وهذه الأسماء التي ذكرناها تعود إلى العهود الأخيرة نوعاً ما. أما إذا رجعنا إلى عهد الصحابة ثم إلى عهد التابعين لرأينا المنظر التالي:

---

(١) الدارمي، المقدمة، ٥١

(٢) الدارمي، المقدمة، ٥١

(٣) «**العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج**» لعبد الفتاح أبو الغدة ص١٤٦

(٤) «**الأعلام**» للزركلي ٣١٥/٥

(٥) «**أصول السرخسي**» للسرخسي ٥/١

٤- شوق إلى العلم يتجاوز أفق تفكيرنا

كان محمد بن سيرين عتيق الصحابي الكريم أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدم رسولنا ﷺ عشر سنوات ومن كبار أئمة التابعين، وكان له ابن سماه باسم سيده: أنس بن سيرين. يقول أنس بن سيرين إنه عندما وصل إلى الكوفة رأى أن أربعة آلاف من الأشخاص يأخذون دروساً في الحديث في جوامعها. تصوروا وجود أربعة آلاف طالب من طلاب علم الحديث في مدينة واحدة.[1] أما في الشام فقد كان في حلقة أبي الدرداء ١٥٠٠ طالب علم. ومن ضمن الأربعة آلاف طالب الذي ذكره أنس بن سيرين كان من ضمنهم ٤٠٠ من الفقهاء.[2] فما معنى وجود أربعمائة الفقهاء؟ إن العالم الإسلامي اليوم الذي يبلغ تعداده ملياراً ونصف لا يملك أربعمائة فقيها. والفقيه هو الشخص الذي يستنبط الأوامر الدينية من خلال الكتاب والسنة والإجماع، فأبو حنيفة فقيه وأبو يوسف فقيه والإمام محمد فقيه والإمام الشافعي فقيه والإمام مالك فقيه، أما الإمام أحمد بن حنبل الذي كان يحفظ ألف ألف من الأحاديث[3] فلم تطلق عليه صفة الفقه بسهولة. وعندما قال العالم أبو جعفر الطبري: "إن أحمد بن حنبل ليس بفقيه" قام الحنابلة برجم داره. قد يكون أحمد بن حنبل فقيهاً أو لا يكون، ولكن كلام الطبري هذا يشير إلى مدى صعوبة إطلاق صفة الفقيه على أحدهم. لذا، يجب النظر إلى أمر وجود أربعمائة فقيه في عهد التابعين في جوامع الكوفة ضمن أربعة آلاف شخص يتلقون علم الحديث من هذه الزاوية.

كان الشوق إلى العلم في ذلك العهد قوياً إلى هذه الدرجة، وكانوا يسافرون من مدينة إلى أخرى من أجل حديث واحد. وكان سفر أئمة الحديث من أجل سماع حديث واحد يشير إلى مدى أهمية الحديث عندهم. وقد أدى هذا الشوق الكبير عندهم وهذا الاهتمام

---

(١) «**المحدث الفاصل**» للرامهرمزي ص٤٠٨، ٥٦٠؛ «**السنة قبل التدوين**» لمحمد عجاج الخطيب ص١٥٠-١٥١

(٢) «**السنة قبل التدوين**» لمحمد عجاج الخطيب ص١٥١

(٣) «**وفيات الأعيان**» لابن خلكان ٦٤/١

الذي كانوا يشعرون به نحو الحديث بمرور الزمن إلى تمرس كبير في هذا الموضوع، ولم يكن تمرسهم هذا وقفاً على متون الحديث فقط بل كان يشمل السند أيضاً، وهو أمر مهم جداً من ناحية معرفة مدى صحة الحديث.

ونستطيع هنا أن نتذكر الإمام البخاري كمثال في هذا الموضوع، فعندما جاء إلى بغداد أراد عشرة من دارسي الحديث قياس درجة ومدى علمه بالحديث ومعرفة مدى قوة ذاكرته، وذلك أمام جم غفير من الناس، فبدأ كل واحد منهم يقرأ له عشرة من الأحاديث ولكن بعد تغيير وتبديل السند رأساً على عقب وتغيير مواضع الرواة، أي القيام بوضع اسم راو لحديث مكان راو آخر لحديث آخر، وهكذا خلطوا رواة مائة حديث، فمثلا نعرف أن رواة الحديث المشهور عن النية هم الحُميدي عن سفيان بن عُيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقّاص الليثي عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولكنهم عندما رووا هذا الحديث للبخاري وضعوا اسم راو آخر مكان اسم يحيى بن سعيد، ووضعوا اسماً آخر محل اسم علقمة ووضعوا اسم راوٍ آخر بدل اسم التيمي. وكما قلنا فقد قدموا له مائة حديث بعد تغيير أسماء رواتها. فذكر لهم البخاري أن اسم الراوي في الحديث الأول هو فلان وليس فلان وأن السند الصحيح له هو كذا وكذا حتى أتى على ذكر الأسانيد الصحيحة لجميع الأحاديث البالغة عددها مائة حديث، عند ذلك شهد جميع العلماء والحاضرون على قوة ذاكرته ورسوخ قدمه في علم الحديث،[1] وقد انبهر ابن خُزَيْمة بعلم البخاري في الحديث فقال: "ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري."[2]

كان البخاري عالماً جليل القدر لم يجعل علمه وسيلة لمتاع الحياة الدنيا، فعندما طلب منه أمير بخارى أن يأتي إلى قصره ليعلم أبناءه الحديث قال له هذا العالم الجليل: "إن العلم

(١) «هدي الساري» لابن حجر ص٤٨٧

(٢) «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٥٥٦/٢

لا يذهب إلى الحاكم، فإن أراد الحاكم استحصال العلم له أو لأولاده فعليه أن يأتي هو وأولاده إلى العلم للحصول عليه." وعندما طلب منه الأمير أن يخصص في الأقل يوماً لأبنائه رفض الإمام البخاري هذا الطلب وقال بأنه لايستطيع تمييز أبناء الأمير عن سائر أبناء الأمة الإسلامية عند إعطاء الدروس. وكان هٰذا الجواب سبباً في قضاء أيام حياته الأخيرة في عزلة عن الناس، والوفاة في ديار الغربة.(١)

سافر الإمام البخاري مرة ليأخذ حديثاً من أحدهم، وعندما وصل إليه واقترب منه رآه وهو يحاول الإمساك بحصانه ويشير إلى حضنه، وعندما رأى الإمام البخاري أن حضنه فارغ وليس فيه شعير أو غيره قال إن من يكذب على الحصان ويحاول خداعه قد يكذب على الناس أيضاً، لذا رجع دون أن يأخذ منه الحديث.

هذه الدقة والحساسية التي تمت ضمنها جمع الحديث وتدوينه، والذين يهاجمون كتب الأحاديث الصحيحة والسنة ويدعون أن عدد الأحاديث كبير جداً، إذن، فلابد أن هناك أحاديث مكذوبة دخلت إلى كتب الأحاديث الصحيحة لا يعرفون مدى العشق العلمي لجامعي الأحاديث، وماذا كانت السنة تعني بالنسبة لهم، ولا يتناسون الشروط والظروف التي تم فيها جمعها، ولا يعرفون نوعية العلماء الذين جمعوها، والظاهر أنهم يقيسون هذه المسألة بالنسبة لحالتهم النفسية وحالتهم الروحية والمعنوية فيضلون ويضلون.

٥- التلاؤم البيئي

وعامل آخر وهو أن الجو كان ملائماً جداً لحفظ الأحاديث في عهد الصحابة وتابعي وتابعين التابعين. فهم أولاً كانوا يعرفون دقائق اللغة العربية.. والقرآن الكريم الذي أتى به رسولنا ﷺ كان معجزة لغوية قبل كل شيء، وكانت الفصاحة اللغوية أهم ما يعنى بها العرب آنذاك، والمعلقات السبع ترينا أنهم كانوا أساطين اللغة والشعر، ومع ذلك –أو

---

(١) «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٥٢/٩؛ «هدي الساري» لابن حجر ص٤٩٤

بسبب ذلك– فقد انبهروا أمام القرآن الكريم وانعقدت ألسنتهم. فمثلاً نرى الشاعرة الخنساء وهي تنشد في الجاهلية أشعار الرثاء لأخيها صخر، وهي أبيات لا تزال تستدر دموعنا، لأنها أشعار نابعة من القلب، ولكنها بعد أن أسلمت ارتبطت بسلطان البيان رسول الله ﷺ إلى درجة أنها عندما استشهد أبناؤها الأربعة واحداً إثر آخر في معركة القادسية تلوت من الألم –لأنها إنسانة وأم– إلا أنها قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[1] مظهرةً بذلك مدى ارتباطها بالقرآن وبالإسلام وبالرسول ﷺ.

وكانت الخنساء هذه شاعرة بليغة وعليمة بأسرار اللغة والشعر إلى درجة أنها أشارت إلى ثمانية أخطاء في أربعة أبيات لشاعر الإسلام حَسّان بن ثابت رضي الله عنه الذي دعا له الرسول ﷺ من الله أن يؤيده بروح القدس في الذب عن الإسلام بأشعاره.[2] فأثبتت بذلك مدى إحاطتها بدقائق الشعر واللغة. هذه الشاعرة تركت الشعر أمام الأحاديث التي تشع نوراً للرسول ﷺ. ولم يقتصر هذا عليها، بل إن معظمهم كانوا من الفصحاء والشعراء آنذاك، ولكنهم أمام آيات القرآن الكريم وأمام أحاديث الرسول ﷺ تركوا الشعر واقتصروا على الترنم بآيات القرآن وبأحاديث الرسول ﷺ، فأصبحوا هم ومن جاء بعدهم على معرفة بأسلوب النبي ﷺ ويستطيعون تمييز كلامه وحديثه وأسلوبه عن سائر أحاديث وأساليب الآخرين.

٦- جودة القريحة وقوة الحفظ

وعامل آخر وهو كون أناس ذلك العهد السعيد عباقرة في قابلية الحفظ عن ظهر قلب. فنحن الآن نعد من يحفظ القرآن في أربعة أشهر عبقرياً. نعد أشخاصاً مثل العالم "ألماليلي حمدي" الذي تعلم اللغة الفرنسية في ستة أشهر من النوادر، بينما كانت قابليات

---

(١) «أسد الغابة» لابن الأثير ٩٠/٧؛ «أعلام النساء» لعمر رضا كحالة ٣٧٠/١

(٢) البخاري، الصلاة، ٦٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٥١؛ النسائي، المساجد، ٢٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٢٢/٥

أناس ذلك العهد في هذه الساحة أكبر، فمثلاً نرى أن أبا هريرة -وهو الشخص الذي أصبح هدفاً للمستشرقين الذين يحاولون بالهجوم عليه هدم عمود من أعمدة السنة- لا ينسى شيئاً مما يسمعه مرة واحدة ولا يحتاج لسماعه مرة ثانية.[١] ونرى أن زيد بن ثابت عندما أمره الرسول ﷺ بتعلم العبرانية[٢] تعلمها في ظرف ١٥-٢٠ يوماً فقط بحيث أصبح يستطيع قراءة الرسائل بالعبرية وترجمتها.

وعبقري آخر هو ابن عباس رضي الله عنهما الملقب بـ"حبر الأمة" وهو لايزال حياً، وكذلك أمنا عائشة رضي الله عنها.. هؤلاء الأشخاص كانوا أبطال الحفظ عن ظهر قلب، فما كانوا ينسون شيئاً سمعوه مرة واحدة، وكان عددهم بين الصحابة يبلغ المئات.

ولم يكن التابعون العظام أقل منهم في هذا الخصوص فنجد بينهم مثلاً ابن شهاب الزهري الذي عاش في عهد عمر بن عبد العزيز وقام بتصنيف الأحاديث لأول مرة[٣] والذي أصبح أيضاً هدفاً لهجوم المستشرقين. وكذلك قتادة بن دِعامة الذي قال لأبي حنيفة عندما قابله بأنه لم ينس شيئاً سمعه. ثم هناك "الشعبي" المشهور، وهناك إبراهيم بن يزيد النخعي والإمام الشافعي الذي ذكر أيضاً بأنه لم ينس شيئاً سمعه. نعم، كل واحد من هؤلاء كان بطلاً من أبطال الذاكرة.

---

(١) **البخاري**، العلم، ٤٢، البيوع، ١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٥٩، ١٦٠

(٢) **الترمذي**، الاستئذان، ٢٢؛ **أبو داود**، العلم، ٢؛ **«المسند»** للإمام أحمد ١٨٦/٥؛ **«أسد الغابة»** لابن أثير ٢٨٩/٢؛ **«الإصابة»** لابن حجر ٥٦١/١

(٣) **«حلية الأولياء»** لأبي نعيم ٣٦١/٣

(ح) شروط الرواية بالمعنى

هناك علماء أجازوا رواية معنى الحديث ووضعوا لهذا بعض الشروط:

أ- يجب أن يكون الراوي ملماً باللغة تمام الإلمام. فمن لم يكن ملما بدقائق اللغة لا يجوز له أن ينقل معاني أحاديث الرسول ﷺ، لأن الراوي يجب أن يكون فاهماً ومدركاً للمعنى تمام الإدراك.

ب- يجب أن تكون الكلمة المرادفة لما جاء في الحديث مترادفة تماماً لمعنى الكلمة الأصلية ولا تحمل معنى آخر، وأن تتم مراعاة سياق الحديث كذلك.

ج- يجب ألا يتم الالتجاء إلى رواية الحديث بالمعنى إلا إذا تم نسيان ألفاظ الحديث، لكي لا يضيع هنا لب ومعنى أي حديث صادر عن الرسول ﷺ، وذلك حسب قاعدة: "ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه" فنستفيد من كل جواهر السنة.

١- فروق الألفاظ في الأحاديث

هناك أحاديث مع أنها وردت بالفاظ مختلفة إلا أنها ليست من نوع الأحاديث المروية بالمعنى، و"التحيات" التي نقرأها في الصلوات الخمس كل يوم من هذه الأحاديث. فإضافة إلى صيغة "التحيات" التي يقرأها الأحناف والإمام الأوزاعي وسفيان الثوري وجمهور العلماء والتي رويت عن طريق ابن مسعود ﷺ هناك صيغة أخرى قرأها الشافعي نقلاً عن ابن عباس ﷺ، فهنا ترد كلمة "المباركات" بعد كلمة "التحيات"، وسقط حرف الواو بين الكلمتين، كما وردت في روايات ضعيفة صيغة ثالثة للتحيات قرأها عمر بن الخطاب ﷺ من فوق المنبر، لذا قد يدعي البعض بأن الصحابة لم يكونوا يحفظون جيداً كل ما يسمعونه من النبي ﷺ، أو أنهم كانوا ينسون بعض الكلمات ثم يضعون بدلاً منها كلمات مناسبة من قبلهم، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك. لأن الصلاة

فرضت قبل الهجرة بثلاث وفي رواية أخرى بخمس سنوات، إذن، فالصحابة القدماء أمثال عمر بن الخطاب أو ابن مسعود ﷺ صليا خلف الرسول ﷺ كل يوم خمس مرات لمدة تزيد على عشر سنوات، ومثل هذا الادعاء يضع هؤلاء العباقرة في قابلية الحفظ –والعياذ بالله– مكان الحمقى، وهو ادعاء لا يقول به حتى المجانين في مستشفى المجانين، لأنه يفترض عدم استطاعة هؤلاء الصحابة الذين قضوا سنوات طويلة وهم يصلون خلف النبي ﷺ كما قضوا معه ثلاثا وعشرين سنة عدم استطاعتهم حفظ شيء يستطيعه طفل في الخامسة من عمره. فإذا عرفنا أن القرآن عندما جمع في عهد أبي بكر ﷺ تمت مراجعة ذاكرة هؤلاء الصحابة، وتمت المقارنة بين ما هو مكتوب ومسجل وبين ما حفظ في القلوب فكانت النتيجة تطابقهما وعدم وجود أي فروق بينهما، لذا فإن هذا الادعاء فيما يختص برواية الحديث سيلقي ظلال الشك والشبهة حتى على القرآن الكريم.

أما أصل المسألة فهي على ما نعتقد ما يلي: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه»[1] حسبما ورد في الأحاديث الصحيحة. ولسنا هنا في معرض شرح ومناقشة هذا الموضوع. إلا أننا نقول إن الرحمة لذلك الشعب الأمي استوجبت إنزال القرآن هكذا ليسهل لهم تلاوته.

والأمر نفسه وارد بالنسبة للحديث النبوي الشريف، فرسول الله ﷺ كان يقرأ القرآن المنزل عليه مرة بوجه ومرة بوجه آخر، والشيء نفسه عمله مع دعاء "التحيات" مثلاً، إذ قرأها بوجه لابن مسعود ﷺ ولعمر بن الخطاب ﷺ بوجه آخر، فكما جاز قراءة القرآن على سبعة أوجه، جاز رواية الحديث بأوجه مختلفة، لذا يمكننا القول بأن جميع صيغ التحيات صادرة من الرسول ﷺ نفسه.

---

(١) **البخاري**، فضائل القرآن، ٥؛ **مسلم**، كتاب المسافرين، ٢٧٠؛ **أبو داود**، الوتر، ٢٢

٢- جوامع الكلم

هناك جانب آخر لهذه المسألة المهمة وهو أن الرسول ﷺ هو صاحب "جوامع الكلم"، أي أنه كان يعبر بكلمات قليلة عن معان كثيرة وعميقة يمكن أن يؤلف كتاب كامل لشرحها. فضمن قواعد اللغة العربية ونحوها وأصولها، وضمن أساليب البيان والبديع يظهر أمامنا معنى جديد لم نفطن له من قبل، لذا فمن يقرأ هذه الأحاديث النبوية لابد أن يقول: "لا يمكن لأي عبقري أن يقول مثل هذا الكلام دعك من الصحابة الذين نشأوا في بيئة أمية وتعلموا كل ما تعلموه منه ﷺ." فهذه الأحاديث كالجواهر النفيسة تحتفظ بقيمتها وومصداقيتها إلى يوم القيامة، لذا فلا بد أنها أحاديث نبي مؤيد بالوحي الإلهي، لذا لا يمكن الاستخفاف بها مطلقاً، أي نستطيع أن نقول بأن الأحاديث مهما بدا عددها كبيراً بالنسبة لبعضهم هي كلمات خرجت من بين شفتي الرسول ﷺ المباركتين وننظر إليها على هذا الأساس.

(ط) كتابة السنة في عهد الرسول ﷺ ثم تدوينها من بعده

إن الرأي القائل بأن بداية تدوين السنة كانت في عهد عمر بن عبد العزيز رأي صحيح ولكنه رأي ناقص، لأنه يهمل أمراً مهماً وهو أن بعض الصحابة كان يكتب السنة في عهد الرسول ﷺ مثلما كان بعضهم يكتب القرآن.

١- نفير القراءة والكتابة الذي بدأ بالقرآن الكريم

كان معظم العرب في عهد الرسول ﷺ يجهلون القراءة والكتابة، ولكن عدد من كان يقرأ ويكتب من أهل مكة لم يكن بالقليل، لأن أهل مكة كانوا على اتصال دائم بالقبائل الموجودة حواليها، وانفتحت أبواب القراءة والكتابة بعد بدء نزول القرآن، ذلك لأن كل مسلم كان في حاجة لقراءة القرآن ليعرف الأحكام والمعاني الواردة فيه كضرورة دينية، أي كان نزول القرآن الكريم إيذاناً ببداية نفير عام للعلم والثقافة. فقد وردت في طبقات ابن سعد أن عدد كتاب الوحي الذين كانوا يتواجدون حول الرسول ﷺ كان يقارب الأربعين.[1] ولم يكن هؤلاء مجرد أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، فمعنى كاتب الوحي هو الشخص الذي نذر نفسه لكتابة القرآن، أي بالتعبير الدارج اليوم نستطيع أن نقول إنه مدير قلم الرسول ﷺ وسكرتيره.

كان هناك حث كبير وتشجيع على تعلم القراءة والكتابة في تلك الأيام، حتى أن فدية بعض أسرى بدر كانت قيام كل أسير بتعليم عشرة من الأفراد القراءة والكتابة.[2]

---

(١) «**السنة قبل التدوين**» لمحمد عجاج الخطيب ص٢٩٨

(٢) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢٢/٢

كانت هذه حادثة فريدة وحادثة تعد متقدمة جداً في ذلك العهد. أجل، لقد بدأ الناس في تلك الأيام سباقاً نحو تعلم القراءة والكتابة، ذلك لأنه كان بين يديهم شيء جديد وشيء فريد.. كان هذا ديناً جديداً وكان هذا قرآناً.. كان هؤلاء الناس ظمأى لمعرفته وفهمه من جميع جوانبه ليضيفوا إلى حياتهم معنى جديداً مشرقاً.. لذا، كان القروي والحضري في انتظار وفي ترقب دائم ليدون ما يتنزل. وكان هذا شيئاً فريداً ويحدث لأول مرة بالنسبة لكتاب إلهي مقدس سوف يبقى محفوظاً وسليماً حتى يوم القيامة. فكما تم تدوين القرآن، كذلك تم تدوين سنة الرسول ﷺ الذي فسر القرآن وشرحه، ففصل مجمله وأوضح مبهمه وقيد مطلقه وخصص أحكامه العامة. ذلك لأن السنة كانت المصدر الثاني للتشريع لذا، هيئ حفظها فأصبحت صالحة للتدوين العام وللتدوين الرسمي.

٢- الأدلة ضد التدوين

لنلق نظرة على الأحاديث التي ساقها المستشرقون وبعض الكتاب المسلمين ممن تأثروا بهم كأدلة حول كون تدوين الحديث بعد عهد الرسول ﷺ. ينقل أبو سعيد الخدري في "تقييد العلم" الرواية التالية: "استأذنّا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا."[١] لم يجد المتخصصون في علم الحديث قيمة كبيرة لهذه الرواية التي ساقها "غولتسهر (Goldziher)" ومقلدوه. ولاشك أن هناك رواية أخرى وردت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضاً: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه.»[٢]

وهناك رواية أخرى في كتاب "تقييد العلم" عن الصحابي الجليل صاحب الذاكرة القوية أبي هريرة ﷺ الذي كان يهتم اهتماماً كبيراً بالأحاديث وكان يرغب كل الرغبة في تدوينها غير أنه لم يكن في حاجة لذلك لقوة ذاكرته، فقد جاء في هذه الرواية أن

---

(١) **الترمذي**، العلم، ١١؛ **«تقييد العلم»** للبغدادي ص٣٢-٣٣

(٢) **مسلم**، الزهد، ٧٢؛ **«المسند»** للإمام أحمد ٣/١٢؛ **الدارمي**، المقدمة، ٤٢

الرسول ﷺ جاء إليهم فوجد بعضهم يكتب فسألهم عما يكتبون، فقالوا بأنهم يدونون الأحاديث التي سمعوها منه فقال لهم الرسول ﷺ: «أتدرون ما ضل الأمم من قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله.»[1]

هذه الروايات التي نقلناها واضحة، فهي حفظ جميع الكتب الإلهية سواء أكان هذا الكتاب هو القرآن أم التوراة أم الإنجيل، حفظ هذه الكتب من الاختلاط بأي كلام أو كتابة أخرى. وبينما كان من الواجب عدم كتابة أي شيء سواء أكان ذلك للأنبياء أم للآخرين بجانب هذه الكتب إلا أنه لم يتم رعاية هذا الأمر وكانت النتيجة أن اختلطت كتابات كثيرة بالتوراة، كما ازداد عدد الأناجيل بعد عدة عصور من نزول الإنجيل الواحد وازداد حجمه إلى مجلدات، وهكذا انحرفت كلتا الجماعتين عن الصراط المستقيم وسلكتا طريق الضلالة. وتتجلى هذه الحقيقة بشكل واضح عندما يتم عرض الأحاديث الصحيحة التي تجيز كتابة الأحاديث بل تأمر بها، ويتبين أنها أكثر من الأحاديث التي تمنعها.

يقول أبو هريرة ﷺ وهو الصحابي الذي نقلنا عنه رواية حول النهي عن كتابة الحديث: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب."[2]

كان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل ما يسمعه عن الرسول ﷺ حتى قيل له: "أنت تكتب كل ما يقوله رسول الله ﷺ، بينما هو بشر يغضب ويرضى."[3] على إثر هذا الكلام ترك عبد الله بن عمرو كتابة الحديث وعرض الموضوع على الرسول ﷺ فأشار الرسول ﷺ إلى فمه المبارك قائلاً: «اكتب! فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق.»[4]

---

(١) «**تقييد العلم**» للبغدادي ص٣٤

(٢) **البخاري**، العلم، ٣٩؛ **الترمذي**، العلم، ١٢، المناقب، ٤٦ ؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٤٩

(٣) كتم رواة الحديث أسماء هؤلاء الأشخاص أدباً ثم لكونها غير ضرورية. (المترجم)

(٤) **أبو داود**، العلم، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/١٦٢؛ **الدارمي**، المقدمة، ٤٣

صحيح أنه كان بشراً، ولكنه كان نبياً أيضاً، فرضاه وغضبه كان لله تعالى، لذا كان يقول الحق على الدوام، لأنه لم يكن ينطق عن الهوى ﴿وما ينطق عن الهوى ۞ إن هو إلا وحي يوحى﴾ (النجم: ٣-٤). لقد التحمت فطرته مع وظيفته فكانت كلتاهما تحملان صفة النبوة.. لقد تم شرح صدره لذا، لم يبق هناك أي احتمال لتدخل طبيعته البشرية في مهام نبوته.. فكل ما قاله كان "ديناً"، لذا قال للصحابي: «اكتب.»

٣- الأدلة على تدوين الأحاديث

عندما نطالع المصادر فيما يتعلق بكتابة الحديث نرى الروايات التالية: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي ﷺ فيسمع من النبي ﷺ الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال له الرسول ﷺ: «اِستعِنْ بيمينك» وأومأ بيده للخط.[(١)]

وسأل رافع بن خَديج من الرسول ﷺ: يا رسول الله! أنا نسمع منك شيئاً أفنكتبها؟ فأجابه الرسول ﷺ: «اكتبوا ولا حرج.»[(٢)]

ونقرأ في سنن النسائي والدارمي أن الرسول ﷺ استكتب بعض الأحكام حول القصاص والدية وحول بعض الشرائع وأرسلها إلى عمرو بن حزم في اليمن،[(٣)] كما كتب كتاباً لوائل بن حُجر لقومه في حضرموت، فيه الخطوط الكبرى للإسلام وبعض أنصبة الزكاة وحد الزنا وتحريم الخمر وكل مسكر حرام.[(٤)] كما نقرأ في مقدمة الإمام

---

(١) **الترمذي**، العلم، ١٢

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١/١٥١؛ «**كنز العمال**» للهندي ٢٣٢/١٠؛ وانظر إلى روايات أخرى في هذا الصدد إلى: «**المسند**» للإمام أحمد ٢١٥/٢

(٣) **النسائي**، القسامة، ٤٦ ؛ **الدارمي**، الديات، ١، ٣، ١١، ١٢

(٤) «**الإصابة** » لابن حجر ٦٢٨/٣ ؛ « **السنة قبل التدوين**» لعجاج الخطيب ص٣٤٧؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢٨٧/١

الدارمي قول الرسول ﷺ: «قيّدوا العلم بالكتاب.»[١]

كما نقرأ رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه وردت في كتب الأحاديث الصحيحة أن يمنيا اسمه أبو شاه استمع إلى خطبة للرسول ﷺ بعد فتح مكة فقام فطلب من الرسول ﷺ كتابة الخطبة له فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «اكتبوا لأبي شاه.»[٢]

عندما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قبل وفاته بأيام قليلة قال لأصحابه: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا.

كان هذا اجتهاد صحابي، أما ابن عباس فقد قال: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه.[٣] ودام حزن ابن عباس رضي الله عنهما من هذا الأمر طوال حياته، ولكنه لم يحمل ضغناً لعمر رضي الله عنه، بل بقي على الدوام بجانبه، وعندما يسمع أن عمرَ سيخطب حضر خطبته آتياً إليه من البلد الذي هو فيه سواء أكان في مكة أم في البصرة.[٤]

لذا، يمكن القول أنه ما من قلب حمل كرها أو ضغينة على سيدنا عمر رضي الله عنه جراء هذا الأمر، ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكرر طلبه، وسواء أكان طلب الرسول ﷺ الكتابة لكي لا تقع أمته في الضلالة يتعلق بالخليفة الذي سيأتي بعده أم يتعلق بأمور أخرى فهذا لا نعرفه، نعرف أن الجميع –عدا شخصاً واحداً– بايعوا الخليفة الأول، وعندما جاء عمر رضي الله عنه إلى المقام نفسه تردد بعضهم في بيعته في بادئ الأمر ثم لم يبق هناك من لم يبايعه. أما في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما فقد ظهر الخلاف، فهل كان ما ينوي الرسول ﷺ كتابه هو العلم الذي عناه أبو هريرة رضي الله عنه عندما قال: "حفظت عن رسول الله وِعاءين: فأما

---

(١) **الدارمي**، المقدمة، ٤٣؛ « **المستدرك** » للحاكم ١/١٠٦ ؛ « **كنز العمال**» للهندي، ٢٤٩/١٠

(٢) **البجاري**، العلم، ٣٩، اللقطة، ٧ ؛ **أبو داود**، العلم، ٣؛ **الترمذي**، العلم، ١٢

(٣) **البخاري**، العلم، ٣٩؛ **مسلم**، الوصية، ٢٢، «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣٢٥

(٤) «**عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة**» لشِبْلي النعماني ٢/٣٥٣

أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلعوم.»[1] أم كان يريد إفشاء الأسرار التي سبق وأن أودعها إلى الصحابي حُذيفة ﷺ؟ صحيح أن ما كان ينوي الرسول ﷺ كتابته بقي سراً، إلا أننا نستدل من هذه الحادثة على أن الأحاديث كانت تكتب في عهد النبوة، وأنه كان أحياناً يأمر بكتابتها.

كان هناك صحابة آخرون غير عبد الله بن عمرو بن العاص يكتبون الحديث، فمثلاً نرى أن علياً ﷺ يعلق بجانب سيفه صحيفة تحتوي على بعض الأحاديث، فقد سأله أبو جحيفة: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: وما في هذه الصحيفة قال: العَقْل،[2] وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلمٌ بكافر.[3]

كما كان لدى عمر بن الخطاب ﷺ صحيفة كان يعلقها بجانب سيفه وتحتوي على أحكام زكاة السوائم.[4] ويذكر ابن سعد في طبقاته أن ابن عباس ﷺ عندما توفي ترك وراءه حمل بعير من الكتب، وكان أكثرها عبارة عما سمعه من الرسول ﷺ ومن الصحابة الكرام.[5] كما ينقل ابن هشام أن الرسول ﷺ عندما شرف المدينة بمجيئه عقد معاهدة مع اليهود عدها البعض أول دستور قانوني إسلامي وكانت المعاهدة تبدأ هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس...

...وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث

---

(١) البخاري، العلم، ٤٢

(٢) العَقْل: الدية.

(٣) البخاري، العلم، ٣٩؛ الترمذي، الديات، ١٦؛ «المسند» للإمام أحمد ١/١٠٠

(٤) الترمذي، الزكاة، ٤؛ أبو داود، الزكاة، ٥؛ ابن ماجة، الزكاة، ٩؛ «الكفاية» للبغدادي ص٣٥٣، ٣٥٤

(٥) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٥/٢٩٣

أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.»[١]

انتقلت الصحيفة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى عمرو بن حزم -التي ذكرناها سابقاً- حول الديات والقصاص[٢] إلى حفيد حفيده أبي بكر بن محمد، كما انتقلت حزمة من الكتابة من أبي رافع -عتيق الرسول ﷺ- إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث،[٣] وهو من التابعين ومن كبار الفقهاء، وقد عد هذه الحزمة أكبر كنز حصل عليه طوال حياته.

كتبت هذه الأحاديث في زمن الرسول ﷺ على القطع الخشبية وعلى العظام وعلى الجلود تماماً مثلما دوّن القرآن، ثم انتقلت إلى التابعين ومن ثم إلى تابع التابعين الذين حافظوا عليها ثم نقلوها إلى من جاء من بعدهم، كما نجد أن مجاهد بن جَبْر -وهو من كبار أئمة التابعين- يقول بأنه شاهد كتاب "الصحيفة الصادقة" وهي الصحيفة التي سجل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص الأحاديث التي سمعها من الرسول ﷺ. يقول مجاهد بأنه رأى تلك الصحيفة أمام عبد الله بن عمرو بن العاص وأنه مد يده إليها ولكنه لم يسمح له بلمسها،[٤] ذلك لأن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يحافظ على صحيفته ويهتم بها أكثر من اهتمامه بعينيه، وحسب قول ابن الأثير فإن هذه الصحيفة كانت تحتوي على ما يقارب ألف حديث، وسند هذه الأحاديث هو عبد الله بن عمرو وابنه وحفيده أي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهناك ٥٠٠ حديث عن طريق هذا السند في كتب الأحاديث الصحيحة، وتعد تقريباً بمنزلة ما يعده الكثير "السلسلة الذهبية" وهي سلسلة السند عن طريق زين العابدين عن الحسين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٨-٩، ١٤٧

(٢) **النسائي**، القسامة، ٤٦-٤٧؛ **الدارمي**، الديات، ١٢

(٣) «**الكفاية**» للبغدادي ص٣٣٠

(٤) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢/٣٧٣ ؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٣/٣٥٠

(ي) الخلاصة

أجل، لم يتم تدوين الأحاديث بأمر من عمر بن عبد العزيز بعد مائة عام من وفاة الرسول ﷺ كما يدعي المستشرقون. دونت الأحاديث في عهد النبي ﷺ وحفظت ثم نقلت سواء كتابة أم شفاهاً إلى الأجيال التي جاءت فيما بعد. فقد ترك الصحابي جابر بن عبد الله مصدراً كبيراً سجل فيه أحاديث الرسول ﷺ.[١] وعلاوة على هذا نجد "الصحيفة الصحيحة" لهَمّام بن مُنَبِّه التي انتقلت من ذلك العهد أيضاً والتي تعد من المصادر المهمة للحديث.

لازم "هَمّام بن مُنَبِّه" أبا هريرة على الدوام، وكان يكتب كل حديث ينقله هذا الصحابي الذي كان من عباقرة الحفظ إلى درجة أنه ذكر مرة حديثاً لأستاذه فقال له أبو هريرة ﷺ بأنه لا يتذكر هذا الحديث فقام "هَمّام بن مُنَبِّه" وجلب إليه الصحيفة التي سجل فيها الأحاديث وقرأ منها هذا الحديث[٢] فاقتنع أستاذه. وقد قام الأستاذ محمد حميد الله بنشر هذه الصحيفة وأثبت التحليل الكاربوني[٣] لهذه الصحيفة أنها تعود إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً. ثم إنه مما يجلب الانتباه أن هذه الأحاديث موجودة في مسند الإمام أحمد بن حنبل، كما يحتل القسم الأكبر منها أجزاء مهمة في كتب الحديث الصحاح أمثال البخاري ومسلم. وكما يدل هذا على تدوين الأحاديث في عهد الرسول ﷺ فهو دليل على انتقالها بشكل صحيح وتام إلى الصحابة ومنهم إلى التابعين وإلى تابع التابعين ومن ثم إلى كتب الحديث.

أمام هذه الوقائع التاريخية وأمام هذه الأحاديث يرى "أحمد محمد شاكر" -وهو من

(١) «**الكفاية**» للبغدادي ص٣٥٤؛ «**تقدمة الجرح**» لابن أبي حاتم ص٤٦

(٢) «**تهذيب التهذيب**» لابن حجر ٥٩/١١

(٣) **التحليل الكاربوني**: هو طريقة علمية يتم بواسطتها قياس أعمار الآثار القديمة. (المترجم)

أكبر علماء الحديث في العصر الحديث والذي عاش في العراق– أن الأخبار والأحاديث التي تمنع الكتابة إما أنها نُسخت فيما بعد، أو أن النهي يعود إلى نهي كتابة الحديث مع القرآن لكي لا يختلط مع القرآن أي شيء آخر.[1] هذه الحساسية الموجودة لدى الرسول ﷺ كانت موجودة لدى عمر رضي الله عنه أيضاً، ذلك لأنه كان من الضروري حفظ القرآن سليماً كما أنزل، وفهمُه جيداً، وإدراك أهميته ووظيفته حسب مرتبته العالية لأنه كلام الله تعالى، وإلا كان من الممكن أن يختلط الحديث به ويفقد القرآن بذلك خصوصيته الفريدة ويتكرر ما جرى في الأمم السابقة. لذا، فإن الرسول ﷺ كان يشارك عمر رضي الله عنه في الاهتمام والحساسية التي أبداها في هذا الموضوع. ولكن بعد ما توضح كل شيء وبعد أن تبين ما هو القرآن وما هو الحديث فقد تم السماح بتدوين الحديث تدويناً مستقلاً عن تدوين القرآن.

بعد أن تم تدوين الحديث بهذا الشكل في العهد الأول تم تدوينه بشكل رسمي في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي يطلق عليه اسم "عمر الثاني". فقد كانت هناك صحف حديث مختلفة في أماكن مختلفة، وكانت هذه الأحاديث تنتقل من فم إلى فم، فكما عارض عمر وابن عباس وأبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت في العهد الأولى تدوين الحديث وفضلوا حفظها، كذلك نجد في عهد التابعين من يعارض تدوين الحديث مثل الشعبي والنخعي ممن كانت لهم اليد طولى في الحديث ومن أصحاب الذاكرة القوية والقابلية الكبيرة في الحفظ، ولكن رغم هذا تم تدوين الأحاديث الموجودة في تلك الصحف السابقة، وكذلك الأحاديث التي كانت متداولة شفاهاً وحفظاً تدويناً رسمياً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. إذ كما أدى استشهاد عدد كبير من حفاظ القران في معركة اليمامة إلى إثارة شعور عمر بن الخطاب رضي الله عنه بضرورة جمع القرآن، كذلك أدى تمسك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالسنة إلى قيامه بتدوينها.

---

(١) «الباعث الحثيث» لأحمد محمد شاكر ص١٣٢-١٣٩

نشأ عمر بن عبد العزيز ﷺ– الذي يعد لدى الكثيرين المجدد الأول الذي استحق بشارة الرسول ﷺ: «إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً، فطوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[1] قبل ثلاثة عشر قرناً– في قصر بني أمية، وكان حجة في التفسير وفي نقد الرجال، وحقق في البلاد الإسلامية التي توسعت كثيراً إصلاحات عديدة في ظرف سنتين ونصف من خلافته حتى أصبحت هذه البلاد وكأنها تدار من قبل الملائكة، وكان قيامه بتدوين السنة إضافة إلى إصلاحاته الأخرى ذروة خدماته الكبيرة، إذ أصدر أمره في هذا الخصوص إلى والي المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم –وهو حفيد الصحابي عمر بن حزم الذي استكتبه الرسول ﷺ صحيفة حول الديات والقصاص– فعهد هذا الوالي إنجاز هذا الأمر إلى أحد شباب التابعين من ذوي الفطنة والذكاء والعلم وهو محمد بن شهاب الزهري[2] الذي شمر عن ساعديه فوراً للقيام بهذه المهمة التي أنجزها بكفاءة واكتسب صفة وعنوان أول "مدون رسمي" للحديث في التاريخ الإسلامي، ومع أن الوالي أبا بكر بن حزم ساهم في هذا العمل أيضاً، إلا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز توفي قبل أن يرسل له الوالي ما تم جمعه وتدوينه من الأحاديث.

ولم تقتصر فعالية تدوين الحديث التي بدأها الخليفة عمر بن عبد العزيز على جهود الإمام الزهري في المدينة فقط، بل ساهم فيها عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج في مكة وسعيد بن أبي عروبة في العراق والأوزاعي في الشام ومحمد بن عبد الرحمن في المدينة أيضاً، وزائدة بن قُدامة وسفيان الثوري في الكوفة وحمّاد بن سلمة في البصرة، وعبد الله بن المبارك في خراسان حيث تركوا لأخلافهم ثروة كبيرة في هذا الموضوع.[3]

وبعد عهد التدوين جاء عهد "التصنيف" الذي يأتي بمعنى التأليف وترتيب الأحاديث حسب مواضيعها، ويعد العهد الذهبي لتاريخ الحديث في الإسلام، حيث نرى هنا أسماء

---

(١) مسلم، الإيمان، ٢٣٢؛ الترمذي، الإيمان، ١٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٧٣/٤

(٢) البخاري، العلم، ٣٤

(٣) «تاريخ بغداد» للبغدادي ٨٥/١٤؛ «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٢٢٩/١

مشهورة كأبي داود الطيالسي، ومسدّد بن مسرهد والحُميدي وأحمد بن حنبل صاحب "المسند"، ونرى من جانب آخر عبد الرزاق بن هَمّام وهو يؤلف "المصنف"، كما قام ابن أبي ذئب والإمام مالك بتأليف "الموطأ"، ويحيى بن سعيد القطّان ويحيى بن سعيد الأنصاري بتأليف كتبهم القيمة في هذا العهد الذهبي.

كان هؤلاء الأئمة الكبار شيوخ وأساتذة كبار المحدثين أمثال البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي ويحيى بن معين. وأخيراً حان وقت تأليف الكتب الستة من قبل مؤلفيها العظام، هذه الكتب التي عدت أوثق كتب الحديث، وقد عاش معظم هؤلاء المؤلفين الكبار في العصر نفسه تقريباً. فقد كان البخاري صديقاً لمسلم، وتتلمذ الترمذي على البخاري، كما كان النسائي معاصراً لأبي داود. ولم يكن بين هؤلاء العلماء الأجلاء وبين عهد الرسول ﷺ سوى ثلاثة أو أربعة أجيال فقط، ولم يكن من الممكن أن يخطر الكذب حتى على أحلام هؤلاء العلماء الكبار الذين كانوا يشكلون الحلقات الذهبية لهذه السلسلة النورانية.

وهكذا تم حفظ السنة التي تعد نصف الدين بأوثق شكل، وبعيداً عن كل شك وشبهة ومن قبل كبار المحققين الذين كانوا يزنون كل شيء ميزان الشعرة، وقد بدأ هذا الحفظ من عهد الصحابة واستمر إلى عهد التابعين وتابعي التابعين، ثم تدوينها وحفظها عن ظهر قلب والمحافظة عليها ثم تدوينها وتصنيفها ونقلها دون تغيير حرف منها حتى يومنا الحالي.

أجل، لقد عرف الصحابة قيمة السنة وأهميتها كمصدر ديني مهم وكمرشد لا يستغنى عنه وكمفسر مبارك للقرآن، وانتقل هذا الاهتمام إلى التابعين وإلى تابع التابعين حتى وصلت السنة تحت ظل كل هذا الاهتمام والرعاية إلى الأجيال الأخرى وإلى عصرنا الحالي.

الباب الثالث:

الصحابة الكرام والتابعون العظام

(أ) الصحابة الكرام

الصحابة هم الذين نقلوا السنة النبوية بل حتى القرآن الكريم. فالأمانة الكبرى التي أرسلها الله المؤمن والمهيمن بوساطة جبريل الأمين إلى أفضل الخلق قاطبة وأكثرهم أمناً.. إلى الأمين محمد ﷺ.. ثم كان الصحابة هم الذين نقلوا إلينا هذه الأمانة الكبرى كما هي تماماً. لذا، نرى القرآن الكريم والسنة النبوية تتحدثان عنهم بكل ثناء،(١) بل مدحهم وأثنى عليهم بالإنجيل والتوراة كذلك.(٢)

عاشوا حياة مستقيمة، لم يكونوا مثال البطولة في بدر ومؤتة واليرموك فقط، بل كانوا في كل صفحة من صفحات حياتهم مثالاً يحتذى، إذ نظموا حياتهم وعيروها لحساب

---

(١) انظر هذه الآيات: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ (الفتح: ١٨)؛ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ (الأنفال: ٧٢)؛ ﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ۝ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ۝ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ (الحشر: ٨-١٠)؛ وانظر أيضاً: **البخاري**، فضائل الصحابة، ٥؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢١٤؛ **الترمذي**، المناقب، ٥٦-٥٧

(٢) انظر هذه الآية: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الفتح. ٢٩).

الدار الآخرة، وكانت كل خطوة من خطواتهم في سبيل نيل الرضا الإلهي. وعن طريق هؤلاء الذين ضربوا المثل الأعلى في الطهر والاستقامة وصلت إلينا السنة النبوية، لذا كان علينا أن نتطرق إلى الصحابة قليلاً، ثم إلى التابعين العظام الذين تبعوهم بأحسان.

١- الصحابة وطبقات الصحابة

يُعد الحافظ ابن حجر أفضل من قدم تعريفاً للصحابة ولمن نستطيع إطلاق كلمة الصحابة. فالصحابي حسب تعريفه هو الشخص المؤمن الذي رأى رسول الله ﷺ ونال صحبته ولو قليلاً واستمع إليه ومات على الإيمان وعلى العهد.(١)

ومع أن هناك من اشترط للصحابي صحبة الرسول ﷺ مدة عام أو عامين، إلا أن جمهور العلماء متفقون على أن من لقي رسول الله ﷺ وتسنى له صحبته ولو قليلاً، واستفاد من ذلك الجو الروحاني ومات على الإيمان وعلى العهد فهو صحابي. أما الكافر فلو رأى الرسول ﷺ، ألف مرة فلا يُعد صحابياً.

لا شك أن الصحابة ليسوا سواء، فهناك طبقات لهم، إذ لا يمكن أن يوضع في الكفة نفسها من آمن به وصحبه منذ البداية وجاهد معه، ومن آمن به بعد الهجرة ثم من بعد الفتح، وقد تناول القرآن والسنة هذا الموضوع من هذا المنطق أيضاً. فالقرآن يتكلم عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (التوبة: ١٠٠). ثم يتكلم عن الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا والذين أنفقوا بعده وقاتلوا وأنهما لا يستويان: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ (الحديد: ١٠).

ويمكن ملاحظة فرق الدرجات هذا في أقوال الرسول ﷺ. فمثلاً عندما قام خالد بن

---

(١) «الإصابة» لابن حجر ٧/١

الوليد بمضايقة عمّار بن ياسر غضب رسول الله ﷺ وقال: «لا تؤذوا أصحابي.»[١] وعندما آذى عمر أبا بكر قطب الرسول ﷺ حاجبيه وقال لعمر: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ.»[٢]

وأفضل من صنف الصحابة هو الحاكم النيسابوري صاحب كتاب المستدرك، فهو يرى أن الصحابة يقسمون إلى اثنتي عشرة درجة:

١. قوم تقدم إسلامهم بمكة كالخلفاء الأربعة.
٢. الصحابة الذين أسلموا قبل تشاور أهل مكة في دار الندوة.
٣. مهاجرة الحبشة.
٤. أصحاب العَقَبة الأولى.
٥. أصحاب العَقَبة الثانية وأكثرهم من الأنصار.
٦. أول المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بقباء قبل أن يدخل المدينة.
٧. أهل بدر.
٨. الذين هاجروا بين بدر والحُديبية.
٩. أهل بيعة الرضوان في الحُديبية.
١٠. من هاجر بين الحُديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.
١١. مسلمة الفتح الذين أسلموا بعد فتح مكة.
١٢. صبيان وأطفال رأوا النبي ﷺ يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرهما.[٣]

---

(١) «المسند» للإمام أحمد، ٤/٨٩-٩٠ ؛ «أسد الغابة» لابن الأثير ٤/١٣٢

(٢) البخاري، تفسير سورة (٧) ٣؛ «السنن الكبرى» للبيهقي ١٠/٢٣٦

(٣) «معرفة علوم الحديث» للحاكم ص٢٢-٢٤؛ «الباعث الحثيث» لأحمد محمد شاكر ص١٣٧

٢- المنزلة الرفيعة للصحابة

هناك اتفاق أو إجماع بأن الصحابة أفضل الناس بعد الأنبياء. فالأنبياء هم أصحاب الفضائل الكبرى، وليس في وسع أحد الوصول إلى مرتبتهم. ثم يأتي بعدهم الصحابة، ومع ذلك يمكن القول أن هناك صحابة يصلون في بعض الفضائل إلى مرتبة أنبياء بني إسرائيل وليس في جميع الفضائل. أكرر القول بأن بعض الصحابة قد يصلون في بعض الفضائل –وليس في كلها– إلى مرتبة بعض الأنبياء. وقد يقترب بعض الأولياء والأصفياء أمثال الشيخ الكيلاني والإمام الرباني ومحمد بهاء الدين النقشبندي في بعض الفضائل من بعض الصحابة على قاعدة "رجحان المرجوح على الراجح"، ولكن علماء الجمهور العظام أمثال أبي حنيفة والإمام الشافعي من الذين تنورت عقولهم وقلوبهم وأصبح كلامهم حجة في الدين يرون أن الفضيلة المطلقة تعود بعد الأنبياء إلى الصحابة الكرام[(١)] يقول الإمام الرباني السرهندي "فإنما حصل للأصحاب في أول صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام بطريق اندراج النهاية في البداية قلما يحصل لكُمَّل الأولياء في النهاية، ولهذا كان الوحشي قاتل حمزة رضي الله عنه أفضل من أويس القرني الذي هو حير التابعين لنيله صحبة النبي ﷺ مرة واحدة. سئل عبد الله بن المبارك: أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله لَلغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز كذا مرة. فينبغي أن يتأمل في أنه إذا كان بداية جماعة بحيث اندرجت فيها نهاية غيرهم ماذا تكون نهايتهم، وكيف يسعها إدراك الآخرين؟"[(٢)]

---

(١) «شرح كتاب الفقه الأكبر» لعلي القاري ص٢٠٦؛ «شرح العقيدة الطحاوية» لابن العز ٦٨٩/٣ ؛ «علوم الحديث» لابن الصلاح ص٢٩٤؛ «الكفاية» للخطيب البغدادي ص٤٦

(٢) «المكتوبات» للإمام الرباني ٧٠/١ (المكتوب رقم ٥٨)

٣- العوامل التي علت بمنزلة الصحابة

ما سبب المنزلة السامية للصحابة الكرام؟

أ- ﴿ العلاقة بالرسالة ﴾

السبب الأول يعود إلى وجود علاقة بين الصحابة وبين نبوة ورسالة رسول الله ﷺ. وبوفاة الرسول ﷺ انسد باب النبوة، لذا لم يبق هناك سوى علاقة الولاية بين الرسول ﷺ والأولياء الذين جاءوا من بعده. وبدرجة سمو النبوة على الولاية سمت مرتبة الصحابة على مرتبة الأولياء.

ب- ﴿ موضوع الانصباغ ﴾

والثاني هو موضوع الانصباغ. فتواجد شخص في حضور شخص عظيم بضعة دقائق قد يفيده أكثر من قراءة مؤلفات ذلك الشخص العظيم لعدة ساعات. فالتواجد في المجلس شخصياً والاستفادة من الصحبة بشكل مباشر وقريب لاسيما إن كان هذا مجلس الرسول ﷺ.. مثل هذه الصحبة لا تغني أي قراءة في كتاب ذلك، لأن الإنسان المحظوظ بتلك الصحبة يسمع الرسول ﷺ ويرى حركات يده ونظرات عينيه ويحس بالجو الروحي المشع في مجلسه. ولن يستطيع أحد أن يصل إلى هذا الجو من قراءة الكتاب. صحيح أن كل شخص يستطيع أن يقرأ حول صلاة الرسول ﷺ وكيف كان يقف للصلاة وكيف كان يركع ويسجد، ولكن لا يوجد كتاب يستطيع أن ينقل الجو الحقيقي لصلاة رسول الله ﷺ وزفرات صدره في أثنائها والخشوع الذي كان يأخذ بالباب مشاهديه. لن يستطيع أي كتاب أن ينقل هذا الجو أبداً، لذا فالذي لا يفهم معنى الانصباغ في جو هذه الصحبة لن يستطيع فهم الصحابة ولن يستطيع إدراك عظمتهم. فلبلوغ مرتبة الصحابة يجب تجاوز المكان والرجوع في الزمن ١٤٠٠ سنة إلى الوراء والحضور في مجلس رسول الله ﷺ قائلاً له: فديتك يا رسول الله بأبي وأمي.

ج- ﴿ ديمومة اتباع الحق ﴾

والثالث أن حياتهم خلت من الكذب حتى في المزاح. ويصعب فهم هذا في يومنا الذي يختلط بعض الكذب بكلام أصدق الناس. كانوا آنذاك حديثي العهد بالإسلام.. أسلموا فانتقلوا من الكذب إلى الصدق، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن الظلام إلى النور، ولكي يصلوا إلى الجمال الذي وُعدوا به فقد ضحوا بأموالهم وأنفسهم عن طيب خاطر، وما كانوا على استعداد أن يفرطوا بهذه المنزلة التي حصلوا عليها بسعر غالٍ جداً. وهؤلاء الذين تحلقوا حول مقام الصدق لرسول الله ﷺ كانوا بعيدين عن مقام الكذب الذي كان مقام مسليمة الكذاب، وما كانوا يرضون لأنفسهم أبداً السقوط إلى تلك الهوة السحيقة.

أجل، لقد قطع الصحابة علاقتهم بدنيا الكذب وابتعدوا عنها وعن جميع المظاهر اللاأخلاقيه بسرعة على عزم أكيد بألا يرجعوا إليها مرة أخرى مهما كان الثمن.

وأظن أنه يصعب في أيامنا الحالية –التي راج فيها الكذب وسرى إلى السياسة واختلطت الأخلاق السيئة بالأخلاق الحميدة– فهم وإحساس هذا على الوجه الصحيح، لذا فمن الصعب فهم الصحابة وفهم عظمتهم الفهم الصحيح، وهذا قد يؤدي إلى خطأ كبير وهو خطأ حسبان الصحابة رجالاً مثلنا، أي عدم التمييز بين النجوم المتلألئة في السماء واليراع في الأرض.

د- ﴿ الحيوية التي أوجدها الوحي ﴾

والعامل الرابع هو نزول موائد الوحي في عهد النبوة أمام الصحابة تترى، ففي كل يوم كانت هناك رسائل جديدة من مالك السموات والأرض ومن مليكهما، وكان الصحابة يتطهرون كل يوم بهذه الرسائل ويغتسلون بها. ففي يوم يشرع الأذان وفي يوم آخر تشرع إقامة الصلاة، وفي يوم آخر يشرع النكاح ويحدد بأربع نساء ويعلق بشرط، وفي يوم آخر يحرم الخمر وتلقى الأقداح على الأرض. هذه بعض الرسائل السماوية، فقد

كانت هناك إشارات مبهمة أو صريحة يرونها في هذه الرسائل تتعلق بهم فمثلاً عندما يذكر الوحي: ﴿محمد رسول الله﴾ (الفتح: ٢٩) ثم يذكر ﴿والذين معه﴾ كانت العيون تتجه إلى أبي بكر، وعندما ينزل الوحي ﴿أشداء على الكفار﴾ تتجه العيون إلى عمر بن الخطاب، وعندما يذكر الوحي ﴿رحماء بينهم﴾ تتجه الأنظار إلى عثمان بن عفان، وعند ذكر ﴿من المؤمنين رجال صدَقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (الأحزاب: ٢٣) خطرت على القلوب بطولة أنس بن النضر واتجه نظر أنس بن مالك إلى قبر عمه أنس بن النضر. ويستدعي الرسول ﷺ أُبيّ بن كعب ليقول له إن الله تعالى أمره أن يقرأ عليه سورة البينة التي تبدأ بالأية: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ (البينة: ١) فسأله أُبيّ بن كعب مذهولاً: وهل ذكر أسمي يا رسول الله؟ فقال له الرسول ﷺ: «نعم.»[1] وعندما تنزل الآية ﴿فلما قضى زيد منها وَطَراً﴾ (الأحزاب: ٣٧) كان يرد اسم زيد في الوحي وهو من أوائل المسلمين.

أجل، كان الله تعالى يذكرهم، وكانوا يذكرون الله تعالى.. كانوا على اتصال دائم بالله تعالى اتصالاً يليق بجلاله وعظمته بوساطة الرسول ﷺ الذي لو رأينا ظله في أحلامنا طرنا من السعادة أياماً. هكذا انسابت أيام حياتهم وفي ظل مثل هذه العلاقة والفهم والوعي والإدراك والبصيرة، وكان هذا هو مستوى الذين نقلوا إلينا السنة، فقد كان من المحال أن يمر الكذب على خاطر أحد منهم. وقد توثق القرآن والسنة وتم إرساؤهما على أساس متين وقوي من قبل مثل هؤلاء الصحابة بحيث استحال إجراء أي تغيير أو تبديل فيهما.

هـ- أخوتهم في المحن والشدائد

أسلم الصحابة ووقفوا بجانب الدعوة الإسلامية في أيامها الصعبة والحالكة. صحيح أن الوقوف اليوم أيضاً بجانب الإسلام يعد صعباً إلا أن تلك الأيام كانت أصعب وأحلك،

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٩٨) ١-٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢١-١٢٢؛ **الترمذي**، المناقب، ٣٢٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/١٣٠، ١٣٧، ١٨٥

وكان الإسلام آنذاك وحيداً وغريباً، ولكن الصحابة الكرام وقفوا بجانب دين الله وبجانب رسوله في تلك الأيام الحالكات، وينقل ابن عربي في كتابه "محاضرة الأبرار" كلام أبي بكر ﷺ إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ لينقله إلى علي بن أبي طالب ﷺ الذي كان يصور حالهم في تلك الأيام إذ يقول معناه: "يا علي! عندما كنتَ أنت صغيراً لا تعقل بعدُ لم نكن نحن نجرؤ على الخروج إلا بعد أن نأخذ الموت بنظر اعتبارنا عدة مرات، وكنا عندما نخرج نتوقع على الدوام سيفاً يمرق فوق رؤوسنا، وما كان أحد ليجرأ على قول لا إله إلا الله إلا وقد أخذ في حسبانه أن خنجراً حاداً سيخترق جسده."(١)

هذه هي الدرجة العالية التي بلغها هؤلاء الصحابة في الإسلام، لذا انفتحت أعين قلوبهم لعالم الحقائق في هبة واحدة. فعن أنس قال: إن رسول الله ﷺ دخل المسجد والحارث بن مالك نائم فحركه برجله، قال: «ارفع رأسك»، فرفع رأسه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارث بن مالك؟» قال: أصبحت يا رسول الله مؤمناً حقاً. قال: «إن لكل حقٍ حقيقة، فما حقيقة ما تقول؟» قال: عزفت عن الدنيا، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي فكأني أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون. فقال له النبي ﷺ: «أنت امرؤ نوّر الله قلبَهُ، عرفتَ فالزم.»(٢)

كان هذا هو مقدار قربهم من الله تعالى، لذا أصبح الله تعالى –كما ورد في حديث قدسي– بصرهم الذي يبصرون به وسمعهم الذي يسمعون به وألسنتهم التي ينطقون بها، وأيديهم التي يبطشون بها.(٣)

---

(١) «**محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**» لابن عربي ٢/١٧٩

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ١٣/ ٣٥٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١/٥٧

(٣) **البخاري**، الرقاق، ٣٨

٤- الصحابة في القرآن

يقول الإمام ابن حزم مثل كثير من الأئمة والمجتهدين إن جميع الصحابة من أهل الجنة.[١] ووجود العشرة المبشرين بالجنة بينهم وهم على قيد الحياة يدل على حيازتهم على نسبة وعلى حصة معينة من الجنة، وهناك أدلة عديدة تؤيد هذا الرأي في القرآن وفي السنة. ففي القرآن مثلاً نجد هذه الآيات في أواخر سورة الفتح ﴿محمد رسول الله﴾، فأكبر حقيقة بعد الإيمان بالله هي حقيقة أن محمداً ﷺ هو الرسول الذي أرسله للناس كافة. ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراعَ ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الذي آمنوا وعملوا الصالحاتِ منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ (الفتح: ٢٩)

فما هو هذا الأجر العظيم الذي وعدهم الله تعالى؟ لا يصرح القرآن بماهية هذا الأجر لأنه يريد أن يكون لهم مفاجأة في فردوس فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.[٢]

عن أنس ﷺ: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يكُ في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال: «ويحكِ أَوَ هبلتِ؟ أَوَ جنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه لفي جنة الفردوس.»[٣]

كان هذا صحابياً شاباً من عامة الصحابة آمن فيما بعد، فإذا كان يحوز الفردوس

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ١/١٠؛ «**الفصل في الملل والأهواء والنحل**» لابن حزم ١١٩/٣

(٢) انظر: **البخاري**، التوحيد، ٣٥؛ **مسلم**، الإيمان، ٣١٢؛ **الترمذي**، الجنة، ١٥؛ **ابن ماجة**، الزهد، ٣٩؛ **الدارمي**، الرقائق، ٩٨، ١٠٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣١٣/٢، ٣٧٠

(٣) **البخاري**، الرقاق، ٥١؛ **الترمذي**، تفسير سورة (٢٣) ٣

–وهو أرفع درجات الجنة– فما بالك بكبار الصحابة الذين نقلوا إلينا السنة النبوية والحقيقة الأحمدية، وما بالك بمن يسند إليهم الكذب أو يراهم من أهل النار! ترى إلام يقود هذا الرأى؟

يقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (التوبة: ١٠٠). وسيقول الله تعالى لكل نفس منهم: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ۞ إرجعي إلى ربك راضية مرضية ۞ فادخلي في عبادي ۞ وادخلي جنتي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠). أجل، إن الله تعالى راضٍ عنهم ولو لم يرض عنهم البعض، وهم وإن استكثروا عليهم الجنة إلا أن الله ﴿وأَعَدّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة: ١٠٠).

ترك المهاجرون ديارهم وبيوتهم وأوطانهم وهاجروا.. وقبل ذلك تركوا رغباتهم النفسية وهجروها.. هاجروا من المعصية إلى الطاعة، ومن رغبات النفس إلى صفاء الروح ومن مكة إلى المدينة. أما الأنصار فهم الأبرار الذين فتحوا لهم قلوبهم وصدورهم وبيوتهم، ولكي ندرك مدى احتضانهم لإخوانهم المهاجرين يكفي قراءة هذه الحادثة:

آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، فأخذ سعد أخاه عبد الرحمن إلى بيته وكانت له امرأتان فعرض عليه أن يناصفه أهلَهُ ومالَه فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلّوني على السوق. فأتى السوقَ فربح شيئاً من أقِطٍ وشيئاً من سَمْنٍ.[1] أجل، كان هذا هو نوع ونمط احتضانهم لإخوانهم.

ومثال آخر نراه في قصة الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه الذي جاء من دَوْس وأسلم ولازم الرسول ﷺ يستمع إليه لكي ينقل لنا السنة فيما بعد، كان يصوم نهاره ويقوم ليله،[2] وكان جائعاً أكثر أوقاته، وقد يبلغ به الجوع درجة كبيرة، فيبدأ يتلوى من الألم ومن ينظر

(١) **البخاري**، النكاح، ٧، البيوع، ١، ٤٩؛ **الترمذي**، البر، ٢٢

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٨/١١٨-١٢٠؛ «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي ٢/٦٠٩

إليه يحسبه مجنوناً، إذ يقول ﷺ: "لقد رأيتني أُصرَع بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة فيقول الناس: إنه لَمجنون، وما بي جنون، وما بي إلا الجوع."[1] ولم يكن أبو هريرة وحده يقاسي الفقر والجوع، بل كان هناك آخرون، ففي رواية عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رجل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يُضيّف هذه الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله، لا تدّخريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالَيْ فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلتْ ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل -أو- ضحك من فلان وفلانة فأنزل الله عز وجل: ﴿ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة﴾ (الحشر: ٩).»[2]

أجل، لقد أحرزوا مستوى سامياً لا يخطر على خيال إنسان هذا العصر. كانت قلوبهم نقية طاهرة، ونفوسهم خالية من العوج، لذا أعلن الله تعالى عن رضاه عنهم وهم لا يزالون على قيد الحياة. فقد كانوا مؤمنين بحق، والله يحب المؤمنين ويرضى عنهم لذا، قال عنهم: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ (الفتح: ١٨).

لم يتراجع الصحابة الكرام عن عهدهم لرسول الله ﷺ ولا عن بيعتهم التي بايعوه ولا عن عهدهم مع الله تعالى، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبرهنوا على صدقهم هذا في كل حادثة وأمر، والقرآن الكريم يمدحهم ويخلد صدقهم هذا فيقول: ﴿من المؤمنين رجال صدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣).

---

(١) «**صفة الصفوة**» للجوزي ٢٩٢/١-٢٩٣؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٣٧٨/١

(٢) **البخاري**، تفسير سورة (٥٩) ٦؛ **مسلم**، الأشربة، ١٧٢-١٧٤

أجل، لقد عاهدوا على أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وفي سبيل الحصول على جنته وعلى رضوانه، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فاستشهد قسم منهم في المعارك ولم يتراجعوا ولم يهربوا في القتال. فها هو حمزة يستشهد في معركة أُحد ويرقى إلى مرتبة سيد الشهداء. وها هو أنس بن النضر يستشهد في أحد أيضاً ويلقى ربه. وها هو عبد الله بن جحش ومصعب بن عمير وعشرات غيرهم استشهدوا في بدر وفي أُحد. استشهد هؤلاء وبقي وراءهم آخرون ينتظرون دورهم في الشهادة ويبحثون عنها، منهم أبو عقيل.. انتظر الشهادة في أُحد ثم انتظرها في فتح مكة، ثم انتظرها في معركة مؤتة، وأخيراً لقيها في معركة اليمامة.

لم يغيروا عهدهم الذي قطعوها على أنفسهم مع الله تعالى، ولم يتغيروا.. كانوا في اليوم الأخير من حياتهم مثل أول يوم عهدهم.. لم تغيرهم الدنيا ولم تفتنهم، ولم تلههم الشهوات، بل بقوا رجالاً صناديد حتى تمزقت أستار الظلام من قبل قافلة النور.

٥- الصحابة في الأحاديث الشريفة

لقد خلد القرآن الكريم ذكرى الصحابة –الذين كانوا القنوات الطاهرة التي نقلت إلينا السنة– بثنائه عليهم. والآن لنطلع على الأحاديث الشريفة في حق الصحابة الكرام وكيف أثنت عليهم:

أ- جاء في رواية وردت في صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما من كتب الأحاديث الصحيحة عن أبي سعيد الخدري ﷺ –وهو من شباب الصحابة الذين وقفوا أنفسهم لحفظ الحديث مثل أبي هريرة ﷺ– جاء في هذه الرواية: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه.»[1]

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢١؛ الترمذي، المناقب، ٥٨

ذلك لأنهم دافعوا عن الإسلام في أحلك وفي أصعب أيامه، لذا فأي قدح في حقهم لا يليق بأي مسلم، لذا فلا نستطيع نحن صرف أي كلام غير مناسب في حق الصحابة مثلما فعل منتسبو بعض المذاهب الباطلة بالأمس أو مثلما يفعل الآن بعض المستشرقين الذين أصبحت عداوة الإسلام ديهم، وبعض مقلديهم من المسلمين المساكين الذين أذهلهم التقدم المادي للغرب فأصبح هؤلاء المستشرفين قبلتهم ومحرابهم.

ب- يروي الترمذي عن عبد الله بن مغفَّل ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي. لا تتخذوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبهم فَبحبي أحَبَّهُمْ ومن أبْغَضَهم فببغضي أبْغَضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه.»[1]

ج- وعن الإمام مسلم أيضاً:

«النجومُ أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجومُ أتى السماءَ ما تُوعَدُ. وأنا أمنةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعَدون، وأصحابي أمَنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ما يُوعدون.»[2]

فكما تنتثر النجوم عند قيام الساعة كحبات المسبحة، كذلك يعد الرسول ﷺ رأس المسبحة بالنسبة لأصحابه، وأصحابه رأس المسبحة بالنسبة لأمته، لذا كان الرسول ﷺ ضرورياً لانتظام صحابته، وصحابته يشكلون ضرورة لنظام أمته بأوليائها وأصفيائها وأبرارها.

د- يقول الرسول ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأصحاب الكتب الصحاح للحديث: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم ثم يتخلف من بعدهم

---

(١) **الترمذي**، المناقب، ٥٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٧/٥

(٢) **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٠٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٩٩/٤

خلف تسبق شهادة أحدهم يمينهُ، ويمينُهُ شهادته.»[١] ثم جاء عصر الكذب، عصر خلف الوعد حيث تسبق الشهادة اليمينَ ويسبقُ اليمين الشهادة.

أما عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فقد كان عصراً بعيداً عن الكذب ومبرأ منه، وبعد عصر تابعي التابعين ظهر الكذب فظهرت فرق المعتزلة والمرجئة والمشبّهة ثم انتشر الكذب، واليوم ساد الكذب بين المستشرقين الذين أسندوا الكذب إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وتابعهم في هذا بعض المنذهلين بالغرب من المسلمين.

هـ- يقول ابن مسعود ﷺ -الذي قال في حقه عمر بن الخطاب لأهل الكوفة بأنه آثرهم على نفسه عندما أرسل لهم هذا الصحابي[٢]-: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه."[٣] اختار له أصحاباً أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجرّاح وغيرهم.

و- كما ينقل أبو نعيم في كتابه الحلية عن عبد الله بن عمر: "من كان مُستناً فليستَنّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرّها قلوباً، أعمقها علماً وأقلها تكلّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه ﷺ ونقلِ دينه، فتشبهو بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهُدى المستقيم والله رب الكعبة."[٤]

ز- ويروي صاحب الحلية أيضاً عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "أنتم أكثر صياماً وأكثر صلاةً وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيراً منكم." قالوا: لِمَ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: "هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة."[٥]

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٤١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢١٢

(٢) «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٣/٣٨٨؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٢٩١

(٣) «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣٧٩؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١/٣٧٥

(٤) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١/٣٠٥

(٥) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١/١٣٦

٦- المكثرون من الصحابة

أكثر من تعرض لهجوم المستشرقين وهجوم تابعيهم ومقلديهم هم الصحابة المكثرون من رواية الحديث وعلى رأسهم أبو هريرة ﷺ.

لقد انتقل الدين إلينا بوساطة الصحابة الكرام، لذا فأي تعرض لهم يعد تعرضاً لديننا. ولكون الأمانة في عهدتنا الآن لذا، يتحتم علينا حفظ هذه الأمانة أيْ حفظ ديننا من أي هجوم أو تعرض. لقد أدى الصحابة الكرام مهمتهم على أتم وجه، وانقضت حياتهم في عهد كان بعيداً عن كل طعن وتشهير. والحقيقة أنهم لا يحتاجون إلى من يدافع عنهم، ولكننا نريد البرهنة على تهافت هذا العذر، لأن الهدف من الهجوم على هؤلاء الصحابة هو النيل من ديننا في الأساس.

لقد انقضت العصور الأولى للتاريخ الإسلامي في نقاء وطهر، ولكن ما إن دخلت التيارات الفلسفية والتفكير الأجنبي بين المسلمين حتى ظهرت المذاهب الباطلة أمثال الجبرية والمرجئة والمعتزلة والمشبهة، وسلك أصحاب هذه المذاهب طريق اختراع الأحاديث لتأييد أهوائهم ومسالكهم، وكذلك الهجوم على الصحابة الذين رووا أحاديث رأوها مخالفة لمشاربهم الباطلة. لذا، نرى بعض أئمة المعتزلة كالنظّام وبعض أئمة الشيعة كأبي إسحاق وهم يهاجمون بعض أعمدة رواة الحديث من كبار الصحابة أمثال أبي هريرة ﷺ الذين قضوا حياتهم -كأي صحابي آخر- في شرف واستقامة وأصبحوا من مفاخرنا. لذا، فلأهمية هذا الموضوع فسنتناول بتعريف قصير لهؤلاء الصحابة بادئين بأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وابن مسعود ﷺ جميعاً.

أ- أبو هريرة ﷺ

هو من قبيلة دَوْس اليمنية، أسلم في بداية السنة السابعة للهجرة وهاجر إلى المدينة ونال شرف البقاء بجانب رسول الله ﷺ أربع سنوات. فعندما أسلم طُفيل بن عمرو رئيس

قبيلة دوس رجع إلى قبيلته وكأنه شعلة من نور فأسلم على يديه الكثير من أفراد قبيلته، وكان أبو هريرة منهم حيث هاجر إلى المدينة بعد إسلامه.(١)

عندما وصل أبو هريرة ﷺ إلى المدينة كان رسول الله ﷺ على أبواب خيبر، فأسرع أبو هريرة والتحق بجيش الرسول ﷺ في خيبر. سأله الرسول ﷺ عن اسمه فقال: عبد الشمس. فأخبره الرسول ﷺ بأن الإنسان لا يكون عبداً للشمس ولا للقمر بل يكون عبداً لله، لذا سماه عبد الرحمن. ولكنه عُرف على الأكثر باسم أبي هريرة، ذلك لأن الرسول ﷺ رآه مرة وفي حجره قطة صغيرة فقال له: «يا أبا هريرة!» حيث عرف بهذا الاسم فيما بعد. وكان يفضل أن يدعوه الناس أبا هرّ لأنه كان فقيراً معدماً لايملك شيئاً، كما أن الرسول ﷺ دعاه مرة وهو في إحدى لحظاته السعيدة بأبي هرّ. وتفضيله أن يخاطبه الناس باسمه هذا دليل على مدى ارتباطه برسول الله ﷺ وحبه له.(٢)

أسلم أبو هريرة ولكن كانت لديه مشكلة يعدها مشكلة كبيرة، وهي أن أمه لم تكن قد أسلمت بعد، كان يحس بدَيْن كبير نحو والدته التي ربته وهو يتيم، فكان يتمنى اهتدائها للإسلام ويحاول ذلك لكي يوفيها جزءاً من دينها عليه، لذا جاء إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يدعو الله لكي يهديها إلى الإسلام وإلى نطق شهادة لا إله إلا الله.

ففي رواية عنه: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره. فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي. قلت يا رسول الله! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ أم أبي هريرةَ» فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ. فلما جئتُ فَصِرْتُ إلى الباب فإذا هو مجافٌ (أي مغلق) فسمعتْ أمي

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٤/ ٣٢٨؛ «الإصابة» لابن حجر ٤/٢٠٢-٢١٠؛ «سير أعلام النبلاء» للذهبي ١/٣٤٥-٣٤٦

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٤/٢٠٢-٢١٠

خَشْفَ (أي صوت) قدميّ فقالت: مكانَك! يا أبا هريرة! وسمعت خضخضة الماء. قال: فاغتسلتْ ولبست درعها وعَجِلَتْ عن خمارها ففتحتِ البابَ. ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه. قال: فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال قلت: يا رسول الله! أبشر قد استجابَ الله دعوتَكَ وهدى أم أبي هريرة. فحمدالله وأثنى عليه خيراً. قال: قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا –يعني أبا هريرة– وأمّهُ إلى عبادك المؤمنين وَحَبِّبْ إليهم المؤمنين.»[1] أجل، إن المؤمنين يحبون أبا هريرة، أما من لا يحبه فندع حكم ذلك للقارئ.

لازم أبو هريرة رضي الله عنه النبي ﷺ ليلاً ونهاراً. كان من دهاة الحفظ عن ظهر قلب. في الليل كان ينام ثلثه ويتعبد الله في ثلثه ويصرف الثلث الأخير في تذكر الأحاديث التي سمعها ويكررها في قلبه. وأصبح في الوقت نفسه عالماً وفقيهاً وحافظاً للحديث، دعا مرة في المسجد فقال: اللهم إني أسألك علماً لا يُنسى. فسمعه الرسول ﷺ وقال: «آمين.»[2]

ولا شك أن لدعاء الرسول ﷺ له بالحفظ كان له أثر في قوة حفظه، وفي أحد الأيام قال أبو هريرة قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ﷺ إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه. قال: «ابسط رداءك» فبسطته، فغرف بيديه ثم قال: «ضُمَّه.» فضممته فما نسيت شيئاً بعده.[3]

وعندما قيل له إنه يكثر من رواية الأحاديث قال: "إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل من أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون."[4]

---

(١) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٥٨؛ **«المسند»** للإمام أحمد ٢/٣٢٠؛ **«الطبقات الكبرى»** لابن سعد ٣٢٨/٤

(٢) **«المستدرك»** للحاكم ٥٠٨/٣

(٣) **البخاري**، العلم، ٤٢؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٦٠؛ **«الطبقات الكبرى»** لابن سعد ٣٢٩/٤-٣٣٠

(٤) **البخاري**، العلم، ٤٢؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٥٩؛ **«الطبقات الكبرى»** لابن سعد ٣٣٠/٤

كانت هذه هي الحقيقة.. لازم رسول الله ﷺ ولم يفارقه. كان يبقى جائعاً لعدة أيام، وكان يصوم صوم الوصال، أي أنه عندما لايجد شيئاً يفطر عليه يجدد صيامه، وهكذا كان يواصل صومه لثلاثة أو أربعة أيام.(١) كان يتلوى أحياناً من الجوع ويتقلب على الأرض من الألم فيحسبه الناظر أن به صرعاً،(٢) وكان أحياناً يقول لمن يراه أو يمر به استقرأتُك ويأتي هذا بمعنى: هل تقرأ لي القرآن؟ لم يكن أحد -في أكثر الأحيان- يفهم له سوى جعفر الطيار، لذا كان بعضهم يقرأ له بعض الآيات ثم ينصرف عنه، بينما فهم جعفر الطيار مرامه من هذا السؤال فأخذه إلى بيته وأطعمه.(٣)

وكما كان جعفر ﷺ يُطعم أبا هريرة، كان الرسول ﷺ يطعمه أيضاً كلما تيسر له ذلك. لم ينس أبو هريرة ﷺ شيئاً سمعه من الرسول ﷺ، نقل كل ما سمعه منه إلينا ليخلد أقواله إلى يوم القيامة، وكان أبو هريرة يقول: لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا ثم يتلو: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلناه من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ۞ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ (البقرة: ١٥٩-١٦٠).(٤)

لولا هذا لما روى أي رواية عن الرسول ﷺ ويكفي لهذا الصحابي النقي الصحيفة والخفيف الدم والذي كان صاحب نكة أيضا مكوثه أربع سنوات مع شخص عظيم مثل رسول الله ﷺ الذي كان يحب أصحاب السلوك العالي وعدم استغراب أحد قربه هذا منه ﷺ.. يكفيه هذا للدلالة على مدى علوه على ما اعتقد، ولا يدرك معنى هذا إلا الشخص الذي جرّب أن يكون قريباً من شخص عظيم.

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٣٧٨/١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١١٨/٨

(٢) البخاري، الاعتصام، ١٦؛ الترمذي، الزهد، ٣٩

(٣) البخاري، الأطعمة، ٣٢؛ فضائل أصحاب النبي، ١٠

(٤) البخاري، العلم، ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٦٠

لم يكن للصحابة الكرام موقف سلبي من أبي هريرة كما يدعي البعض. فعندما روى عنه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه -الذي كان من أوائل من بايع رسول الله ﷺ في العَقَبة والذي نال شرف استضافته في بيته والضيف العزيز لمدينة إسطنبول-[١] قال أبو الشعثاء: قدمت المدينة فإذا أبو أيوب يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه فقلت: تحدث عن أبي هريرة وأنت صاحب منزلة عند رسول الله ﷺ؟ فقال: لأن أحدث عن أبي هريرة أحب إلي من أن أحدث عن النبي ﷺ.[٢]

لم يكن أبو أيوب الأنصاري وحده هوَ الذي روى الحديث عنه، بل روى عنه أيضاً عبد الله بن عمر وحبر الأمة عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة الأجلاء الذين يعدون أعمدة الحديث. كما روى عنه من التابعين العظام العديد من الأئمة الذين لهم اليد الطولى في الحديث أمثال الحسن البصري وزيد بن أسلم، وصهره سعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن يسار، وسليمان بن يسار، والشعبي، وهَمّام بن مُنَبِّه، ومحمد بن المنكدر المعروف بالبكاء، وغيرهم، من مئات الأعلام.[٣]

١- عمر بن الخطاب وأبو هريرة رضي الله عنهما

كان عمر بن الخطاب يحبه جداً، لذا عينه والياً على البحرين ثم عزله وأرسل غيره مكانه، وقد يكون سبب العزل اشتغال أبي هريرة بالتجارة وكسبه رأسمالاً بقدر رأسمال شخص فقير في أيامنا الحالية، غير أن الولاة والإداريين والخلفاء آنذاك لم يكونوا يملكون شيئاً.. فكثير من الولاة كانوا يذهبون إلى الولايات التي تم تعيينهم فيها وهم لا يملكون سوى قربة مملوءة بالماء ويرجعون أيضاً كما ذهبوا. ومن شذ عن هذه القاعدة كان كثيراً

(١) ذلك لأن ضريح هذا الصحابي الجليل موجود في إسطنبول. (المترجم)

(٢) «المستدرك» للحاكم ٥١٢/٣؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١١٧/٨

(٣) «الإصابة» لابن حجر ٢٠٥/٤؛ «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٢٨٩/١٢-٢٩٠

ما يعزل. ولم يجمع أبو هريرة رأسماله الصغير هذا عن طريق الرشوة أو عن طريق سوء استغلال سلطته، وعندما تبين لعمر بن الخطاب ﷺ هذا الأمر ثم دعاه ليستعمله فأبى فقال: لقد طلب العمل من كان خيرا منك، فال: إنه يوسف نبي الله بن نبي الله وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخشى ثلاثا: أن أقول بغير علم أو أقضي بغير حكم ويضرب ظهري ويشتم عرضي و ينزع مالي.[١]

ولم يعزل عمر بن الخطاب أبا هريرة وحده، بل قام أيضاً بعزل سعد بن أبي وقّاص وهو من بين العشرة المبشرة بالجنة وعمير بن سعد الذي كان من متقدمي الصحابة من وظائفهم. حتى أن أهل الكوفة عندما شكوا سعد بن أبي وقّاص إلى عمر قالوا إنه لا يحسن يصلي، فاستدعاه عمر وحقق معه، وقد حزن سعد بن أبي وقّاص وقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أَخْرِم عنها. أصلي صلاة العشاء فأركد في الأولَيَيْنِ وأخِفّ في الأخْرَيينِ.[٢] ثم قال مستعرضاً تاريخ إسلامه: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، والله إن كنا لَنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة،[٣] وهذا السَمُر حتى إن أحدنا لَيضع كما تضع الشاة ما له خِلْطٌ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزّرُني[٤] على الدين، لقد خبتُ إذاً وضل عملي.[٥]

أجل، قال سعد بن أبي وقّاص هذا ورفض العودة مرة ثانية إلى الكوفة،[٦] لذا، فلم يكن أبو هريرة ﷺ هو الشخص الوحيد الذي تم عزله والذي لم يرغب في الرجوع إلى إمارته مرة أخرى.

---

(١) **«الطبقات الكبرى»** لابن سعد ٤/٣٣٥-٣٣٦؛ **«أسد الغابة»** لابن الأثير ٦/٣٢١؛ **«الإصابة»** لابن حجر ٤/٢١٠

(٢) **البخاري**، الأذان، ٩٥؛ **مسلم**، الصلاة، ١٥٨-١٦٠، الزهد، ١٢

(٣) **الحُبْلة**: ثمر السمر يشبه اللوبياء. (المترجم)

(٤) أي توبخني.

(٥) **البخاري**، فضائل الصحابة، ١٥، الرقاق، ١٧؛ **مسلم**، الزهد، ١٢؛ **«أسد الغابة»** لابن الأثير ٢/٣٦٦

(٦) نقلاً عن **«رجال حول الرسول»** لخالد محمد خالد ص١٢٨

٢- علي وأبو هريرة رضي الله عنهما

لم يكن لا علي ولا عثمان رضي الله عنهما ضد أبي هريرة رضي الله عنه كما ادعى البعض. صحيح أن أبا هريرة عندما يحدث عن رسول الله ﷺ بقوله: "قال خليلي، وسمعت خليلي" اعترض عليه علي بن أبي طالب قائلاً له: متى كان خليلك؟[١]

بدا هذا الاعتراض من علي رضي الله عنه بكل ما في قلبه من صفاء وإخلاص، لأنه لم يجده ملائماً مع أنه لا يستغرب من أي شخص أن يصف شخصاً حبيباً إلى قلبه بأنه كان "خليله." ولكن شخصاً مثل علي رضي الله عنه الذي نشأ في حجر النبوة والذي كان أسبق السابقين إلى الإسلام يستطيع قول هذا لأبي هريرة رضي الله عنه، فبين الأنداد والأمثال يمكن جريان مثل هذا الحديث أو العتاب، ولكن لا يحق لأحد أدنى منهم أن يتفوه بمثل هذا الكلام في حقهم. ثم إن عليّا رضي الله عنه لم يقل هذا الكلام بقصد الطعن في أبي هريرة رضي الله عنه، لذا فتفسير مثل هذا الكلام كطعن فيه يعني عدم معرفة ما هو الطعن وما هو ليس بطعن.

٣- الأمويون وأبو هريرة رضي الله عنه

لم يكن أبو هريرة رضي الله عنه معارضاً لعلي رضي الله عنه ومداهنا وحليفاً لبني أمية كما ادعى البعض، فعندما ظهرت الفتن ذكر أبو هريرة رضي الله عنه الحديث التالي ونشره في جميع أنحاء البلاد: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن تشرَّف لها تستشرِفْه، فمن وَجد فيها ملجأ أو مَعاذا فلْيَعُذْ به.»[٢]

كان هذا اجتهاده.. لعله كان من الواجب عليه الانضمام إلى صف علي رضي الله عنه لإخماد الفتنة، ولعل حديث رسول الله ﷺ لم يكن يعني تلك الفتنة، ولكنه استخرج هذا المعنى من هذا الحديث. كذا لم يشترك في الحوادث التي جرت في عهد علي رضي الله عنه وفضل

---

(١) **«تأويل مختلف الحديث»** لابن قتيبة ص٤٣، ٤٤

(٢) **البخاري**، الفتن، ٩؛ **مسلم**، الفتن، ١٠

الجلوس في بيته، ولو لم يملك صلابة في الإيمان وخشية من الله تعالى ما تصرف هكذا، ولو كان من أنصار الأمويين ومن المعجبين بمعاوية لما كان هناك أي سبب يحول بينه وبين الاشتراك بجيش الأمويين. والذين ادعوا العكس أمثال "غولتسهر (Goldziher)" وأحمد أمين وأبي ريّة وعلي عبد الرزاق من الذين حاولوا قلب الحقائق كانوا يعتمدون كمصدر على كتاب "العقد الفريد" الذي هو كتاب أدبي وليس كتاباً في الحديث. لذا، فالواجب أولاً أن يتعلم هؤلاء كيف يراجعون المصادر عند قيامهم ببحوثهم.، والغريب أن هؤلاء ادعوا أن ابن كثير ذكر في كتابه البداية والنهاية أن أبا هريرة التزم جانب معاوية ﷺ ضد علي ﷺ، بينما يذكر ابن كثير عكس هذا تماماً في كتابه هذا، فلم يكن أبو هريرة كما يقول ابن كثير من أنصار الأمويين بل كان على العكس تماماً مشكلة كبيرة بالنسبة إليهم.[1] إذ وقف أمام مروان والد عبد الملك وروى له حديث رسول الله ﷺ: «هلكة أمتي على يدي غِلْمةٍ سفهاء من قريش.» فقال مروان: لعنة الله عليهم غِلْمةً. فقال أبو هريرة: لو شئتُ أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلتُ. ويقول الراوي -وهو عمرو بن يحيى-: فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم.[2] وكان يسير في الدروب وهو يدعو الله: "اللهم لا تدركني سنة ستين" أي يدعو الله أن لا يريه حكم الغلمان.[3] واشتهر دعاؤه هذا بين الناس حتى أن الكثيرين ممن رأوا أبا هريرة بدأوا يدعون بدعائه هذا. وقد استجاب الله لدعاء أبي هريرة فتوفاه سنة ٥٩ للهجرة وفي سنة ستين للهجرة انتقل الحكم إلى غلام من الغلمان إذ تولى يزيد الحكم.

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٨/١١٦

(٢) **البخاري**، الفتن، ٣؛ **مسلم**، الفتن، ٧٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٨٨

(٣) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٨/١٢٢

٤- عائشة رضي الله عنها وأبو هريرة

أما ادعاء البعض بقيام أمنا عائشة رضي الله عنها بنقد ومعارضة أبي هريرة فادعاء يشبه الاستشهاد المبتور بالآيات مثل ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ (النساء: ٤٣) أو ﴿فويل للمصلين﴾ (الماعون: ٤). فأمنا عائشة رضي الله عنها كانت تصلي في غرفتها فسمعت أبا هريرة رضي الله عنه في المسجد الملاصق لغرفتها وهو يروي الأحاديث عن الرسول ﷺ وبعدما أنهت صلاتها ذهبت لترى أبا هريرة، ولكنها لم تره لأنه كان قد انصرف، فقالت لعروة بن الزبير: ألا يعجبك أبو هريرة! جاء فجلس إلى جنب حُجرتي يحدث عن النبي ﷺ يُسمعني ذلك وكنت أسبّح[١] فقام قبل أن أقضي سُبْحتي ولو أدركته لَردَدتُ عليه أن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم.[٢]

والظاهر أنها كانت تريد الإشارة إلى وجوب الاقتصاد في رواية الأحاديث وعدم سردها الواحد تلو الآخر لكي يبقى أثر كل حديث من هذه الأحاديث المباركة في ذاكرة المستمعين ويُنقش فيها.

٥- أبو حنيفة وأبو هريرة

يقال أن أبا حنيفة قال بأنه لا يعد كلام ثلاثة من الصحابة حجة منهم أبو هريرة.

لا يمكن صدور مثل هذا الكلام عن مثل هذا الإمام الكبير، إذ لا يليق ذلك به أبداً. ولو صدر منه مثل هذا الكلام لما قال العلامة الكمال بن الهُمام صاحب "الفتح القدير" الذي يعد من كبار أئمة المذهب الحنفي: إن أبا هريرة من كبار الفقهاء. أجل، إن عالماً كبيراً مثل ابن الهُمام لم يكن ليقول مثل هذا الكلام في حق أبي هريرة لو أن إمام مذهبه قال عنه أنه لا يقبل كلامه حجة. ثم لا يقول لنا أحد أين قال أبو حنيفة مثل هذا الكلام.

---

(١) **أسبّح**: أي أصلي نافلة.

(٢) **البخاري**، المناقب، ٢٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٦٠

روى أبو هريرة أكثر من خمسة آلاف حديث، ولو جمعت هذه الأحاديث في كتاب لكان حجمه أكبر من حجم القرآن بمرة ونصف، وكما نعلم هناك العديد من الناس ممن حفظوا القرآن الكريم في ستة أشهر، لذا فاتهام صحابي ذكي ذي ذاكرة قوية مثل أبي هريرة ﷺ بأنه لم يكن باستطاعته حفظ كل هذه الأحاديث في ظرف أربع سنوات قضاها ملازماً للرسول ﷺ إنما هو اتهام لصحابي كبير وذكي بالحمق. ثم إن الأحاديث التي رواها لم تكن جميعها مما سمعها عن الرسول ﷺ، بل روى الكثير من الأحاديث التي سمعها عن أبي بكر وعمر وفضل وأُبيّ بن كعب وعائشة ﷺ أجمعين.

ثم إن أبا هريرة امتحن حتى في عهده فقد أمر مروان كاتبه أن يسجل سراً مئات من الأحاديث التي كان يرويها أبو هريرة ﷺ، وبعد مرور سنة كاملة طلب مروان من أبي هريرة أن يحدثه بتلك الأحاديث، فبدأ أبو هريرة بعد قراءة البسملة بسرد تلك الأحاديث فوجدها متطابقة مع الأحاديث التي سبق وأن استكتبها كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً.[1] لذا، فكما خجل متهمو أبي هريرة بالأمس فسيكون الخجل نصيب متهميه اليوم وغداً أيضاً.

ب- حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ

ولد قبل الهجرة بأربع أو خمس سنوات، وعندما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كان عمره يتراوح بين ١٤- ١٥ سنة، وهذا يعني أنه في سنواته الأربعة أو الخمسة الأخيرة كان في عمر يستطيع فيه فهم ما يسمعه عن رسول الله ﷺ، وقد فهم واستوعب الشيء الكثير في هذه السنوات، فقد دعا له الرسول ﷺ قائلاً: «اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل»،[2] وقد بلغ في العلم وهو في تلك السن مبلغاً لقّب معه بحبر الأمة وبحر وترجمان القرآن.[3]

---

(١) «**المستدرك**» للحاكم ٣/٥٠٩-٥١٠

(٢) **البخاري**، الوضوء، ١٠؛ **مسلم**، فضائل الصحابة؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٦٦/١

(٣) انظر. «**المستدرك**» للحاكم ٥٣٧/٣؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٢٩١/٣

كان مليحاً جميل الوجه بليغاً يسحر قلوب سامعيه، ذا قامة طويلة تقرب من مترين –مثل والده– حلو الشمائل يمثل السلالة الهاشمية أصدق تمثيل،[1] وكان ذا ذاكرة قوية بحيث أنه استطاع أن يحفظ ثمانين بيتاً من شعر عمر بن أبي ربيعة الذي كان مطلعه:

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرٌ غداة غدٍ أم رائح فمُهَجِّرٌ

حفظ ثمانين بيتاً من هذا الشعر من سماعه له مرة واحدة فقط.[2] وإلى جانب التفسير والفقه والحديث كان ضليعاً في الأدب والشعر ولاسيما الشعر الجاهلي، ويورد ابن جرير الطبري في تفسيره في تفسير كل آية تقريباً بيتاً من الشعر الجاهلي أورده ابن عباس.

كان محط الأنظار في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، أما في عهد عمر بن الخطاب ﷺ فقد أختير على الرغم من صغر سنه إلى "مجلس الشورى" الذي كان يتكون من كبار شيوخ الصحابة. وعندما استغرب بعض شيوخ الصحابة اشتراكه مع صغر سنه –مع أن لهم أبناء مثله– قرأ عمر بن الخطاب ﷺ سورة النصر في مجلس الشورى وسأل الحاضرين عن معناها، فقالوا إن معناها أنه إذا جاء نصر الله والفتح وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فعلينا أن نسبح بحمد الله ونشكره. ولكن عمر بن الخطاب ﷺ لم يعجبه هذا فسأل ابن عباس عن معنى الآية فقال: "هو أجل رسول الله أعلمه له، قال ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ (النصر: ٣) وذلك علامة أجلك، ﴿فسبِّحْ بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً﴾ (النصر: ٣)." فقال عمر ﷺ: "ما أعلم منها إلا ما تقول."[3]

اشتهر ابن عباس بفراسته وكياسته وفطنته، وهو من نفس الشجرة المباركة التي جاء منها الرسول ﷺ، وكان يفخر بهذا وله الحق في ذلك فكان يقول: "لقد نشأنا في بيت النبوة." وكان صاحب كمالات، وعندما كان يدخل إلى مجلس يقوم الجالسون احتراماً

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٣/٣٣٣، ٣٣٦، ٣٥١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٨/٣٣٢-٣٣٣

(٢) «شرح الكامل» للمرصفي ٧/١٦٥-١٦٦

(٣) البخاري، تفسير سورة (١١٠) ٣؛ الترمذي، تفسير سورة (١١٠) ١

وتوقيراً له فكان ينزعج من هذا كثيراً، فكان يقول للأنصار جملة أصبحت مثالاً لقاعدة في النحو وهي "بالإيواء والنصر إلا جلستم" أي أعزم عليكم بما قمتم من إيواء ونصر للنبي ﷺ وللمهاجرين أن تجلسوا.

وعلى الرغم من ذلك كان ابن عباس يمسك بركاب جواد زيد بن ثابت ﷺ عندما يمتطي جواده فينزعج زيد بن ثابت ﷺ ويقول: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فيقول ابن عباس ﷺ: "هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا." فيسرع زيد بن ثابت ويقبّل يد ابن عباس قائلاً: "وهكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا."[1]

هناك نافذة في الحياة الاجتماعية يتراءى منها كل شيء، ويشاهد من حلالها الشيء الكثير، فالشخص العظيم يكون متواضعاً، يحاول أن يخفي عظمته، أما الشخص القزم فيحاول أن يتطاول ويبدو عظيماً فيتكبر، فالتواضع علامة عند العظام على عظمتهم، والغرور علامة الصغر عند الصغار، وكان ابن عباس عظيماً ومتواضعاً بدرجة عظمته.

كان له طلاب في كل ساحة من ساحات العلم. وقد ذكر بعض كبار أئمة التابعين أمثال سعيد بن جبير ومجاهد بن جَبْر وعكرمة بأنهم مدينون بعلمهم إليه. وبلغ عدد الأحاديث التي رواها هذا الصحابي الذي نشأ بالقرب من الرسول ﷺ ١٦٠٠ حديثاً. لذا، ألا يُعد إثارة الشبهات حول الأحاديث التي رواها والزعم بأنها أحاديث مختلفة أخذها من كعب الأحبار.. ألا يُعد هذا الزعم تهويناً من الدعاء الذي دعا الرسول ﷺ له وإهانة للأمة ولأئمة التابعين الذين لقبوه بحبر الأمة والبحر وترجمان القرآن؟

كان ابن عباس يكره أن يقوم له الناس، ولكن عندما دفن قام الكثيرون له من عالم الغيب، إذ يذكر سعيد بن جبير بأنه عندما دُفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ولم يَدْرِ أحد من تلاها ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ۞ إرجعي إلى ربك راضية مرضية ۞ فادخلي في عبادي ۞ وادخلي جنتي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).[2]

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٣٣٢

(٢) «**المستدرك**» للحاكم ٣/٥٤٣-٥٤٤؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٢٨٥

ج- عبد الله بن عمر رضي الله عنه

يزعم المستشرقون خطأ أن عبد الله بن عمر كان التلميذ الآخر لكعب الأحبار، فقد كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه تسعة أبناء هم: عبد الرحمن وعبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الأصغر وعبد الله وزيد الأكبر وزيد الأصغر وعبيد الله وعاصم وعياض. ولكن أطلق اسم "ابن عمر" لعبد الله فقط لأنه كان أكثر جدارة بهذا الاسم من باقي إخوته. لذا، فعندما يذكر ابن عمر لا يخطر على البال ولا يُقصد إلا عبد الله.

صحيح أنه ليس من حدّنا أن نقوم نحن بإجراء تفاضل بين الصحابة الكرام، غير أننا نستطيع أن نقول إن عبد الله بن عمر ربما فاق والده في بعض جوانب عبادته وتقواه وطاعته والتزامه الشديد بالسنة واتباعه لها. كان شخصاً فريداً في اتباعه العميق للسنة إلى درجة يصعب إدراكها، إذ يروي أنس بن سرين قال: كنت مع ابن عمر بعرفات فلما كان حين راح رحت معه حتى أتى الإمامَ فصلى معه الأولى والعصر، ثم وقف معه وأنا وأصحاب النيل حتى أفاض الإمام فأفضنا معه حتى انتهينا إلى المضيق دون المأْزِمَيْن فأناخ وأنخنا ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي، فقال غلامه الذي يمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضي حاجته.(1)

كان رسول الله ﷺ يشرب الماء على ثلاث دفعات،(2) لذا، لم يشاهد أحد ابن عمر وهو يشرب الماء إلا على ثلاث دفعات. هكذا كانت درجة ارتباطه بالسنة النبوية، وهكذا كانت حساسيته في هذا الموضوع، بل ربما اعتبره البعض حتى في ذلك العهد مبالغاً في هذا الأمر، لذا فهل من الممكن أن يقوم مثل هذا الشخص برواية أي حديث للرسول ﷺ خلاف الحقيقة؟ أيمكن هذا؟

---

(1) «المسند» للإمام أحمد ١٣١/٢

(2) البخاري، الأشربة، ٢٦؛ مسلم، الأشربة، ١٢٢، ١٢٣

ولد في السنوات الأولى لظهور الإسلام وشاهد التعذيب الذي تعرض له والده إذ يقول: لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقلُ للحديث؟ فقيل له: جَميل بن معمر الجُمحي. قال: فغدا عليه. قال عبد الله بن عمر ﷺ فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمتَ يا جميل أني قد أسلمتُ ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتّبعه عمر واتبعتُ أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش -وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ. ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطَلِح (أي أعيا) فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم. فبينما هم على ذلك إذ أقبل العاص بن وائل السهمي وأنقذ عمر من أيديهم.(١)

عندما هاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة كان في سن الحادية عشرة تقريباً. وفي معركة بدر عرض مع أقرانه على رسول الله ﷺ فأخذ يتطاول ويقف على أطراف أصابعه لكي يبدو كبيراً، غير أن الرسول ﷺ لم يقبل اشتراكه في القتال لصغر سنه، لأن الرسول ﷺ كان يسأل عن العمر ولا يكتفي بالنظر إلى الطول. وعرض نفسه أيضاً في معركة أُحد ولم يُقبل كذلك، فرجع هو وأقرانه وعيونهم تفيض من الدمع وقلوبهم مملوءة بالحزن، وعندما وصل إلى الخامسة عشرة عُدّ راشداً وسمح له الرسول ﷺ بالاشتراك في معركة الخندق.(٢)

ينقل ابن خلِّكان في كتابه وفيات الأعيان هذه الحادثة عن الإمام الشعبي:

لقد رأيت عجباً، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٧٣/١-٣٧٤؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٠٢/٣-١٠٣

(٢) البخاري، المغازي، ٦؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٤٣/٤

الزبير وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعدما فرغوا من صلاتهم: ليقم رجل رجل منكم فليأخذ الركن اليماني وليسأل الله حاجته فإنه يعطى من ساعته، قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود ولد في الهجرة، فقام وأخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم، أسألك بحرمة عرشك وحرمة وجهك وحرمة نبيك عليه الصلاة والسلام، أن لا تميتني حتى توليني الحجاز ويسلّم عليّ بالخلافة. وجاء حتى جلس، فقال: قم يا مصعب. فقام حتى أخذ الركن اليماني فقال: اللهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين وجاء حتى جلس، فقال: قم يا عبد الملك. فقام وأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ذات القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس فقال: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللهم إنك رحمن رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت لكل رجل ما سأل، وبُشِّرَ عبد الله بن عمر بالجنة ورؤيت له.(١)

لم يكن ابن عمر معارضاً لآل البيت في أي وقت من الأوقات وبأي حال من الأحوال، ولم يلتزم جانب الأمويين، بل كان الحَجّاج على الأخص يخشى منه ويوجس منه خيفة. وفي إحدى المرات أطال الحَجّاج خطبته (لعله كان يريد تبرير وتسويغ إجراآته الظالمة) حتى كادت أن تفوت صلاة الظهر، فقام ابن عمر من مكانه وقال: أيها الرجل الصلاةَ فاقعد، إن الشمس لا تنتظرك (كررها ثلاثا). فقال للجماعة في الرابعة: أرأيتم إن

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٣/٣٠

نهضتُ أتنهضون؟ قالوا: نعم. فنهض فقال: الصلاةَ، فإني لا أرى لك فيها حاجة. فنزل الحجاج فصلى ثم دعا به فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إنما نجيء للصلاة فإذا حضرت الصلاة فصلّ بالصلاة لوقتها ثم بَقْبِقْ بعد ذلك ما شئت من بقبقة.(١)

فاغتاظ منه الحَجّاج ولكنه أسرّ غيظه. وفي موسم من مواسم الحج وبينما هذا الصحابي الجليل محرم في الحرم الشريف قام أحد رجال الحجاج بطعنه في رجله برمح مسموم، وأدى جرح هذا الرمح المسموم إلى استشهاد هذا الرجل العظيم.(٢)

د- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وعبد الله بن مسعود أحد الصحابة الذين رووا أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وهو من السابقين الأولين. كان غلاما يافعا يرعى غنما لعُقبة بن أبي مُعيط،(٣) وعندما تعرف على سيد الخلق وراعيها لازمه ولم يفارقه. وكان كثير من الناس يحسبونه من آل بيت النبي ﷺ وذلك لكثرة تردده على بيت النبي ﷺ.(٤) وكان يلقب بـ"صاحب النَعْلَيْن والوِساد والمِطْهرة" لأنه كان في الأسفار ينقل نعلي رسول الله ﷺ ووساده وقربة مائه.(٥) كان رسول الله ﷺ يدعوه بـ"ابن أم عبد" وكان يقول: «من أحب أن يقرأ القرآن غَضاً كما أُنزِلَ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد.»(٦)

ويروي أنه قال له رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ.» فقلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «فإني أُحب أن أسمعه من غيري.» فقرأت سورةَ النساء حتى بلغت ﴿فكيف إذا جئنا

(١) «أسد الغابة» لابن الأثير ٣/٣٤٤؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٤/١٥٩

(٢) «أسد الغابة» لابن الأثير ٣/٣٤٤؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٤/١٨٧

(٣) «أسد الغابة» لابن الأثير ٣/٣٨٥؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣/١٥٠

(٤) **البخاري**، المناقب، ٢٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١١٠؛ **الترمذي**، المناقب، ٣٧

(٥) **البخاري**، فضائل الصحابة، ٢٧؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣/١٥٣

(٦) **ابن ماجة**، المقدمة، ١١؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٧؛ «المستدرك» للحاكم ٣/٣١٨

من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (النساء: ٤١). قال: «أمسِكْ» فإذا عيناه تَذرِفان.[١]

كان ابن مسعود نحيفاً ضامر البنية، وفي يوم أمره رسول الله ﷺ أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه فضحكوا منها. فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه. فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد.»[٢] وعندما أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة معلماً ومحاسباً كتب إليهم: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه."[٣]

بقي ابن مسعود ﷺ في الكوفة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ. وفي الجو العلمي الذي أشاعه في الكوفة نشأ علماء أجلاء أمثال علقمة بن قيس –الذي قال أبو حنيفة في حقه: إنه ليس بدون ابن عمر في الفقه–[٤] والأسود بن يزيد النخعي وإبراهيم بن يزيد النخعي وغيرهم من كبار علماء وأئمة التابعين. وقد استقى علقمة أكثر علمه من ابن مسعود، وقد سأله أحدهم مرة: من أين استقيت هذا؟ فقال: عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، فقال السائل: بخ بخ!!

بقي ابن مسعود في الكوفة بعضاً من عهد عثمان ﷺ، ثم استدعي إلى المدينة للتحقيق معه حول شكاية كيدية. كان قد تقدم في العمر، لذا فضل البقاء في المدينة ولم يرجع إلى الكوفة. وفي أحد الأيام جاءه رجل مسرعاً وقال له: لقد رأيت رسول الله ﷺ في منامي وكنتَ أنت جالساً بجانبه فالتفتَ إليك، وقال بأنك قد قاسيت بعده كثيراً، وقد آن لك أن تأتيه. فقلتَ: أجل، يا رسول الله! لن أفارق المدينة بعد الآن.

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٤) ٩؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٤٧؛ **الترمذي**، تفسيرسورة (٤) ١١

(٢) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٥٥/٣

(٣) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٥٧/٣

(٤) «**عقود الجواهر المنيفة**» للزبيدي ١٠٢/١

بعد مضي عدة أيام مرض ابن مسعود ﷺ الذي كان من أوائل المسلمين والذي كان من أبرز طلاب مدرسة رسول الله ﷺ فجاءه عثمان بن عفان ﷺ -الذي لازم رسول الله ﷺ وصلى معه إلى القبلتين وشهد معه معظم المشاهد- عائدا وقال له:

- ما تشتكي؟
- ذنوبي.
- فما تشتهي؟
- رحمة ربي.
- ألا آمر لك بطبيب؟
- الطبيب أمرضني.
- ألا آمر لك بعطائك؟ -وكان قد تركه سنتين-
- لا حاجة لي فيه
- يكون لبناتك من بعدك.
- أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمَرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»،[1] وتوفي ابن مسعود ﷺ.

وقد روى ابن مسعود ﷺ ٨٠٠ حديثاً بعد ملازمة لرسول الله ﷺ دامت ثلاث وعشرين سنة.. والآن ما رأيكم فيمن يطعن في مثل هذا الصحابي الجليل؟

بعد أن أعطينا بعض المعلومات عن هؤلاء الصحابة الأربعة الكبار، سنعطي معلومات مختصرة جداً عن عائشة الصديقة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ﷺ باعتبارهم من الصحابة الذين رووا أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ لكي ننتقل بعد ذلك إلى التابعين العظام.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٨٣/٧

هـ- ﴿ عائشة الصديقة رضي الله عنها ﴾

فتحت عينيها في بيت النبوة، إذ دخلت بيت النبي ﷺ بعد الهجـرة بقليل وقضـت مـع رسول الله ﷺ عشرة أعوام. وقد تعلمت أمنا عائشة رضي الله عنها التي كانت مثال الذكاء والفطنة عن رسول الله ﷺ كل ما يتعلق من أمور تخص عالم النساء وأمورهن، ونقلت إليهن ما تعلمته دون أي تقصير. وعالم النساء مدين إلى الزوجات الطاهرات لرسول الله ﷺ بالشيء الكثير ولاسيما لأمنا عائشة رضي الله عنها التي جاء في حقها حديث ضعيف من ناحية السند وهو حديث: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحُميراء.»[1]

ولا يوجد هناك أي مانع ولا أي استبعاد أو استغراب لقيامها برواية أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ لأنها كانت امرأة ذكية فطنة، ولها قابلية الاجتهاد. وكانت تميل إلى تحقيق كل شيء وتستقصي وتستفسر عنه. ولكون كثير من المحققين العظام كتبوا كل شيء عنها فإني أحيل القراء إليهم.

و- ﴿ أبو سعيد الخدري (سعد بن مالك) رضي الله عنه ﴾

عد في زمانه أعلم العلماء ومرجع العلم في المدينة.. كان والد هذا الصحابي الفقير من أوائل الأنصار.. وبعد أن استشهد والده في معركة أُحد بقي وحده ولازم رسول الله ﷺ.[2] كان يقضي أيامه –مثله في ذلك مثل أبي هريرة رضي الله عنه– في الصفة ويتابع الوحي النازل ويتدارسه ويعيش في فيض النبوة الأحمدية. عاش كأي صحابي آخر في رشد واستقامة ورأينا فيه هو مثل رأينا في أي صحابي جليل.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٠٠/٨؛ «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص١١٦؛ «كشف الخفاء» للعجلوني ٣٧٤/١؛ «الفوائد المجموعة» للشوكاني ص٣٩٩؛ «الفردوس» للديلمي ١٦٥/٢

(٢) «أسد الغابة» لابن الأثير ٣٦٥/٢؛ «الإصابة» لابن حجر ٣٥/٢

ز- جابر بن عبد الله رضي الله عنه

هو ابن الصحابي الكبير عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الذي شهد بيعة العَقَبة الثانية ثم كان من الشهداء الكرام لمعركة أُحد والذي واجهه الله كفاحاً -أي دون وجود حجاب بينهما- بعد استشهاده.[١] بعد بيعة العَقَبة الثانية لم يسمح له والده بالاشتراك في معركة بدر وأُحد لأن الرسول ﷺ أذن له حين ذَكر أن أباه أمره بالمقام في المدينة على إخوته[٢] غير أنه بدأ بملازمة الرسول ﷺ في الحضر والسفر بعد معركة أُحد وكان من المقربين إليه،[٣] لذا، فحفظه وروايته لكثير من الأحاديث النبوية شيء طبيعي وليس هناك ما يُستغرب في هذا الموضوع.

لذا، نرى الناس يتحلقون حوله عندما ذهب إلى الشام ومصر لكي يسمعوا منه أحاديث رسول الله ﷺ، كما كانت له حلقة دراسة في المسجد النبوي في المدينة. وظهر من بين طلابه علماء كبار أمثال عمرو بن دينار ومجاهد وعطاء بن أبي رباح.[٤]

ح- أنس بن مالك رضي الله عنه

خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات كاملة.[٥] ولأنه استطاع حفظ القرآن الكريم بأكمله في ستة أشهر، لذا كان باستطاعته حفظ ما يقارب عشرين ضعفاً من القرآن طوال هذه السنوات، غير أننا نرى أن مجموع الأحاديث الموجودة لدينا والتي حواها "كنز العمال" هو ٤٦٦٢٤ حديثاً فقط، علماً بأن ذكر الأسانيد هو الذي يزيد من حجم كتب الأحاديث.

الخلاصة: لم تكن غايتنا هنا تناول حياة هؤلاء الصحابة بالشرح أو التغني بفضائلهم،

---

(١) **الترمذي**، تفسير سورة (٣) ١٨؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ١٣، الجهاد، ١٦

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٦٥/٣

(٣) «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٣٠٧/١

(٤) «**الإصابة**» لابن حجر ٢١٣/١

(٥) **البخاري**، الأدب، ٣٩؛ **مسلم**، الفضائل، ٥١؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٧١/١؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ١٥٢/١

بل الإشارة إلى فساد عقلية من حاول الافتراء عليهم وكيل التهم جزافاً لهم. وجهدنا هنا كان جهد المقل، وعلى أي حال فإن نية المؤمن خير من عمله.. وقد أردنا بعلمنا المتواضع هذا أن ننال شفاعتهم، ورحمة الله وسعت كل شيء.

(ب) التابعون العظام

متلما ذكر القرآن الكريم الصحابة، ذكر التابعين أيضاً. فمثلاً نقرأ الآية الآتية: ﴿والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذينَ اتّبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تجري تحتَها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة: ١٠٠).

تتناول هذه الآية الصحابة والتابعين، وتقول عنهم إن الله رضي عنهم وأنهم رضوا عنه. والرضا عن الله يأتي بمعنى أنه سواء أجاء من الله ضر أو نفع لهم فهم يتقبلون كل شيء عن الله تعالى برضاء كامل وتقبل تام. أي أن سلوكهم وتصرفاتهم لا تتبدل إن أعطاهم الله ملك الدنيا أو سحب هذا الملك منهم. لا يغترون إن ربحوا الدنيا وكسبوها ولايركبهم الهم والغم إن أصابتهم الخسارة والبلايا، بل يبقون على خط الاستقامة على الدوام ويستقبلون جميع المصائب وكأنها عطايا وألطاف. فالله تعالى يرضى عن أمثال هؤلاء الذين يرضون بكل ما يأتيهم من الله. لذا، يمكن القول بأن مؤشر رضا الله أو عدم رضاه عن شخص ما هو مدى رضا ذلك الشخص عن الله، فبدرجة رضا الشخص عن الله وحبه له يكون رضا الله عنه وحبه له بل يكون أكثر رضا وأكبر حباً. لذا، حاول التابعون الكرام التشبه بالصحابة الكرام الذين انصبغوا بالصبغة المحمدية، ومحاولة اللحاق بهم في عمق علاقتهم بالله تعالى وفي عمق خشوعهم في الصلاة حيث ترتعد أبدانهم وتصفر وجوههم عندما يقفون للصلاة.

يقول الرسول ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني.»[1] والآية السابقة تذكر أن التابعين تبعوا الصحابة الكرام بإحسان. فما معنى الإحسان؟ وما معنى الاتباع بإحسان؟

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٧١/٣، ٢٤٨/٥، ٢٥٧؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٠/١٠؛ «المطالب العالية» لابن حجر ١٥٦/٤؛ «المستدرك» للحاكم ٨٦/٤

من معاني الإحسان أن تعتبر الآخرين مثلك، فتشاركهم وجدانياً في أفراحهم وفي آلامهم، وأن تحمل في قلبك النية الصافية والنية الحسنة، وألا تحمل في قلبك أي غل أو حقد على مؤمن، والقرآن الكريم يقول: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ (الحشر: ١٠).

والمعنى الآخر للإحسان هو: «أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنّه يراك.»[1] أي أن تقوم بوظيفة عبوديتك لله وكأنك تراه، ثم يسري شعور في كيانك بأنك إن لم تكن تراه فإنه يراك ويراقب أعمالك. وإشارة القرآن الكريم إلى أن التابعين اتبعوا الصحابة بإحسان لها دلالات ومعانٍ كثيرة، ذلك لأن الفضيلة المطلقة مع كونها تعود إلى الصحابة الكرام إلا أن بعض التابعين قد يصلون في بعض الفضائل الخاصة إلى مرتبة الصحابة بل حتى قد يفوقونهم في بعض الفضائل كما قلنا وليس في كلها، وذلك على قاعدة "رجحان المرجوح على الأرجح"، وذلك لإن الله تعالى هز الناس في عهد التابعين بفتن كبيرة هزاً عنيفاً، وانتشرت نار هذه الفتن داخل كل دار تقريباً. وقام اليهود آنذاك -كما هو ديدنهم في كل عهد- بوضع المؤامرات وتأجيج نار الفتنة، ولم يملك أصحاب القلوب النظيفة والضمائر الطاهرة أمام هذه الفتن إلا الالتجاء إلى الله تعالى وترديد قوله: ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ (الممتحنة: ٤). حتى ظهر من بين هؤلاء التابعين العظام من كان يصلي في اليوم ألف ركعة ومن كان يختم القرآن في أربعة أيام، بل من يختم القرآن في ركعتين في الليل، ومن لم تفته صلاة الجماعة في حياته كلها وقضى حياته في العبادة.

ثم إن الجهاد بالسيف قلّ في عهد التابعين وأغمدت السيوف في أغمادها، وبدأ عهد "الجهاد الأكبر" وهو جهاد النفس الأمّارة للانتقال منها إلى مرتبة النفس اللوّامة ومنها إلى

(١) البخاري، تفسير سورة (٣١) ٢؛ مسلم، الإيمان، ٥-٧؛ أبو داود، السنة، ١٦

النفس الراضية ثم إلى النفس الـمَرضيّة ومنها إلى النفس المطمئنة ثم إلى النفس الصافية لكي ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (البينة. ٨).

كان هذا هو ساحة كفاح التابعين وجهادهم إلى درجة أن مسروقاً عندما حج لم ينم إلا ساجداً على وجهه حتى رجع.[١] وعندما مرض قيل له: لو أنك قصرت عن بعض ما تصنع من العبادة، قال: "والله لو أتاني آتٍ فأخبرني أن الله لا يعذبني لاجتهدت في العبادة."[٢] قال هذا لأن سيده الرسول ﷺ قال الشيء نفسه لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[٣]

كان الصحابة الكرام يطلبون من السلطان المعنوي لليَمَن "أُوَيْس القَرْنِـي" -الذي يُعد أكبر التابعين وأعظمهم- الدعاء لهم. ذلك لأن الرسول ﷺ قال مرة في مجلس حضره عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً: «إن خير التابعين رجل يقال له أُوَيْس. وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم.»[٤]

وقد تغلغل هذا الحديث في نفس عمر رضي الله عنه إلى درجة أنه كان إذا أتى عليه أمداد[٥] أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أُويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرادٍ ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيْس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قَرْن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعلْ.» فاستغْفِرْ لي. فاستغفَرَ له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال:

---

(١) «حلية الأولياء» لابي نعيم ٢/٩٥؛ «صفة الصفوة» لابن الجوزي ٢/١٤

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوزي ٢/١٤

(٣) البخاري، تفسير سورة (٤٨) ٢؛ مسلم، صفات المنافقين، ٧٩-٨١

(٤) مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٣-٢٢٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٨/١، ٣٩

(٥) الأمداد: هم الجماعة الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو.

الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس[1] أحب إليّ. إذن، فصحابي كبير مثل عمر رضي الله عنه -الذي كان من المستحيل الوصول إلى كعبه في بعض الفضائل لأنه صحابي، والصحابة يأتون بعد الأنبياء- يطلب من أويس القرني الدعاء له. وكان يوصي من يذهب إلى اليمن أو إلى الحج أن يبحثوا عن أويس ويطلبوا منه الدعاء لهم. وقد انزعج أويس من شهرته هذه، لذا نراه سرعان ما يُفقد أثره ويختفي عن الأنظار بعد أن أفشى لعمر رضي الله عنه السر الذي بينه وبين الله.[2] اختفى عن الأنظار لأن "الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل."

هؤلاء التابعون العظام البعيدون كل البعد عن كل كذب، والمخلصون أشد الأخلاص، والذين بلغوا في الأمانة والاستقامة مرتبة عالية لا تدانى أمثال أويس القرني ومسروق وابن سيرين ومحمد بن المنكدر.. هؤلاء هم الذين نقلوا السنة إلينا.

كان محمد بن المنكدر -الذي راجعه كل إمام من أئمة الحديث- من الأواهين المنيبين، وكان يعرف في عصره وفي العصور التالية من بعده بلقب البَكّاء لكثرة بكائه من مخافة الله ومهابته، وكان الناس يعجبون لبكائه.. لماذا يبكي هذا الرجل الذي لم يشاهد أنه اقترف أي ذنب في حياته؟

ولكن كانت عنده في الحقيقة أمور كثيرة تستوجب البكاء: مخافة الله ومهابته، عجز العبد وفقره وضآلته أمام عظمة خالقه، وجود يوم يحاسب فيه الإنسان على ما قدمت يداه، حقيقة وجود الحشر حيث تتطاير فيه الصحف، واضطرار الإنسان للسير على الصراط فوق ألسنة نار جهنم. أجل، كان يبكي من هذا.. كان وكأنه داود عليه السلام الثاني يُسمع الإنسانية أنينه وبكاءه.

عندما حضرته الوفاة جزع جزعاً كبيراً فسألوه عن سبب جزعه فقال: "أخشى آية من

---

(١) أي ضعافهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه بهم.

(٢) مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٥

كتاب الله عزوجل قال الله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ (الزمر: ٤٧) وإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب."[1]

كان سعيد بن جبير من تلاميذ ابن عباس.. وقد قف مع عبد الرحمن الكندي ضد ظلم الأمويين واستشهد على يد الحَجّاج بن يوسف الثقفي الظالم. لم ينحن أبداً أمام الباطل، لأنه كان شخصاً ربانياً لا يهمه سوى الدار الآخرة، لذا وقف بكل جرأة في وجه الحكام الأمويين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر دون خوف أو وجل. كان راهباً في الليل فارساً في النهار، درس القرآن الكريم وتعلم المقاصد الإلهية من ابن عباس رضي الله عنه حبر الأمة الذي نقل إليه فهم المرشد الأكمل ورسول الله ﷺ لمعاني القرآن الكريم.

وعندما أمر الحَجّاج بن يوسف بإحضاره قام سعيد بن جبير مع رجال الحجاج حتى انتهوا إلى صومعة راهب في غاب. فقال لهم راهب الصومعة: يا معشر الفرسان اصعدوا الدير، فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير، فعَجِّلوا الدخول قبل المساء. ففعلوا ذلك وأبى سعيد أن يدخل الدير. فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. فقال سعيد: لا ضير إن معي ربي فيصرفها عني ويجعلها حرس حولي يحرسونني من كل سوء إن شاء الله.

فدخلوا وتركوه في الخارج فإذا بلبوة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد تحاكت به وتمسحت به ثم ربضت قريبا منه، وأقبل الأسد فصنع مثل ذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله محمد ﷺ ففسرر له سعيد ذلك كله، فأسلم الراهب وحسن إسلامه، وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه، ويقبّلون يديه ورجليه، ويأخذون التراب الذي وطئه بالليل فصلوا عليه، فقالوا: يا سعيد، قد حلفنا الحجاج بالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه، فمرنا بما شئت. قالوا: امضوا لأمركم فإني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه.

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٤٦/٣

فقالوا بجماعتهم: يا خير أهل الأرض، ليتنا لم نعرفك ولم نسرح إليك، الويـل لنا ويلا طويلا، كيف ابتلينا بك؟ اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر، فإنه القاضي الأكبر العدل الذي لا يجور. فلما فرغوا من البكاء والمحاوبة والكلام فيما بينهم قال كفيله: أسألك بالله يا سعيد لما زودتنا من دعائك وكلامك، فإنا لن نلقـى مثلك أبدا ولا نـرى أنـا نلتقـي إلى يوم القيامة. ففعل ذلك سعيد بن جبير.

فجاؤوا به إلى الحجاج فقال له: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت الشقي بـن كُسَيْر؟ قال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك. قال: شـقيتَ وأمُّك. قـال: الغيـب يعلمـه غيرك. قال: لأبدلنك بالدنيـا نـارا تلظى. قـال: لـو علمـت أن ذلـك بيـدك لاتخذتـك إلهـا. فقال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة إمام الهدى عليـه الصـلاة والسـلام. قـال: فمـا قولك في عليّ في الجنة هو أو في النـار؟ قـال: لـو دخلتُهـا فرأيـت أهلهـا عرفـت مـن فيهـا. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيـل. قـال: فـأيهم أعجـب إليـك؟ قـال: أرضـاهم لخـالقي. قـال: فـأيهم أرضـا للخـالق؟ قـال: علـم ذلـك عنـد الـذي يعلـم سـرهم ونجواهـم. قـال: أبَيْـتَ أن تصدقـني. قـال: إنـي لم أحـب أن أكذبـك. قــال: فمــا بــالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار. قال: فما بالنا نضحك؟ قال لم تستو القلوب.

ثم أمر الحَجّاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدي سعيد بن جبير. فقـال لـه سعيد: إن كنت جمعت هذه لتفتدي به من فـزع يـوم القيامـة فصـالح، وإلا ففزعـة واحـدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والنـاي، فلمـا ضـرب بـالعود ونفـخ في النـاي بكـى سـعيد بـن جبير. فقال: ما يبكيك؟ هو اللهو. قال سعيد: بـل هـو الحـزن، أمـا النفـخ فذكرنـي يومـا عظيما يوم ينفخ في الصور، وأما العـود فشـجرة قطعـت في غـير حـق، وأمـا الأوتـار فإنهـا معاء الشاء يبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. فقال سعيد: الويـل

لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار. فقال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك؟ فقال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة. قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده، فقال ما أضحكك؟ قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك. فأمر بالنطع فبسط، فقال: اقتلوه فقال سعيد: ﴿وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام: ٧٩). قال: شدوا به لغير القبلة. قال سعيد: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ (البقرة: ١١٥). قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى." قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فذبح على النطع رحمه الله.(1)

عن طريق مثل هؤلاء الأبطال الفدائيين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل قضية واحدة من قضايا السنة النبوية انتقلت إلينا السنة صافية طاهرة لا يخالطها كدر.

ويمكن عد مئات آخرين من أمثال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر وأويس القرني ومسروق في هذا المجال، ولكن لما كان تناول تاريخ حياة كل عظيم من هؤلاء العظماء خارج موضوع كتابنا هذا، فإننا سنكتفي هنا بإيراد معلومات موجزة جداً عن حياة بعض الأئمة من التابعين العظام الذين اشتهروا في ساحة الحديث.

١- سعيد بن المسيب

عندما يذكر الحديث والتفسير والفقه في عهد التابعين فإن أول اسم يتبادر إلى الأذهان هو اسم سعيد بن المسيب. ولد سنة خمس عشرة للهجرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٢٩١/٤-٢٩٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١١٦/٩-١١٧

رضي الله عنه، عرف كبار الصحابة من أمثال عثمان وعلي وسعد بن أبي وقّاص وابن عباس وابن عمر وأبي ذر وأبي الدرداء وزيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم رضي الله عنهم.

كان رجل فكر وتأمل، وإماماً ربانياً ذا قابلية كبيرة على الحفظ، إذ لم يكن ينسى شيئاً سمعه،[١] دائم الابتسامة، ولكن لم يضحك طوال حياته سوى بضع مرات فقط، عاش في خشية من مهابة الله وقضى عمره وكأنه واقف أمام ربه وخالقه. اشتهر بإيمانه وتقواه واستقامته وبعلمه ولاسيما بعلمه الواسع في السنة واعترف بذلك الجميع.

وكما أسس الحسن البصري مدرسته في البصرة في عهد الصحابة، كذلك ظهر سعيد بن المسيب في المدينة ووصل إلى مرتبة الإفتاء قبل سن العشرين من عمره،[٢] وكان الصحابة ينظرون إليه بإعجاب وإكبار حتى قال عنه عبد الله بن عمر: "لو رأى رسولُ الله هذا لَسَرّه."[٣] كان هذا هو مبلغ تقدير الصحابة له.

لم تفته صلاة الجماعة وفي الصف الأول مرة واحدة طوال خمسين سنة من عمره. إذ يقول: "ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة."[٤]

هكذا كانت حساسيته وحرصه في العبادة، وكان له الحرص نفسه في اتباع السنة. فقد ورث –كغيره من التابعين– عن رسول الله ﷺ حرصه الشديد على الصلاة وعلى السنة وعلى صلاة الجماعة، ولم يبد أي كسل في هذه الأمور طوال حياته، فقد مرض مرة مرضاً شديداً في المدينة فأوصاه الأطباء أن يذهب إلى وادي العقيق ويبقى هناك شهراً

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٢١/٥

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢٢٢/٤-٢٢٤؛ «الطبقات الكبرى» لاد سعد ١٢١/٥

(٣) «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٣٧٥/٢؛ «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب ص٤٨٥

(٤) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٦٣/٢

كاملاً ليستعيد صحته فقال: فكيف أصنع بالعتمة والصبح؟[١] أي فكيف أستطيع آنذاك أن ألتحق بصلاة العشاء والصبح. وربما كان بإمكانه أداء هذه الصلوات جماعة في وادي العقيق، ولكن ذلك كان يعني حرمانه من الصلاة في الروضة الطاهرة وجفاء لساكنيها الأطهار ولساكني جنة البقيع.[٢]

كان هشام بن إسماعيل والي المدينة في عهد الخليفة الوليد، فطلب منه مبايعة الخليفة الأموي فرفض ذلك، فضربه هشام ستين سوطاً وسجنه. وقد نصحه الكثير من أئمة التابعين الكبار أمثال مسروق وطاووس وطلبوا منه أن يبايعه بلسانه فقط، فأبى وقال كيف يصنع والناس ينظرون إلينا ويقلدوننا.[٣]

تزوج بنتَ أبي هريرة ﷺ لكي يكون أكثر قرباً من منبع الحديث وأكثر فهماً له. وقد خطب الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان بنته لابنه هشام، أي أن حاكماً قوياً يحكم دولة سعتها أكثر من سعة تركيا الحالية بـ٢٠-٣١ ضعفاً كان يريد خطبة ابنته إلى ولده الذي سيحكم هذه الدولة المترامية الأطراف. ولكنه رد هذا الطلب ولم يقبله على الرغم من جميع الضغوط. وعندما زادت الضغوط عليه أخذ بنته ذات ليلة وذهب إلى أحد طلابه الفقراء وهو ابن أبي وداعة -وكان ينام في المسجد- وطلب منه أن يتزوجها.[٤]

كان هذا الإمام الكبير بعمله هذا أسوة لإمام كبير جاء بعده بعدة قرون وهو بهاء الدين النقشبندي الذي ما أن بلغت ابنته حتى أخذ بيدها وجاء بها صباحاً إلى تكيته ووجد أن الطالب الوحيد الذي أحيا ليلته هو علاء الدين العَطّار فزوجه منها.

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٣٢/٥؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٦٢/٢

(٢) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٧٢/٢

(٣) «**طبقات الكبرى**» لابن سعد ١٢٦/٥

(٤) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٣٨/٥؛ «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي ٢٣٤/٤

وقد روى عن سعيد بن المسيب أئمة كبار أمثال عطاء بن أبي رباح وقتادة ومحمد الباقر –وهو من أحفاد علي رضي الله عنه– ويحيى بن سعيد الأنصاري والزهري. وكان الإمام الشافعي يعد أحاديثه المرسلة –أي الأحاديث التي لم يذكر اسم الصحابي الذي أخذ منه– حجة،[1] أي كأنه عدّه من الصحابة. هذه هي درجة الثقة والاطمئنان الذي كان يتمتع بها سعيد بن المسيب.

إذن، فقد انتقلت إلينا أفعال الرسول ﷺ وأقواله المباركة عن طريق هذه القنوات الطاهرة، وصلت إلينا السنة المباركة عن طريق أمثال هؤلاء الناس الأمناء الذين كانوا على استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل حديث واحد.. هذه السنة المباركة ستنتقل من جيل إلى آخر حتى يوم القيامة إن شاء الله.

٢– علقمة بن قيس النخعي

عندما تذكر البصرة يرد إلى الذهن الحسن البصري، وعندما تذكر مكة يرد إلى الذهن اسم عطاء بن أبي رباح، وعند ذكر اليمن اسم طاووس بن كيسان، وعند ذكر المدينة اسم سعيد بن المسيب، وعند ذكر الكوفة يرد إلى الذهن اسم علقمة بن قيس النخعي. فهؤلاء هم الأئمة العظام للتابعين الذين كانوا خير خلف للصحابة الكرام.

وعلقمة رضي الله عنه يعد من كبار أئمة الحديث إذ روى الحديث عن مئات من الصحابة الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون. وعاش قريباً من ابن مسعود رضي الله عنه، كما تلقى العلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان تواضعه متناسباً مع درجة عظمته وسبقه لمعاصريه. وقُدِّر له أن يؤسس مدرسة الكوفة التي كان أبو حنيفة أحد خريجيها، لذا روى عنه جميع أئمة التابعين الذين ظهروا

(١) انظر: «المراسيل» لأبي داود ص٣٠؛ «علوم الحديث» لابن الصلاح ص٥٣–٥٤

في الكوفة وعلى رأسهم عمرو بن شرحبيل الذي التقى بالعديد من الصحابة الكرام، وكان يقول لمن حوله أحياناً: "انطلقوا بنا إلى أشبه الناس هَدْياً وسَمْتاً بعبد الله بن مسعود."[١] أجل، لقد كان علقمة أشبه الناس سلوكاً بعبد الله بن مسعود الذي كان يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودَلّه وسَمْته.[٢]

كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً، ولكنه كان في صلاته وسجوده أشبه الناس برسول الله ﷺ، وكان علقمة أشبه الناس بابن مسعود، إذ كما كان الرسول ﷺ يقول: «استقرؤوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود -فبدأ به- وسالم مولى أبي حُذيفة وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»[٣] كذلك كان عبد الله بن مسعود يستقرأ علقمة القرآن ويقول له: اقرأ فداك أبي وأمي.[٤]

وكان الإمام الكبير أبو حنيفة الذي ذاع صيت تقواه وزهده معجباً بعلقمة، ويقول عنه بأنه قد سبق بعض الصحابة في الفقه وفي علم الحديث. وهذا ليس رأينا بل هو رأي إمام كبير مثل الإمام أبي حنيفة الذي يصعب بلوغ كعبه. ولقد شتمه أحدهم مرة شتماً قبيحاً، فالعهد آنذاك كان عهد فتنة وابتلاء فاستمع إليه علقمة بهدوء ولم يزد في الجواب عليه إلا قراءة الآية الكريمة: ﴿والذين يُؤذُون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (الأحزاب: ٥٨). قيل له مرة: أمؤمن أنت يا أبا شبل؟ قال: أرجو.[٥]

وقف أمام جميع أنواع الباطل في عهده، ولم يمالئ حكام الأمويين الظالمين، بل حافظ على كرامة الحديث، بل صرف حياته على تنشئة طلابه في الكوفة من أمثال الأسود بن يزيد النخعي وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان شيخ وأستاذ الإمام أبي حنيفة،

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٨٦/٦؛ «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٩٨/٢

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٨٦/٦

(٣) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١١٨

(٤) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٩٠/٦؛ «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٩٩/٢

(٥) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٨٦/٦؛ «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٠٠/٢

وعشرات غيرهم. فكما تلقى الحديث عن مئات من الصحابة كذلك روى عنه الحديث المئات من التابعين. لذا، فهو يعد منشئ مدرسة الكوفة التي خرجت أئمة وعلماء عظماء أمثال النخعي والثوري وأبي حنيفة.

٣- عروة بن الزبير بن العَوّام

كان والده الزبير بن العَوّام ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ التي كان النبي ﷺ يفتخر بها.[(١)] وكان من كبار صحابة رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة. أما والدته فهي أسماء أخت السيدة عائشة رضي الله عنهما وابنة أبي بكر رضي الله عنه، فكان عروة سليل مثل هذه العائلة الكريمة، فكما كانت أمه تقضي معظم وقتها مع أختها عائشة رضي الله عنهما كذالك نشأ عروة في حجر خالته وتعلم منها معنى كل آية ومعنى كل حديث يستفسر منها حتى أصبح مستودع علم. كما استفاد من علم سعيد بن المسيب الذي كان يكبره بسبع أو ثماني سنوات.

ويعد عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة في عهده. وكل الأحاديث التي روتها أمنا عائشة رضي الله عنها جاءت إلينا عن طريقه، كما روى الحديث عن كثير من الصحابة الكرام أمثال علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم أجمعين. كما أخذ عنه مئات من التابعين أمثال قتادة بن دِعامة وابن شهاب الزهري ويحيى بن سعيد الأنصاري وزيد بن أسلم.

كان عروة –مثله في ذلك مثل غيره من كبار الأئمة– تقياً ورعاً وزاهداً من مشاهير الزهاد. كان ربانياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وعندما تقدم به العمر أصيبت أحدى ساقيه بداء الأَكَلَة فلم يجد الأطباء أمامهم سبيلاً سوى التوصية بقطعها، فتردد عروة، ولكن العلة انتشرت فلم يجد بداً من الرضا بقطعها، وعندما بدأوا بقطع رجله

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٣

بالمنشار لم يتأوه أبداً بل أكتفى بترديد ما قاله موسى عليه السلام في سفره للقاء الخضر عليه السلام: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ (الكهف. ٦٢). ثم دعى بقدمه التي قطعت فقلّبها في يده ثمَّ قال: "أما والذي حملني عليكِ إنَّه لَيعلمُ أنِّي ما مَشيتُ بكِ إلى حَرَامٍ أوْ معصيةٍ."[١]

ودخل ابن له الإسطبل يوماً فرفسته دابة فقتلته، فلما سمع عروة بالنبأ قال: "اللهم إنه كان أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة، فلك الحمد. وكان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وايم الله لئن أخذت فقد أبقيت ولئن أبليت طالما عافيت."[٢] كان عروة حلقة ذهبية من تلك السلسلة الذهبية التي رضي الله عنهم وأرضاهم.

٤- محمد بن مسلم بن شهاب الزهري

كان ابن شهاب الزهري الذي يرجع إليه ربع السنة قرشياً وكان من أصغر التابعين سناً. خاصم والده مسلم الأمويين ووقف في وجه الحَجّاج، لذا كرهه الأمويون. لذا، فلم يكن ابن شهاب الزهري من أنصار الأمويين كما ادعى البعض، بل كان شخصاً يرتاب فيه الأمويون ويتوجسون منه خيفة.

حفظ الزهري القرآن الكريم قبل أن يبلغ السابعة من عمره.. أتدرون في كم يوم حفظه؟ لقد حفظه في ثمانية أيام فقط! وفي سن ١٧–١٨ من عمره بلغ مرتبة الاجتهاد والفتوى. وكان مفرط الذكاء حتى أنه قال: "ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته."[٣] لم ينس شيئاً مما تعلمه، ذلك لأن عهده كان عهد تعليم بكل ظروفه وشروطه. إذ حضر في البداية حلقة تدريس سعيد بن المسيب مدة ثمانية أعوام. كما أخذ دروساً من عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة الذي كان أحد ثلاثة ممن ربوا عمر بن عبد العزيز كما كان يُعد

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٧٨/٢

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٧٩/٢

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٣٦٤/٣؛ «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١٠٩/١

أحد الفقهاء السبعة المشهورين آنذاك. وقال عن نفسه: "مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام ومن الشام إلى الحجاز، فما كنت أسمع حديثاً أستطرفه."[١]

كان في استطاعته طبعاً في ظرف هذه السنوات الطويلة (٤٥ سنة) أن يحفظ من الأحاديث ومن العلم ما يزيد على حجم القرآن الكريم بعشر مرات، وليس ما روى من الأحاديث التي بلغ حجمها حجم قرآن ونصف فقط، علماً بأن الزهري كان قد وهب نفسه للحديث.

وقد وصمه البعض بمداهنة الأمويين، وليس هذا صحيحاً إذ لم يعرف المداهنة، ولم يعرف أبوه مسلم بن عبيد الله المداهنة أيضاً لأنه كان امرءاً أسلم أمره إلى الله تماماً، ووقف بجانب عبد الله بن الزبير مجاهداً الأمويين. وعندما التقى الخليفة عبد الملك بن مروان مع الزهري لأول مرة أشار إلى موقف والده وعاتبه.

صحيح أنه بقي فترة في قصور الأمويين إذ قام بتربية وتعليم أولاد هشام، ولم يكن هذا خطأ بل كان خطوة مهمة في سبيل إرشاد هؤلاء الأبناء –الذين سيمسكون بزمام الدولة في المستقبل– إلى الصراط المستقيم وإلى السنة النبوية، وكان هذا من أهم الخدمات التي قدمها الإمام الزهري فأصبح أسوة وقدوة لمن يأتي بعده.

كان الأمويون يشنعون على علي بن أبي طالب ﷺ حتى أنهم أوّلوا الآية التي نزلت لتبرئة أمنا عائشة ﷺ من حديث الإفك وهي: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عُصْبَة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم﴾ (النور: ١١).

أوّلوا هذه الآية فقالوا إن المقصود من "الذي تولى كبره" هو علي بن أبي طالب ﷺ، ولكن الزهري عارض هذا التفسير ولم يرض عن هذا البهتان في حق علي رضي الله عنه.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٧٥/٩

لنقرأ الحادثة بلسان الزهري: كنت عند الوليد بن عبد الملك فتلا هذه الآية: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ قال: نزلت في علي بن أبي طالب. قال الزهري: أصلح الله الأمير، ليس كذا أخبرني عروة عن عائشة ﵂، قال: وكيف أخبرك؟ قال: أخبرني عروة عن عائشة ﵂ أنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المنافق.[1] وعندما رأى أن الأمير قد احتد من كلامه وبدأ ينظر إليه شزراً قال: "لا أبا لك فوالله لو ناداني منادٍ من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت."[2] أجل، إن الشخص المقصود في الآية الكريمة هو عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المنافق وليس علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

أجل، لم يكن الزهري مداهنا للأمويين على الإطلاق، بل يعد الشخص الذي أدخل حب آل البيت إلى قصر الأمويين. والأمر واضح تماماً، فكما كان أحد علماء الشيعة وهو أبو جعفر الأسكافي أول من اتهم أبا هريرة بالكذب، كذلك كان اليعقوبي –وهو أحد مؤرخي الشيعة– أول من اتّهم الزهري بوضع الحديث. إذ زعم أن عبد الملك بن مروان أراد أن يمنع المسلمين من الطواف حول الكعبة فقام بتعمير المسجد الأقصى في القُدس ورجا من الزهري أن يختلق له حديثاً في هذا الموضوع، فقام الزهري باختلاق الحديث التالي الذي ورد في كتب الحديث الصحاح أمثال صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند بن حنبل: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا.»[3]

أليس هذا الادعاء مدعاة للسخرية بشكل واضح؟ إذ لا يوجد لا في تاريخ اليهود ولا في تاريخ النصارى أن المسجد الأقصى كان يطاف حوله مثل المسجد الحرام، ولا يوجد أي نص حول هذا. ثم إن المسجد الأقصى كان مقدساً لدى المسلمين منذ البداية، وقد

(١) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٣/٣٦٩؛ «**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» لابن منظور ٢٣/٢٤٠

(٢) «**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» لابن منظور ٢٣/٢٤٠

(٣) **البخاري**، الصوم، ٦٧؛ **مسلم**، الحج، ٥١١

صرح القرآن الكريم بأن المسجد الأقصى وما حوله مبارك، لذا فلم يكن عبد الملك هو الشخص الوحيد الذي قام بتعميره، بل نرى النبي داود عليه السلام والنبي سليمان عليه السلام وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ونور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي من بين الذين قاموا بتعميره وتجديده. ثم إن الإمام الزهري لم يقابل الخليفة عبد الملك عندما رأى الحديث ولم يلتق به، لأن والده كان يحارب عبد الملك بجانب عبد الله بن الزبير، لذا لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يفارق الزهري أباه ويلتحق بعبد الملك. ثم إن هذه الفرية لم ترد إلا في كتاب اليعقوبي، وهذا أمر مهم يجلب الانتباه، إذ لم يكن من الممكن أن تبقى هذه الحادثة سراً في عهد التابعين، أي في عهد كان هناك آلاف من الرجال مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل أصغر مسألة من مسائل السنة النبوية.

هناك أمر آخر في هذا الموضوع وهو أن عبد الملك لم يكن إنساناً ساذجاً إلى حد تقديم مثل هذا الاقتراح الغريب. فقبل خلافته كان عالماً من علماء الحديث في مكة المكرمة، ولا يخطر بباله اقتراف أي حرام، وكان يعرف أئمة الحديث من التابعين، ولكنه لم يستطع المحافظة على حساسيته هذه بعد تنصيبه خليفة. أما الإمام الزهري فقد كان لا يزال طفلاً في حجر والدته في تلك الفترة.

وقد تلقف المستشرق "غولتسهر (Goldziher)" فرية اليعقوبي هذه واستغلها واستعملها مع الأسف، وسرت هذه التهمة إلى بعض الكتاب المسلمين ممن انذهلوا أمام الغرب وانبهروا به أمثال أحمد أمين وعلي حسن عبد القادر وأبي ريّة، وقد فضل المستشرقون أمثال جولد تسهير وغيره نبذ الكتب التي تعد المنابع والمصادر الرئيسة للحديث ولعلم الحديث وتوجهوا إلى كتب أدبية ماجنة أمثال "العِقد الفريد" و"الأغاني" مع أن أسماء هذه الكتب تغني عن كل تعليق. وكانت غايتهم من تلويث سمعة أبي هريرة وابن شهاب الزهري وغيرهما من أعمدة الحديث وحاملي لوائه هدم السنة وبالتالي هدم ركن مهم في الإسلام، لذا نعد من تابع هؤلاء المستشرقين قديماً ومن يتابعهم حالياً في هذا الموضوع أشخاصاً يخدمون هذه الغاية سواء عن علم وتصميم أو عن جهل وانخداع.

كان الزهري إماماً كبيرا من أئمة الحديث، وقد أجمع علماء الحديث العظام الذين جاءوا من بعده على هذا من أمثال ابن المديني وابن حِبّان وابن أبي حاتم والحافظ الذهبي وابن

حجر. وبعد وفاة هذا الإمام الكبير وجد علماء المعتزلة أمثال النظّام –الذين خلطوا عقيدتهم في التوحيد ببعض الفلسفات المادية– الساحة فارغة أمامهم فجالوا فيها وصالوا. وعندما قام جولدتسهير وأمثاله من المستشرقين بالاستناد إلى أفكار النظّام وكتب تلميذه الجاحظ مثل "كتاب الحيوان" فقد أثبتوا أنهم لا يدركون طريقة البحث العلمي الجاد والرزين.

أخذ الإمام الزهري الحديث عن عشرات من الصحابة، وأخذ عنه الحديث المئات من أعلام التابعين وتابعي التابعين، وقام بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز بأول تدوين رسمي للحديث، فنال هذا الشرف الكبير قبل ارتحاله إلى الدار الآخرة.

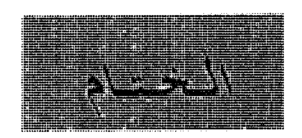
وأنا أفضل أن أختم الموضوع هنا، وإلا فقد كان في استطاعتنا التحدث عن كثير من عظماء التابعين من أمثال القاسم بن محمد بن شقيق أمنا عائشة ﷺ والذي يعد أحد الفقهاء السبعة ورأس السلسلة النقشبندية، وعن نافع شيخ الإمام مالك الذي ولد من مرجانة جارية بن عمر الذي عندما سمع آية ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (آل عمران: ٩٢)، قال: فذكرت ما أعطاني الله عَزَّوَجَلَّ فلم أجد شيئاً أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية إذ أعتقها وزوجها.[١] والتحدث عن طاووس بن كيسان الذي صلى صلاة الصبح أربعين عاماً بوضوء صلاة العشاء،[٢] وعن الأسود بن يزيد النخعي وعن الإمام أبي حنيفة الذي يروى أنه قابل بعض الصحابة[٣] وعن غيرهم.. كان بإمكاننا تناول هؤلاء بالبحث لولا أننا رأينا أن ما ذكرناه يكفي من ناحية الموضوع الذي تناولناه.

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٢٦/٦

(٢) أي أنه بقي أربعين سنة يتعبد في الليل بدءاً من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر. (المترجم) وانظر: «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي ٤٢/٥

(٣) «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي ٣٩١/٦؛ «**وفيات الأعيان**» لابن خلكان ٤٠٦/٥



الختام

القرآن الكريم والسنة النبوية ركنان أساسيان من أركان الإسلام، ولا يمكن تصور الإسلام من دون السنة ومن دون الحديث، فالسنة التي هي عبارة عن أحاديث وأفعال وما أقره الرسول ﷺ حفظت ونقشت في القلوب وفي الأذهان منذ عهد الرسول ﷺ ثم حفظت بالتدوين والكتابة. وقام الصحابة الكرام بتنظيم حياتهم وفق هدي السنة ثم نقلوها كما هي دون زيادة أو نقصان إلى التابعين العظام الذين عاشوا عهد فتنة كبيرة لذا، أسسوا حياتهم على الزهد والتقوى، واعتصم الأئمة التابعون العظام -الذي بلغ عددهم الآلاف- بركني الإسلام الهامين وهما القرآن والسنة، حيث نقلوهما إلى الأجيال التي جاءت من بعدهم نقية طاهرة. وكان أهل هذه القرون الثلاثة، أي قرن الصحابة ثم التابعين ثم تابع التابعين خير القرون حسبما أخبرنا النبي ﷺ.[1]

يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن الرسول ﷺ: «فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهُدى هُدَى[2] محمدٍ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة.»[3] والآن إليكم بعض الإشارات النورانية في هذا الموضوع: قال الرسول ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى.» قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»[4] ويقول أيضاً: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذٌ بحُجَزِكمْ وأنتم تَقَحَّمُون فيه.»[5]

ويقول أيضاً: «لا ألفينّ أحَدَكم مُتّكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢١٠-٢١٢

(٢) وضُبط بفتح الهاء وسكون الدال والمعنى "أحسن الطرق". أما الْهُدى فمعناه الإرشاد والدلالة.

(٣) **مسلم**، الجمعة، ٤٣؛ **النسائي**، العيدين، ٢٢؛ **ابن ماجة**، المقدمة، ٧؛ **أبو داود**، السنة، ٥

(٤) **البخاري**، الاعتصام، ٢؛ **مسلم**، الإمارة، ٣٢

(٥) **البخاري**، الرقاق، ٢٦؛ **مسلم**، الفضائل، ١٧، ١٨

أو نهيت عنه فيقول لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه.»[1] ونجد في رواية أبي داود التكملة التالية: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه.» أي لقد أعطيت السنة كذلك.

ويقول أيضاً: «فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم محدَثات الأمور، فإن كلّ مُحْدثةٍ بدعةٌ وكُلّ بدعةٍ ضلالةٌ.»[2]

وفي رواية وردت في موطأ الإمام مالك –الذي يدخله البعض ضمن الكتب الستة للأحاديث الصحيحة بدلاً من سنن ابن ماجة– عن الرسول ﷺ أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مَسَكتم بهما: كتاب الله وسُنّة نبيه.»[3]

هذه هي السنة عند الله تعالى وعند رسوله الكريم ﷺ.

فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كانت السنة النبوية تقوم منذ أربعة عشر قرناً بهداية المسلمين وإنارة الطريق أمامهم والقيام بوظيفة الجسر الموصل إلى رضا الله تعالى، وإذا كانت قد انتقلت منذ عهد الرسول ﷺ –مثل القرآن الكريم– شفاهاً وتدويناً من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا فإننا نسأل الذين يحاولون اتهامها وتلويثها من أتباع المستشرقين من الذين لم يملكوا العلم الصحيح والعلم الكافي.. نسألهم بلسان القرآن الكريم: ﴿فأين تذهبون﴾ (التكوير: ٢٦).. أجل، فأين تذهبون؟

والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) أبو داود، السنة، ٥؛ ابن ماجة، المقدمة، ٢؛ الترمذي، العلم، ١٠

(٢) الترمذي، العلم، ١٦؛ ابن ماجة، المقدمة، ٦؛ أبو داود، السنة، ٥

(٣) الموطأ، القدر، ٣

المصادر

القرآن الكريم

«**أسد الغابة**» (١-٧) **لابن الأثير** مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، كتاب الشعب، قاهرة ١٩٧٠ م.

«**أصول السرخسي**» (١-٢) لأبي بطر محمد بن أحمد بن أبي سهل **السرخسي**، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٣ م.

«**أعلام النساء**» (١-٥) **لعمر رضا الكحالة**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

«**الأدب المفرد**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري**، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٩٨٩ م.

«**الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**» **لعلي القاري**، المكتبة الإسلامي، بيروت ١٩٧١ م.

«**الأعلام قاموس تراجم**» (١-٨) لخير الدين **الزركلي**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦ م.

«**الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ**» أحمد بن المبارك، دار الفكر.

«**الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**» (١-١٨) [*تأليف:* أبو حاتم محمد بن حبان البُستي -*بترتيب*: الأمير علاء الدين علي بن بلباني الفارسي- *تحقيق وتخريج وتعليق*: شعيب الأرنؤط]، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨ م.

«**الإصابة**» (١-٤) **لابن حجر** العسقلاني، دار صادر، بيروت ١٣٢٨ هـ.

«**الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**» **لأحمد محمد شاكر**، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨ هـ .

«**البداية والنهاية**» (١-١٤) لأبي الفداء إسماعيل **بن كثير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨ م.

«**تأويل مختلف الحديث**» لأبي محمد عبد الله بن مسلم **بن قتيبة**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥ م.

«**تاريخ الأمم والملوك**» (١-١٣) **للطبري**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧ م.

«**تاريخ بغداد أو مدينة السلام**» (١-١٩) لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، دار الكتب العلمية، بيروت.

«**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**» (١-١٠) لعبد الرحمن بن عبد الرحيم **المباركفوري**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ م.

«**تذكرة الأولياء**» (باللغة التركية) **لفريد الدين العطار** [مترجم: سليمان أولوداغ]، نشريات أردم، إستانبول ١٩٩١ م.

«**الترغيب والترهيب**» (١-٥) **للمنذري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٨ م.

«**تفسير القرآن العظيم**» (١-٨) لأبي الفداء إسماعيل **بن كثير**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٤ م.

«**تفسير النسفي**» (١-٤) أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود **النسفي**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٤ م.

«**تهذيب التهذيب**» (١-١٤) لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٤ م.

«**جامع البيان في تفسير القرآن**» (١-٣٠) لأبي جعفر محمد بن جرير **الطبري**، شركة مكتبة، بيروت ١٩٦٨ م.

«**جامع كرامات الأولياء**» (١-٢) ليوسف بن إسماعيل **للنبهاني**، شركة مكتبة، مصر ١٩٨٤ م.

«**الجامع لأحكام القرآن**» (١-٢٠) **للقرطبي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨ م.

«**حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين**» ليوسف بن إسماعيل **النبهاني**، دار الفكر، بيروت.

«**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**» (١-١٠) لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.

«**حياة الصحابة**» (١-٤) محمد يوسف **الكاندهلوي**، دار القلم، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الخصائص الكبرى**» (١-٣) **للسيوطي**، دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٦٧ م.

«**الدر المنثور**» (١-٨) لجلال الدين **السيوطي**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الدولة الأموية**» لمحمد **الخضاري**، دار القلم، بيروت ١٩٨٦ م.

«**الرحلة في طلب الحديث**» لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، *تحقيق وتعليق*: نور الدين عتر، دار المتب العلمية، بيروت ١٩٧٥ م.

«**الرسول**» (١-٢) **لسعيد حوى**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١ م.

«**دلائل النبوة**» (١-٧) لأبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥ م.

«**رجال حول الرسول**» لخالد محمد خالد، دار الفكر، دمشق ١٩٩٤ م.

«**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والمثاني**» (١-٣٠) لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود **الآلوسي**، دار إحياء التراثي العربي، بيروت ١٩٨٥ م.

«**زاد المعاد في هدي خير العباد**» (١-٥) **لابن قيم الجوزية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٠ م.

«**سنن ابن ماجة**» (١-٢) **لابن ماجة**، دار إحياء كتب العربية، مصر ١٩٥٢ م.

«**سنن أبو داود**» (١-٤) **لأبي داود** سليمان بن أشعث السجستاني، المكتبة الإسلامية، إستانبول.

«**سنن الترمذي**» (١-٥) لأبي عيسى محمد بن عيسى **الترمذي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

«**سنن الدارمي**» (١-٢) لعبد الله بن عبد الرحمن **الدارمي**، دار كتاب العربي، بيروت ١٩٨٧ م.

«**السنن الكبرى**» (١-١٠) لأبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي**، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ.

«**سنن النسائي**» (١-٨) **للنسائي**، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٢ م.

«**السنة قبل التدوين**» **لمحمد عجاج الخطيب**، دار الفكر، دمشق ١٩٨١ م.

«**سير أعلام النبلاء**» (١-٢٥) لمحمد بن عبد الله بن عثمان **الذهبي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢ م.

«**السيرة النبوية**» (١-٤) **لابن هشام**، دار القلم، بيروت.

«**شرح فتح القدير للعاجز الفقير**» (١-٩) لكمال الدين **محمد بن عبد الواحد**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

«**شرح معاني الآثار**» (١-٤) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك ابن سلمة الأزدي الحجري **الطحاوي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧ م.

«**الشفاء بتعريف حقوق المصطفى**» (١-٢) لأبي الفضل **القاضي عياض**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨ م.

«**الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٩٢ م.

«**الصحيح**» (١-٤) **لابن خزيمة** [تحقيق، تعليق وتخريج: مصطفى الأعظمي]، المكتبة الإسلامي، بيروت ١٣١٢هـ/١٩٩٢م.

«**صحيح البخاري**» (١-٨) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري**، المكتبة الإسلامية، إستانبول ١٩٧٩ م.

«**صحيح مسلم**» (١-٥) لأبي الحسين **مسلم** بن الحجاج النيسابوري، المكتبة الإسلامي، إستانبول.

«**صفة الصفوة**» (١-٢) لأبي الفرج عبد الرحمن **بن الجوزي**، دار بن خلدون، قاهرة ١٩٩٤ م.

«**صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم**» لبديع الزمان **سعيد النورسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٥ م.

«**الطبقات الكبرى**» (١-٨) **لابن سعد**، دار صادر، بيروت ١٩٦٠ م.

«**علوم الحديث**» لابن الصلاح [تحقيق وشرح: نور الدين عتر]، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦ م.

«**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**» (١-٢٠) لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد **العيني**، شركة مكتبة، مصر ١٩٧٢ م.

«**فتح الباري شرح صحيح البخاري**» (١-١٣) لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩ م.

«**الفتح الكبير في ضم زيادة إلى الجامع الصغير**» (١-٣) لجلال الدين **السيوطي**، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٣٢ م.

«**في ظلال القرآن**» (١-٦) لمحمد **سيد قطب**، دار الشروق، بيروت ١٩٨٦ م.

«**فيض القدير شرح جامع الصغير**» (١-٦) لمحمد المدعو بعبد الرؤوف **المناوي**، دار المعرفة، بيروت ١٣٥٧ هـ.

«**الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**» لمحمد بن علي **الشوكاني**، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٢ هـ.

«**الكامل في التاريخ**» (١-١٢) **لابن الأثير** مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، دار صادر، بيروت ١٩٦٧ م.

«**كتاب التاريخ الكبير**» (١-١١) لأبي عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي **البخاري**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٦ م.

«**كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**» (١-٥) لعبد الرحمن **الجزيري**، دار الدعوة، إستانبول ١٩٨٧ م.

«**كتاب المغازي**» (١-٣) لمحمد بن عمر بن واقد السهمي **الواقدي**، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٤ م.

«**كتاب فضائل الصحابة**» (١-٢) للإمام **أحمد بن حنبل**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الكشاف**» (١-٤) لأبي القاسم جار محمود بن عمر **الزمخشري** الخوارزمي، شركة مكتبة، مصر ١٩٧٢ م.

«**كشف الخفاء ومزيل الإلباس**» (١-٢) لإسماعيل بن محمد **العجلوني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م.

«**الكفاية في علم الرواية**» لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨ م.

«**الكلمات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٢ م.
«**كنز العمال**» (١-١٨) لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي **الهندي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ م.
«**اللمعات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣ م.
«**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**» (١-١٠) لنور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي**، دار كتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.
«**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» (١-٢٩) لمحمد بن مكرم المعروف بابن منظور، دارالفكر، دمشق ١٩٨٤ م.
«**مختصر تفسير بن كثير**» (١-٣) لمحمد علي **الصابوني**، دار القرآن العظيم، بيروت ١٩٨١ م.
«**المستدرك**» (١-٥) لأبي عبد الله **الحاكم** النيسابوري، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٦ م.
«**المسند الفردوس**» (١-٥) لأبي شجعة شراويه بن شهردار **الديلمي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦ م.
«**المسند**» (١-٨) للإمام **أحمد بن حنبل**، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣ م.
«**المسند**» لأبي داود **الطيالسي**، دار المعرفة، حيدر آباد ١٣٣١ هـ.
«**المصنف في الأحاديث والآثار**» (١-٨) لعبد الله بن محمد **بن أبي شيبة**، [تحقيق: سعيد محمد اللحام]، دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٩م.
«**المطالب العالية**» (١-٤) **لابن حجر** العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
«**معرفة علوم الحديث**» للحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م..
«**مفاتيح الغيب**» (١-٣٢) لفخر الدين **الرازي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
«**المكتوبات**» (١-٢) **للإمام الرباني** أحمد الفاروقي السرهندي، نشريات الفضيلة، إستانبول.
«**المكتوبات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٢ م.

«**منهل الواردين شرح رياض الصالحين**» (١-٢) لصبحي صـالح، دار العلـم للملايـين، بيروت ١٩٧٠ م.

«**ميزان الإعتدال**» (١-٤) لمحمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي**، دار إحياء التراثي العربي، بيروت ١٩٦٣ م.

«**الموطأ**» (١-٢) **للإمام مالك** بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥ م.

«**نفحات الأنس**» **لعبد الرحمن ملا جامع** [*مترجم وشارح*: لامعي جلـبي]، نشـريات المعرفة، إستانبول ١٩٩٥ م.

«**الهداية**» (١-٤) **للمرغناني**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٦ م.

«**هدي الساري**» لأحمد بن علـي **بـن حجـر العسـقلاني**، دار الكتـب العلميـة، بـيروت ١٩٨٩ م.

«**وفيات الأعيان وأبنـاء أبنـاء الزمـان**» (١-٨) لمحمـد بـن أبـي بكـر **بـن خلكـان**، دار صادر، بيروت ١٩٧٧ م.

فهرس الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية

السـورة ـــ الآيـة ـــ جـ / ص

السورة — الآية — ج / ص

السورة	الآية	جـ / ص

السورة ـــ الآية ـــــــــــــــ جـ / ص

٢ - فهرس آيات الإنجيل والتوراة

٣ـ فهرس الأحاديث

﴿أ﴾ فهرس الأحاديث القدسية

﴿ب﴾ فهرس الأحاديث النبوي

الحديث ـــــــــ جـ / ص

٤- فهرس الآثار والأقوال

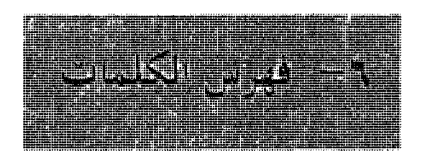
الآثار أو الأقوال	(صاحب الكلام)	جـ / ص
أبشروا! لقد نصرَنا الله تعالى	(الحارث بن هشام)	٢٠٠/١
أبو بكر سيِّدُنا وأعتق سيِّدَنا	(عمر بن الخطاب)	٤٧٨/١
أبي الإسلام لا أب لي سواه	(سلمان الفارسي)	٤٧٤/٢
أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟	(عمر بن الخطاب)	٤٨/١
أتيت النبي وهو يصلي ولجوفه أزيز	(عبد الله بن الشِّخِّير)	٣٨٦/١؛ ٢٥٠/٢
أُخبرت أنه يسب رسول الله	(عبد الرحمن بن عوف)	٥٦/٢
أخشى آية من كتاب الله	(محمد بن المنكدر)	٤١٦/٢
ادع الله أن يجعلني معك يا رسول الله!	(نسيبة)	٧٩/٢
إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً	(علي بن أبي طالب)	٣١٦/٢
اذهب فقاتل أمام رسول الله	(نسيبة)	٧٩/٢
استأذنّا النبي في الكتابة فلم يأذن لنا	(أبو سعيد الخدري)	٣٦٦/٢
أفِراراً من قدر الله؟	(أبو عبيدة بن الجرّاح)	١٤٣/١؛ ٣١٥/٢
ألست شهيداً يا رسول الله؟	(عبيدة بن الحارث)	٣٢/٢
اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً	(خُبيب بن عدي)	١٥/١
اللهم إذا لقيت العدو غداً فلقّني	(سعد بن أبي وقّاص)	٣٣/٢
اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك	(خُبيب بن عدي)	١٥/١
اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا	(عمر بن الخطاب)	٣٤١/٢
اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ	(سعد بن معاذ)	١٠٧/٢
اللهم إنه كان أطراف أربعة فأخذت	(عروة)	٤٢٤/٢
اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه	(عبد الله بن جحش)	٣٣/٢
اللهم غَفْراً، كل الناس أفقه من عمر!	(عمر بن الخطاب)	٣١١/٢
اللهم هذا عم نبيك نتوجه إليك به	(عمر بن الخطاب)	٢٦٦/٢
ألم أُحَدَّثْ أنك تلي من أعمال الناس	(عمر بن الخطاب)	٣١١/٢

الآثار أو الأقوال	(صاحب الكلام)	جـ / ص
أما والذي حملني عليكِ إنّه لَيعلمُ...	(عروة بن الزبير)	٤٢٤/٢
أنا في الأموات، فأبْلِغْ رسول الله سلامي...	(سعد بن الربيع)	٨٠/٢، ١٤٠
أنا يا رسول الله!	(نسيبة)	٧٩/٢
أنتم أكثر صياماً وأكثر صلاةً وأكثر...	(عبد الله بن مسعود)	٣٩٠/٢
انطلقوا بنا إلى أشبه الناس هَدْياً وسَمْتاً	(عمرو بن شرحبيل)	٤٢٢/٢
أنفق يا رسول الله! ولا تخش من...	(عبد الله بن حُذافة السهمي)	٣٤٩/١
إن أستخلِفْ فقد استخلف من هو...	(عمر بن الخطاب)	٣١٣/٢
إن أشربْ قائماً فقد رأيت رسول الله...	(ميسرة بن يعقوب)	٣١٣/٢
إن أفضل الناس وأعقلهم هو نبيكم محمد	(عبد الله بن عباس)	٢١٩/١
إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق...	(أبو هريرة)	٣٩٣/٢
إن الله عزَّ وجلَّ أحب أمراً فأحببت	(الفُضيل بن عِياض)	٣٧٣/١
إن الله نظر في قلوب العباد فوجد...	(عبد الله بن مسعود)	٣٩٠/٢
إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله...	(عبد الرحمن بن عوف)	٣١٥/٢
إن هذه الآية نزلت في عمي أنس بن النضر	(أنس بن مالك)	٩٢/١
إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع...	(عمر بن الخطاب)	٣١٣/٢
إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء...	(عمر بن الخطاب)	٣٢٨/٢
إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به...	(عمر بن الخطاب)	٢٥٣/٢، ٣١٧، ٤٠٧
إنّ لي عشرة من الولد...	(الأقرع بن حابِس)	٣٢٥/١
أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي...	(عائشة)	١١٩/٢
أول مشهد شهده رسول الله...	(أنس بن النضر)	٧٠/٢
أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ	(مصعب بن عُمير)	٢٠٤/١
أوَ في هذا أستأمر أبوي؟...	(عائشة)	٣٧٤/٢
أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد...	(جعفر بن أبي طالب)	٤٠٩/١
بينما النبي يقسم ذات يوم قسماً...	(أبو سعيد الخدري)	٣٣٥/١
تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج	(أبو سعيد الخدري)	٣٢٠/٢، ٣٥٦
جاء بعير يشتد حتى سجد لرسول الله...	(عبد الله بن جعفر)	٣٢٨/١

الآثار أو الأقوال	(صاحب الكلام)	ج / ص
لو رأي رسولُ الله هذا لَسَرّه	(عبد الله بن عمر)	٤١٩/٢
لو رُفع الغِطاء ما ازددتُ يقيناً	(علي بن أبي طالب)	٤٧١/١
لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة!	(عمر بن الخطاب)	١٤٣/١؛ ٣١٥/٢
لو كان أبو عبيدة حياً لولّيته	(عمر بن الخطاب)	١٤٢/١؛ ٣١٤/٢
لو كان الدين بالرأي لكان...	(علي بن أبي طالب)	٣١٤/٢
لو كان محمد كاتماً شيئاً مما أنزل الله...	(عائشة)	١٥٨/١؛ ٢٣٥/٢
لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً	(علي بن أبي طالب)	٨٧/١، ١٨٦، ٤٣٠
لولا أني أخشى أن أخطئ...	(أنس بن مالك)	٣١٨/٢
ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء	(عبد الله بن عباس)	٢٨٥/١
ما أجد لك في الكتاب من حق...	(أبو بكر الصديق)	٣٢١/٢
ما أسلمت من أجل المال	(عمرو بن العاص)	٢١٤/٢
ما أعلم منها إلا ما تقول	(عمر بن الخطاب)	٤٠١/٢
ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته	(ابن شهاب الزهري)	٤٢٤/٢
ما جاء بك يا أبا أيوب؟	(مسلمة بن مخلّد الأنصاري)	٣٢٣/٢
ما خُيّر النبي بين أمرين إلا اختار...	(عائشة)	٢٨٥/٢
ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال...	(أنس بن مالك)	٣٧٧/١
ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي...	(عمر بن الخطاب)	٤٨٥/١
ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ...	(سعيد بن المسيب)	٤١٩/٢
ما من أصحاب النبي أحد...	(أبو هريرة)	٣٦٧/٢
مكثت خمساً وأربعين سنة...	(عمر بن عبد العزير)	٤٢٥/٢
من كان مُستناً فليستَنّ بمن قد مات...	(عبد الله بن عمر)	٣٩٠/٢
نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء...	(عبد الله بن سلام)	٤٨/١
نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله	(عمر بن الخطاب)	١٤٣/١؛ ٣١٥/٢
نهى رسول الله عن الدُّبّاء والـمُزَفّت أن يُنبَذ فيه...	(سفيان بن عُيينة)	٣١٩/٢
نهى رسول الله عن الدُّبّاء والـمُزَفّت أن يُنتبَذ فيه ..	(سفيان بن عُيينة)	٣١٩/٢
ها الله ولا حقّ في الإسلام لمن...	(عمر بن الخطاب)	٧٣/١

٥ ـ فهرس الأشعار والأمثال

الأشعار أو الأمثال	(صاحب الكلام)	جـ / ص
قصور عدة.. وبضعة حوريات	()	٣٨٣/١
كريم بن كريم بن كريم	()	١١٤/١
كل امرئ مصبَّحٌ في أهله	(أبو بكر الصديق)	١٠٩/٢
لقد أصبحت أنصاف الأهلة	(نظامي كنجوي)	٥٢/٢
لو كل كلب عوَى ألقمتَه حجراً	()	٢٣٢/٢
لو لم تكن فيه آيات مبينة	(عبد الله بن رواحة)	١٨٦/١
لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما	(البوصيري)	٤٦٨/١؛ ٨٣/٢
ما قال لا قط إلا في تشهده	(الفرزدق)	٣٤٩/١
ماذا عليّ مَنْ شَمّ تربة أحمدا	(فاطمة بنت الرسول)	١١٣/١
من بنده شدم بنده شدم بنده شدم	(جلال الدين الرومي)	٢٤٧/٢
نحن الذين بايعوا محمداً	(الصحابة)	٩٧/٢
هذه الجنة التي يذكرونها	()	٣٨٣/١
وأخبرني بأن العلم نور	(الشافعي)	٣٢٨/٢
وإن تغفر فأنت أهل لذاك	(رابعة العدوية)	٢٤٩/١
واللهِ لولا أنت ما اهتدينا	(الصحابة)	١١٥/١
وتأملي.. تأملي سير الكواكب في الليالي	(إبراهيم حقي)	٩٤/٢
وجب الشكر علينا	(أهل المدينة)	٢٩/١
وقيل: كل نبيٍّ عند رتبته	(البوصيري)	٢١٣/١
وكل دار وإن طالت سلامتها	(عُتبة بن ربيعة)	٨/٢
وكيف يُدرِك حقيقتَه قومٌ	(البوصيري)	٥٨/١
ولد الهدى فالكائنات ضياء	(أحمد شوقي)	٢٩/١
وما مدحت القرآن بكلماتي	(سعيد النورسي)	٥٥/١
وما مدحت محمداً بمقالتي	(حسّان بن ثابت)	٥٥/١
وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنة	(بلال الحبشي)	١١٠/٢
يا عين ما هذا النوم؟ تعالي واستيقظي في الليالي	(إبراهيم حقي)	٩٤/٢
يقولون إن التاريخ يكرر نفسه	(محمد عاكف)	١٠/٢



٦ - فهرس الكلمات

(أ) فهرس الأعلام

— ب —

— ت —

— ث —

— ج —

— د —

— ذ —

— ر —

— ز —

— س —

— ش —

— ص —

— ض —

— ط —

— ع —

ــ ن ــ

— هـ —

— و —

— ي —

(ب) فهرس الكتب

— خ —

— د —

— ر —

— ز —

— س —

— ش —

— ص —

— ض —

— ط —

— ع —

— ف —

— ق —

— ك —



— ل —

— م —

— و —

— ي —

(ج) فهرس الأماكن والغزوات والوقائع والدول

— ت —

— ث —

— ج —

— ل —

— م —

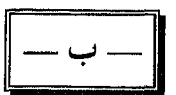
ـــ ن ـــ

ـــ هـ ـــ

ـــ و ـــ

ـــ ي ـــ

﴿ د ﴾ فهرس الجماعات والقبائل

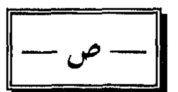


— خ —

— ر —

— س —

ـ ش ـ



ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ م ـ

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

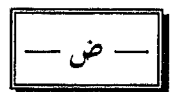
هـ فهرس تحليلي للموضوعات

— ز —

— س —

— ش —

— ص —



— ط —

— ع —

— غ —

— ف —

— ق —

— ل —

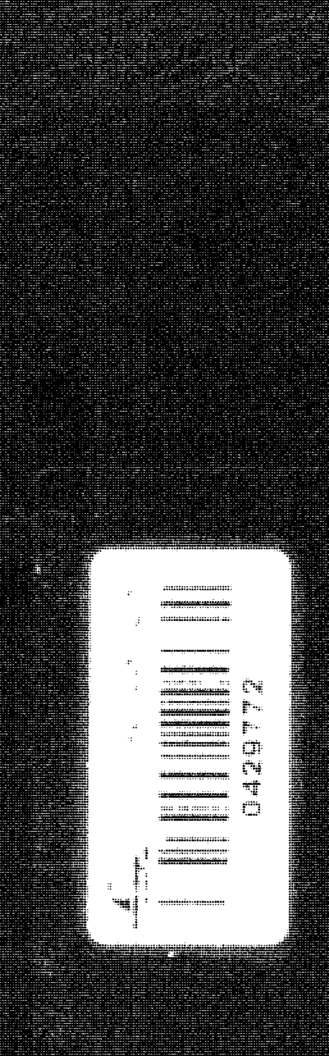
— م —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —


0429772